تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى

فى العصور الوسطى

الجزء الرابع

تأليف

ف. هايد

W. Heyd

مراجعة وتقديم

د. عز الدين فودة

أستاذ كرسى المنظمات الدولية

بجامعة القاهرة

عربه عن الترجمة الفرنسية

أحمد رضا محمد رضا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الجزء الرابع (من الترجمة العربية)

عاشرا ـ الكارثتان الأخيرتان
ظهور البرتغاليين فى الهند ، وفتح العثمانيين مصر

ألهمت فكرة الالتفاف حول أفريقيا بحرا للوصول الى الهند مشروع الاخوة فيفالدى Vivaldi فى جنوا ، فانطلقوا بجرأة لتنفيذ هذا المشروع دون أن يكون لديهم أية فكرة عن الصعوبات الجسيمة التى ستصادفهم • فقد لقوا حتفهم فى المشروع ، ولكن فكرتهم بقيت حية من بعدهم فلم ينقض مائتا عام تقريبا حتى انبعثت الفكرة من جديد ، وتحققت بهمة شعب آخر ، كان موقع بلده المشرف على المحيط الأطلسى يؤهله لانجاز هذه المهمة أكثر مما يؤهله لذلك سكان حوض البحر المتوسط : انه شعب البرتغاليين • فقد صمم الأمير هنرى الملاح على استكشاف ساحل أفريقيا الغربى • ومن غير أن تعتريه أية كلالة ، أرسل حملة اثر حملة للاستكشاف • وعندما توفى عام ١٤٦٠ لم يستطع أحد أن يتخطى الحد الجنوبى من سنيغامبيا الحالية Sénégambie (١) ، ولكنه استطاع أن يلهب نفوس مواطنيه شغفا بالاستكشافات البعيدة المدى • ولم يكف اكتشافهم ساحل العاج وما فيه من كنوز سنة (١٤٧١) لاشباع شغفهم•

ففى عهد الفونس الخامس (توفى عام ١٤٨١) ، امتدت الرحلات حتى خط الاستواء • وفى عهد خليفته جون الثانى ، وصل بارثيليمى دياز Barthélemy Diaz الى الطرف الجنوبى من القارة الأفريقية ، فأطلق

---

(١) اسم يطلق حاليا على اقليم السنغال وجامبيا الحاليين (المراجع) •

عليه الملك اسم رأس الرجاء الصـــــالح Cap de Bonne-Espérance (ديسمبر ١٤٨٧) : ذلك لأن هذا الاكتشاف الذى لم يكن فى حياة عمه هنرى الملاح أكثر من أمل مرجو فى المستقبل البعيد (٢) ، قد تحول الى حقيقة واقعية ملموسة • وبصعود الساحل الشرقى الأفريقى ، يصل المرء حتما لا الى بلاد القس يوحنا (الحبشة) الواقعة جنوبى مصر فحسب ، ولكن أيضا الى الهند ، بلد التوابل الممتازة • وقبل هذا الاكتشاف الكبير كان يوحنا قـد أوفد مستكشفين الى هذين البلدين • فلم يكن معروفا وقتئذ سوى طريق واحد لم يتجاوزه الرواد الأوائل هو طريق أورشليم (القدس) • وبعد ما دب اليأس فى نفوسهم من الوصـول الى غايتهم بسبب جهلهم اللغة العربيـة ، عادوا أدراجهم • وفى عـام ١٤٨٧ تولى بيـدرو دى كوفيلهم Pedro de Covilham ، والفونس دى بايفـــا Alphonse de Paiva بتكليف من الملك مهمة لم تتحقق ، اذ اتخذا طريق مصر ، بركوبهما البحر من الطور الى عدن • ومن هناك وصل كوفيلهم الى ساحل ملبار ، وشاهد هناك مزارع الفلفل والزنجبيل الشاسعة ، وعلم أن كبش القرنفل والقرفة لا يوجدان هناك الا كسلع مستوردة تاتى من بلاد نائية • وواصل طريقه حتى زار الساحل الشرقى الأفريقى ، ومر بسفالة Safala حيث جمع معلومات عن القسم الجنوبى من هذه القارة حتى مدغشقر • وفى تقرير أرسله الى ملكه ، أعلن أنه بالابحار بمحازاة الساحل الجنوبى الافريقى ابتداء من غينيـا ، تصـل السفن البرتغالية الى الساحل الشرقى ، وبصعود هـذا الساحل صوب سفالة ومدغشقر ، يمكنها أن تصل بسهولة الى المحيط الهندى وقاليقوط (٣) • ومن سفالة مضى الى هرمز حتى يكمل معلوماته عن تجارة الشرق الادنى وأخيرا ، وقد توفى رفيقه الفونس دى بايفا دون أن يحقق مهمته ، فانه تكفل بتحقيقها بدلا منه ، والذهاب لزيارة ملك الحبشة ، ولكنه وقع فى أسر العاهل الأسود ، حتى لم يعد أبدا الى وطنه (٤) •

وأكملت المعلومات التى تضمنتها رسائل كوفيلهم بصورة رائعة عن الاكتشاف الذى توصل اليه دياز • الا أن مرضا طويل الأمد أصاب الملك جون وانتهى بموته منعه من متـابعة هـذا المشروع • وقدر لعمانويل

---

(٢) فقرة فى Azurara ذكرت فى Peschel, Zeitalter der Entdechungen أن هنرى الملاح عند قيامه برحلات استكشافية على طول السواحل الافريقية كان يتطلع الى اكتشاف الطريق الى الهند •

(٣) Ramusio, I, 237.

(٤) Franc. Alvarez, dans Ramusio, I, 236 et ss. Barros, I, 193 et ss.

« السعيد الحظ » Emmanuel le Fortuné ان يحقق العمل الذى بدأ بداية موفقة ، ويستخلص منه كل فائدة ممكنة · وفى ٢٠ من مايو ١٤٩٨ بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور ، ألقت ثلاث سفن برتغالية تحت قيادة فاسكو دى جاما Vasco de Gama مراسيها أمام قاليقوط · وهكذا تم اكتشاف الطريق البحرى الى الهند · فكان هذا الحدث بداية لانقلاب تام فى تجارة الشرق الأدنى ، ومع ذلك لم تظهر له للحال نتائج ملموسة · فقد شعر تجار قاليقوط العرب أنه قد ظهر لهم ثمة منافس ، اذا ترك له حرية العمل ، ففى وسعه أن ينتزع منهم احتكاره تجارة التوابل مع الغرب ، ولكنهم كانوا يعتمدون على النفوذ القوى الذى يتمتعون به منذ زمن بعيد لدى عاهل قاليقوط فادعوا لدى هذا العاهل ضد فاسكو دى جاما باتهامات وجدوا لها ما يبررها ، خاصة لما اتصف به هذا الأخير من عنف وخشونة · وقصارى القول ، أن فاسكو دى جاما قد عاد مستاء من علاقاته بالملك ، وبذل كل ما فى طاقته من جهد للحصول على بضع بالات من التوابل ، وبعض الأحجار الثمينة واللآلىء ، عاد بها كعينات (٥) مما فى هذه السوق الكبيرة من ثروات ·

وهكذا كانت النتيجة المادية لهذه البعثة الأولى متواضعة · ومع أن علاقات فاسكو دى جاما بالملك كانت على ما يرام ، فان سفنه كانت صغيرة الحمولة ، فكان ذلك وحده كافيا لمنعه من العودة بمحصول أكثر وفرة · والواقع أن هذه البعثة لم تكن سوى رحلة استكشافية ، ومن ثم يمكن القول بأنها من هذه الوجهة قد تكللت بنجاح تام (٦) · اذ كان منظر ميناء قاليقوط ، وحركة الملاحة به التى تبلغ احيانا من خمسمائة الى سبعمائة سفينة ، ومنظر أسواق المدينة وهى مكتظة بأثمن أنواع التوابل ، والعطور واللآلىء ، والأحجار الكريمة ، خليقا بأن يثير فى نفوس أعضاء البعثة شعورا عميقا لا يمحى · واذا كان قصر مدة اقامتهم بالمدينة ، وسوء

---

(٥) Ca Masser ; le "gentilhuomo" dans Romusio, I, 120.
— ومع ذلك كان هناك ما يكفى من السلع لاهدائها لأعضاء البعثة ، ويعزى الى فاسكودى جاما انه اجرى توزيع عشرة قناطير من الفلفل ، لورثة اخيه خمسة قناطير منها وقنطاران من كل عقار لنيقولا كويللو ، ونصف قنطار من التوابل لكل ملاح وبحار : اما « البسباسة » والقرفة فكانتا وحدهما فى كميات قليلة جدا لا تسمح بتوزيعها ·

(٦) فى اخبار المؤرخين البرتغاليين ، مثل باروس ، وجوس وكاستانيدا عن هذه البعثة وما أعقبها من بعثات ، لم يرد شىء له بعض الاهمية من حيث المسائل التجارية · وفى هذا الصدد ، نجد أتم المعلومات ، فيما يختص بالبعثة الاولى فى :
— le Roteiro da Viagem que fez D. Vasco dagama 1497.

وكذا فى خطاب حرره بعد عودة أول سفينة رجل فلورنسى مقيم فى لشبونة ، ووجهه الى احد مواطنيه (راموزيو (Ramusio, I, 119, b-121, a ·

المقابلة التى لقوها هناك لم يسمحا لهم بدراسة المسائل التجارية دراسة ميدانية دقيقة ، فانهم مع ذلك أحضروا معهم رجلا قادرا على أن يزودهم بالمعلومات التى تعوزهم فى هـذا الشـأن : ذلك هو اليهودي جاسبار Gaspar الذى أتى به فاسكو دى جاما معه على متن سفينته . وقد سبق أن شرحنا بايجاز مهنة هذا الرجل ، فقد كان على معرفة تامة بالبلد ، معرفة اكتسبها بفضل اقامته الطويلة بالشرق ، وأتاحت له أن يقدم أصدق المعلومات عن شبه الجزيرة الهندية التى كانت منتجاتها مهمـة لدنيا التجارة فقد كان يعلم ثمن عدد كبير من هذه المنتجات فى مصادر انتاجها ، وفى وسعه أن يحدد سعر التكلفة فى سوق قاليقوط بالنسبة لمعظم هذه المواد . فضلا عن ذلك فقد كان يعرف تمام المعرفة سوق الاسكندرية ، وفى وسعه أن يقابل بين هذه الأسعار وبين الأسعار التى يدفعها التجار الغربيون ثمنا لهذه السلع . ويتبين من هذه المقابلة تلك الزيادة الهائلة فى ثمن التوابل المشتراة بسعر بخس للغاية فى الهند ثم تباع بالتالى بعد أن تكون قد مرت بجمارك الجزيرة العربيـة ومصر . فقد علم على سبيل المثال أن قنطار الزنجبيل الذى يباع بمبلغ أحد عشر « كروزادو » crusados (وحدة نقد) فى الاسكندرية لم يكن يساوى أكثر من أربعة فى قاليقوط (٧) . ومن ثم استنتج بطبيعة الحال أن فى استطاعته ، مع جراته أن ينافس التجار الغربيين ، عملاء سـوق الاسـكندرية . وبالاضافة الى هذه المعلومات ، زود جاسبار البرتغاليين ببيانات قيمة عن السلع الأوروبية المطلوبة فى الهند ، وتشكل بذلك أساسـا لمبادلات تجارية .

ورأى عمانويل فى نتـائج بعثة فاسكو دى جاما هذه بداية تبشر بمستقبل باهر : آية ذلك الألقاب التى أضافها على اللقب الذى كان يحمله حتى ذلك الحين (٨) :

— Senhor da conquista, navegaçao e commercio de Ethiopia, Arabia, Persia, e da India.

وما أن عادت السفينة الأولى الى الميناء (فى ١٠ من يولية ١٤٩٩) — لم يعد فاسكو دى جاما نفسه الا بعد ذلك) حتى أمر الملك بتجهيز بعثة

(٧) Roteiro, p. 115 et s. Un cruzado vaut 3f 50 c.

(٨) Castanheda, Historia do decobrimento e conquista da India ......peloc Portogueses, I, 95, Lisb. 1838 ; Ramusio, I, 121 ;
— وخطاب من عمانويل الى دوق البندقية بتاريخ ١٣ أغسطس ١٥٠٠ فى :
Sanut., Diar., III, 862.

جديدة للعام التالى . وبالفعل ، أقلع فى ٩ مارس سنة ١٥٠٠ أسطول حقيقى قوامه ثلاث عشرة سفينة بقيادة كابرال Cabral مزودة بكميات من الأسلحة كافية لأن تتيح له عند الضرورة مقاتلة أعداء البرتغاليين فى قاليقوط ، وكانت تحمل كذلك ذهبا وفضة وبضائع أوروبية ليبادل بها توابل . وفى هذه المرة أذن عاهل قاليقوط بانشاء توكيل تجارى برتغالى فى المدينة . غير أن التجار المسلمين القادمين من مصر تآمروا ضد الأجانب الذين وصفوهم بأنهم دخلاء ، فلم يستطع هؤلاء الأجانب أن يشتروا شيئا المرة ، وهدد الرعاع الذين استثيروا سرا بقتل الأجانب . وقرر كابرال أن ينتقم فقصف بالمدافع الأسطول التجارى المصرى والمدينة . عندئذ وقع له أمر لم يكن فى الحسبان : ذلك أن نزاعه المسلح مع الزامورين Zamorin أكسبه مودة ملكى كشى Cochin وكنانور Cananore ، ومن ثم استطاع أن يتزود كما يشاء بالفلفل من أحدهما ، وبالقرفة والزنجبيل عند الثانى ، وعادت سفنه الى بلدها بشحنة وافرة . وجدير بالذكر أن من بين الثلاث عشرة سفينة التى أقلعت معا من لشبونة ، وصل ست منها فقط الى الهند ، عادت أولاها الى الميناء فى ٢٤ من يونية ١٥٠١ وعلى متنها ٣٠٠ قنطار من الفلفل و ١٢٠ قنطارا من القرفة ، وكميات أقل من أنواع أخرى من التوابل ، وذلك لحساب رجل فلورنسى اسمه بارباتولوميو ، وجنوى مجهول الاسم ، وايطالى اسمه بيرونيمو (٩) .

ومن الملاحظ أنه منذ البعثة الثانية التى أوفدها البرتغاليون الى الهند ، اهتم الأجانب بهذه البعثات . حقا لم يكن الفلورنسيون فى لشبونة يعتبرون من الأجانب ، فالسفن التى كانوا يرسلونها الى الفلاندر كانت تتوقف هناك ، وكثير من التجار الفلورنسيين قد شجعهم حسن

---

(٩) انظر رسائل :

Giov. Franc. Affaitato (26 juin 1501)) et de Domenico Pisani (27 Juillet 1501), dans Sanuto, Diar., IV, 66 et ss. (l'Archiv. venet., XXII, 156 et s:.)

ـ هذه الرسائل لا تعطى سوى قائمة بالبضائع المشحونة بهذه السفينة . ولكن فى حوزتنا أيضا خطاب بتاريخ ٤ أغسطس ١٥٠١ كتبه غالبا جيوفانى كريتيكو ، نجد منه مقتبسات هى :

les diarii de Gisol. Priuli, Archiv. Venet. XXII, 1ère part. p. 163.

ويقدم كاتب الخطاب الأرقام التالية التى تبين مجموع السلع التى جلبها الأسطول : ٢٠٠٠ قنطار من الفلفل ، ٤٠٠ قنطار من الزنجبيل ، ٦٠٠ قنطار من القرفة بالاضافة الى خشب الصندل وصمغ جاوة ، والمجموع ٣٠٠٠ قنطار من التوابل : وقد تبدو هذه الأرقام قليلة ، ولكن يلاحظ أن الكاتب لم يذكر سوى أربع من السفن الشراعية العائدة .

الاستقبال الذى صادفوه هناك فانشأوا بها مكاتب تجارية (١٠) · وفى عام ١٤٨٧ · كان من بين أبرز أعضاء هذه الجالية الذين دونت أسماؤهم شخص يدعى بارتولوميو مارشيونى (١١) · وعندما تم تنظيم البعثة الثالثة ، جهز مارشيونى هذا سفينة عهد بقيادتها الى أحد وكلائه ، ويدعى فرناندو فينيتى ، وهو فلورنسى مثله (١٢) ، ويظهر اسمه أيضا ضمن مجهزى البعثة الرابعة ، على الأقل بالنسبة الى نصف شحنة احدى السفن (١٣) ·

ولم ينتظر عودة كابرال لتجهيز ثالثة ، وفى هذه المرة لم تتكون البعثة الا من أربع سفن · وأقلع هذا الاسطول الصغير من لشبونة فى ٥ من مارس ١٥٠١ بقيادة جودو دانوف Jodo da Nova · ولم يستقبلها عاهل قاليقوط بأحسن مما استقبل بعثة كابرال ، ولكنه أخطأ فى ذلك ، اذ شعر لثانى مرة بتفوق البحرية العسكرية البرتغالية · وعلى العكس من ذلك أبدى ملكا الكوشين والكانانور ، كما فعلا أول مرة حسن وفادتهما ، وتنافسا فى عرض بضائعهما على البرتغاليين ليشتروها · ولسوء الحظ لم يكن هؤلاء قد تزودوا بنقود معدنية ، اذ لم يكن معهم سوى بضائع لا تجد بسهولة من يشتريها ، أو لا تجد لها بالمرة سوقا بالهند ، ومن ثم لم يستطيعوا تكملة حمولتهم عند العودة ، واضطروا أن يتركوا هناك وكلاء مكلفين بالحصول على أكبر قدر مستطاع من بيع البضائع التى أتوا بها ، ولم يعودوا معهم الا بما قدره من ٩٥٠ الى ١٠٥٠ قنطار من الفلفل · ومن ٤٥٠ الى ٥٥٠ قنطار من القرفة ، أى ١٥٥٠ قنطار فى المجموع من التوابل ، تبلغ قيمتها القصوى ٤٠٠٠ دوكا (١٤) ·

(١٠) Canestrini, Relazioni commerciali dè Fiorentini co Porto.-ghesi. Arch. stor. ital. app., III, 98 et s

(١١) Ramusio, I, 236, b.

(١٢) يبين مارشيونى نفسه الدور الذى أداه فى تجهيز هذه البعثة · وذلك فى خطاب نشرة سانوتو :

Lettre de Giov. Franc. Affaitato à P. Pasqualigo, datée de Lisbonne le 20 Aout 1503, insérée dans Sanuto. Diarii. V, 130 et s.

(١٣) Sanulo, Diar., IV, 544 ; Cf. Correa, Lendas da India. I, I, 234 ; Goes Chronica do Rey Emanuel (Lisb. 1619), fol. 48, b ; Barro˙, Asia. I, 464, 473.

Goes Chronica do Rey Emanuel (Lisb. 1619). fol. 48, b : Barros, ……Asia, I, 464, 473.

(١٤) بخصوص المسائل التى عالجها قادة هذا الأسطول ، وطبيعة حمولة الأسطول ، بحثت فى أربع رسائل بخلاف مذكرة مسارى ، هذه الخطابات حررها .

Bartol. Marehionni, datée de Lisbonne, le 20 sept. 1502. (Sanut., Diar., IV, 544 et ss.);

Lunardo Nardi, même date (Ibid., IV. 545-547) ;

Giov. Franc. Affailato, datée de Lisbonne, le 26 sept. 1502 (ibid. IV. 77?.666);

Cesare Barzi, datte de Valence le 17 oct. 1502 (ibid., IV, 662) .

عادت هذه البعثة الى لشبونة فى ١٢ من سبتمبر ١٥٠٢ ، ولكن الملك لم ينتظر حتى هذه الآونة ليرسل بعثة رابعة ، بل حرص على الا يدع الفرصة السانحة تفوته • واذ ارتاع قسم من مجلس الملك من شدة المقاومة التى يبديها التجار العرب ضد السماح بدخول البرتغاليين فى سوق الهند ، وبخاصة فى قاليقوط ، فضلا عن الحوادث التى تصيب السفن التى تضل الطريق ، والتضحيات الجسيمة فى الأرواح والأموال التى تفرضها الحروب فى بلاد نائية على بلد فقير كالبرتغال ، فاحتج هؤلاء على تجديد هذه المشروعات ، فى حين ساند المشروع القسم الآخر من المجلس ، ورد على المتخوفين ردا مفحما ، قائلا بأن البرتغاليين قد احتلوا بالفعل بضعة مواقع فى الهند ، وأن التضحيات المالية عوضتها المكاسب التى تحققت ، هذا فضلا عن أن رؤوس الأموال المكرسة للانفاق على تسليح بعثة كابرال قد أتت بأرباح جسيمة (١٥) • ومن ثم أعلن الملك عزمه على مواصلة العمل الذى بدأه : فكان من رأيه أنه لابد للبعثة القادمة أن تعلن عن عزمه على الاشتراك — طوعا أو كرها — فى تجارة الهند ، فضلا عن ارادته فى القضاء على الحركة التجارية بين ملبار ومصر ، وأن يكفل لبلده احتكار تجارة منتجات الهند مع الغرب • وعهد بقيادة تلك البعثة لفاسكو داجاما • وكانت تعليمات أمير البحر تقضى بأن يتمركز جزء من أسطوله عند مدخل البحر الأحمر حتى يمنع خروج السفن المصرية والعربية المشتغلة بالتجارة مع الهند ، كما يمنع دخول السفن الهندية بأسرها (١٦) •

ومن جهة أخرى كان فى نية الملك ، بتجهيزه بعثة على هذا المستوى — أن تأتى بأرباح طائلة لخزائنه ، وللأفراد الذين أسهموا فى الحصول عليها • واذ لم تحرز محاولات استيراد السلع الأوروبية الى الهند بعض النجاح لأن تجار البلد يفضلون الدفع نقدا ، فانه سر غاية السرور عندما أبدت بعض البيوت التجارية الايطالية اهتماما بهذه المشروعات وخصصت لها مبالغ كبيرة (١٧) • ولقد ذكرنا قبلا ، بين مجهزى هذا الأسطول فلورنســـيا يدعى بارتولوميو مارشـــيونى Bartolomeo Marchouni وهناك أيضا ايطالى من كريمونة Crémone ومقيم بلشبونة ، يدعى جيوفانى فرانك أفيتاتو Giov. Franc. Affaitato ، انتهز هذه الفرصة فارسل الى

---

(١٥) Barros, Asia, II, 2-7.

(١٦) فى ٢٨ من ديسمبر ١٥٠١ علمت البندقية بنوايا الملك ، وذلك بخطاب حرره شخص مجهول فى البرتغال فى ١٨ من اكتوبر • انظر : Sanut., Diar., IV, 665.

(١٧) يمكن معرفة الشروط التى فرضها الملك حتى يقبل اسهامها ، وذلك فى : — Sanut., Diar., IV, 665.

الهند نقودا ووكلاء (١٨) · وعند مرور الاسطول بسفالة ، أخذ من هناك ذهبا مستخرجا من مناجم ذلك البلد · وكانت هذه الاضافة من المعادن الثمينة مفيدة للعمليات التى قام بها الأسطول فيما بعد ، وسنرى ذلك عندما نتحدث عن نتائج هذه البعثة الرابعة ·

وكان من شـأن مثابرة عمانويل على تحقيق الهدف الذى اختطه لنفسه ، وظهور الأساطيل التى يتولى تجهيزها كل سنة بانتظام أن بعثت الشجاعة والثقة فى نفوس صغار الأمراء الهنود الذين عقدوا الصلات معه ، كما حملت فى الوقت نفسه « زامورين » قاليقوط على التفكير فى هذا الأمر · ومن جهة أخرى كان ما يحدث فى الهند مصدرا لانزعاج سلطان مصر ، وجمهورية البندقية · فقد وصل الى البندقية عن طريق القاهرة والاسكندرية أول نبأ عن ظهور البرتغاليين فى قاليقوط ، ولكن هـذه الأحداث عرضت بصورة مشوهة ومبهمة (أغسطس ١٤٩٩) (١٩) · وبعد ذلك وصلت الى هناك من المصدر نفسه تفاصيل منوعة عن تصرفات البرتغاليين فى الهند ، غير أن المصدر كان مشكوكا فى صحته ، لأنه كان فى صالح المصريين أن يهونوا من قيمة النجاح الذى أحرزه البرتغاليون ، منافسـوا البندقية ، أو يتكتموا عليه ، ويبـالغوا فيما يصـيبهم من فشل (٢٠) · فكان على الجمهورية أن تبحث عن وسيلة أخرى تصل بها الى الحقيقة · فثمة مشروع لحملة مشتركة ضد العثمانيين فتحت مجالا لمفاوضات نشيطة بين الأمتين · فانتهزت البندقية هذه الفرصة للحصول عن طريق دومينيكو بيزانو سفيرها فى بلاط اسبانيا والمكلف بصورة عرضية بالتفاوض مع ملك البرتغال على معلومات عما يفعله البرتغاليون فى الهند · وفى ٢٣ من فبراير ١٥٠١ كتب السفير أنهم فى انتظار عودة أسطول كابرال ، وأن الملك أظهر عند سماعه هذا النبأ سرورا عظيما اذ قد تم أخيرا اكتشـاف أحسن طريق للوصول الى بلد التوابل ، وأعلن صراحة عن أمله فى الاستفادة من ذلك (٢١) · وبعد بضعة شهور (فى ٢٤ من يونية ١٥٠١) شهد السفير بنفسه فرحة عمانويل عندما دخلت الميناء أول سفينة من أسطول كابرال ، وعليها شحنة كاملة من السلع ،

---

(١٨) كان فى البرتغال فى تلك الآونة تجار أغنياء من كريمونة ، يملكون رأس مال يبلغ ٨٠٠٠٠ دوكا (Sanut., Diar., III, 1042) وقد وصل الاخوة افيتاتو الى هناك عن طريق الفرس ·

(١٩) Priuli, Diarii, dans l'Archiv. Venet., XXII., lère part., p. 155.

(٢٠) Sanut., Diarii, IV, 98, 169, 492 et s. ; V, 826, VI, 249; VII, 106, 182, 541, 712 etc.; Priuli, p. 170, 171 et s.

(١١) Sanuto, Diarii, III, 1597.

فاضطر السفير بلا شك أن يقدم له تهانيه ، وكلفه الملك بأن يحمل هذا النبأ السعيد الى رئاسة الجمهورية (البندقية) ، وأضاف قائلا ان سفن البندقية لم تعد بحاجة الى الذهاب الى مصر طلبا للتوابل ، وأنه قد آن الأوان لأن لا تجد هذه السفن أية توابل فى مصر ، وما عليها الا أن تأتى الى البرتغال لتحصل عليها ، وسوف يلقى التجار البنادقة هناك كل معاملة طيبة ويشعرون كأنهم فى بلدهم • وقد انضم الى بيزانى عالم ، هو جيوفانى كريتيكو من كامرينو Ciovanni Cretico, de Camerino (٢٢) : اذ لما كان السفير يتنقل بين بلاط اسبانيا وبلاط البرتغال ، كان على كريتيكو (وهو أستاذ سابق للغة اليونانية بجامعة بادوا) أن يحل محله فى بلاط البرتغال كلما تغيب عنه السفير • وعلى هذا النحو تلقت رئاسة الجمهورية من هاتين الشخصيتين طوال صيف عام ١٥٠١ التقارير الصحيحة عن تحركات كابرال ومشروعات الملك للمستقبل (٢٣) • وفى شهر سبتمبر انتقل كريتيكو الى اسبانيا ليكتب تقريرا مفصلا عن طريق قاليقوط البحرى ، ولسوء الحظ لم يحفظ هذا التقرير (٢٤) ، ولابد أنه كان مرفقا به خرائط ، وهذا أمر بالغ الأهمية ، لأن نشر الخرائط عن طريق الهند البحرى كان محظورا بأمر عمانويل ، بل ويتعرض ناشرها لعقوبة الاعدام •

وفى هذه الأثناء قر عزم حكومة الجمهورية أن يمثلها من جديد فى بلاط البرتغال مندوب خاص (orator) ، وعهد بهذه المهمة لبييترو باسكواليجو Pietro Pasqualigo ، وكان تعيينه فى ١٢ من ابريل ، وسلمت اليه التعليمات فى ٨ من يونية ، ومع ذلك لم يصل الى بلاط عمانويل الا فى أواخر الصيف • وعندما استقبل فى البلاط (فى ٢٠ من أغسطس) وجه خطابا الى الملك (٢٥) • وقد استقبله عمانويل بحفاوة خاصة ، وبعد قليل ، وفى مناسبة تعميد ابنه الأول (فى ٧ من نوفمبر) اختاره اشبينا للمولود (٢٦) • وكان فى لشبونة وقتئذ بعثات موفدة

---

(٢٢) سابقا أستاذ اللغة اليونانية بجامعة بادوا :
Sanul, Diar., III, 736, 740, 1080.

(٢٣) بخصوص وضع كريتيكو بجامعة بادوا ، انظر : Sanut III, 655, 736.
Sanut II, 736, 1980.
اما خطاباته فقد سبق الاشارة اليها •

(٢٤) هذه المعلومات لم تظهر الا فى خطابين لانجيلو تريفيزانى الى المؤرخ Domen. Malipiero احدهما من غرناطة Grenade والثانى من الاندلس
Zurla di M. Polo, 363 et s.

(٢٥) Fulin, dans l'Archiv. Venet., II, 82 et 3 ; Sanut., diar., IV, 20, 54.

(٢٦) Goes, l.c., fol. 48 ; Massari, p. 43.

من قبل ملكي كنانور وكوشين ٠ ولم تمنع ضروب التكريم التي حظى بها باسكواليجو والبنادقة المحيطين به من العيب في الملك لدى المبعوثين الهنود ، واقناعهم بأن البرتغال ليست الا بلدا فقيرا لا يستطيع جمع الموارد الضرورية لمزاولة التجارة مع الهند دون معونة مالية من البندقية ، وقالوا لهم ان البندقية كانت ولم تزل رغم كل شيء أقوى دولة في العالم المسيحي ، ولن يتنزع منها أى كائن سيادتها في تجارة التوابل ، وسوف تواصل استيرادها عن طريق مصر وسوريا (٢٧) ٠ أما باسكواليجو ، فانه اقتنع بأن الملك شديد الحماس لمشروعاته الخاصة بالهند ، ويشاركه حماسته هذه مستشاروه والأمة البرتغالية كلها ، وأنه يتلهف الى قدوم اللحظة التي يغلق فيها طريق الهند في وجه السلطان ، فيأتي البنادقة الى البرتغال لشراء التوابل عندها (٢٨) ٠ وفى تقرير بتاريخ يناير عام ١٥٠٢ عن بعثة فاسكو داجاما الثانية أبلغ أن هذه الحملة موجهة ضد السلطان وحده (٢٩) ٠ وبعد بضعة شهور غادر البرتغال (٣٠) ليشغل منصب ممثل الجمهورية في بلاط اسبانيا ، ولكنه لم يهمل ، بطريق المراسلة متابعة ما يدبر بين البرتغال والهند ٠

وهكذا أحدث نبأ اكتشاف طريق الهند البحرى في البندقية انفعالا قويا ، كقصف الرعد في سماء صافية ، ذلك لأن كل ما يصيب تجارة الشرق الأدنى من ضرر يزعزع بالتالى أسس قوتها وثروتها ٠ فالواقع كان المهم هو حيازة السوق التي يتزود بها الغرب بالتوابل ، فهل تبقى هذه السوق في حوزة البندقية ، أو تنتقل الى لشبونة ؟ فان أتيح الوقت للبرتغاليين لتنظيم مواصلاتهم البحرية مع الهند تنظيما قويا ، كان لزاما على البنادقة أن تتخلى عن دورها في هذا المضمار : ذلك أن قدرة منافسيهم على شراء التوابل من البلاد المنتجة لها مباشرة يضمن لهم سبقا كبيرا ٠ هناك كان ثمن قنطار الفلفل يتراوح بين دوكاين ونصف دوكا ، وثلاثة دوكات ونصف دوكا ٠ وفى البداية كانت نفس الكمية من القرفة تباع بدوكا واحد ، بل وأقل ، وفيما بعد أصبحت الكمية نفسها تباع بثلاثة الى خمسة دوكات ونصف ٠ وبالنسبة لسائر أنواع التوابل ، كانت أثمان

---

(٢٧) Barros, II, 25-27.

(٢٨) Sanut. Diar., IV, 200 et s. ; Harrisse, les Corte Real (Recueil de voy. et de doc. p. servir à l'his. de la géogr., III (1883), p. 209 et s.)

(٢٩) Sanut. Diar., IV, 206.

(٣٠) خطابات استدعائه مؤرخة فى ١٤ أبريل ١٥٠٢ : Fulin : l.c., p. 183.
وقد رأى مجلس الشيوخ أن المهمة التي يتولاها بالبرتغال « مكلفة أكثر منها مفيدة » ٠

الشراء متماثلة (٣١) ولم يكن على البرتغاليين الا أن يشحنوا هذه الأصناف فى سفنهم ويقلعوا بها الى بلدهم ، فلا يصادفون فى طريقهم جمركا واحدا • أما بالنسبة للبنادقة فالأمر يختلف كل الاختلاف ، فهم لا يشترون التوابل من مصدرها الأصلى ، بل كان المصريون هم الذين يتمتعون بهذه المزية ، ومع ذلك لم يكونوا فى الكثير من الأحيان يشترونها من قاليقوط نفسها ، ولا يستلمونها من الهنود الا فى عدن أو جدة • ومنذ دخول التوابل فى البحر الأحمر ، عند عدن ، حتى خروجها من الاسكندرية كان يدفع عنها مرارا رسوم جمركية ، كما رأينا من قبل • وفى الاسكندرية نفسها ، كانت الابتزازات والاختلاسات التى يرتكبها موظفو الجمرك تؤدى أيضا الى رفع أسعارها • وفى هذه الظروف لم يكن فى وسع البنادقة أن يكافحوا ، ولكن لم يكن فى وسعهم أيضا قبول هذا المصير الذى ينتظرهم • فمنهم من كان يحلو له أن يتصور أن الخسائر التى تسببها للبرتغاليين كثرة سفنهم الغارقة تزيد على مكاسبهم ، وأن ملك البرتغال لن يلبث أن يكف عن ايفاد بعثاته هذه • وثمة آخرون يتصورون أن البحارة المكلفين بالقيام بهذه الرحلات البحرية كانت فرصة هلاكهم أكبر من فرصة عودتهم سالمين ، ومن ثم اعتقدوا أن الملك لن يجد بعد ذلك بحارة يجندهم فى هذه المهمة • وآخرون جعلوا اعتمادهم على السلطان بأمل أنه لن يدخر وسعا للحفاظ على تجارته مع الهند ، وهى مصدر ثروته • هناك فقط أقلية ، نذكر من بينتها تاجر محنك يدعى جيرولامو بريولى Girolamo Priuli (٣٢) أدرك منذ البداية خطورة الموقف • ويجب أيضا الاعتراف بفضل وكلاء الجمهورية ومراسيلها المقيمين بالبرتغال : هؤلاء لم يشجعوا بأية صورة • أولئك الذين يتوهمون بأن البعثات البرتغالية الى الهند سوف تنتهى عما قريب (٣٣) • اذ كانت البرتغال تملك من الموارد أكثر مما قد يخطر على البال : فمناجم الذهب الافريقية تزودها بالمعدن النفيس الذى يطلبه الهنود ، وشحنة كل سفينة عائدة تسد بوفرة نفقات تجهيزها• ومن ناحية أخرى كان البحارة البرتغاليون يزدادون مع كل رحلة معرفة لطريقهم • وأبدى الملك قوة ارادة وعزيمة ومثابرة من وجهات ثلاث :

---

(٣١) لدينا الأثمان المدفوعة فى البعثات الثانية والثالثة والرابعة ، فى : Sanut., Diar., IV, 101, 547 ; V. 131, 318.

(٣٢) زودتنا مذكراته بكل المعلومات التى سبق ذكرها ، على وجه التقريب ، انظر بنوع خاص ص ١٥٩ وما يليها •

(٣٣) يستثنى من هؤلاء فينتشنزو كوريني Vincenzo Quirini : وفى ١٠ من اكتوبر ١٥٠٦ ، عند عودته من بعثته فى اسبانيا ، أبدى فى اجتماع مجلس الشيوخ رأيه بأن الحملات البرتغالية لن تلبث أن تنتهى لأنها تؤدى الى خسائر جسيمة فى السفن والأموال • Sanut., Diar., VI 44.

فهو أولا لم يدخر وسعا لبناء السفن وتجهيزها ، وأدى هذا الى خروج الكثير من المعادن الثمينة من البلد ، كما اقتضى تضحيات عديدة بالأرواح ، وانتابته بعض الشكوك والتردد ، ولكنه تغلب عليهـا (٣٤) • ثانيا ، بذل كل ما في وسعه لمنع تصدير توابل الهند الى الاسكندرية ، ولم تلبث أسواق الاسكندرية وبيروت أن تأثرت بذلك • ونطالع في وثائق ذلك العصر أنه قبل اللحظة التي بدأت فيها اجراءات الملك في هذا الخصوص تنتج أثرها كان في الاسكندرية كميات هائلة من التوابل ، حتى انه في عام ١٤٩٨ ، على سبيل المثال لم تكن سفن البندقية تملك من المال ما يكفي لشراء كل ما هو معروض للبيع منها (٣٥) • وما أن بدأ كابرال يشتري كميات هائلة من الفلفل من مصدرها الأصلي حتى شعرت أسواق مصر وسوريا بنقص في هذه السلعة • وفي عام ١٥٠٢ لم تجلب سفن بيروت الى البندقية سوى أربع بالات من الفلفل (٣٦) ، ولم تجد سفن الاسكندرية الا القليل منها ، وترتب على ذلك ارتفاع كبير في سعرها • ففي بضعة شهور (١٥٠١ ــ ١٥٠٢) ارتفع شحنة الفلفل من ٧٥ الى ١٠٠ دوكا في مدينة البندقية (٣٧) • كذلك ارتفعت بهذه النسبة أثمان سـائر أنواع التوابل • بل واضطرت سفن البندقية في بعض الأحيان أن تعود من الاسكندرية أو من بيروت وليس بها طرد صغير من التوابل • حقا كانت هذه حالة نادرة ، بل كانت هناك من حين الى آخر ، في بعض السنين الاستثنائية كميات وافرة من التوابل الواردة بطريق البحر الأحمر ، رغم ضروب الرقابة التي تفرضها البحرية البرتغالية • ولكن بوجه عام ، كانت سفن البندقية تغـادر مصر وسوريا بنصف حمولتها (٣٨) • فماذا كان يحدث وقتئذ ؟ كانت عمليات الشراء تتم بشروط مجحفة ، ولما كان التجار يسعون الى الحصـول في البندقية على السلع بأسـعار مجزية ، فان الألمان ، عملاءهم الأساسيين جعلوا ينقصون مشترواتهم الى الحد الضروري للغاية ، أو يعودون الى بلادهم دون أن يبتاعوا شيئا • وعلى أية حال ، فانهم اذا كانوا ولم يزالوا يأخذون كميـات كبيرة من التوابل ، فانهم امتنعوا عن شراء الفلفل ، اذ كانت هذه المادة شديدة الندرة ومرتفعة الثمن بالنسبة اليهم (٣٩) • وهجر كثير من التجار الألمان سوق البندقية ، وترددوا على الأسواق التي يجدون فيها بثمن أقل التوابل التي يستوردها البرتغاليون •

(٣٦) Sanut., Diar., XI, 708 et s.

(٣٥) Sanut., Diar., I, 1032.

(٣٧) Ibid. IV, 232 ; Priuli, l.c., p. 165.

(٣٨) Priuli, p. 164, 165.

(٣٩) Sanuto et Priuli.

(٣٤) Priuli, p. 165, 167, 174, 182, 191, 203.

وتعود الآن الى عمانويل والمشروعات التى كان يواصل تحقيقها . فلم يعد يكفيه العمل على وصول التوابل الى لشبونة فى سفن برتغالية ، بل بذل كل ما فى طاقته لكى يفتح لها أسواقا فى سائر البلاد الأوروبية . وسنرى فيما بعد كيف لجأ فى سبيل الوصول الى غايته الى وسيلتين : أن يرسل السفن البرتغالية فى كل الاتجاهات من جهة ، ويدعو الأمم الأوروبية الى الحضور والتزود بمؤونتهم فى لشبونة من جهة أخرى .

ولم تكن رئاسة جمهورية البندقية فى حاجة الى مواجهة الأمر الواقع حتى تدرك خطورة الموقف ، ومن ثم اتخذت اجراءاتها تبعا لذلك . وفى أواخر خريف عام ١٥٠٢ أوفدت بنيديتو سانوتو فى بعثة لدى سلطان مصر (٤٠) ، وكان هذا المندوب قد أثبت كفاءته كقنصل بدمشق من عام ١٤٩٦ الى عام ١٥٠٠ . وكانت مهمته الحقيقية سرية ، اذ كان عليه أن يوضح للسلطان شيئا فشيئا تلك الأخطار التى تتهدد رخاء بلاده بسبب مشروعات البرتغاليين . فضلا عن ذلك فقد صدر مرسوم بتاريخ ٥ ديسمبر من السنة نفسها (٤١) الحق بمجلس العشرة لجنة مكلفة بدراسة واقتراح الاجراءات الكفيلة بتدارك وقوع الكارثة . وكان أول عمل أدته هذه اللجنة تحرير رسالة الى سانوتو الذى كان موجودا وقتئذ بالقاهرة (١٤ ديسمبر) (٤٢) . وها هو ملخص الرسالة : فهى تبدأ باحاطته علما بآخر أنباء البرتغال ، وهى أنباء مزعجة ، ثم توضح للسلطان أن تجارة التوابل طالما قد أتت للبلد ولخزائنه حتى ذلك الحين بمبالغ طائلة . فاذا اتخذت هذه الأموال طريقها الى البرتغال ، فان ذلك سوف يكون كارثة على مصر ، وأن ملك البرتغال قد سبق أن دعا الانجليز وشعوبا مسيحية أخرى الى المجىء الى بلده للحصول على ما يلزمها من التوابل ، وأكد لها أنها سوف تجد فى بلده كل ما هى فى حاجة اليه ، وأن عددا كبيرا من السفن تقف على أهبة الرحيل استجابة لهذه الدعوة ، بل ان

---

(٤٠) بخصوص الحقائق المتعلقة بمنصبه كقنصل ، انظر :
— Sanut. Diar., de I, 379 à III, 675.
وقد عين فى منصب سفير فى ٢ من اغسطس ١٥٠٢ (Sanut., IV. 286, 294)
ولكنه لم يستلم تعليماته الا فى ٢٥ من اكتوبر التالى :
(Fulin Archiv. Venet., II, 184 et s.)
وقابل السلطان فى ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ من ابريل ، ١٣ من يولية ١٥٠٣.

وعاد الى البندقية فى خلال شهر سبتمبر ١٥٠٣
(Sanut., V., 49 not.; Sanut., V. 91)

(٤١) Fulin, l.c., p. 200 et s. ; Gubernatis, Storia dei viaggiatori italiani. p. 393 et s. ; "Zonta di Choloqut" ; Sanut., Diar., V, 167, 237 ; XI, 135.

(٤٢) Fulin l.c., p. 185 et ss. ; Gubernatis, p. 394-398.

البنادقة أنفسهم سوف يضطرون فى النهاية الى مسايرة الحركة العامة ، رغم أنه يؤلمهم أن يقطعوا صلات قديمة ترجع الى قرون ماضية • ومع ذلك كانت هناك وسيلة لدرء هذا الخطر : اذ لو أمكن التصرف بطريقة ما بحيث يجد البرتغاليون كل الأبواب المؤدية الى الهند مغلقة فى وجوههم لاضطرت سفنهم للعودة خالية الوفاض ! فان تكرر هذا العمل مرتين فحسب ، لكان من المؤكد أنهم لن يعودوا الى هناك مرة ثالثة • وللوصـــول الى هذه النتيجة يجب المبـادرة بسـفر مبعوثين من مصر الى الهند ، مهمتهم أن يناشدوا باسم سلطان مصر الأمراء الوطنيين هناك أن يقطعوا كل علاقة لهم بالبرتغاليين ، ويقنعوهم بأنه ليس فى مصلحتهم أن يفضلوا هؤلاء الدخلاء على المصريين والعرب ، لأن البرتغاليين لا يشترون شيئا خلاف التوابل ، فى حين أن المصريين يأخذون المنتجات المصنوعة فى البلد (٤٣) ، وهذه التجارة تتيح مبادلات أكثر أهمية بكثير من تجارة التوابل • وهناك بالفعل وسيلة فى وسع السلطان أن يستخدمهـــا لمنع البرتغاليين من الحصول على أرباح من تجارة التوابل ، وبالتالى اجبارهم على التخلى عنها : ذلك أن التوابل التى يشتريها البنادقة فى الاسكندرية تباع لهم بسعر مبالغ فيه ، فيكفى اذن أن تباع لهم بسعر معقول حتى يتسنى لهم أن ينافسوا البرتغاليين ، ولا يجوز أن يغيب عن البال أن هؤلاء يشترون التوابل فى الهند بثمن بخس ، ولا يمرون فى الطريق بأى جمرك •

ونفذ سانوتو مهمته بكل دقة ، غير أن السلطان قنصوه الغورى رد عليه بأنه ليس فى استطاعته أن يفعل شيئا فى الوقت الحاضر • وهكذا خاب القصد من البعثة ، على الأقل فيما يختص بموضوع تجارة الهند (٤٤) • ومع ذلك أمر السلطان ببناء هياكل أربع سفن فى القاهرة ، ثم تنقل قطعة قطعة الى الطور : وكان غرضه من ذلك أن يرسلها بطريق البحر الى الهند لتكون نماذج لسفن حربية ، وتشكل العنـــاصر الأولى لأسطول يخصص لمحاربة البرتغاليين (٤٥) • ومن جهة أخرى كلف راهبا فرنسيسكانيا اسبانيا يدعى مورس Mauru ، وهو حارس دير جبل

---

(٤٣) Mas Latrie, Traités, p. 262 ; Massari, p. 23 ; Sanuto, Diar.,

(٤٤) Sanut., Diar., V, 92, 197.

(٤٥) ذكرت هذه الواقعة فى خطاب حرره فى ٢٤ من نوفمبر ١٥٠٣ دومينيكو كابيللو ، قنصل البندقية فى دمياط ، ضمن انباء القاهرة :

— Sanut., Diar., V, 1000 ; Mas Latrie, Traités, p. 257.

صهيون Mont Sion ببيت المقدس (٤٦) بمهمة يهدف من ورائها الى نتائج مفيدة • والراجح أنه لو كان على علم أفضل بأحوال الغرب لكف يده عن هذه المهمة • واستهل مورس بالذهاب الى البندقية ، وسلم رياسة الجمهورية رسالة محررة بعبارات رقيقة للغاية ، أبدى فيها السلطان أنه يرغب رغبة حارة فى استمرار الحركة التجارية بين مصر والبندقية ، ويرجو رياسة الجمهورية أن تساند جهود موريس ، بأن تعطيه خطابات توصية لمختلف الدول الغربية • وقد رفضت الرئاسة بحجج مختلفة أن تسلك هذا المسلك : فهى أولا حريصة على أن تتجنب الظهور بمظهر المحرض على المهمة المكلف بها مورس ، ثم أن مساندة المساعى التى يبذلها المبعوث المصرى قد تأتى بنتائج مضادة للنتائج المتوقعة منها ، وأخيرا فان اسبانيا والبرتغال دولتان صديقتان ، والرئاسة لا تريد مواجهتهما (٤٧) • وتبعا لخط السير المقرر لمورس كان عليه بعد انتهاء مهمته فى البندقية أن يتجه الى روما (وهذا ما فعله فى ربيع عام ١٥٠٤) ، ويرفع الى أعتاب الحبر الأكبر (البابا) شكوى رسمية ضد اسبانيا والبرتغال ، فحواها أن الاضطهادات التى ترتكبها احداهما فى غرناطة ضد اخوة السلطان فى الدين ، والأضرار التى سببتها الثانية مباشرة لشخص السلطان نتيجة للبعثات التى ترسلها الى الهند ، سوق تنتهى بارهاق السلطان ، وقد تحمله على الانتقام ، اما بتدمير الأماكن المقدسة التى يوقرها العالم المسيحى (قبر السيد المسيح ، دير جبل صهيون ، الخ) ، واما بطرد المسيحيين المقيمين فى ولاياته (٤٨) • وقد يبدو أنه بناء على الطلب الرسمى الذى قدمه مورس ، حث جول الثانى Jules II عمانويل أن يضع حدا لبعثاته الى الهند (٤٩) ، ولكنه رفض أن يحرر ردا على خطاب السلطان

---

(٤٦) هذه هى الصفة التى تضيفها عليه المصادر • أما السيد مارشيللينو داتشيفيزا :
— M. Marcellino da Civezza (Storia delle missioni francescane, VI, 369).

فانه يحاول ان يثبت أنه كان حارس دير سانت كاترين فى جبل سيناء ، ولكن براهينه فى هذا العرض ليست كافية •

(٤٧) ابلغت البندقية مقدما بالمهمة المعهود بها لمورس بخطابات وردت من الاسكندرية .
Sanut, Diar., IV, 251 ; V, 162.

ـ ووصل مورس فى ٥ من مارس ١٥٠٤ : Ibid. V, 947 et s.

ـ وكانت اقتراحاته مجالا لمداولات عديدة : Ibid 948, 952 et s., 962.

أسفرت عن رد « مجلس العشرة » الذى أشرنا الى مدلوله ، ونجده باكمله بتاريخ ١٣ ابريل فى : l'Arch. Venet., II, 202 et s. ; cf. Sanut., Diar., VI, 11 ; Priuli, p. 175 ; Romanin, III, 536 et s., 540.

(٤٨) خطاب السلطان للبابا بتاريخ ٢٢ سبتمبر (١٥٠٢) • ويوجد باكمله فى :
Chronica do Rey Emanuel, Fol. 72.

(٤٩) Priuli, p. 179.

قبل أن يعرف رأى الأميرين المتهمين (٥٠) • ومن روما ذهب مورس فى عام ١٥٠٥ لزيارة بلاطى اسبانيا والبرتغال ، ولكنه لم يحرز هناك أى نجاح • وحرر عمانويل خطابا الى البابا توسل فيه اليه ألا يأخذ تهديدات السلطان مأخذ الجد ، لأن السلطان يحصل على ايرادات كبيرة من حجاج الأماكن المقدسة ، فلا يمكنه أن يمسها بضرر ، وأضاف فيما يخضه هو ، أنه لم يتأثر بهذه التهديدات ، حتى انه فى هذه اللحظة كان يعد مشروعا بقصف مكة بالقنابل ، لأن أساطيله من القوة بحيث تستطيع أن تشق لها بسهولة طريقا الى هناك (٥١) •

وفى حين كان مبعوث السلطان يواصل رحلته دون نجاح ، كان مجلس العشرة فى البندقية يتأهب لايفاد مبعوث الى القاهرة ، واختير لهذه المهمة فرانشسكو تلدى Francesco Teldi (٢٤ مايو ١٥٠٤) (٥٢) • واليكم فى بضعة سطور النقاط الرئيسية فى التعليمات المسلمة اليه • فعلى المبعوث أن يحيط السلطان علما بان البرتغاليين يواصلون ارسال أساطيل تجارية الى الهند ، ولا تستطيع البندقية أن تفعل شيئا لمنعهم من ذلك ، ويحصلون على التوابل بسعر بخس بالنسبة الى السعر الذى تصل به الى دمشق والاسكندرية ، ويتيح لهم هذا الفرق أن يبيعوها بربح كبير فى انجلترا وفرنسا والفلاندر وايطاليا ، وباختصار فى كل مكان • وفى البندقية ، تكون من التجار طائفة كبيرة ترغب فى الاستجابة لدعوة ملك البرتغال ، والذهاب طلبا للتوابل حيث يتمتعون بالاعفاء من الرسوم الجمركية (٥٣) • ومع ذلك لا تريد رئاسة الجمهورية أن تقطع صلاتها القديمة بمصر ، وتأمل دائما أن ينجح السلطان فى اعادة التيار التجارى القديم الى ما كان عليه من قبل • ولكى تحصل على هذه النتيجة أوصت باتباع سبل مختلفة • فيجب أولا أن يستورد السلطان أكبر قدر ممكن من التوابل ، وبعرض هذه الكميات الكبيرة فى السوق يمكن منافسة البرتغاليين بنجاح فى هذا المضمار • وينبغى للسلطان ثانيا أن يوفد فى أقرب وقت مستطاع أعضاء دبلوماسيين الى كشى وكنانور ليقدموا لملوك هذين البلدين النصح بألا يظهروا مودتهم وصداقتهم

(٥٠) Ant. Giustiniani (v. ses Dispacci, éd. Villari, IIII, 205) ;
– انظر أيضا الرسالة البابوية الى عمانويل بتاريخ ٢٦ اغسطس ١٥٠٤ ، والمنشورة فى : le Corpo dipl. portuguez, ér. Rebello da Silva, T. I, Lisb. 1862, p. 43.

(٥١) رسالة عمانويل الى البابا بتاريخ ١٢ يونية ١٥٠٥ فى :
Coes, l.c., fol. 73 et s. ; le Corpo dipl., I, 48 et ss.

(٥٢) Romanin, Storia di Venezia, IV, 535 et ss. ; Mass Latrie, Traités, p. 259 et ss.

(٥٣) Voy. Malipiero, p. 621.

للبرتغاليين ، ويقنعوهم بأن هؤلاء ضيوف خطرون قد يصيرون من يوم لآخر سادة البلاد ، ويضرون بمصالحهم • ومن المستحسن أيضا ايفاد مبعوثين الى ملوك قاليقوط وكمباى لتشجيعهم على مقاومة البرتغاليين • وقد أحسن السلطان صنعا بارساله بضع سفن ، ولكن من المفيد أن يرسل مزيدا من السفن باطقمها • واذ أصيب تلدى بمرض منعه من انجاز مهمته، فقد عين بدلا منه برناردينو جيوفا Bernardino Giova ، ولكن مهمته أخفقت كسابقتها • ولم يكن ثمة شيء يمكن أن يقنع السلطان بضرورة التصرف (٥٤) • وفي صيف عام ١٥٠٥ سافر مبعوث آخر الى القاهرة ، هو الفيز سيجوندينو Alvise Segondino ، ولم يكن لمهمته الأساسية صلة بموضوعنا هذا ، ولكنا نعلم أنه كان عليه ، بصفة تبعية أن يبلغ السلطان آخر أنباء تقدم البرتغاليين في الهند تقدما خطيرا ، وأن يعرف ما اذا كان في الامكان الاعتمـاد عليه ليتخذ اجراءات قاطعة في هـذا الصدد (٥٥) •

ولعلنا نتساءل عن الباعث لهذا الاصرار من جانب البندقية • ألم يكن في وسعها أن تقطع صلاتهـا بمصر ، وترسل سفنها الى البرتغال لتأخذ منها التوابل ، أو تنظم بالاتفاق مع البرتغاليين رحلات ما الى الهند ؟ ان الاجابة عن هذين السؤالين سهلة • فأولا ، كان الطريق البحرى الذى اكتشف حديثا طويلا بالنسبة للسفن البرتغالية ، ومن ثم كان أطول بالنسبة للسفن البندقية (٥٦) • وثانيا ، كان عمانويل قد دعا البنادقة بالفعل للمجيء الى البرتغال ، ولكنـه لم يدعهم البتة أن يشتركوا مع بحارته في رحلات الى الهند ، فتلك خطوة قد يمنحها بصفة فردية لبعض البيوت التجارية الايطالية أو الألمانية ، ولكن لا يمكن أن يمنحها بالجملة لدولة تجارية كبرى • لقد عرض عليهم أن يتزودوا بحاجتهم من التوابل في لشبونة بدلا من الذهاب لطلبها من الاسكندرية أو بيروت ، ولا شيء غير ذلك (٥٧) • فمعنى ذلك أنهم بعد أن كانوا الموردين الى أوروبا كلها ، أصـبحوا كسائر الأمم تابعين تجاريا للبرتغال • وعلى ذلك فان فيمـا

---

(٥٤) Archiv. Venet., II, 194.

(٥٥) تعليمات بتاريخ ١٢ أغسطس ١٥٠٥ (Archiv. Venet., II, p. 211 et ss.) • ويلاحظ أن تعليمات سيجوندينو لم تعد تتعلق الا بالنقطة المقصودة في الفقرة الأخيرة ،

(٥٦) ثمة مدينة أخرى على البحر الادرياتيكى ، وهى راجوزة كانت حتى آخر لحظة تستورد توابلها من مصر ، بسبب قربها منها ، وقد حظيت بامتياز من قنصوه الغورى في عام ١٥١٠ : Luccari, Ristretto degli annali di Rausa, p. 126. —

(٥٧) Priuli, p. 177 et s.

عرض عليهم لهو فى الحقيقة اذلال لهم ، ونفهم من ثم أن قبولهم هذا العرض أمر شديد الوطأة عليهم • على أن هذا لم يكن هو الباعث الوحيد عند البنادقة : ذلك أن البحرية البندقية كانت قد فقدت بعضا من قدرتها القديمة ، وكان تمركزها فى البحر المتوسط ضرورة لا محيص عنها ، لاحتمال اندلاع حرب بينها وبين العدو الأكبر ، الترك ، فكان من المحظور عليها أن تقوم برحلات بعيدة • وأخيرا ، لو كفت السفن البندقية عن الذهاب الى مصر طلبا للتوابل ، فسوف يرى السلطان فى ذلك اهانة له ، ولم تكن الوكالات التجارية التى أقامها البنادقة فى مصر وسوريا تقتصر فى نشاطها على التوابل وحدها ، ومن ثم فان افتقاد رضا السلطان يعنى استحالة الابقاء على هذه الوكالات • أما قبرص فقد أصبحت مجرد محطة لا قيمة لها ، ولابد أن يؤدى كل ذلك الى انهيار سلطة البندقية فى القسم الشرقى من البحر المتوسط (٥٨) •

ولنعد الى البرتغال • ففى ٥ من أكتوبر ١٥٠٤ وصل الى لشبونة بحجة أداء بعض الأعمال بها بندقى يدعى ليوناردو مسارى Leonardo Massari ، والواقع أنه كان مكلفا من قبل حكومته بمراقبة ابحار السفن البرتغالية الى الهند ، وأن يحيطها علما بذلك (٥٩) • وكان عمانويل على علم بحضوره اذ أنبأه بذلك فلورنسى يدعى بنديتو توندو • وغداة وصوله استدعاه الملك لمقابلته ، وسأله عن نواياه ، ثم ألقى به فى السجن (٦٠) : ومع ذلك ، وبعد عدة استجوابات مماثلة ، أطلق سراحه • ومن ذلك الحين حتى نهاية عام ١٥٠٦ ، أمكنه أن يبقى بلشبونة دون أن يزعجه أحد ، ويجمع نتيجة ملاحظاته فى مذكرة طويلة دون فيها التاريخ الكامل لتلك البعثات منذ الرحلة الأولى التى قام بها فاسكو داجاما ، وأرفق بها وصفا لوضع البرتغال السياسى والاقتصادى • وتدل مطالعة هذه المذكرة على أن كاتبها ملم الماما تاما بالأحداث • وقبل أن يرحل مسارى ، كان المعروف فى البندقية (٦١) أن فاسكو داجاما قد عاد بنجاح الى لشبونة فى أوائل سبتمبر ١٥٠٣ ، وأحضر معه فى هذه الرحلة الثانية

(٥٨) Foscarini, Della leltteratura Veneziana, pfl 441 et ss.

(٥٩) نجد هذه التعليمات بتاريخ ٣ يولية فى : l'Archiv. Venet., II, 203-205.
وقد نشرت من هذه الرسائل اثنتان فقط : (ibid. II, 200 et ss.)
احداهما من « مدينة دل كامبو » بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٥٠٤ ، والثانية من لشبونة بتاريخ ١٦ من ابريل ١٠٥٦ ويحتوى الـ A Archiv. Stor. ital. dpp. 2 no 10 على ملخص للاحظاته ومعلوماته ؛ ومن هذه الوثيقة استعرنا البيانات التى ذكرت بعد ذلك •

(٦٠) وقد أخطر حكومة البندقية بهذا الاجراء التعسفى بخطابه فى ٢٠ نوفمبر :
Sanul., Diari., VI, 116.

(٦١) Mas Latrie, Traités, p. 261.

شحنة ثمينة ، بها ما لا يقل عن خمسة آلاف طن من الفلفل . وعند وصول أمير البحر البرتغالي الى الهند وجد نفسه في موقف من أصعب المواقف : ذلك أن ملكي كنانور وكشي كانا خاضعين لمؤثرات صادرة من قاليقوط ، وربما من مصر ، ومن ثم استقباله بتردد ، ان لم يكن بعداء صريح . ومع ذلك نجح فاسكو داجاما في أن يستعيد ثقتهما ، ويعيد تنظيم الوكالات التجارية المنشأة في اقليميهما على أسس أكثر متانة ، وأن يلقى درسا قاسيا على الزامورين Zamorin ، وتوج عملياته بالقبض على سفينة قادمة من البحر الأحمر تحمل شحنة نفيسة ، مما ألقى الرعب في نفوس التجار المسلمين ، المصريين والهنود . وكما سبق لنا القول ، حرص البرتغاليون في هذه المرة على أن يتزودوا بنقود أكثر مما كان معهم في المرة الأولى ، كما زودتهم السفينة التي استولوا عليها بموارد أخرى ، اذ بلغت قيمة شحنتها من ذهب ومواد ثمينة ٢٤٠٠٠ دوكا ، واستطاعوا أيضا أن يشتروا توابل من أسواق كشي وكنانور بثمن يقل بمقدار ٢٠٪ عن الثمن الذي دفعوه في رحلتهم الأولى . وعلى هذا النحو كان من السهل عليهم أن يحصلوا لسفنهم على شحنات كاملة ، كما شق عليهم أن يشحنوا كل ما يحصلون عليه من سلع في سفنهم ، فاضطروا أن يتركوا بعضا منها في عهدة وكلائهم ، وأحضروا في المجموع من ثلاثين ألفا الى خمسة وثلاثين ألف قنطار من التوابل ، وكان القنطار يتراوح بين ١٥٠ ، ١٦٨ رطلا بندقى (٦٢) . وكانت المنتجات التي تشتمل عليها هذه القناطير هي في الغالب فلفل ثم قرفة ، وزنجبيل ، وجوز الطيب ، وأخيرا ، وبكميات تستحق الذكر أحجار ثمينة ، ولآلئ غالية . وقدر الثمن الاجمالي بمليون دوكا ، ولم تتجاوز نفقات تجهيز البعثة مائتي ألف دوكا . وكان القسم الأكبر من الأرباح من نصيب الملك بطبيعة الحال ، أما نصيب التجار المنتفعين بالمشروع فكان أقل نسبيا ، اذ كان عليهم أن يدفعوا ضريبة قدرها قنطار عن كل أربعة قناطير ، لما كان وكلاء الملك يتمتعون عند الشراء بحق الأفضلية . ومع ذلك حقق بيت افيتاتو Affaitato بدفعة أولى قدرها ٢٠٠٠ دوكا ربحا قدره ٥٠٠٠ دوكا . ومنذ تلك الآونة انخفض سعر الفلفل في البرتغال ، فهبط سعر القنطار من ٤٠ دوكا الى ٢٠ دوكا ، وهذا سعر طيب لأنه لم يكن يتكلف محليا أكثر من ٢½ الى ٣ دوكات . وعلى أنه لم يكن أى تاجر ليجرؤ على بيع بضاعته بأقل من هذا السعر ، لأن الملك حظر ذلك ، وفرض غرامة مالية على كل من يخالف . وترتب على نجاح هذه البعثة شعور كبير بالأمان عند التجار المقيمين بلشبونة ، اذ تأكد لهم أن في وسع البرتغال عندئذ أن تمون بالتوابل غرب أوروبا كلها وجزءا من شرقها ، وأن ايطاليا

(٦٢) Priuli, l.c., p. 163 : Sanuto, Diar., V, 133.

التى كانت تحتكر هذه التجارة سوف تتجرد من هذا الامتياز لصالح البرتغال · وهناك تجار من بلاد مختلفة قدموا للبرتغال طلباتهم فى هذا الخصوص (٦٣) ·

وفى اللحظة التى عاد بها الأسطول بذلك المحصول الثمين ، ودخل الميناء ، كان أسطول آخر قد أقلع بالفعل فى شهر أبريل ١٥٠٣ تحت قيادة الثنائى البوكيرك Albuquerque · اذ كان بالقسم الذى يتولى قيادته فرانسوا دا البوكيرك أربع سفن مجهزة بنفقات اشترك فيها عدد من التجار ، من أهمهم التاجر الفلورنسى الكبير جيرولامو سيرينجينى Girolamo Seringini واستقل جيوفانى دا ايمبولى Giovanni da Empoli (٦٤) احدى هذه السفن بصفته وكيلا خاصا لبيت جوالتيروتى وفريسكو بالدى Gualterotti et Frescobaldi الذى كان مقره الرئيسى فى بروج Bruge, ، ولم يكن له فى لشبونة سوى فرع واحد · وعندما وصل فرانسوا دا البوكيرك الى الهند بلغته أنباء سيئة : ذلك أن فاسكو داجاما ، عندما أزمع العودة ، فصل من أسطوله مجموعة من السفن كلفها بمراقبة السفن التجارية العربية · وبينما كانت هذه المجموعة تقوم برحلة بين عدن وقاليقوط ، انتهز ملك هذه المدينة فرصة ابتعاد البحرية البرتغالية فطرد ملك كشى ، وجرده من سلطته ، وهدم الوكالة التجارية البرتغالية المستقرة بأراضيه · ومن ثم أعاد البوكيرك تنظيم الوكالة ، وشيد قلعة لحمايتها ، وشجع الملك ، وأخذ بثأره من زامورين قاليقوط Zamorin de Calicut · واذ لم يعد للزامورين مناص من التفاوض ، فانه وافق أخيرا على عقد معاهدة صلح (٢٧ من ديسمبر ١٥٠٣) ، ونصت هذه المعاهدة لصالح البرتغاليين على تعويض قدره ١٥٠٠ بهار bahars (٤٥٠٠ قنطار) من الفلفل (٦٥) ، والتصريح باقامة توكيل تجارى حصين فى اقليم الزامورين ، والتزام الأخير (٦٦)

---

(٦٣) فى حوزتنا أيضا ، بخصوص هذه البعثة مجموعة من التقارير المكتوبة من وجهة النظر التجارية :

Sanut., Diar., V, 129 et s., 130 et s. ; V, 841-843 ; V, 133 et s. ; Rom. 1876 ; S anut., Diar., V, 132, 793 ; V, 318 et s., V, 1964 et s.; Ma sari, l.c., p. 17 et s. ; Priuli, l.c., p. 170 et s., 173.

(٦٤) Vita di Giov. da Empoli, dans l'Archiv. :tor ital. append. T. III, p. 25 et s. ; Ramusio, I, 145-147.

(٦٥) يذكر ألبيتاتو أن « البهار » الهندى يساوى ثلاثة قناطير برتغالية · وفى خطاب ليوناردو ناردى ، نرى أنه يقدر البهار والقنطار بنسبة ١ : ٤ · (Sanut., IV, 547).

(٦٦) استنسخت هذه المعاهدة حرفيا فى رسالة البوكيرك الى الملك :

M. Grieff, Journal de Luc. Rem ; V. aussi Grynoeus, p. 96.

بمنع سفن مكة (٦٧) من شحن أية بضائع من اقليمه · ومع ذلك فان ملك كشى ، بعـد أن سلم جزءا من الفلفل الذى وعـد بتسليمه ، غير رايه ، ورفض تسليم الباقى ، وأعاد غلق الموانىء كلهـا فى وجـه البرتغاليين · ولحسن حظ البوكيرك سنحت له فرصة اكتشاف سوق كبيرة أخرى يمكنه أن يحصل منها على التوابل بأسعار أكثر ملاءمة من أسـعارها فى كشى : تلك هى سـوق كويلون Quilon (كولم Koulam) · ولكن الاسطول كان قد أخذ القسم الأكبر من شحنته ، اما من كشى أو كرانجـانور Cranganore أو من كنانور · وكان المحصول الغالب فى المشتروات كالعادة هو الفلفل ، الا أن الوثائق تذكر من بين المواد المجلوبة الى لشبونة فى هذه البعثة مجموعة من منتجات الهند الصينية (٦٨) ·

وبالنسبة للبعثات الثانية والرابعة والخامسة كان عمانويل قد أذن لبعض البيوت التجارية أن تساهم بنصيب ما فى نفقات التجهيز ، ولكن بشروط تفصح عن استبداد صارخ · وبالنسبة للبعثة السادسة قـرر ألا يقبل اشـتراك أى تاجـر ، وطنيـا كان أو أجنبيـا ، ورفض فيما رفضه عروض تاجرين ألمانيين قدما الى لشبونة ومعهما رؤوس أموال ضخمة ، وتوصية حارة من الامبراطور مكسيميليان ، والارشيدوق فيليب حاكم الاراضى المنخفضة ، وأبديا رغبتهما فى أن تقل سفن البعثة شابين بصفة وكيلين عنهما فى الهند · ولم يوافق الملك على أى استثناء ، الا لأمير البحر لوبو سواريز Lopo Soarez ، ولقباطنة سفن الأسطول ، بشرط أن يسلموا رؤوس أموالهم لوكيل الملك الذى يجرى المشتروات لحسابهم ، كما أن مشتروات التوابل كلها يجب أن تجرى بوساطة هذا الوكيل ، واستبعاد أى شخص آخر ، وتكون هذه المشتروات لحساب الملك فيما عدا الاستثناء الذى أشرنا اليه (٦٩) · وأقلع الأسطول فى ٢٢ من ابريل ١٥٠٤ ، وكان مسلحا تسليحا حربيا ، فبدا فى مظهر مهيب · وكانت العمليات الأساسية التى تكلفت بها الحملة هى : قصف قاليقوط

---

(٦٧) تذكر هذه المعاهدة أيضا مدينتين أخريين تسميهما Genua et Arboria وأقر انه استحال على أن اتعرف على هذين المكانين ·

(٦٨) بخصوص نتائج هذه البعثة ، لدينا أولا رواية « مسارى » : Massari, p. 18, 19 :

وثانيا خطابات من ج· فر · افيتاتو الى ب· باسكو اليجو فى ١٦ يولية ، وأول اغسطس ، و١١ سبتمبر ١٥٠٤ (Sanut., VI, 55-57, 75 et s., 86-88) بريولى : (Priuli, Diar., l.c., p. 176).

(٦٩) Affaitato à Pasqualigo, de Lisbonne le 7 avril 1504. (Sanut., Diar., VI, 26).

بالمدافع قصفا استمر يومين ، واعادة ملك كشى الى عرشه بعد أن عانى من هجمات متواترة شنها الزامورين فى الفترة بين البعثتين البرتغاليتين ، ولم ينج بحياته الا بفضل جماعة من البرتغاليين بقيادة دوارتى باشيكو Duarte Pacheco ، واخيرا معركة بحرية أغرق فيها الاسطول البرتغالى على مرأى من سواحل الهند أسطولا تجاريا قادما من جدة . وفى غضون هذه الوقائع الحربية سنحت للبرتغاليين فرصة لشحن ٢٤٠٠٠ قنطار من التوابل فى موانىء كنانور وكشى ، (كايان ، كولم) ، وكومورين . وفى هذه المسرة قبل الوطنيون ، سدادا لمبيعاتهم بثمن مجز حددته المعاهدات ، المنتجات الأوروبية التى أحضرها وكيل الملك (٧٠) .

وفى كل مرة ابتعد فيها البرتغاليون عن الهند عائدين الى وطنهم استعاد خصومهم تفوقهم ، وتعرض أصدقاؤهم لضروب الاضطهاد ، وتعطلت أعمال وكالاتهم ، حتى لقد صار من المهام المفروضة على كل بعثة جديدة أن تعمل ، بتكاليف جديدة على دعم النفوذ البرتغالى فى هذه النواحى . واتضحت الأمور والأحوال من ذلك بفضل خبرة سنين عديدة ، واستلزمت مراعاة التوقى والحذر . وفى عام ٥٠٥ عزم عمانويل على أن يقيم فى الهند بصفة دائمة أسطولا ، وممثلا لشعب البرتغال بدرجة نائب الملك . وكان أول من عين فى هذا المنصب هو فرانشسكو دالميدا Francisco d'Almeida الذى سافر فى ٢٥ من مارس ١٥٠٥ الى الهند مستصحبا سفنا عديدة ، وعتادا كافيا لتسليح الحصون الكثيرة التى شيدها ، فأدت بالتالى خدمات جليلة للسلطة البرتغالية (٧١) . وتولى الأسطول الحربى هذه المرة أيضا حراسة أسطول تجارى صغير يضم سفينتين مجهزتين لحساب الملك ، وسفينة ثالثة يملكها « الفارس » (الشيفالييه) البرتغالى فرناندو دانورونا Fernando da Noronha ، وثلاث سفن أخرى جهزها جماعة من التجار الأجانب ، من بينهم بعض الألمان الذين كانوا أهم المنتفعين فى الجماعة . وقد أخطأ السيد جوبيرناتس M. de Gbernatis حين نسب الى هؤلاء الألمان صفة الهولانديين (٧٢) . وفى ٢٠ من أغسطس ١٥٠٣ كتب كازانو نيجرى Cazano Negri ، وهو مواطن جنوى مقيم فى لشبونة الى أخيه جيروم Gérôme يقول فى سياق حديثه عن العديد من الأجانب

---

(٧٠) Massari, p. 18, 29 et s. ; Priuli, p. 189 et s.

(٧١) عرفت أنباء نجاح الميدا فى الهند عن طريق السفن التى عادت منها فى شهرى مايو ويونية ١٥٠٦ . وقد حملت أربع من هذه السفن شحنة قدرها ٢٥٠٠٠ قنطار من التوابل ، وعادت أربع سفن أخرى بشحنة توابل قدرها ١٥٠٠٠ قنطار :.Sanul., Diar VI, 363 et s. 373, 383 et s. ; Priuli, p. 199 et s., 201 et s.

(٧٢) Storia dei viaggiatori italiani p. 15.

الذين اجتذبهم الى تلك المدينة تجارة التوابل ان بعض أعضاء الشركة الألمانية الكبيرة قد وعدوا بأن ينشئوا بالمدينة مكتبا تجاريا ، وأنهم حصلوا منه على شروط ملائمة للغاية (٧٣) • وكان يدير هذه الشركة الألمانية الكبيرة اثنان من مواطني اوجسبرج ، هما انطون فيلسر Anton Welser وكونراد فهلن Cinrad Voehlin • وأجرى المفاوضات بهذا الشأن مع الملك شخص يدعى سيمون سيتز Simon Seitz مندوبا عن الشركة ، وعن تجار أوجسبرج كلهم ، وتجار مدن ألمانية أخرى ، ومنح الامتياز بتاريخ ١٣ من يناير ١٥٠٣ ، وفى حوزتنا ، ان لم يكن النص الأصلى ، فعلى الأقل الترجمة الألمانية للامتياز (٧٤) • اذ نقرأ فى الامتياز أن للألمان الحرية فى بناء السفن ، ولكن لا يجوز لهم أن يقوموا برحلات الى الهند على حسابهم الخاص ، وبالعكس يرخص لهم الملك ضمنا بأن يجروا فى البرتغال مشترواتهم للتوابل ، وشجر البقم ، ومنتجات أخرى من الهند ومن « الجزر التى اكتشفت حديثا » • فالواقع أن بندا خاصا (فى الامتياز) ينص على أنه اذا اشترى الألمان التوابل المنتظرة من البعثة التى يقودها فاسكو دا جاما أو التى تحضرها البعثة التى كان يجرى الاستعدادات لها فى تلك الآونة بارشاد الأخوين البوكيرك ، أو خشب البقم المشحون فى السفن التى يملكها فرناندو دانورونها (٧٥) ، فان رسم التصوير يكون بنسبة ٥٪ لأعضاء الشركة ، ١٠٪ لغيرهم • أما بخصوص التوابل التى يحصلون عليها من مصادر أخرى ، فانهم يتمتعون بالاعفاء منذ الآونة الحاضرة • فضلا عن ذلك ، ففى المستقبل ، ومنذ أن يتم تصريف الشحنات التى أحضرتها البعثات المذكورة بعاليه ، ويكون الامتياز الممنوح لتورونها قد صار ملغيا (١٥٠٥) ، فانهم يعفون بصفة عامة من الالتزام بتقديم التوابل المعدة للتصدير للجمرك ، الا أن هذه التنازلات لم تكن كافية للشركة الألمانية •

لقد تكلمنا قبلا عن تاجرين ألمانيين أرادا فى عام ١٥٠٤ أن يرسلا الى الهند وكلاء عنهما فى سفن أسطول لوبو سواريز ، فلم يعدلا عن تنفيذ رغبتهما هذه الا بناء على رفض الملك التصريح بسفر تجار على سفنه • ولكنهما كانا أسعد حظا فى بعثة عام ١٥٠٥ (٧٦) • فبناء على رجاء

---

(٧٣) Sanut., Diar., V, 319.

(٧٤) Joh. Phil. Csssel, Br'me, 1771, in 4, p. 5-10.

(٧٥) ضمن لنفسه احتكار خشب البقم من تيرا نوفا (اى البرازيل) فى مقابل دفع مبلغ • ٤ دوكا سنويا : مسارى Massari ص ٣١ •

(٧٦) وافق عمانويل على المعاهدة فى شهر اغسطس ١٥٠٤ :
Rems Jagcbuch, p. 8.

أنطون فيلسر Anton Welser ، طلب بوتنجر Peutinger المشهور ، (من أوجسبرج) من الامبراطور مكسميليان أن يزوده برسالة الى الهند · وبالنظر الى أن مواطنيه كانوا أول الألمان الذين ارتحلوا الى الهند ، فانه توسط لدى بلاط البرتغال لكى يعطيهم خطابات توصية للأمراء الهنود (٧٧) · وعلى ذلك فقد جمعوا رأس مال قدره ٦٦٠٠٠ دوكا استخدموه فى تجهيز ثلاث سفن كبيرة أطلقوا عليها أسماء ثلاثة من القديسين : القديس جيروم ، والقديس رفائيل ، والقديس ليونارد · وكان أكبر مبلغ فى رأس المال هو الذى أسهمت به بيوت تجارية من أوجسبرج · وتصدر بيت فيلسر وبيت وفهلن سائر البيوت بحصة قدرها ٢٠٠٠٠ دوكا ، وكان لهما فى تلك الآونة وكيل فى لشبونة يدعى لوكاس ريم Lucas Rem (٧٨) ، ثم جاءت بعدهما شركات فوجر Fugger وهوشستتر Hoechstter . وجوسمبروت Gossembrot وبيتا ايمهوف Imhof وهيرشفوجل Herschvogel من نورمبرج وثمة بيوت أخرى (٧٩) · وثمة جزء من التكاليف غطاها تجار فلورنسيون وجنويون (٨٠) ، يذكر من بين الفلورنسيين بنوع خاص شخص يدعى بارتولو Bartolo ، ولا شك أنه بارتولوميو مارشيونى Bartolommeo Marchionni (٨١) ، الا أنه يمكن القول اجمالا أن السفن الثلاث التى جهزتها تلك الجمعية كانت سفنا ألمانية · وكان على ظهر السفينة سان ليونارد الوكيل الرئيسى للتجار الألمان ، بلتازار سبرنجر Balthasar Sprenger من فيل ، واستقل السفينة سان رفائيل مندوب توكيل هانز ماير Hans Mayr · وزار الاسطول موانى كنانور وكشى ، وشحن منهما توابل ولآلىء ومنسوجات قطنية ، وعاد الى لشبونة حيث وصلتها السفينتان سان جيروم وسان رفائيل فى ٢٢ من مايو ١٥٠٦ (٨٢) ، ووصلت السفينة سان ليونارد فى ١٥ من نوفمبر · واحتجز الملك من مجهزى السفن ربع البضائع ، بالاضافة الى

---

(٧٧) Lettres de Welser à Peutinger, du 11 déc. 1504 : de Peutinger à Blas. Hölzl, du Jang. 1503 ; Journal de Rem, op. cit., p. 164, 171.

(٧٨) Voy. son Journal, p. 8.

(٧٩) يعدد سبرنجر Sprenger الغالبية العظمى من هذه البيوت التجارية فى مؤلفه Merrfart · وبلغت الحصة الاجمالية للألمان مبلغ ٣٦٠٠٠ دوكا ، وللايطاليين ٢٩٤٠٠ دوكا فقط ·

(٨٠) Gassarus, l.c., p. 1736.

(٨١) Massari, p. 23.

(٨٢) Journal de Rem, p. 8 ; le suppl. IV de ce journal, p. 167 ; Sanuto, Diar., VI, 232.

رسم قدره ١/٢٠ · وعلى أثر ذلك رفع هؤلاء ضد الملك قضية استغرقت ثلاث سنوات ، دافع فيها عنهم لوكاس ريم · ومع ذلك فليس فى وسعنا أن نقول ما اذا كانت مطالبتهم قد انصب على ارتفـــاع ســـعر هـــذه الضريبة (٨٣) ، أو على الأقل رفض اعطائهم نصيبهم من الغنيمة التى حصلوا عليها بالاستيلاء على مدينتى كاوة Quiloa وممبسة Mombasa وأخيرا بيعت الشحنات فى أمستردام · وبعد تصفية الحسابات كلها ، تبين أنه تبقى مع ذلك ربح صاف قدره ١٥٠٪ تبعا لحساب ريم ، و ١٧٥٪ تبعا لحساب جساروس Gassarus (٨٤) ·

وحرص عمانويل على أن تقوم كل سنة بعثة الى الهند · وطبقا لهذه الرغبة أقلع أسطول مختلط فى ربيع عام ١٥٠٦ ، وكانت السفن الحربية تحت قيادة الفونس البوكيرك ، والتجارية تحت قيادة تريستان دا كونها Tristan da Cunha ، ومن بينها سفن جهزها أفراد من الوطنيين ومن الأجانب ، كما حدث فى الرحلة السابقة ، وكانت بعض البيوت الفلورنسية والجنوية (٨٥) من بين المنتفعين بالرحلة · وكون ممثل بيت فيلسر ، وهو لوكاس ريم شركة مع برتغالى يدعى رى مندز Ra Mendez وتكبد ريم بعض الخسائر ، وأراد أن يحمل تريستان داكونها مسئوليتها · والواقع أن هذا الأخير قد استغل سلطته فى أن تقوم السفن التجارية برحلات استكشافية لم تكن بالمرة فى خطة مجهزيها (٨٦) · على أن نتيجة هذه الحملة كانت بالاجمال اضافة حصة كبيرة على كميات التوابل التى تكدست فى مخازن لشبونة (٨٧) ·

وفى تلك الآونة ، قدرت كميات التوابل التى تصـــل سنويا الى لشبونة بما يبلغ مجموعه ٣٥٠٠٠ قنطار ، يشكل الفلفل وحده أكثر من ثلثى هذه الكمية (٨٨) · ولم يكن فى وسع المشترى أن يحصل على شىء من هـــذه التوابل الا فيما يسمى Maison de la Mina ، وهذى هى

---

(٨٣) هذه الضريبة قد حددت طبقا للشروط السارية منذ عام ١٥٠٣ على كل التجار المأذون بمشاركتهم فى البعثات ؛ واكتفى اثباتا لذلك بالفترة التى أوردها « مسارى » Massari بصفحة ٢٩ ؛ وبما ذكر « افيناتو » فى : Sanut., Diar., VI, 75.

(٨٤) Rem, p. 8 ; Gassarus, p. 1843 ; le suppl. au journal de Rem, l.c.

(٨٥) Massari, p. 21. ; les Atti della Soc. lig., V, 298.

(٨٦) Journal, p. 8.

(٨٧) احصرت احدى سفن البعثة ٧٠٠٠ قنطار من التوابل لحساب بارتولوميو مارشونى ، وهو تاجر فلورنسى : Varthema, p. 173 b.

(٧٧) Massari, p. 30, 33.

التسمية التى أطلقت على مجموعة من المخازن الضخمة التى تودع فيها الحكومة منتجات مناجم الذهب الأفريقية (ومن ثم كانت هذه التسمية) ، ومنتجات الهند ، مهما كان صاحبها • وكان ثمة مفتش من قبل الملك يتولى عملية البيع • وكان الملك هو الذى يحدد الثمن وقد وضـع هذا النظام عام ١٥٠٤ • وقبل ذلك كان التجار الذين يملكون نصيبا فى البعثات أحرارا فى أن يكون لهم مخازنهم ، وأن يبيعوا مباشرة وبالثمن الذى يريدونه ، وكان هذا الأمر يتيح اختلافات كبيرة فى الأسعار ، كما يؤدى الى نقص فى قيمة البضاعة ، ومن ثم أفلس عدد كبير من تجار الفلاندر ، وألمانيا وبلاد أخرى ، من الذين اشتروا كميات كبيرة من التوابل فى السنين الأولى بأسعار مرتفعة • أما غيرهم من التجار الذين أصبحوا أكثر حرصا ، فانهم قللوا من مشترواتهم • واذ أراد الملك أن ينهض بالتجارة نهضة جديدة فانه اتخذ الاجراءات التى أشرنا اليها من قبل ، ونجح تماما فيما ابتغاه • ثم انه لم يقنع بانتظار حضـــور العملاء الى لشبونة : فمنذ البداية انطلقت الســفن البرتغالية حاملة التوابل الى انجلترا وهولندة • وفى عام ١٥٠٤ صعدت خمس من هذه السفن نهر التيمز حتى لندن تحمل ٣٨٠ طنا من الفلفل (٨٩) • غير أن هذا المثـال ليس هو أقدم الأمثلة فى هذا الخصوص • ففى عام ١٥٠١ ، علم فى البندقية ، عن طريق خطابات من بروج ، ومن أنفير (أنتورب ـ مقاطعة بشمال بلجيكا) أنه قد وصل الى الأراضى المنخفضة سفينتان برتغاليتان من نوع « الكارافيل » (مركب سريع بثلاث أو أربع صوار ـ المترجم) وبهما شحنة من التوابل المستوردة من قاليقوط (٩٠) : وذكر فى هذه الخطابات أن الفلفل صغير ، وأخضر نوعا ما ، ولكنه جيد الصنف ، أما القرفة فانها خشنة بعض الشىء • ويبدو أن هذه السفن (الكارافيل) قد رست فى ميناء أنفير حيث توجد منذ عام ١٤٩٠ قنصلية برتغالية (٩١) • وكان وصول هذه المنتجات الثمينة المرسلة من أمة كانت الصلات بهـا حديثة العهد بمثابة حظ سعيد لسوق أنفير التى بدأت تحل محل سوق بروج ، ونما رخاؤها نموا محسوسا • وقد اشترى القسم الأكبر من

---

(٨٩) Sanut., Diar., V, 964 ; Rawdon Brown, Calendar of State-, papers, Venetian I, p. 300.

(٩٠) Priuli, p. 164.

ـ كانت بعثة كابرال قد وصلت لتوها عائدة من رحلتها الباهرة • وفى البندقية توقع الناس أن ملك البرتغال لن يفوته أن يلقى فى أسواق الفلاندر جزءا من التوابل التى أتى بها هذا الاسطول ، بأسعار أقل من الأسعار التى يعرضها بها التجار البنادقة : ومن ثم احتاط البنادقة للأمر بأن انقصوا كثيرا من عدد بالات التوابل المشحونة فى السفن المبحرة الى الفلاندر فى شهر أغسطس ١٥٠١ ((ibid., p. 161)

(٩١) Mertens en Torf', Geschiedenis van AntWerpen, III, 320.

الشحنتين بيتا فوجر ، وهوشستتر من أوجسبرج ، وتسلم البضائع بصفة أمانة فى أنفير تاجر · من تجار المدينة يدعى نيكولاس رشترجيم ، وكان هو أول من صدرها الى تجار ألمان · وظن هؤلاء فى البداية أن البضائع مغشوشة لأن البندقية كانت حتى ذلك الحين هى التى تحتكر هذه المواد (٩٢) ، ولعلهم أيضا قد اعتادوا أن يأخذوا حذرهم من البرتغاليين الذين صدروا ذات مرة الى الفلاندر فلفلا من غينيا من صنف أقل جودة من فلفل الهند (٩٣) · وبخصوص الزنجبيل ، وجد أهالى أنفير زنجبيل البرتغاليين أقل جودة من زنجبيل البنادقة (٩٤) · وتفسير هذا ميسور ، فمجاورات قاليقوط التى تنتج أحسن صنف كانت مغلقة دون البرتغاليين ، فكانوا يحصلون على هذه المادة أساسا من كنانور حيث تنمو فى ظروف أقل ملاءمة (٩٥) ·

ورغم الكميات الهائلة من التوابل التى تصل الى لشبونة ، لم يكن البرتغاليون حتى ذلك الحين هم الوحيدون المسيطرون على سوق الهند ·· حقا ، كان ملوك كنانور ، وكشى ، وكولم يتصرفون لصالحهم ، ويفتحون لهم ثغورهم وأقاليمهم ، ومع قاعدة العمليات التى تشكلها التوكيلات المحصنة التى رخص لهم بانشائها ، والمحطة القوية التى نظمت لخدمة أسطولهم على جزيرة أنشديفا anchediva ، ضمنوا مستقبلا الوصول الى قسم كبير من سواحل ملبار ، وكنارا Canara · والحقيقة أيضا أن الفلفل كان يزرع على نطاق واسع على طول هذه الشواطىء ، والفلفل الذى يزرع بالداخل ينقل بالطرق المائية حتى الموانىء ، ويجلبه الوطنيون الى هناك عن طيب خاطر لأن البرتغاليين يدفعون فيه ثمنا أزيد مما يدفعه العرب · غير أن هذا لم يكن هو كل ما ينتجه البلد اذ كان للعرب فى مملكة نارسنجا Narsinga ، فى باتيكالا Battecala مستودع يعطى ٣٠٠٠ قنطار فلفل فى السنة (٩٦) · وبخلاف الفلفل ، لم تكن هذه البقاع تنتج غير الزنجبيل والقرفة ، ولكن بكميات قليلة

---

(٩٢) Ibid, p. 321 et s. ; 330 ; Lodov. Guicciardini, Descrittione di tutti i paesi bassi (Anversa, 1867), p. 84.

(٩٣) Massari, p. 30è

(٩٤) RaWdon Brown l.c., p. 301, 307.

(٩٥) Vinc. Guirini, p. 9 ; Massari, p. 26, 33.

ـ فضلا عن ذلك ، اكد اعداد البرتغاليين أن التوابل التى يستوردوها هؤلاء الاخرون من صنف ردىء على وجه العموم ، اما لان الرطوبة اصابتها خلال رحلتها الطويلة ، او لانها تلفت من طول بقائها بمخازن لشبونة · وقد اصدر المجلسان الكبيران لمدينتى مرن ، وبال قرارين ضد استعمال الفلفل الذى يستورده البرتغاليون ·

(٩٦) Quirini, l.c., p. 9 ; Massari, p. 35.

وأصناف قليلة الجودة · ومن جهة أخرى كانت الموانى الثلاثة المفتوحة لتجارة البرتغاليين تتزود دائما بمنتجات الهند الصينية · الا أن المركز الذى تتجه اليه أولا هذه المنتجات ، ومنه توزع على العـالم كله ، وهو السوق الكبير ، سوق ملقا ، كان ولم يزل كله فى أيدى المسلمين ·

وهكذا تابع البرتغاليون فى الهند هدفين فى وقت واحد ، ينتهيان الى غاية واحدة : توسيع مجال تجارتهم بفتح أسـواق جديدة أولا ، والقضاء على تجارة العرب بتدمير حريتهم التجارية ثانيا · ولم يعد أحد يحصى السفن العربية التى أغارت عليها أساطيلهم فى أعالى البحار ، أو على مرأى من السواحل ، وأغرقتها أو أحرقتها بعد أن نهبت أو دمرت شحنتها ، وقتلت ركابهـا وبحارتها · فلم يعد المسلمون يجرأون على المخاطرة بالتردد على أنحاء سواحل ملبار ، وكنارا ، وقرروا خطط سيرهم عند عودتهم من ملقا : فبدلا من الرسو فى ميناء قاليقوط ومنه يأخذون وجهتهم النهائية ، اما الى عدن أو الى هرمز ، تجنبوا من ذلك الحين كل القطاع المحصـور بين رأس كمورن قاليقوط ، وجعلوا يلقون مراسيهم اما عند الطرف الجنوبى من جزيرة سيلان ، أو عند جزر ملديف (٩٦م) ، وكان هذا التفافا بعيدا عن الطريق المباشر ، ولكن كانت فرصتهم فى ذلك أكبر للافلات من الكمائن التى ينصبها لهم أعداؤهم القساة · والمحيط الهنـدى فسيح الأرجـاء فلا يتسنى قطع الطريق على السفن المبحرة به قطعا تاما الا باقامة أسـطول كبير فى هذه المياه بصفة دائمة · وأدرك عمانويل أن فى وسعه أن يحقق هذا الغرض تقريبا باقامة العقبات عند مدخل البحر الأحمر ومخرجه ، ومن أجل هذا أصدر أمره الى تريستان دا كونها أن يحتل جزيرة سقطرى Sokotora حيث يتوقف المسلمون ليتزودوا بالماء · وتم الاسـتيلاء على الجزيرة فى عام ١٥٠٦ ، ثم شيد البرتغاليون بها للحال حصن سان ميجيل S. Miguel ، ومن هذا الوكر الحصين سيطروا على طريق مصر ـ الهند ، وصـار فى مقدورهم قطع الاتصال بين البلدين ·

وحتى ذلك الحين تحمل السلطان دون أن يحتج تلك الحرب التى شنها البرتغاليون ضد رعاياه فى المحيط الهندى ، كما تحمل الموقف السلبى الذى اتخذه المستوطنون البنادقة المقيمون فى أقاليمه (٩٧) · وأخيرا ، فى عام ١٥٠٥ قر عزمه على حمل السلاح (٩٨) · وشيئا فشيئا

---

(٩٦) Barros, Asia, II, 423 et s.

(٩٧) Sanut., Diar., V, 793 ; VI, 68, 150.

(٩٨) Ibid. VI, 240, 246, 283, 311; VII, 55, 226 ; Priuli, p. 187 et s.

تجمع أسطول من خمسين سفينة شراعية فى ميناء جدة بقيادة حسين المشرف Hussein Almouchrif . وفى أواخر عام ١٥٠٧ كان الأسطول على أهبة العمل فى المحيط . وبعد أن لحق الأسطول فى طريقه بأسطول شاه كجرات ، أو بالأحرى حاكم ديو ملك اياس ، نجح نائبه حسين فى مفاجأة الميدا Almeida الشاب ، وأنزل به هزيمة ساحقة (يناير ١٥٠٨) . وقد تطلبت هذه الهزيمة انتقاما رهيبا ، اضطلع به الميدا الكبير ، نائب الملك Fr. Almeida : ففى ٣ من فبراير ١٥٠٩ شن على الأسطول المصرى ، على مرمى البصر من مدينة « ديو » معركة كبيرة قضت عليه . ولم تثبط همة قنصوه الغورى بسبب هذه الكارثة ، بل ضاعف من جهوده فى التسلح . ثم ان حلفاءه من الأمراء الهنود لم يتركوا له فرصة للراحة . وفى صيف عام ١٥١٠ صار له فى البحر الأحمر أسطول جديد على أهبة الابحار ، ومع ذلك لم يخرج هذا الأسطول فى البحر الأحمر فى عهد السلطان المملوكى ، ولم يعد ثمة مجال للتفكير فى ارسال حملة الى الهند (٩٩) .

وهنا يبرز سؤال لابد لنا أن نجد له حلا : هل تعاونت جمهورية البندقية تعاونا ماديا فى تسليحات السلطان ، وهل زودته ، كما زعم البعض بالمدافع ، والمدفعيين ، وأخشاب البناء ، والنجارين لتشغيلها ؟ (١٠٠) ففى عام ١٥٠٤ تلقى ملك البرتغال من فلورنسا بلاغا ضد رئاسة البندقية، يتهمها بأنها أرسلت الى مصر سفينتين تحملان مدافع للسلطان ليستخدمها ضد البرتغاليين (١٠١) . وفى عام ١٥٠٩ وجه عمانويل من جديد احتجاجا ضد ارساليات المدافع هذه (١٠٢) . غير أن هذا البلاغ الوارد من فلورنسا كان قد أرسل فى فترة لم يكن قنصوه الغورى يفكر فى شن حرب على البرتغاليين ، ومن ثم لم يكن الاتهام قائما على أساس صحيح . أما بخصوص احتجاج الملك فقد أرسل ابان « حلف كمبرى » Ligue du Cambrai أى فى وقت لم تكن جمهورية البندقية تملك من القوات ما تدافع بها عن نفسها ضد أعداء أقوياء ، ومن ثم لا تقوى على مواجهة أى عدو آخر . وفى عام ١٥١٠ أعاد لوى هليان Louis Hélien سفير لويس الثانى عشر ملك فرنسا مرة أخرى نفس الاتهام ضد البندقية ، وذلك فى خطاب ألقاه فى « دييت » (مجلس الامبراطورية الرومانية المقدسة) راتسبون . ومن ذلك الحين ردد الاتهام مرارا كثير

(٩٩) Ibid. VIII, 80 ; IX, 27 ; X, 60 et s., 110 et s. ; XI, 75 et s., 105, 268 ; XII, 478 et s. ; Priuli, p. 210.

(١٠٠) M Fulin, l'Archiv. Venet., II, 189-192 ; XXII, p. xi-xvii.

(١٠١) Massari. dans l'Arch. stor. ital., app. 2, p. 36.

(١٠٢) Priuli, p. 204.

من الكتاب ، ولما كانوا ينقلون ما كتبه بعضهم فى هذا الخصوص فلا جدوى من أن نشغل أنفسنا بما كتبوه ، بل الأولى بنا أن نرجع الى المصادر . وفى عام ١٥١١ أعتقل السلطان عددا من التجار البنادقة بالاسكندرية ، واحتجزهم بالقاهرة . ولما حاولوا بمختلف الوسائل أن يستردوا حريتهم ، أنبأهم الموظفون المصريون بأن السلطان يريد الحصول على مدافع وسفن حربية ، ومجاذيف (وكان فى حاجة اليها لمحاربة البرتغاليين) وألمح لهم كبير التراجمة تغرى بردى Tangriberdi بأن رئاسة الجمهورية (البندقية) وعدته بهذه المهمات ابان بعثته فى البندقية ، أى فى عام ١٥٠٧ (١٠٣) . وفى حوزتنا المحاضر الرسمية الخاصة بهذه البعثة ، ويبدو أنها مستوفاة ، الا أننا لا نرى فيها أية اشارة الى تلك المساعدة المادية ، اما فى صورة طلب مقدم من السلطان ، أو فى شكل وعد من جانب رئاسة الجمهورية . حقا ، قد تكون المواثيق الرسمية قد لزمت الصمت بشأن نقطة لها مثل هذه الأهمية ، ولا نستنتج من ذلك أن كبير التراجمة قد أكد واقعة من نسج خياله ، فحينما تعالج مسائل من هذا النوع يكتفى بوجه عام بالتفاوض شفاهة بشأنها . ومن المحتمل كثيرا أن يكون السلطان قد قدم لرئاسة الجمهورية أكثر من مرة طلبات من هذا النوع ، وأن هذا كان من الأمور التى تفاوض بشأنها بنوع خاص المبعوث المصرى فى عام ١٥٠٧ . ولعلنا نظن أن تغرى بردى الذى يكره البنادقة لم يؤكد أنه تلقى منهم ردا ايجابيا الا ليتهمهم بسوء النية ، ولم يكن ما قاله يمت الى الحقيقة بصلة . حقا لقد سعت رئاسة الجمهورية مرارا لكى يستخدم السلطان نفوذه على الأمراء الهنود لاقصاء البرتغاليين ، وأن يزود الجمهورية بدعم فعال ، بأن يضع أساطيل تحت تصرفها ، ولكنها كانت حريصة كل الحرص الا تعرض نفسها للشبهات بالتواطؤ علنا مع السلطان . ألم نر ذلك من قبيل حين أتى مورس من قبل السلطان مطالبا بوضع حد للبعثات التى ينظمها عمانويل ، ورفض تصرفاته ، وكتابه ؟ سوف نتحدث بعد قليل عن بعثة كلف بها عام ١٥١١ دومينيكو تريفيزانى Domenico Trevisani : وكان على اللجنة المكلفة بتدوين التعليمات الخاصة بالبعثة أن تدرس طلبا جديدا من السلطان للحصول على جنود للمدفعية ، وسفن حربية ، وقذائف ، الخ . فماذا كان جوابها ؟ لو قدمت الجمهورية للسلطان هذه المساعدة المادية فانها لن تحصل على نتيجة سوى أن تعرض نفسها للشبهات فى عين العالم المسيحى ، وتنعزل ، ومن ثم فقد نصحت السلطان بأن يوجه طلبه الى القسطنطينية ، وان كان بحاجة الى خشب للبناء فعليه أن يطلبه من خليج

(١٠٣) Sanut., Diar., XII, 212 ; Cf. Priuri, p. 225.

اياس Lajazzo (١٠٤) . ولم يكن السلطان فى حاجة الى هذه المشورة ، ففى عام ١٥٠٧ ثم فى عام ١٥١٠ طلب من تركيا مدافع وخشبا للبناء ، وقباطنة للسفن ، وجنودا للمدفعية ، وتكرم السلطان العثمانى باهدائه هذه الأشياء (١٠٥) . وفى صيف عام ١٥١٠ أرسل يطلب أخشابا من خليج اياس (١٠٦) .

كانت هذه الرحلة الأخيرة فرصة لنزاع جديد بين مصر والقوى التجارية الغربية . فثمة أسطول لفرسان رودس طارد سفنا مصرية ، وفاجأها على مسافة غير بعيدة من الاسكندرونة ، وبعد معركة استغرقت بضع ساعات استولى عليها ، وعلى أخشاب موضوعة على الشاطئ فى انتظار شحنها (أغسطس ١٥١٠) (١٠٧) . وثارت ثائرة السلطان ، وفى تعطشه للانتقام صب جام غضبه على كل الغربيين المقيمين فى أراضيه . وتعلم بنوع خاص أنه قبض على قنصل القطالونيين فى الاسكندرية ، وعلى الكثيرين من مواطنيهم ، وحبسهم فى القاهرة ، وأغلق مخازنهم بالشمع الأحمر : وكان المبرر لهذه الاعتقالات أن القنصل القطالونى يمثل فى الوقت نفسه الفرنسيين ، وهؤلاء هم مواطنو الرئيس الأعلى لرودس ايميرى دامبواز Emery d'Ambo.se ، أما البنادقة فانه هاجمهم بدعوى أن أربع سفن حربية للبندقية اشتركت فى معركة الاسكندرونة الى جانب أسطول فرسان رودس ، واستقبلت بحفاوة فى جزيرة قبرص .

وفى سوريا ، لقى المستوطنون البنادقة نفس المصير الذى لقيه مواطنوهم فى الاسكندرية (١٠٨) . وثمة ظرف خاص أسهم فى رفع حدة الغضب الذى استبد بالسلطان ضدهم : فهناك خطابات موقع عليها من أمير حلب ، بين عدد من الرسائل ، كشفت عن وجود اتفاق سرى بين عاهل الفرس ، اسماعيل الصفوى وبين جمهورية البندقية ، ومن ثم كتب فى ذلك تقريره . واغتاظ السلطان ، خاصة من جراة البعض فى استخدام طريق سوريا ، وهى من الولايات التابعة له لمرور رسائل خاصة

---

(١٠٤) Archiv. Venet., II, 190-192 ; Sanut., Diar., XIII, 362 ; Priuli p. 225.

(١٠٥) Sanut., Diar., X, 837 ; XI 76. 294, 589, 621, 704, 736, 826, 829 ; XII, 154 ; Priuli, p. 210, 211 et s., 214 et s., 218.

(١٠٦) Sanut., Diar., X, 432, 626 ; XI, 56, 64, 76, 105, 479.

(١٠٧) Priuli (p. 212 et s.) ; Sanuto, Diar. XI, 570 et s. ; cf. ibid. 639, 645.

(١٠٨) Sanut., Diar., XI, 645 et s., 648 et s., 681, 825 et s. ; XII, 121, 141, 153. et s ., 156 et s., 207 et ss., 210 et ss.; Priuli, p. 220 et ss.; Mon slav. merid., XIV, 96, 275.

تستهدف وضع اتفاق بين الدولتين الغرض منه مكافحة سيادة العثمانيين ، وصب جام غضبه بنوع خاص على بييترو زينو قنصل البندقية فى دمشق الذى كان على علم بتبادل وجهات النظر هذه ولم يخطر بها القاهرة على الأقل (١٠٩) . وفى ٦ من يناير ١٥١١ وصل الى القاهرة بييترو زينو ، ومعه ستة من تجار دمشق وأربعة من طرابلس ، وثلاثة من جلب حيث انضموا فى سجون القاهرة الى توماسو كونتاريني قنصل البندقية فى الاسكندرية وسائر تجار الاسكندرية الذين كانوا موجودين بها منذ ١٢ من أكتوبر ١٥١٠ . وجرى استجواب زينو بدقة ، وعنفه السلطان بشدة ، وكاد يأمر بضربه بالعصا : وأسهم ما كان يبديه من احتقار النفاق ، وسلوك مترفع فى زيادة موقفه سوءا مما أدى الى ابقاء أشخاص آخرين فى السجن معه ، رغم ضعف الشبهات التى حامت حولهم (١١٠) .

وفى تلك الآونة كانت أيدى البنادقة مغلولة بسبب تورط البندقية فى حرب مشئومة ضد « حلف كمبرى » ، وعانى رعاياها بقسوة من تلك الحال المربكة . وكان لها فى بلاط القاهرة أعداء لم يترددوا فى التلميح بأنها موشكة على الانهيار ، ولن يكون لديها بعد قليل مال يكفى لتجهيز سفن تجارية ترسلها الى الشرق الأدنى . ولم يكن تغرى بردى ، كبير التراجمة عدو البندقية القديم هو الوحيـد الذى يردد هذا القول ، فثمة شخص آخر ذو نفوذ كان يلعب على الوتر نفسه : ذلك هو فيليب دى بريتز Philippe de Parétes (١١١) ممثل القطـالونيين ، والنابـوليين ، والفرنسيين . وقد ألقى به فى السجن ، ولكنه لم يمكث به طويلا ، اذ استخدم أساليب الرشوة . واستخدمها أيضـا ليستعيد الحظوة لدى السلطان ، وظل من ذلك الحين يصور له أن الأمور سوف تكون كلها على ما يرام ، بالنسبة له وللبلد إن هو صرف النظر عن البنادقة الذين انحطت أحوالهم ، وكفل للفرنسيين بدلا منهم المكانة الأولى فى أسـواق مصر وسوريا . وبالفعل ، وعد السلطان فى خطاب وجهه للويس الثانى عشر ملك فرنسا (فى ١٦ من نوفمبر ١٥١٠) بأن يكفل للفرنسيين الأفضلية

(١٠٩) يلاحظ فى هذه المفاوضات ان المبادرة كلها من جانب اسماعيل ، وأن الجمهورية لم تتخذ موقفا ايجابيا . انظر فى ذلك : Berchet, La republica di Venezia — e la Fersia (1865), p. 25 et s.

– وبخصوص الاتهامات الموجهة ضد زينو ، انظر :

(١١٠) Sanut., Diar., XI, 470, 480, 646, 825, 827 et s., 648 et s., 681, 696, 825 et s.; 827 et ss. ; XII, 153-57, 207-215, 234-[illegible]

(١١١) Campany, II, 307, 309; Peter Martyr ab Angleira, Legatio babylonica, p. 389 ; Marcenino da Civezza, Storia delle miss. francesc., VI., 388 et ss. ; Thenaud, Voyag. d'outremer

على البنادقة ، وعلى سائر الفرنجة بوجه عام (١١٢) • ولكى يعطى بيريتز نفسه مزيدا من الأهمية . ألح بأن فى وسعه أن يحصل من الملك على معونة مادية لتسليح الأسطول الذى جمعه السلطان لمحاربة البرتغاليين ، وتباهى بأن له نفوذا على الرئيس الأعلى لرودس بحيث يستطيع أن يحمله على اعادة الصفن المصرية التى استولى عليها مواطنوه فى خليج ايأس • وأخيرا أعلن عن نبأ جديد يتعلق به السلطان : ذلك هو وصول سفير من قبل ملك فرنسا (١١٣) • وكان النبأ صحيحا : فقد وصل السفير ، واسمه أندريه لو روى André Le Roy • الى القاهرة فى ٢٥ من مارس ١٥١٢ ، ولكن لم يكن له أولبريتز من النفوذ ما يكفى للتغلب على صلابة رأى الرئيس الأعلى لرودس ، فلم يرد السفن التى وقعت فى الأسر • ولم تأت مهمة لو روى اجمالا بنتائج تذكر ، كما أنها لم تكن ، كما سبق الوعد بذلك نقطة انقلاب فى الموقف التجارى (١١٤) • •

ولم يكن البنادقة مستعدين اطلاقا لأن يتركوا منافسيهم يحلون محلهم ، وأثبتوا ذلك بأن عرضوا فجأة أساطيل تجارية جديدة ، كانت منذ فترة طويلة متربصة فى الجزر المجاورة لمصر ، فى كانديا وقبرص انتظارا للحظة التى تتيح لهم فيها هدوء الحرب انفتاح موانى الاسكندرية أو بيروت • وأسفر هذا الاستعراض عن نتيجة مزدوجة : فقد أبان للسلطان بوضوح حيوية الجمهورية ، ثم أتاح له كسبا مباشرا • وأعجبت الفكرة السلطان حتى أنه قرر اعادة فتح موانيه للسفن البندقية ، وذلك قبل البت فى المنازعات بصورة نهائية (١١٥) • وكان فى هذا الأمر كسب للبندقية ، ولكن كان لزاما عليها أيضا حل المسائل المعلقة • ومن أجل ذلك لم يكن هناك مناص من ايفاد سفارة ، وكان فى ذلك مزيتان : ارضاء كبرياء السلطان ، واستجابة لرغبة طالما أبداها التجار البنادقة ، كما أن هذا أحسن رد فعل للمؤامرات الفرنسية • وفى ١٧ من نوفمبر ١٥١١ عين لهذه المهمة واحد من أكبر الأعضاء المرموقين فى مجلس الشيوخ ، وهو دومينكو تريفيزانى Domenico Trevisani وحرر بعض التعليمات

(١١٢) هذا الخطاب مدرج فى : Sanut., Diar., XII, 624 et ss.

(١١٣) بخصوص مؤامرات ووعود بيريتز • أنظر :
Sanut. Diar., XI, 826, 828 ; XII, 163 et s., 210 et s., 213, 236, 307 ; Priuli, p. 220 et s., 232 et s.
— وقبلا ، فى عام ١٥٠٥ حين رحل الفيز Alvis قاصدا مصر ، قيل له ان بيريتز هذا هو الد أعداء البندقية : Sanut., Diar., VI, 207. —

(١١٤) Saint-Priest, Mém. sur l'ambass. de France en Turquie (Paris, 1877), p. 345-353. ; Priuli, p. 232 et s., Sanuto, Diar., XII, 308.

(١١٥) Sanut., Diar., XII; 68, 77 et s., 163, 232, 245, 257, 271 et s., 298, 309 et s., 380 et s., 411, 427, 471, 487, 503 ; XIII, 346, 355 et et s., 364 etc.

المسلمة اليه « مجلس العشرة » وحرر بعضهـا الآخر مجلس البريجادى Pregadi بتـاريخ ٣٠ ، ٣١ من ديسـمبر (١١٦) · وغـادر السـفير البندقية فى ٢٢ من يناير ١٥١٢ فوصل القاهرة فى ٩ من مايو (١١٧) ، وهو دبلوماسى محنك ، وكفل له البذخ الذى ظهر به فى هذه المناسبة ، والهدايا النفيسة التى حملها للسلطان ، وأكثر من ذلك طبيعته التى جمعت بين قوة الارادة والمرونة ، كفل له كل ذلك منذ البداية كل فرص النجاح ·

وعند وصوله كان كونتارينى قنصل الاسكندرية ، وزينو قنصل دمشق لم يزالا محتجزين فى سجون القاهرة ، ومعهم عدد من التجار · وكان لابد أولا من اطلاق سراحهم ، ولم يكن هذا بالأمر الهين ، لأن مرأى زينو وحده كان كافيا لاثارة غضب السلطان من جديد · ولما كان تريفيزانى يتصرف طبقا للتعليمات التى تلقاها ، فانه بدأ بمعالجة مسألة الرسائل التى تبودلت بين البندقية واسماعيل الصفوى ، فتحدث عنها بصراحة كما لو كانت أمرا لا غبار عليه ، ونجح فى أن يقنع قنصوه الغورى ، فى هذا الخصوص بأن الجمهورية لم تفكر لحظة فى تدبير مؤامرة ضد مصر · ورغم كل شىء أصر السلطان على اتهام زينو بالخيانة العظمى لأنه عقـد لقاءات سرية فى اقليم سوريا مع عميل لملك أجنبى ، وكان يريد أن تدين رئاسة الجمهورية المجرم وتحـكم عليه بعقوبة الاعـدام ، أو على الأقل بالسجن مدى الحياة ، أو النفى · واستأذنه تريفيزانى فى ارسال زينو الى البندقية ، ووعد بأنه عندما يصل الى هناك سوف يجرى تحقيق صارم فى سلوكه ، فان ثبت اجرامه فسوف يحكم عليه بعقوبة رادعة · وفى ختام المقابلة ، وضع بنفسه السلسلة فى عنق المتهم ، وخرج به على هذا النحو من القاعة · وعندما عاد ليستأذن بالانصراف من السلطان ، أذن له السلطان أن يأخذ زينو بصفته عبدا له ، يتصرف فى أمره كما يشاء · وهكذا أنقذ الرجل التعس ، وعاد الى دمشق ، وفيما بعد الى البندقية حيث لم يزعجه أحد بطبيعة الحال فى موضوع المؤامرات التى دبرها مع

---

(١١٦) Sanuto, Diar., XIII, 359, 362, 364 ; Priuli p. 245 et s., Mas Latrie, Traités, p. 271-273 ; l'Archiv., Venet., II, 190-192 ; les suppléments an Voyage d'outremer de Thénaud, p. 237-248.

(١١٧) Diarii de Sanuto ; Viaggio di D. Trevisani, ambasciatore venet algran Sultano del Cairo nell' anno 1512, descrito da Zacc. Pagani, éd. N. Barozzi, Venez. 1975. ; Sanut. Diar., XV, 193-208 ; Sanuto, XN, 573 ; XV, 17-20, 174 et s., 255-257, 264, 266 ; Priuli, p. 243 et s., 245 et s. ; Mercant. Michicli, dans l'Archiv. Venet., XXII, p. XVII et s.

الشاه اسماعيل · أما باقى المسجونين فقد أطلق سراحهم بلا قيد ولا شرط (١١٨) ·

لننتقل الآن الى قسم آخر من تعليمات تريفيزانى · اذ كان عليه أن يعمل على هدم الثقة بممثل الأمة الفرنسية ، وكبير التراجمة تغرى بردى ، وتكذيب الشائعات التى روجوها ، والتأكيد على أن البندقية قادرة على التصدى لأعدائها ، ودعوة السلطان لأن يتمسك بتحالفه مع الجمهورية ، وأن يبدى أسفه لأنه إستمع فى الأوقات الأخيرة للتلميحات الشريرة الصادرة من أعداء البندقية ، ويصرح بأن الجمهورية تستطيع أن تستورد الفلفل من لشبونة بسعر أرخص ، ومع ذلك فقد تصرفت لصالح البلدين بأن واصلت ارسال سفنها الى مصر حيث تشحن بها الفلفل ، وتعطيها فى مقابل ذلك ذهبا وفضة ونحاسا وقصديرا ورصاصا وأصوافا وحرائر وزيتا وفاكهة ، الخ ، يضاف الى ذلك رغبة رئاسة الجمهورية فى أن تبقى مواد الاتفاقية المبرمة مع تغرى بردى عام ١٥٠٧ سارية المفعول بالنسبة الى البلدين ، وأخيرا مراعاة الرغبات التى أبداها قنصلا الاسكندرية ودمشق لصالح رعيتهما فى كل شىء · كان هذا بايجاز المهمة المتعددة الجوانب التى كلف بها السفير البندقى · وتضمنت النقطة الأخيرة دراسة التفاصيل المتعلقة بالعادات المتبعة فى الأسواق ، والرسوم الجمركية والبحرية ، وكانت هذه النقطة موضوعا لمناقشات جرت مع موظفيه ، وخاصة وكيله التجارى ، فى غير حضور السلطان · وفى حوزتنا المحاضر الرسمية للجلسات (١١٩) ، نطالع فيها التعنيفات والاتهامات المتبادلة بين المتفاوضين ، وكذا الوعود تصحيح ضروب العسف أو الغائها ، والعودة الى عرف أفضل · وليس فى امكاننا أن نتعرض لتفاصيل الوقائع التى ذكرها المستوطنون البنادقة فى الاسكندرية ، وطرابلس ، ودمشق ، وحلب ، ولكنا نعرف أحوالهم : ألم يعتبروا أنفسهم راضين بالوعد بعدم ضربهم بالعصا فى المستقبل دون صدور أمر خاص بذلك من السلطان ؟ ويهمنا بالأكثر ما أبداه المصريون من شكاوى ، اذ يتبين منها بصورة أكثر وضوحا حالة الانهيار التى آلت اليها التجارة فى الشرق الأدنى ·

وأول شكوى صدرت من المفاوضين المصريين تتعلق بقلة السفن التجارية البندقية التى تتردد على موانى مصر وسوريا · وكان تريفيزانى

---

(١١٨) Viaggio di D. Trevisani, p. 29-32, 49 ; Thénaud, Voyage, introd., p. lxxx.

(١١٩) ليس لدينا الى الآن ، مع الأسف سوى نص غير كامل وغير دقيق ، فى : Marin, VII, 288-321

يوقع هذا الاعتراض ، ذلك لأنه قبل وصوله كان السلطان قد خاطب القناصل الذين اعتقلوا بأمره ، فقال لهم : « أيها البنادقة ، انكم لا تفعلون شيئا في سبيل رخاء بلدي . ففيما مضى كان بلدكم يرسل سبع سفن الى الاسكندرية ، وخمسا الى بيروت ، وكلها ملأى بالبضائع ، وكانت مخازنكم مملوءة ، والآن لم تعودوا تحضرون شيئا ! » (١٢٠) أما مع تريفيزاني ، فالكلام كان أكثر صراحة ووضوحا . قيل له : فيما مضى اعتدنا أن نرى خمس سفن تدخل ميناء الاسكندرية سنويا ، بخلاف سفينتين أو ثلاث سفن تتكفل بالاتصالات التجارية مع سواحل البربر (شمال افريقيا) ، والآن لا تصل السفن الا مرة كل سنتين ، ونقص عددها من سبع أو ثماني سفن الى ثلاث ، ولم تعد السفن التجارية تظهر على الاطلاق . وفيما مضى كانت السفن تصل بانتظام في فترة « المدة » muda (فترة بقاء السفن التجارية الغربية في الميناء) مصحوبة بسفينة « تخزين » ، وطوال السنة كانت السفن التجارية تدخل فرادي في الميناء ، والآن أصبح من النادر أكثر فأكثر ظهور هذه السفن . وترتب على ذلك أن قلت كثيرا أهمية المواد المطلوبة في مصر : مثال ذلك ، كان يستورد فيما مضى من ثلاثة الى أربعة آلاف قنطار من صفائح النحاس ، ومن ثلاثة الى أربعة آلاف طن من الزيت ، فنقصت هذه الكميات الى ما متوسطه خمسمائة الى ثمانمائة قنطار من النحاس وألف وخمسمائة طن من الزيت . وفيما مضى كانت السفن ، عندما تغادر الميناء تترك في مخازن البلد بضائع قيمتها ٣٠٠٠٠٠ دوكا ، ونقودا في أيدي التجار تساوي هذه القيمة على الأقل ، وكان هذا يغذي حركة البيع والشراء طوال السنة ، والآن لا تكاد السفن تترك وراءها بضائع قيمتها ٨٠٠٠٠ دوكا ، ونقودا قيمتها ٢٠٠٠٠ دوكا . وفيما مضى ، يبقى دائما في البلد بعد رحيل السفن حوالي خمسة عشر تاجرا من تجار البندقية الرئيسيين الذين يباشرون بأنفسهم شئون تجارتهم . أما الآن ، فلا يظهر بالبلد من أول السنة الى آخرها سوى ثلاثة أو أربعة من الوكلاء الذين لا يملكون تقريبا أية موارد .

ولسوء الحظ كانت هذه المعلومات صحيحة ، ولم يكن في وسع تريفيزاني أن ينكرها ، ولكنه يقول انه اذا كانت الأمور سيئة الى هذا الحد ، فان الخطأ في ذلك يرجع بعضه الى ظروف عارضة . اذ كانت الحرب المشئومة ضد « حلف كمبرى » هي التي استنفدت موارد كان يمكن تخصيصها عن طيب خاطر لتجارة الشرق الأدنى . وكانت بعثات الاسبان الى سواحل شمال أفريقيا (بلاد البربر) هي التي أدت الى انقطاع

(١٢٠) Sant., Diar., XII, 238.

رحلات السفن التجارية بصفة مؤقتة . ولكن كان هناك أيضا سبب آخر لهبوط الحركة التجارية ، وهو سبب مستديم ، فرض نفسه بقسوة . ولا يمكن التفكير فى ازالته ، وقد خبره البنادقة من قبل فى عام ١٥٠٢ : ففى تلك الآونة كانوا لم يزالوا يرسلون الى الاسكندرية خمس سفن ، ولم يجدوا بها من البضائع ما يكفى لشحن سفينتين ونصف سفينة ، أو ثلاث سفن ، لأن التوابل كانت شحيحة هناك (١٢١) . وتكرر الأمر نفسه ، وبصورة أتم فى عام ١٥١٢ ، وأصبحت التوابل أشد ندرة ، وثمنها أكثر ارتفاعا حتى انه فى عام ١٥٠٣ ، وعلى سبيل المثال فى ٦ من أكتوبر طلب فى اجتماع لمجلس شيوخ البندقية تجار مرتبطون بأعمال تجارية مع اسكندرية ارسال مركب شراعى بريع ليبحث عن سفن أبحرت الى مصر ، اذ كانوا يريدون استرداد نقودهم لأنهم لا يريدون شراء توابل غالية الثمن يبيعونها بعد ذلك بخسارة نظرا لوفرة التوابل فى أسواق البرتغال (١٢٢) . وكان هناك فضـــلا عن ذلك أمر آخر خلاف ندرة التوابل وغلائها يبعد تجار البندقية عن السوق المصرية : ذلك أن نظاما تعسفيا كان يسود السوق المصريه . وقد احتج تريفيزانى بنوع خاص على المعاملة التعسفية المتبعة فى التجارة ، وذلك بحظر تحديد الأسعار من وقت لآخر تبعا لحالة السوق ، وفرض اسعار ثابتة طول السنة ، اما حسب الأسعار التى تم الوصول اليها فى الموسم Muda السابق ، أو حسب الأسعار المرتقبة فى الموسم التالى .

وأخيرا ، نوقش السعر الذى يتعين على الجمهورية دفعه عن المائتين والعشرة أطنان من الفلفل التى تلزمها المعاهدات شراءها ســـنويا من السلطان . واذ صرح السلطان بأنه لن يبيع هذه الكمية بالسعر المتفق عليه من قبل ، وهو ٨٠ دوكا ، فان الجمهورية أعلنت على لسان تريفيزانى انها بهذه الشروط تكف عن الشراء ، وعرضت أن تدفع للسلطان عن الموسم وعلى مدى ثلاث ســـنوات متوالية مبلغـــا قدره ١٥٠٠ أشرفى saraffi وعـــاد تريفزانى الى البنـــدقية فى ٢٣ من أكتـــوبر ١٥١٢ تاركا فى مصر مواطنيه بعد رد اعتبارهم فى نظر السلطان . ولم يعش الســـلطان الذى تفاوض معه الا بضع سنوات . والى أن حانت منيته لم يقع أى حادث يسىء علاقاته بالجمهورية . فلسنا نجد فى هذه الفترة سوى واقعة واحدة ذات أهمية : ففى عام ١٥١٤ أبلغت رئاسة الجمهورية السلطان قرارا .

---

(١٢١) Sanut., Diar., IV, 260, 265.

(١٢٢) Ibid. V, 135, 140.

— فى هذه السنة ، ١٥٠٣ ، أحضر عدد من التجار من مصر مواد الاستيراد التى كانوا قد خزنوها فيها . انظر . Ibid., p. 902 et s.

اتخذته ، لتيسير تجارة الفلفل ، وعرضت عليه القرار كنموذج يتبع . هذا القرار المؤرخ في ٣ مايو ، يعفي من جميع الضرائب البلدية أولئك التجار الذين يستوردون فلفلا من مصر وسوريا . على أنه لم يعبر وقت طويل حتى تبين أن هذا الاجراء لم يأت بالنجاح المنشود (١٢٣) .

ولما توفي قنصوه الغوري كان عصر المماليك قد أوشك على الانتهاء . ففي خريف عام ١٥١٦ استولى سليم الأول سلطان آل عثمان على دمشق ، وفي أوائل شهر يناير عام ١٥١٧ دخل القاهرة دخول الفاتحين ، وضم مصر وسوريا الى امبراطوريته المترامية الأطراف . وبادرت البندقية بايفاد مبعوثين يطلبان من العاهل الجديد أن يقر امتيازاتها القديمة في هذين البلدين ووجد السفيران بارتو لومبو كونتاريني Bartolommeo Contarini والفيزموتشينجو Alvise Mocenigo السلطان في القاهرة . وصرحت الجمهورية بأنها على استعداد لأن تعترف بأنها مدينة لسلاطين آل عثمان بجزية قدرها ٨٠٠٠ دوكا كانت تدفعها حتى ذلك الحين لسلاطين المماليك عن جزيرة قبرص ، وكانت الجزية تسدد دائما عينا ، ولكن سليم طلب أن يكون السداد بعد ذلك بالذهب ، وفي القسطنطينية ، كما طالب فضلا عن ذلك بدفع الخمسة أقساط الأخيرة . وبعد تسوية هذه المسائل ، كان على السفيرين أيضا أن يدحضا بلاغا كاذبا ضد الجمهورية . فعندما سقط آخر سلطان مملوكي ، كان في ميناء الاسكندرية بضع سفن للبندقية ، فادعى البعض أن هذه السفن أحضرت له اعانة مالية لمساعدته في المقاومة ، وقد ثبت أنها أحضرت نقودا بالفعل ، ولكنها لم تكن سوى المبلغ اللازم لسداد ثمن كمية الفلفل الاجبارية التي نصت عليها الاتفاقيات . واذ لم يعد هناك ما يمنع من التصديق على الامتيازات القديمة ، فقد تم ذلك في ٨ من سبتمبر ١٥١٧ (١٢٤) ، وسلمت الوثيقة لنيكولو براجادينو Niccolo Bragadino قنصل البندقية بالاسكندرية . وبعد اتمام هذه الاجراءات الشكلية سافر موتشينيجو الى القسطنطينية مع الأسطول التركي ، في حين أقلع كونتاريني الى قبرص ليجمع الدفعة الأولى عن الجزية . وفي هذه المرة وافق السلطان على أن يأخذ سدادا لهذه الدفعة

---

(١٢٣) Cod. Berol. ital., in 4, no 8, p. 52 et s. ; Etude de M. Thoma sur l'édition allemande de mon Histoire du commerce du Levant (Munich, 1880), p. 12 et s.

(١٢٤) التاريخ مذكور في : Romanin, V, 373.

قمحا وسكرا (١٢٥) • وهكذا ففى ظل النظام الجديد ، كمـــا فى ظل النظام القديم ــ بقيت مصر وسوريا مفتوحتين للتجار البنادقة ، ولم يتغير شىء فى مقار القناصل ، فقط فى منتصف القرن السادس عشر انتقلت قنصلية الاسكندرية الى القاهرة ، وتولى قنصليــة الاســكندرية نائب للقنصل ، وكان الباعث الوحيد لهذا الاجراء هو الانهيار السريع الذى أصاب هذه السوق • وفى عام ١٥١٥ كان لابد من الاهتمام بالاجراءات الواجبة فى الحالة التى يجد فيها قنصل الاسكندرية نفسه وقد استحال عليه أن يجمع الاثنى عشر تاجرا اللازمين لتشكيل مجلسه الكبير • وزاد الشعور بالضرر الذى يترتب على انقضاء سنتين بين رحلات السفن التى تنقل التوابل (١٢٦) •

وبالاجمال ، لم تكسب تجارة مصر أو تجارة سوريا شيئا من تغير النظام الحاكم فيها ، وبعد أن أجبر سليم الأول أغنى تجار القاهرة على التوجه بحرا الى القسطنطينية ، أصدر مرسوما يقضى بأن يتجه حرير فارس الذى كان يمر عادة بسوريا ، يتجه بعد ذلك الى عاصمته (١٢٧) • وأمر خليفته سليمان الأول بدوره بتركيز تجار التوابل بالقسطنطينية (١٢٨)• والواقع أن ذلك لم يغير من الواقع شيئا كثيرا : ألم تصبح مصر وسوريا مجرد اقليمين بسيطين يلقيــان معاملة سيئة لصــالح العاصمة التركية • ولو أنهما خضعتا لحكومة أفضل من الحكومة التركية ، وهى بالتأكيــد أسوأ حكومة يمكن أن توجد من وجهة النظر التجارية ، لما كان هناك شىء يمكن أن يقاوم حكم الواقع : فالحكومة الأكثر اهتماما بمصالح التجارة فى هذين البلدين لابد تعجز عن أن تعيد اليهما الرخاء المفقود • وازداد تدهور التجارة بالنسبة لازدياد سيطرة البرتغاليين فى الهند •

وبخلاف ذلك تماما ، المنظر الذى يتجلى لنا اذا اتجهنا بأبصــارنا صوب المملكة الاســتعمارية الجديدة التى أسسها فى الهنــد الفونس دالبوكيرك : اذ نشهد فى هذه الناحية تقدما مطردا • وأصبحت جوا Goa التى تم الاستيلاء عليها عــام ١٥١٠ عاصمة لهذه المستعمرة حيث كان القائد العام العظيم الذى يخشاه العرب ، ويعيش على وفاق تام مع الأمراء الوطنيين يتولى مقاليد الحكم باسم ملك البرتغال • وعلى طول ساحل الهند

---

(١٢٥) M. Alberi, dans ses : Relazioni degli ambasciatori Veneti, 3e série, vol. III, p. 51 et ss.

(١٢٦) Cod ital. Berol., in 4, no 8, p. 60, 75, b. 82, b, 109, b et s.

(١٢٧) Contarini, Relazioni, dans Allèri, I. c., p. 62.

(١٢٨) Pietro Zen, Relazione, ibid., p. 122 (relation écrite en 1530).

الغربى توقفت كل مقاومة • حتى «زامورين» قاليقوط نفسه ، وقد أزعجه تناقص عدد المقيمين فى دياره ، فانه أذن للبرتغاليين ، علاجا لذلك ، أن يشيدوا حصنا فى اقليمه ، وينشئوا به توكيلا تجاريا (١٥١٢) • وجاء دور الهند الصينية• وقد أدرك عمانويل منذ وقت مبكر ضرورة احتمال ملقا حتى يسيطر تماما على تجارة الهند • وبناء على أمره قام دييجو لوبيز دى سيكويرا Diego Lopez de Sequiera برحلة استكشافية فى تلك البقاع بأسطول قوامه أربع سفن ، فلم يقابل لدى سلطان ملقا المسلم الا بكل عداوة وخداع • ولم يمنع ذلك عمانويل من أن يعيد الكرة : اذ كان يأمل فى توثيق علاقاته بهذا الأمير بوسائل سلمية (١٢٩) • وفى شهر مارس ١٥١٠ ، أقلع أسطول ثان ، صغير كالأول متجها الى ملقا ، وعلى ظهر احدى السفن جيوفانى دا امبولى Giovanni da Empoli وكيل البيت التجارى الفلورنسى جوالتيروتى Gualterotti من « بروج » ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يسافر فيها الى الهند (١٣٠) وثمة وكيل تجارى فلورنسى آخر ، ليوناردو ناردى Leonardo Nardi (١٣١) سافر معه على السفينة نفسها • وانبع هذا الأسطول فى شهر يونية سفينتان أخريان ، وعلى متنهما فلورنسى ثالث لم يدون اسمه لسوء الحظ على رأس تقرير الرحلة الذى تركه(١٣٢) : وحين وصلت هذه السفن كلها الى الهند احتجزها البوكيرك بمقتضى سلطته المطلقة : ولعلها كانت مفيدة له فى غزو جوا الذى كان يعد وقتئذ العدة له ، ولمشروعات أخرى كان يتدبرها ، وكان يعتقد أيضا أنه اذا أريد ارسال أسطول الى ملقا ، فلابد أن يكون قويا حتى يلقى درسا قاسيا على ملك ملقا ، والا انتهت رحلته بفشل مؤكد • وكان فى عزمه الانتقام لسجو لوبيز دى سكويرا . ولهذا نظم حملة احتفظ لنفسه بقيادتها • وفى عام ١٥١١ استولى على ملقا ، ثم انهمك فى أن يضمن للمدينة ملكية وطنية هادئة باتخاذ مجموعة من التدابير الحازمة البارعة • وفى الوقت نفسه ، وحتى يكفل للتجارة الأمن الضرورى لنجاح عملياتها ، ضمن لنفسه صداقة الدول المجاورة وتحالفها ، دون أن يهمل فى هذا السبيل الدول البعيدة : فبعد أن وضع يده على المدينة ، بعث يمتدح ملوك سيام وبيجو Pégou

---

(١٢٩) Barros, Asia, III, 516.

(١٣٠) Vita di Giov. da Empoli, dans l'Archiv. stor. ital., append., III, 28 et s. ; Lettera di Giov. da Empoli, ibid., p. 35 et ss.

(١٣١) Vita di Giov. da Empoli, p. 29.

(١٣٢) خطاب محرر فى لشبونة فى ٢١ يونية ١٥١٣ ، فى :
Gubernatis, Storia dei viaggiatori italiani, p. 373-380.

وأرسل سفنا تجارية الى جزر باندا Banda وجزر ملوقا ، وكانت ملقا تعتبر آنئذ أوسع سوق فى منطقة الهند ، بل وفى العالم بأسره (١٣٣) ٠ واذا كان هذا الفتح قد أصاب باليأس والخراب تجار سواحل كجرات وكروماندل بعد أن انتزع منهم آخر قاعدة لعملياتهم (١٣٤) ، فانه قوبل بحماس من تجار لسبونة ٠ وقد جعل هذا الفتح لنشاط البحرية الوطنية هدفا جديدا بأن وضع تحت تصرفها منتجات الهند الصينية بشروط أفضل من حيث الكمية والسعر من شروط أسواق الهند حيث لا تصل المنتجات نفسها الا عن طريق وسيط أو وسيطين (١٣٥)٠وقام جيوفانى دا ايمبولى بحملته فى أعقاب البوكيرك ، وعاد بخمسة آلاف دوكا من ملقا (١٣٦) ، ولم يكد ينزل من سفينته فى كوشى حتى أصدر اليه القائد العام أمرا بالعودة الى ملقا ليعود منها بثلاث سفن كان قد تركها هناك ، ويتوقف فى الطريق عند سومطرة بقصد توثيق علاقات تجارية مع ملك باسيم Pacem وأنجز ايمبولى مهمته المزدوجة بنجاح واذ أصبح حر التصرف فانه اشترى توابل لحساب بيت جوالتيرونى وشحنها على ثلاث سفن فى ميناء كتشى ، واستصحبها حتى لشبونة حيث حقق منها ربحا كبيرا (وذلك فى ٢٢ من أغسطس ١٥١٤) ٠ ولكن الملك لم يترك له من الوقت ما يكفى لتسوية حساباته مع رؤسائه ، وعينه وكيلا له بسومطرة ، فسافر الى الهند فى ١٥ من أبريل ١٥١٥ بصحبة اثنين آخرين من الفلورنسيين (١٣٧) ٠ ووافق وصوله الى سومطرة ظروف غير ملائمة ، ومن ثم اقتضب اقامته بها ، ورحل الى الصين حيث سبقته اليها بعثة برتغالية ٠ وهناك حضرته

(١٣٣) Gubernatis, l.c., p. 377, 383, 385.

(١٣٤) 1Sommario, dans Ramusio, I, 328, b ; Barbosa ibid., p. 317 et

(١٣٥) فى ٢٠ مايو ١٥١٣ عادت سفينة الى لشبونة قادمة من ملقا ، تحمل ٩٠١ قنطارا من حوز الطيب ، ٥٥٢ قنطارا من « البسباسة » الخ ٠ انظر فى ذلك الخطاب المحرر من فلادليد :
Valladolid par Franc. Guicciardini, dans ses Opere inedite, VI, (1864) 219 et ss.

(١٣٦) Anonym e dans Gubernatis, p. 379.

(١٣٧) Archiv. stor. ital., 4 série, VI (1880), p. 170-173.

المنية ، قبل الأوان ، فوضعت حدا لحياته المضطربة (١٥١٧) (١٣٨) · وكان أحد مواطنيه ، ويدعى بييترو ستروتزى Pietro Strozzi قد اشترك معه فى فتح ملقا (١٣٩) ، وعند عودته من هذه الجملة زار ساحل كرماندل ، واشترى كما يقال من بالياكات Paleacate (بوليكات Poulikat) ماسة رائعة الجمال (١٤٠) · وفى هذه الأثناء بادر الفلورنسيون المقيمون بلشبونة بالاستفادة من فتح ملقا ، فأرسل اليها أحدهم ، واسمه جيرولامو سيرنيجى Girolamo Sernigi أربع سفن، عادت احداها فى ربيع عام ١٥١٣ وبها شحنة غطى بيعها كل مصاريف البعثة ، وترك ربحا قدره ٦٠ الى ٧٠ فى المائة (١٤١) · ولعل التجار البرتغاليين من ناحيتهم ، وعلى رأسهم الملك لم يهملوا تجارة تتيح لهم مثل هذه الفرص المربحة ·

ولكننا لم نفرغ بعد من فتوحات البوكيرك : فالسنوات التى استعرضناها تميزت بكسب لايقل روعة عن سائر المكاسب · ففى عام ١٥٠٧ فرض البوكيرك جزية على ملك هرمز ، وفى عام ١٥١٥ جرده تماما من سلطاته · واعتبارا من تلك اللحظة تولى البرتغاليون حكم الجزيرة وهم مستقرون فى قلعتهم ، واستولوا بذلك على مفاتيح الخليج الفارسى · وحتى ذلك الحين كان جزء من منتجات الهند يمر عبر الخليج الفارسى فيصل الى الأقاليم التى يرويها نهرا الدجلة والفرات ، ثم يصعد من هناك حتى يصل الى سوريا حيث يأتى الغربيون ، ومنهم البنادقة بنوع خاص للحصول على هذه المنتجات فى دمشق ، أو بيروت ، أو حلب ، أو طرابلس ، فهذه الحركة التجارية التى كان يباشرها المسلمون وحدهم، أصيبت للحال بضرر بليغ · وكانت جهود البرتغاليون كلها تنزع الى جعل لشبونة هى المستودع الوحيد للتوابل لتزويد الغرب كله بها ، فكان من مصلحتهم شحن سفنهم بمنتجات وسط آسيا الواردة الى هرمز على القوافل الفارسية ، وكذلك منتجات مصائد اللؤلؤ فى الخليج الفارسى ،

---

(١٣٨) فى غضون الرحلة الاخيرة ، كتب من كشى فى ١٥ نوفمبر ١٥١٥ خطابا موجها الى لشبونة : Archiv. stor. ital., append., III, 85 et ss.

– وبعد قليل جرى له حديث مع البوكيرك حيث وجده على فراش الموت (Barros, Asia, IV, 491)

– وبخصوص رحلته الى سومطرة والصين ، انظر :

— la fin de sa Vie, et Barros, V, 177, 214 et s. ; Corsali, p. 280.

(١٣٩) Gubernatis, p. 379. ibid. p. 381 et s.

(١٤٠) Corsali dans Romausio, I, 179, b, 189, a, 118, b.

(١٤١) Guicciardini, Opere inedite, VI, 220.

واحتكار تجارة الخيول العربية والفارسية التى تصـــدر من هرمز الى الهند • ولم ينتظر البوكيرك سنوح هذه الفرصة ليامر بأن تتجه قوافل الخيول كلها الى جوا ، وهى المرسى الوحيد المرخص به اعتبارا من ذلك الحين (١٤٢) •

أما فى البحر الأحمر ، فكان نجاح البرتغاليين فيه أقل من نجاحهم فى الخليج الفارسى • وقد اخترق البوكيرك بأسطوله البحر الأحمر لأول مرة حتى جزيرة كمران Kamran (شمالى الحديدة ــ المترجم) ، ولكن عدن صدت حملته (١٥١٣) • وتقدم خليفته لوبو سواريز Lopo Sarez حتى جدة ، الا أنه لم يحظ بفخر تدمير الأسطول الذى جمعه فى هذا الميناء آخر سلاطين المماليك ، لأن هذا الأسطول تشتت عندما بلغه نبأ ســقوط السلطان ، ولم يوفق فى الاستيلاء على عدن (١٥١٨) • واستمرت السفن التجارية الاسلامية تروح وتغدو بحرية فى البحر الأحمر ، فلم يكن هناك قلعة أو طرادات برتغالية تمنعها من ذلك • ولكنهـــا اذا خرجت تجوب المحيط الهندى ، قضى عليها بالهلاك ، ولا ينقذها من هذا المصير المحتوم لجوؤها الى الموانى الهندية ، وبالأخص حين جعل البرتغاليون يطلقون فى هذه الأصقاع أساطيل بصفة مستديمة •

وأخيرا ، صار البرتغاليون سادة الأقاليم كلها • واذا نجح بعض القراصنة الشجعان فى المرور من وقت لآخر ببضائع عبر الطرق القديمة ، فان ذلك كان من الندرة بحيث لايكفى لملء مخازن الاسكندرية أو بيروت بالبضـــائع ، أو تموين السفن البنـــدقية التى لا تزل تتردد على هذه الأسواق • وبدأت البلاد التى كانت حتى ذلك الحين تتزود بحاجتها من التوابل من البندقية ، بدأت تشـــكو من نقص هذه السلع • ففى عامى ١٥١٢ ، ١٥١٣ على سبيل المثال أرسل تجار التجزئة فى البندقية عرائض الى الامبراطور ماكسيميليان يشرحون له أنه لاسبيل لهم للحصول على ما يكفيهم من الفلفل ، ويتوسلون اليه الا يغلق ولاياته فى وجـه التجار الأجـانب الذين يعرضـــون تصـــدير الفلفل من أنفير ، وفرانكفورت ، ونورمبرج ، الخ الى الأقاليم التى يرويهـا نهر الدانوب (١٤٣) • وهكذا لم تعد « فيينا » تتزود من البندقية القريبة منها ، ومضت من ثم تطلب

(١٤٢) Barros, Asia, IV, 222.

(١٤٣) Archiv für Kunde österreichischer Geschichtsquellen, XIV (1855), p. 272 et s.

حاجتها من الفلفل من بعيد ، من لشبونة (١٤٤) ! وايطاليا نفسها آل أمرها الى هذه الحال . ففى خلال مفاوضاتها مع السلطان فى عام ١٥١٢ قال تريفيزانى ذات يوم عبارة لها دلالتها : قال ان النقود لم تكن أبدا نادرة بايطاليا كما هى الآن ، فالحروب التى لا تنقطع قد استنفدت جزءا منها ، كما أنفق الجزء الباقى فى البرتغال سدادا لثمن الفلفل (١٤٥) . وأخيرا ، اضطر البنادقة أنفسهم الى مجاراة التيار والالتجاء الى سوق لشبونة . وفى عام ١٥١٤ كانت سفينة عائدة من الهند بشحنة توابل من كتى وكانوز ، وخشب البقم ومواد أخرى من أمريكا الجنوبية ، ومرت بلشبونة ، ثم واصلت مسيرتها دون توقف الى البندقية (١٤٦) ، ويبدو أن شحنتها هذه كانت تخص تجارا من البندقية . وثمة شخص بندقى يدعى جياكومو تاليابترا Giacomo Tagliaperta فكر فى مشروع ما وهو أن يذهب الى الهند بأسطول برتغالى ، وعرض المشروع على عمانويل وطلب منه الاذن بتنفيذه ، ولكن الملك رفض النظر فى المشروع ، ويغلب الظن أن رفض الملك كان قائما على رأى مبشر ازاء البنادقة ، لأنه فى الوقت نفسه ابرم غقدا مهما مع بيت افيتاتى Affaitati من كريمونة Crémone . وعلى ذلك عاد تاليابترا الى البندقة بخفى حنين (فبراير ١٥١٨) (١٤٧) . ثم انه اذا كان ثمة رأى مبتسر لدى الملك فان ذلك يخص جمهورية البندقية بوجه عام . والبندقية ، كما يقول بعض المؤرخين البرتغاليين (١٤٨) بذلت مساعى عديدة لدى الملك لتتنازل لها فى مقابل ثمن محدد عن مجموع التوابل التى تستوردها أساطيله من الهند الى لشبونة . وفى عام ١٥٢١ ، ولآخرة مرة ، كلف ألساندرو بزارو Alessandro Pesaro قائد السفن المرسلة من البندقة الى الفلاندر بان يجدد هذا العرض . ولكن عمانويل أصر على الرفض ، وتوفى بعد قليل . بمقتضى مرسوم بتاريخ ٢ من يناير ١٥٢٢ صدق خليفته يوحنا الثالث

---

(١٤٤) كان الوسطاء الرئيسيون الذين لجأت اليهم فى هذا الظرف هم غالبا تجار الجملة فى نورمبرج . وكان لبيت هيرشفوجل Hirschvogel فرع فى لشبونة ، وكان يرسل وكلاءه الى الهند . انظر . خطاب بورج بوك المرسل من كشى بتاريخ أول يناير ١٥٢٢ فى Ghillany, Geschichte Martin Behaims, p. 120 et ss. :

-- وبخصوص تاريخ التوابل التى يزاولها الالمان فى لشبونة ، انظر :

Cassel, op. cit., p. 11-15.

(١٤٥) Marin, VII, 297.

(١٤٦) Gubernatis, Storia dei viaggiatoria italiani, p. 380.

(١٤٧) Sanuto, Diarii, XXV, 164 (inéd).

(١٤٨) Goes Chronica do Rey Emanuel, fol. 338 et s. ; Osorius, De rebus Emmanuelis, p. 366.

على الامتيازات التى كان يتمتع بها البنادقة فى مشبونة ، ولكنه لم يضمن المرسوم أية اشارة الى التنازل عن احتكار التوابل (١٤٩) · وكانت مصلحة البرتغاليين تقضى بأن تكون لشبونة مركزا لتجارة التوابل لكل الأمم الغربية ، وتكللت جهودهم فى هذا السبيل بنجاح باهر ·

وهكذا كان من شأن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أن زعزع بشدة رخاء الأمم المطلة على البحر المتوسط وذلك بالقضاء على تجارة الشرق الأدنى التى كانت تحتكرها هذه الأمم · ولبعث هذه التجارة كان لابد من اللجوء الى الوسيلة الوحيدة القادرة على تحقيق هذه المعجزة ، وهى شق قناة السويس · ففى عام ١٥٠٠ لم يكن الذين يفكرون فى هذا العلاج البطولى فى البندقية قليلين · ففى التعليمات المحررة لفرانشسكو تيلدى فى عام ١٥٠٤ وضعت رئاسة الجمهورية فقرة توصى بهذا المشروع ، ولكنها شطبتها بعد أن ناقشتها بعناية (١٥٠) ، خوفا من أن يرى السلطان فى المشروع اقتراحا مشوبا بالأنانية · وكان الأتراك هم أول من تابع هذا المشروع · ففى عام ١٥٢٩ اشتغل عشرون ألف عامل فى ترميم قناة كانت تربط فى قديم الزمان البحر الأحمر بالنيل (١٥١) · وقدر لعصرنا الحاضر أن يشهد هذا العمل العظيم وقد تحقق بانشاء قناة بحرية بين البحر الأحمر والبحر الأبيض ·

---

(١٤٩) Marin, VII, 322 et ss.

(١٥٠) M. Fulin, dans l'Archiv. Venet., II, 195 et s.

(١٥١) Benedetto, p. 98, 106 ; l'Itinerario di P. Zeno : Archiv. Venet., XXII, p. 112.

ملحقـــات

أولا : المـواد المتبادلة بين الشرق والغرب

ثانيا : عمـلاء تجـارة الشرق الأدنى

الملحق رقم ١

المــواد المتبادلة بين الشرق والغرب

أولا : النــاس (الرقيق)

رأينا كيف أن سلاطين المماليك الذين حكموا مصر منذ أواسط القرن الثالث عشر لم يجدوا موارد كافية لتجنيد الجيوش من بين الأهالى الوطنيين الذين لا يصلحون لمهنة الحرب ، فكانوا يلجأون لمصدر آخر : ذلك هو شراء العبيد من البلاد الشمالية . ومن جهة أخرى ، ولملأ دور الحريم فى قصورهم وقصور الشخصيات الكبيرة فى بلاطهم كان لابد من وقت لآخر من احضان أقنان من الاناث (١) . لذلك كانوا يوفدون عملاء لهم بحثا عن عبيد من الجنسين ، فى كل الأمكنة التى يمكن الحصول عليهم فيها ، حتى فى البلاد المسيحية ، مثـــل أرمينيا الصغرى (٢) . اذ لم يكن لديانة هؤلاء العبيد أهمية تذكر ، فان كانوا مسيحيين جعلهم ســادتهم الجدد يرتدون عن دينهم . ومع ذلك كان العملاء المصريون يفضلون زيارة البلاد التى يسودها الاسلام . كذلك كان هناك تجار ينتمون الى بلاد اسلامية يجلبون الى مصر جماعات من العبيد يبيعونهم بها : من ذلك بنوع خاص

---

(١) ورد ذكر هؤلاء كثيرا فى الوثائق باسم « مماليك » أى عبيد .

(٢) المقريزى : تاريخ السلاطين المماليك Hist. des :ultans mamlouks, II, 1 p. 207.

أن ميناءى كلايا ، وأضاليا الواقعين بآسيا الصغرى التى كانت خاضعة للسلاجقة ، كأنما يصدران الى مصر فتيانا وفتيات (من الرقيق) (٣) وعندما سقطت أندرينوبل ، وجاليبولى فى أيدى العثمانيين أصبحت هاتان المدينتان نقطتى انطلاق السفن اليونانية والمسيحية التى تورد مئات العبيد الى دمياط والاسكندرية (٤) ، غير أن البلاد المطلة على البحر الأسود كانت هى التى بلغ فيها هذا النوع من التجارة أقصى درجات الرخاء ، اذ كان نمو سيادة سلاطين المماليك بمصر ، وانتشار الاسلام فى مملكة القفجاق المغولية على يدى بركة خان متزامنين تقريبا ، فكان هذان الحدثان نقطة انطلاق لتبادل نشيط للمراسلات والسفارات بين سادة البلدين(٥)، واعتبارا من هذا الحين، وجه العملاء المكلفون بشراء العبيد لحساب السلاطين بحثهم بنوع خاص نحو السواحل الشمالية للبحر الأسود ، وتوصل السلطان بيبرس ، عن طريق البعوث والهدايا الى الحصول من ميخائيل باليولوجوس على تصريح بمرور السفن التجارية المصرية فى البوسفور ، ولم يصـــدر التصريح الا لسفينة واحدة تقوم مرة واحدة فى السنة برحلة الذهاب والعودة فى البحر الأسود ، ولكن كثيرا ماأمرت هناك سفينتان بدلا من واحدة ، وكانت حمولتهما فى العودة تشمل عبيدا لتعزيز قوات السلطان (٦) ، وجدير بالذكر ان الظروف السائدة فى تلك البقاع كانت ملائمة كل الملاءمة لنمو هذا النوع من التجارة ، ومع أن التتـار كانوا مستقرين تمـــاما فى امبراطوريتهم ، امبراطورية القفجاق ، فقد كانت هناك على الدوام قبائل متمردة ، وكانت الحالة بين هؤلاء هى حالة حرب ، حرب المناوشات التى يقوم فيها الشركس ، والروس ، والمجيار ، والآلان Alains بخطف الأطفال التتار وبيعهم بيع الرقيق ، كمـا كان التتار يسترقون الأسرى الذين يعودون بهم من غاراتهم فى القوقاز ، بل وكان من المعتاد فى هذه العشائر البدائية ، حين تشح المؤن ، أو تكون الضرائب مرهقة للغاية ، ترى الآباء يبيعون أطفالهم ، وبخاصة البنات منهم (٧) ، ولم يكن يباع بطبيعة الحال سوى الأفراد الأسوياء الأصحاء ، الأقوياء البنية ، غير أنه على امتداد تلك السواحل ، لم يكن التتار أو القبائل الخاضعة لهم يملكون

---

(٣) سانوتو : Sanuto, Secr. fidel. cruc., p. 27, 29.

(٤) Piloti, p. 338 et s.

(٥) انظر اثبات ذلك فى مقال السيد ديفرى عن ابن بطوطة ، فى :
Défémery ... Journ. Asiat., 4 série, XVI, 59 et s.

(٦) Pachym., I, 174-179 ; Nicéph. Grég., I, 101.

(٧) Chehabedddin, P. 269, 270, 285 ; Schilt berger, p. 107 ; Nicéph. Grég., I, 102 ; Laon. Chalcoc., p. 135 et s.

موانی تجارية كبيرة ، مثـــل كافا ، وتانا ، الخ التى كانت فى ايدى الايطاليين ، وترتب على ذلك أن تجـــارة الرقيق تركزت فى الأســـواق الايطالية ، وبخاصة كافا • وكانت هذه المدينة هى المقصد الرئيسى للعملاء المكلفين بشراء العبيد لحساب ســـلاطين مصر ، بل ان عددا منهم كانوا يقيمون بها بصفة دائمة (٨) • وكان الجنويون مضطرين للسماح للعبيد القاصدين الى مصر بأن يركبوا السفن فى مينائهم كافا (٩) ، وهم ان أقاموا الصعوبات فى وجه عملاء السلاطين ، فانهم يعرضون للخطر ، الى أقصى درجة علاقاتهم التجارية مع مصر ، ووجود مستوطناتهم هناك • فضلا عن ذلك ، كانت هذه التجارة من جانب السلطات الاستعمارية موضوعا لرقابة صارمة • فكل عبد يمر من هناك يخضع لاستجواب ، فيسأل عما اذا كان مسلما أو مسيحيا ، فان كان مسيحيا ، أو رغب فى التحول الى الدين المسيحى ، اشتراه قنصل كافا واحتفظ به عنده ، ولا يسمح بالرحيل الا للمسلمين (١٠) أما العبيد الذين يعتزمون اعتناق المسيحية فانهم يجدون فى دار الأسقف ملجأ تحترمه السلطـات المدنيـــة (١١) • كذلك تهتم السلطات كل الاهتمام بألا يؤخذ أى فرد من أهـالى كافا عبـــدا مـــع العبيد (١٢) • وأخيرا ، كانت تجارة العبيد خاضعة لضريبـــة ، وأبقت جمهورية جنوا فى عام ١٤٢١ على هذه الضريبة ، رغم مطالبات السلطان « برسباى » الذى فرض فى مقابل ذلك على التجار الجنويين المقيمين بمصر ضريبة قدرها ١٦٠٠٠ دوكا (١٣) •

وعلى ذلك لم تكن تجارة العبيد مرخصا بها قانونا من جانب السلطات الجنوية الاستعمارية الا بالنسبة للمسلمين ، بشرط أن ينقلوا الى مصر بمعرفة تجار من دينهم ، وعلى سفن يمتلكها هؤلاء التجار • وكان محظورا على قباطنة السفن الجنوية ، حظرا باتا ، تحت طائلة غرامات جسيمة أن يستقل سفنهم مماليك من الجنسين لنقلهم الى مصر أو شمال افريقيا ،

---

(٨) Piloti, p. 332, 339 ; Tafur, p. 161 et s.
– هذا الرحالة اشترى من كافا نفسها رجلين وامرأة ليصحبهما معه الى اسبانيا •

(٩) فى عام ١٤٢١ كان هذا الأمر موضوعا لسلسلة من المفاوضات مع سلطان مصر ؛ وأعلنت الجمهورية صراحة موافقتها على أن يحضر السلطان عبيره عن طريق كافا :

(١٠) Not. et extr., XI, 74 : Pilot, p. 339, 343.
– لاؤون الثالث ملك أرمينيا الصغرى كان قد حصل من الجنويين على وعد بالا يبيعوا المسلمين أيا من رعاياه :
— Dulaurier, Docum. armén., I, 752.

(١١) Statut de 1449 : Atti della Soc. Lib., VII, 2, p. 634 et s.

(١٢) Ibid. p. 635 et s.

(١٣) Not et extr., l.c.

او ذلك القسم من اسبانيا التى يحتله المسلمون ، ولم يكن مصرحا لأى جنوى أن يساهم فى هذه الحركة التجارية بأية صورة كانت (١٤) • كذلك كان محظورا على السفن البندقية المتأهبة للاقلاع من تانا أن تقل على متنها عبيدا من المسلمين أو من التتار لترحيلهم الى اقليم تركى (١٥) • ولم تمنع هذه الاجراءات بعض المسيحيين المقيمين بالساحل الشمالى لبنطس من تصدير جماعات من العبيد الى مصر • وقد رأينا فى عام ١٣٠٧ مستوطنى كافا يخطفون أطفال التتار ليبيعوهم الى المسلمين (أى ليصدروهم الى مصر) • وفى عام ١٣٧١ حضر شخص يدعى نيكولو دى سان جورجيو الى كافا بصفته «بائع عبيد بالتجزئة» (١٦) • ولسنا نعرف ما اذا كان هذا الشخص يؤدى عمليات تجارية فى مصر ، ولكن فى مستهل القرن الرابع عشر أحضر جنوى يدعى سيجوزانو سلفاجو بنفسه عبيدا من الجنسين الى سلطان مصر (١٧) ، وشخص آخر يدعى جنتيلي امبريالي قبل أن يتولى مهام السلطان فى كافا لشراء العبيد (١٨) • ثم ان الكثير من الجنويين أسهموا بطريق غير مباشر فى نقل العبيد الى مصر ، وتتمثل الوسيلة الى ذلك ببساطة فى تأجير سفنهم لهذا الغرض لتجار الرقيق المسلمين (١٩) • لذلك كان البابا يوحنا الثاني والعشرون محقا فى شكواه حين اتهم الجنويين فى مواجهة العالم كله بأنهم يسهمون فى تعزيز قوة « الكفار » بتزويدهم بالعبيد (٢٠) • وبعد انقضاء قرابة مائة سنة ، كان هناك مسيحيون ويهود يشترون فى كافا وتانا وأماكن أخرى عبيدا من الروس والزيشين Zichiens والمنجريليين Mingreliens والأبخاز ويبيعونهم للمسلمين بربح يصل فى الكثير من الأحيان الى عشرة أضعاف ثمن الشراء • هؤلاء التعساء الذين عمدوا حسب الطقوس اليونانية ... من حسن حظهم لو أن لم يصيروا ... هم فى أغراضهم الشائنة • واذ بلغت

---

(١٤) Lois des annéei 1316 et 1340 ; Off. Gaz., p. 371-377, Atti della Soc. Lig., XIII, 111.

(١٥) Commem. reg., III, p. 189 et s., no 274 (années 1387 et 1394).

(١٦) Cibrario, Nota sul commercio degli schiavi a Genova, nel XIV, dans ses Operette varie (Torino, 1860), p. 303; Archives de Génes.

(١٧) Guill. Adae, De modo extirpandi Saracenos (1316) : Giorn. lig., 1878, p.275.

(١٨) رواه الرحالة بيرتراندون دى لابروكيير (ص ٥١٠) فى دمشق عام ١٤٣٢ •

(١٩) Piloti, p. 338, 378.

(٢٠) Raynald, op. cit., a.a. 1817, no 36.

مسامع مارتن الخامس Martin V نبأ هذا العمل المزرى فان حكم بالحرمان على كل المسيحيين الذين ثبت اقترافهم هذا العمل · أما بخصوص اليهود فانه أصدر مرسوما يحكم على كل من يثبت اقترافه هذا العمل بأن يحمل علامة خاصة على ثيابه (١٤٢٥) (٢١) ·

وعلى هذا كان يصل كل عام الى سوق القاهرة الكبير ، عن طريق دمياط والاسكندرية (٢٢) قرابة ألفى مملوك يقدر السلطان قيمتهم بواسطة خبراء أكفاء · وكان الأفراد الذين يباعون بأعلى الأثمان هم التتار ، فتبلغ قيمة الواحد منهم من ١٣٠ الى ١٤٠ دوكا ، ويدفع (٢٣) عن الشركسى من ١١٠ الى ١٢٠ دوكا ، وعن اليونانى حوالى ٩٠ دوكا ، وعن الألبانى ، والسلوفينى ، والصربى من ٧٠ الى ٨٠ دوكا · وكان تجار الرقيق يتمتعون بمزيتين : مزية الحصول على أرباح طائلة ، ومزية كسب عطف السلطان للخدمات التى يؤدونها للاسلام (٢٤) ·

ولم يكن هؤلاء الأرقاء الشرقيون المصدرون الى السواحل الشمالية للبحر الأسود ، يرحلون كلهم منها ضمن القوافل الكبيرة المتجهة الى مصر والبلاد الاسلامية بعامة · اذ نعرف الكثير من الأمثلة لبيوع ومشتروات أجراها أعضاء الجاليات أنفسهم · نذكر من هذه الأمثلة امرأة تدعى « فاطمة » يكشف اسمها عن أصلها الاسلامى : فقد اشتراها أولا جنوى يدعى نيكولوزو مورتا ، ثم باعها لرئيس كنيسة « سان لوران دى جنوا »، وباعها الأخير لجنوى ثالث بأربعمائة درهم أرمنى جديد · ولدينا عقود بيع من هذا النوع أبرمت فى فاماجوستا (٢٥) · وأولئك الذين اعتادوا أثناء اقامتهم فى مستعمرات الشرق الأدنى أن يكون فى خدمتهم عبيد أجانب ، كانوا يعودون بهذه العادة الى أوطانهم ، ويشجعون غيرهم على احضار عبيد الى منازلهم ، عبيد يشترونهم من بلاد نائية ليحلوا محل الخدم أو العمال

---

(٢١) Bullarium Rom., éd., Taurin., IV, 718 et ss., 720 et s.

(٢٢) رأينا أنه كان فى تلك المدينة فندق تتارى لخدمة تجار الرقيق ·

(٢٣) بعد أن قال طافور (Tafur, p. 161 et s.) ان العبيد التتار فى كافا كان يدفع لشرائهم ثلاثة أضعاف سائر العبيد فى جهات أخرى ، أضاف أن هذا الفرق يرجع الى طبيعة خاصة بهم : تلك هى وفاؤهم لسادتهم وتعلقهم بهم · أليس من المقبول القول بأن هذه الطبيعة كانت معروفة لدى عبيد مصر الذين كانوا يعدون لكى يكونوا جنودا ؟

(٢٤) Piloti, p. 339.

(٢٥) Acte notariés, communiqués par M. Desimoni, dans les Arch. de l'Or. lat., I, 456 et s., 477 ; II, 49, 51, 53, 86, 92, 94.

الأجراء . فلم يكن هناك حظر فى هذا الخصوص (٢٦) ، ولم تكن تجارة الرقيق تسبب خزيا وعارا ، بشرط الا يعقد التاجر صفقات فى مصر . وثمة قانون جنوى لعام ١٤٤١ يزودنا بدليل واضح كل الوضوح : فهو يحظر على قباطنة السفن الحربية المسلحة الكبيرة التى تبحر ونحضر بضائع من بلاد الروم ، أو من سوريا أن تقبل عبيدا على متنها (٢٧) ، وذلك بحجة أن كل مكان شاغر يجب أن يخص للبضائع ، ويستثنى القانون من ذلك حالة التاجر الذى يستقبل السفينة مستصحب عبدا كخادم خاص له . وهناك سفن أخرى مخصصة لنقل العبيد ، لم يتخذ القانون بشأنها سوى اجراءات تمنع ازدحامها بدرجة تضر بشحنتها وبسلامة الركاب . من ذلك أن السفينة ذات الطابق الواحد لايجوز لها أن أن تقل أكثر من ثلاثين عبدا ، أما السفينة ذات الطابقين فلا يجوز أن تقل أكثر من ٤٥ عبدا ، ولا يجوز للسفينة ذات الثلاثة طوابق أن تقل أكثر من ستين (٢٨) .

وفى ذاك الأوان ، كان من المسلم به أن فى مقدور أى مسيحى أن يعامل معاملة العبيد أى « كافر » يقع تحت سيطرته ، دون أن يلومه أحد ، وكان معظم هؤلاء « الكفار » ، من مسلمين ووثنيين ممن تتداولهم هذه التجارة (٢٩) . وكان أغلبية العبيد الأجانب الذين يؤتى بهم الى الغرب ينتمون بأصلهم الى امبراطورية القفجاق الواقعة جنوبى روسيا الحالية ، وهم من سلالة تتارية تسيطر على هذا البلد ، أو من احدى القبائل الخاضعة لها ، وتتسمى بعامة باسمها . وكان الشراكسة (٣٠) والروس أقل عددا ، ويلى هؤلاء الأتراك والعرب . وهذه التسمية الأخيرة تطلق بلا شك على المصريين والسوريين . ويأتى بعد هؤلاء ، ولكن بعدد قليل

---

(٢٦) هناك قانون فلورنسى لعام ١٣٦٤ يسمح باحضار عبيد من غير النصارى من الجنسين الى اقليم الجمهورية والاحتفاظ بهم هناك بصفتهم هذه ، والتصرف فى شانهم بالبيع او الهبة : Doc. sulle relaz. tosc., p. 120 et s.

(٢٧) جرت فى مجلس شيوخ البندقية فى ١٣ من يونية ١٤١٢ مداولة تدعو الى مراعاة قانون مماثل : Voy Lazari, p. 485.

(٢٨) Pardessus, Collection des lois maritimes, IV, 515 et s.

(٢٩) فى عام ١٢٠٨ اشتكى الامبراطور أندرونيك من أن بعض الافراد يستخدمون أساليب مختلفة لاقناع فتيان وفتيات من اليونان بمصاحبتهم الى جنوا ، وهناك يبيعونهم بيع الرقيق .

(٣٠) نجد احيانا مع هؤلاء اشارة خاصة للابخاز ، والمنجريليين .

جدا ، البلغار ، والسلوفينيين ، واليونانيين (٣١) ، وهؤلاء الأخيرون هم الوحيدون ، حسب الآراء السائدة فى ذلك العصر الذين يشك فى أنه كان من الجائز بيعهم بيع الرقيق ، لأنهم مسيحيون · ولكن لم يكن أحد ، فى الواقع العملى يهتم كثيرا بمراعاة هذا الحظر · أما بخصوص العبيـد الذين لم يكونوا ينتمون الى الدين المسيحى ، فكانوا يرتدون بعامة عن دينهم الأصلى بعد وصولهم الى الغرب بقليل ، فيغيرون أسماءهم الأصلية ويكتسبون أسماء مسيحية · ومع ذلك ، ورغم تنصرهم ، كان سادتهـم لايراعون أن يحتفظوا بهم عبيدا ، أو أن يبيعوهم ·

ومن شأن أصل الأغلبيـــة الكبرى من هؤلاء الرقيق أن يبعث على الافتراض بأن الأمم التى كان لها مستعمرات فى البحر الأسود (٣٢) ، كالجنويين والبنادقة ، كانت هى أيضا الأمم التى مارست بنوع خاص تجارة الرقيق (٣٣) · وبالفعل كان يصـــل من هؤلاء الرقيق إلى جنوا والبندقية المئات ، بل الألوف ، ويصل أقل من هؤلاء الى بيزا ، وفلورنسا، ولوكا ، وبرشلونة (٣٤) · وفى عام ١٣٦٨ كان منهم فى البندقية عدد كبير ، يشكلون طغمة من الرعاع المحبين للنزاع والشجار ، ويمثلون خطرا حقيقيا على أمن المدينة وطمأنينتها · ولم يكن العبيد من التتار يجلبون الى المدينة فرادى ، بل يرد اليها أحيانا أسر كاملة منهم (٣٥) · ومن الموانى البحرية ، ويرسل العبيد أحيانا الى داخل البلاد : فمن ذلك مثلا أن حلوانيا من فبجيفانو Vigevano كان عنده عبد شركسى (١٤٦٣) ، كما كان عند ماركو بولو فى البندقية عبد تتارى (٣٦) ، وثمة تجـــار

(٢١) M. Vinc. Lazari : son étude : Del traffico e delle condizioni degli schiavi in Venezia nei tempi di mezzo, dans les Miscellanea di storia italiano, I, 469 et s.

(٢٢) Ibid. 491; la coll. des doc. inédit, Mél. hist., III, 151 et s.

(٢٣) يقول Laon. Chalcoc ص ١٣٦ ، أنه كان من عادة التتار أن يبيعوا التجار الجنويين والبنادقة سكان القوقاز الذين يقعون فى أيديهم خلال الغارات التى يشنها هؤلاء التتار ولقد تحدثنا عن الأساليب التى كان التجار يحصلون بواسطتها على العبيد ، عن غير هذا المصدر ·

(٢٤) كان فى فلورنسا وحدها من عام ١٣٦٦ الى عام ١٣٩٧ ٣٨٩ عبيدا بيعوا هناك ومعظمهم من الاناث · وفى أنكونا ، كان ثمة بحارة فلورنسيين يمارسون بانتظام هذا النوع من التجارة : — Doc. sulle relaz. tosc., Proem, p. XXXVI, not 1.

(٢٥) Lazari, l.c., p. 474; la Coll. des doc. inéd., Mél. hist., III, 150 et s., 153 et s., 154 et ss.

(٣٦) Cibrario, Della schiavitù e del servaggio, I, 464 ; Marco Polo, éd. Yule. T. I, Introd p. p.c.

— فى خصوص وجود عبيد شرقيين فى اقليم ايطاليا كله ، انظر : Makuscev, Monum, Slav. merid., I, 1, p. 199, 443 ; Cod. dipl. Sardiniae, I, 825.

يأتون من جنوا. وكانوا حتى قلب الأمبراطورية الألمانية ومعهـم عبيد من الجنسين ، واذن الامبراطور فردريك الثالث لهؤلاء التجار بأن يبيعوا هناك هؤلاء الرقيق (٣٧) ٠

ومن الجوانب الممتعة فى الموضوع الذى ندرسه هنا البحث عن نسبة العبيد من الجنسين فى مختلف البلاد ، فنجد فى هذا الخصوص فرقا واضحا بين مصر وبين الغرب ٠ ففى مصر ، ورغم شدة الطلب على العبيد من الأناث (الاماء) لشغل حريم القصور ، كان العبيد من الذكور مطلوبين أكثر ، لأنهم يشكلون القسم الأكبر من الجيش ٠ أما فى الغرب ، فعلى العكس من ذلك اذ كان القوم يفضلون شراء الاناث ، لبواعث عديدة : لما كان هؤلاء الفتيات يتمتعن بطبيعة أكثر رقة ووداعة ، فانهن يتوافقن أكثر مع الحياة الاجتماعية والأسرية ، كما أنهن أقدر من الرجال على أداء الخدمات المنزلية المطلوبة منهن ، ويتعلمن الأشغال اليدوية بمزيد من السهولة ، وهن أخيرا ، وغالبا مطلوبات لاشباع ملاذ سادتهن ٠ ترى من كان أسعد حالا ، العبيد الرجال فى مصر ، أم الرقيق الاناث فى ايطاليا ؟ من العسير الاجابة عن هذا السؤال فالأولون يعانون ضروبا من العنف والقسوة طالما بقوا فى الطبقات الدنيا ، غير أنه فى الوسع أن يبلغوا مراكز عليا فى الجيش ، بل ان منهم من ارتقى عرش السلاطين ٠ أما الأخريات فكن يلقين معاملة طيبة ، وكثيرا ما كان سادتهن يعتقونهن ، وهم أحياء ، أو بطريق الوصـية (٣٨) ٠ الا أن مكانتهن الاجتماعية تبقى دائمـا وضـيعة ٠

كان الشباب والصحة الجيدة هما الصفتين الغالبتين على سـائر الصفات ، وحبذا لو كان الفرد من الرقيق يتمتع فوق ذلك بالجمال ، فترتفع بذلك قيمته وقـد وضـع السيد تشبيرارو Cibrario (٣٩) قائمة بمبيعات الرقيق ، فكان العدد الأكبر منها يجرى فى جنوا والبندقية، وجمع ٥٣ بيانا بذلك فى القرن الثالث عشر ، و ٢٩ فى القرن الرابع عشر ، و ٢٨ فى القرن الخامس عشر ، وأثبت أن الأسعار تزداد ارتفاعا قرنا بعد قرن ٠ من ذلك أن الأسـعار فى القرن الثالث عشر تراوحت بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ ليرة ، وفى القرن التالى ، كان من النـادر عقد صفقات تقـل عن

---

(٣٧) 1er juill. 1466 : Chmel. Regesten Friedrichs III, no 4542.

(٣٨) نجد أمثلة العتق فى أرمينيا الصغرى وقبرص فى :
Les Archiv. de l'Od. lat., I, 490 et s., II, 54, 61 et s., 87, 107.

(٣٩) Cibrario. Della schiavitù e del sevaggio, I. 203 et s., 227. et 88.

٥٠٠ ليرة ، وبلغ أعلى سعر حوالى ١٤٠٠ ليرة • وفى القرن الخامس عشر ، تجاوزت الأسعار ٨٠٠ ليرة ، بل كان فى البندقية عام ١٤٢٩ فتاة روسية بلغ ثمنها ٨٧ دوكا ، أى ٢٠٩٣ ليرة • وفى تسكانيا ، وجد السيد بونجى M. Bongi الأسعار تتراوح بين ٥٠ ، ٧٥ ريالا ذهبيا ، وبلغ أعلى سعرين ٨٥ ، ١٣٢ ريالا ذهبيا ، دفعا ثمنا لعبيد من الروس (٤٠) •

ويقابل أزهى عصر فى تجارة الرقيق فى جنوا والبندقية أكثر العصور رخاء فى مدينتى كافا وتانا • ولكن حدث فى عام ١٣٩٥ أن وجه تيمور لنك الى مستعمرة تانا ضربة قاضية لم تنهض منهـا بعد ذلك • ثم كان سقوط القسطنطينية فى يدى محمد الثانى • وأخيرا ، حظر هذا السلطان على البنادقة نقل العبيد المسلمين فى كل أنحاء امبراطوريته ، ولم يسمح بالمرور الا بالنسبة للعبيد المسيحيين (٤١) ، فأضرت هذه الأعمال بهذا الضرب من التجارة ، وجعلته فى حالة من اليأس والقنوط • وفى عام ١٤٥٩ ، ارتفعت الشكوى فى مجلس الشيوخ البندقى من نقص عدد الأرقاء (٤٢) • ومع ذلك يقدر فليكس فابرى (٤٣) أنه لم يزل فى البندقية فى أواخر القرن الخامس عشر قرابة ثلاثة آلاف من العبيد من شمال افريقيا وبلاد التتار ، ويشير إشارة عابرة الى السلاف (الصقالبة) دون أن يذكر عددهم •

---

(٤٠) Antologia nuova, II, 226.
(٤١) Romanin, IV, 532.
(٤٢) Antologia nuova, II, 244.
(٤٣) Ed. Hassler, III, 432.

ثانيا ـ الحاصلات الطبيعية ـ الصبر aloès

من المعروف أنه حين نجرى حزا فى الورقة اللحمية لمختلف النباتات من جنس الصبار ، يخرج من الحز عصير مر المذاق ، يجفف ، ويتداول فى التجارة · ويذكر بيجولوتى ثلاثة أنواع من هذا النبات : « الصبر الليمونى » l'aloè cetrino ، وله لون الليمون ، وأحيانا لون أصفر ضارب الى الحمرة ، و l'aloè patico وله لون قاتم ، وحبة أكثر قتامة من حبة الأول ، وأخيرا l'aloè cavallino ، ولونه شديد القتامة (nero) (٤٤) · والنوع الأول له المرتبة الأولى ، وبيجولوتى هو الوحيد الذى يطلق عليه اسمه هذا ، ولعله ما يسمى l'aloè fine d'uzzano (٤٥) · أما اسم النوع الذى يشير اليه بيجولوتى فى السطر الثانى فانه مذكور فى كل كتب التجارة والأسعار فى العصور الوسطى ، وكذا فى مؤلفات « الأقرباذين » (المواد الطبية) (٤٦) · هذا الاسم ينبغى فى الواقع أن يكتب hepatico وهى كلمة مشتقة من اليونانية ومعناها « الكبد » ، وتدل على اللون القاتم لهذا النوع ، ويشابه

---

(٤٤) Pegol., p. 57, 285, 376.

(٤٥) Uzz., p. 8, 48, 74, 114, 192 ; Chiarini, p. 37, b ; Pasi, u. 9, b, 45, b, 54, a ; Rôle des douanes de Messine, publ. dans les Miscellanea di storia ital., X, 76.

(٤٦) Macer Floridus, éd. Choulant, vers 2234 ; Otto Cremonensis, (a la suite de Macer), v. 4, 5.

لون الكبد · كذلك نجد نوع كافاللنيو ولكن بقدر أقل فى مصادر العصور الوسطى (٤٧) · ويقر السيد فلوكيجر M. Flückiger بأن هذا النوع مزيف دائما ، أو مقلد ، ولم يعد له ذكر فى كتب التجارة فى أواخر القرون الوسطى ، واختفى تماما فى عصرنا الحاضر ، فى حين أن الصبر « الكبدى » لم يزل موجودا فى « الفارماكوبيا » (دستور الأدوية) ·

وكانت جزيرة سقطرى Sokotora مشهورة فى العصور الوسطى بصبارها : كما اشتهرت جزيرة خيوس بالمصطكة ، وعند ذكر هذه الجزيرة لم يكن رحالة أو جغرافيو تلك العصور يفوتهم أن يتحدثوا عن محصولها الرئيسى : فيقول الادريسى : ان يصدر الى الشرق والغرب (٤٨)· وكان الصبر موجودا أيضا فى بلاد العرب ، فى منطقتى Djedjer وحضرموت ، غير أن صبر سقطرى كان يحظى بتقدير أكبر (٤٩) · وبقى دائما صبر كمباى والبنغال ، ومواقع أخرى فى الهند بثمن أدنى ، وفى العهد الأول من السيادة البرتغالية لم يصل ثمنه الى ربع ثمن صبر سقطرى (٥٠) · وقبل اكتشاف الطريق البحرى الى الهند كان عدد الأوروبيين الذين يزورون سقطرى محدودا للغاية ، ولم يذكر منهم سوى الايطالى كونتى Conti · الا أن الصبر الذى تنتجه الجزيرة كان مطلوبا بكثرة ، ويصل الى الغرب عن طريق عدن (٥١) ، والاسكندرية ، وقبرص (٥٢) · وكلما ذكر مصدر الصبر فى كتاب ايطالى عن التجارة ، نجد دائما اسم سقطرى (٥٣) · ومع ذلك لم يكن من المحتمل أن يكون فى وسع هذه الجزيرة الصغيرة أن تكفى الاستهلاك الغربى كله لهذه المادة ، حتى لو سلمنا بأن انتاجها فى الماضى كان أكبر مما هو فى العصر الحاضر ، اذ أنه هبط حتى صار أقرب الى العدم (٥٤) · فاذا لم نتمسك بجودة محصول الصبر وحدها ، لم نكن ملزمين بالذهاب بعيدا للحصول عليه : اذ كانت اسبانيا تنتج نوعا لايقل كثيرا فى جودته عن

---

(٤٧) Uzz., p. 18, 48, 192 ; Rôle des douanes de Messine, op. cit. ; Sodex de Salerne, à Breslan.

(٤٨) Relations, p. 139 ; Macoudi, 111, 30 ; Edrisi, I. 47 et s. ; Géogr., II. p. 128 et s. : Ibn-Batouto, I, 362.

(٤٩) Edrisi, I, 47, 53 ; Chemseddin, p. 96 ; Ritter, Arabien, I, 301, 359, 610, 615, 651.

(٥٠) Clusius, Extoica, p. 149 ; Th. Pyres.

(٥١) Ibn Khordadbeh, l.c., p. 282 ; Edrisi, I, 151.

(٥٢) Pegol., p. 56, 64.

(٥٣) Ibid., p. 295 ; Uzz., p. 18, 48, 74, 112, 114, 192.

(٥٤) Wellested, dans le Journ. of the geogr. Soc., V. (1835), p. 197

صبر سقطرى (٥٥) . وكان الصبار ينمو أيضا فى اليونان (مثلا فى جزيرتى كاليمبنا وليروس) (٥٦) ، وفى جنوب ايطاليا (٥٧) ، وفى صقلية ، ومالطة . وفى الامكان طلب صبر سقطرى ، الا أنه لايمكن أبدا ، عند استلام خليط من صبر سقطرى وصبر الجزيرة العربية التيقن من أنه صبر سقطرى خالص (٥٨) . وكان القسم الأكبر من أنواع الصبر يستعمل كعقار مسهل : ومع ذلك كانت الأنواع الأقل جودة تجد من يستعملها فى بعض فروع الصناعة (٥٩) ، كصناعة اللازورد ، والتذهيب ، الخ .

الشب Llun

كان الشب من المواد التى يكثر الطلب عليها فى العصور الوسطى . وحسبما ذكر بعض الكتاب ، لم يتم اكتشاف طبقات من هذه المادة فى الغرب الا فى أواخر العصور الوسطى ، وحتى فى هذه الأونة كان الشب كله يرد من الشرق . الا أن هذا غير صحيح ، ولسنا فى حاجة الى تقديم براهين صادقة ، بل يكفينا ذكر بعض التواريخ . مثال ذلك أنه وجد فى التجارة قبل عام ١٧٢٢ شب مونتى أرجنتار و Monte-Argentaro (٦٠)، وفى القرن الرابع عشر كانت الفلاندر تتلقى شب ميورقة ، وسجلماسة (بالمغرب) ، وبوجى (حاليا بجاية ـ بالجزائر) (٦١) . كما كانت مناجم الشب بجزيرة اسكيا Ischia تستغل منذ عهد أول ملوك أسرة أنجو(٦٢) . وأخيرا ، وابتداء من القرن الثالث عشر ، يرد كثيرا ذكر جزيرة فالكانو Vulcano احدى جزر ليبارى Lipari بين الأماكن التى يستخرج منها

---

(٥٥) Pyres, op. cit,

(٥٦) Bondelmonti, Liber insul. archipel., éd. Sinner, p. 105.

(٥٧) Matth. Platearius, Circa instans, à la suite de la Searpionis practica, Lugd. 1526, fol. ccxxiii ; Matth. Sylvaticus, au mot Aloe, le Manuscrit de Salerne, op. cit., p. 68.

(٥٨) Edriri, I, 53.

(٥٩) Liber divers. art., I, 3 ; II. 8 ;Merrifield, Orig. treatises, p. clxvii, 163, 241, 471.

(٦٠) Canale, Storia di Genova, II, 638.

(٦١) Bourquelot, Foires de Champagne, 1, 207.

(٦٢) Minieri Ricci, Alcuni fatti riguardanti il regno di Carlo I d'Anjio, 1252-1270, p. 137.

الشب (٦٣) • وكان المعروف أن هذا الشب من نوع غير جيد ، وكان كثيرا ما يحظر على المصانع استعماله (٦٤) • والواقع أيضا أن كميات الشب المستخرجة في مشروعات الاستغلال الغربية لم تكن تكفي للوفاء بالطلبات ، فكان على مستهلكي الجملة ، ومن يحرصون على الأصناف الممتازة أن يحصلوا على طلباتهم من الشرق • وكان البلد ذو الانتاج الممتاز هو آسيا الصغرى وكان هناك فوجة Phocée المشهورة أو فوليا Foglia التي ظلت في أيدي الجنويين من عام ١٢٧٥ الى عام ١٤٥٥ فيما عدا انقطاع قصير الأمد في عهد السيادة البيزنطية • وكان الأغلبية العظمى من عمال المناجم من اليونانيين • واذ كان للصناعة في العصور الوسطى من دون تاريخها ، فانا نعرف من تفاصيلها الكيفية التي يستخرج بها الشب • وهناك ما لا يقل عن ثلاثة أوصاف لهذه العملية كتبها من شهدها بعينه : منهم المبشر الفرنسي جوردانس كاتالاني Jordanis Catalani الذي زار فوجة في عام ١٣٣٠ ، ثم الرحالة الفلورنسي الكبير بيجولوني ، وأخيرا المؤرخ البيزنطي دوكاس Ducas الذي كان له بيت فوجة الجديدة ، واستطاع من ثم أن يتبع العملية(٦٥) وكان جوار مراكز الاستغلال للساحل مما يوفر تسهيلات خاصة للسفن التجارية الايطالية والفرنسية والاسبانية التي تأتي لتشحن منتجات المناجم ، وتعود بها الى الغرب • ومن بين الايطاليين كان أقوى المصدرين هم بطبيعة الحال الجنويون (٦٦) ، ولكن الفلورنسيين كانوا يأخذون أيضا كميات كبيرة (٦٧) • وكان الانتاج يبلغ في المتوسط ١٤٠٠٠ قنطار في السنة (٦٨) ، ويتطلب بذل جهود لتصريفها • فاذا أخذنا في الاعتبار جودة المنتجات ، تبين لنا أنه كان من المتبع عرفاً تسليم « فوجة » خلط مكون بنسبة من الصنف الممتاز allume di rocca من الصنف الأدنى درجة allume minuto, corda, fossa ، ومع ذلك

---

(٦٣) le Cartulaire de l'abbaye de S. Victor re Marseille, T. I, p. lxxvi et ss., xci, xcvi ; Mérg et Guindon, I, 343, 347; Capmany, Mém., II, 21 le Manuel du commerçant, de Pegolotti, p. 295.

(٦٤) Bonaini, Stat. Pis., III, 128 et s. ; Boileau, Réglement sur les arts et métiers, ed. Depping, p. 135 et s.

(٦٥) Recueil de voyages et de mémories, publ. par la Soc. re géogr., IV, 64 ; Della decima, III, 368 et s. ; Ducas, éd. Bonn., p. 160 et s.

(٦٦) Canale, Storia di Genova, III, 353 et s. ; Annal. Jan., 316 (bis).

(٦٧) Doc. sulle relaz. tosc., p. 169 et ss.

(٦٨) Pegol., p. 370

يمكن شراء الأصناف الممتازة ، والأصناف الأدنى مرتبة ، كلا على حدة(٦٩) .
أما سائر مناجم الشب فكانت أكثر بعدا من السواحل ، ومنتجاتها قبل أن تصل الى البحر مثقلة بمصاريف النقل ، اما بالمراكب ، أو بطريق البر . مثال ذلك ، أنه كان يباع فى كيراسونت Cerasonte شب من الدرجة الأولى مستخرج من مناجم واقعة ، حسبما يقول بيجولوتى على مسيرة سبعة أيام داخل البلاد ، وبكميات وفيرة ؛ وفرة الشب المستخرج فى فوجة ، ويعرف هذا الصنف فى التجارة باسم allume de rocca di colonna (٧٠) . وكلمة rocca تعبر عن الجودة ، أما كلمة Colonna فلعلها تشير الى المصدر . ولم يزل هناك فى الوقت الحاضر مناجم شب فى قرة حصار Karahissarzz (٧١) على نهر ليكوس Lycus ، وتتميز هذه المدينة عن مدن غيرها تحمل الاسم نفسه ، وذلك بالنعت Chabin : فاقرب ميناء هو ميناء كيراسونت ، وتتصل المدينتان احداهما بالأخرى بطريق وعر ، وتبلغ المسافة بينهما مسيرة عشرين ساعة . ولما كانت المناجم تبعد عن قرة حصار بمسافة ثمانية فراسخ ، ففى الامكان التسليم بأن هذه المناجم هى نفسها التى اشار اليها بيجولوتى . وفى عهد السيادة اليونانية ، كان اسم قرة حصار هو كولونيا Coloneia ، وبقى هذا الاسم حتى القرن الرابع عشر (٧٢) ، ويكفى هذا لتأكيد معلوماتنا عن مصدر نوع الشب الذى تحدثنا عنه منذ هنيهة . وكانت مناجم أولوباد Ouloubad تنتج سلعة أدنى درجة بنوع م امن سلعة كولونيا ـ قرة حصان ، وفوجة ، ويبلغ الانتاج السنوى ١٠٠٠٠ قنطار . وكان هذا الشب الذى يسميه الايطاليون allume lupai أو Lupajc يصل الى ميناء تريليا على الساحل الجنوبى لبحر مرمرة ، بعد أن ينقل برا مدة اربعة أيام ، ثم يصدر الى الفلاندر (٧٣) وكان من نفس الجودة تقريبا شب كوتاهية Koutahièh (ويسميها بيجولوتى Cotai) عاصمة امارة كرميان Kermian التركمانية ، ويستخرج منها سنويا حوالى ١٢٠٠٠ قنطار ، ويرسل كل هذا الى بحر ايجه ، نصفه بطريق البر ، والنصف الآخر بالطرق المائية ، وينتهى الى ميناءى الطولوجو Altoluogo (افسس Ephèse) (٧٤) ، وبالاتيا Palatia (ميلبتوس

(٦٩) Ibid., p. 369, 26 ; Doc. sulle relaz. tosc., l.c.
(٧٠) Ibid. p. 26, 369.
(٧١) Ritter, Kleinasien, I, 208, 210, 1018.
(٧٢) M. Blou. dans Petermann Mitheilungen. 1865. p. 252.
(٧٣) Pegol., p. 26, 248, 295, 370 ; Mzz., p. 17, 47, 74.
(٧٤) Alun d'Altoluogo.

ومنهما يعـاد تصـديره : فيرسل جزء صغير الى ستالية Milet ، Satalia على الساحل الجنـوبى • ويستغرق النقل بالطريق البرى خمسة عشر يوما (٧٥) • وأخيرا ، كان لسلطنة قونية مناجم شنب ، كانت مؤجرة الى اثنين من الفرنجة فى أواسط القرن الثالث عشر ، ومن ثم يتأكد لنا أن انتاج الشب فى مصر هذا العصر على الأقل كان يدخل ضمن تجارة الغـرب (٧٦) •

وفى وسط مجموعة الجزر التى تشكل ما يشبه القنطرة بين آسيا الصغرى وأوروبا ، نجد جزيرة فى بحر مرمرة ، وهى واحـدة من جزر « الأمراء » Princes كانت تزود التجارة فى العصور الوسطى بكمية صغيرة من الشب من درجه دنيا (٧٧) • وكانت ميتيلين (لسبوس) تنتج أيضا شبا فى القرن الخامس عشر (٧٨) ، وفى القرن السادس عشر كان هـذا الشب لم يزل يبـاع فى ايطـاليا • الا أن بيلون B elon يلاحظ أن هذا الشب لابد أن يرد من (Ispella, Ipsala sur la Maritza) Kypsella على نهر ماريتزا ، التى زار هـذا الرحالة مناجمها (٧٩) • والواقع أنه كان يوجد هنا وهناك فى تراقيا مستودعات الومين (أكسيد الألومنيوم) ، فى مارونيا Maronia مثلا ، غربى مصب نهر مارتيزا (٨٠) •

وكان شب تراقيا ، وآسيا الصغرى ، والجزر اليونانية يصل بوفرة الى سوق القسطنطينية (٨١) • وكان بالاسكندرية أيضـا مستودع لهذه المادة (٨٢) التى تصل اليها اما من مصر العليا وبلاد النوبة (٨٣) عن طريق النيل ، واما من أقصى الجزيرة العربيـة (اليمن) (٨٤) • وكانت منتجات هذه البلاد معروفة فى الغرب من قديم الزمان (٨٥) •

---

(٧٥) Pegol., p. 295, 370 ; voy. Chehabeddin, p. 353, 354, 356.

(٧٦) Guill. de Fubrouck, p. 392.

(٧٧) Pegol. p. 26, 370.

(٧٨) Doc. sulle relaz. tosc. p. 169-171 ; Ghistele, p. 338 ; Mon. Hung. hist., Acta extera, V, 14.

(٧٩) Belon, Observations (éd. re 1555), p. 110 et s.

(٨٠) Doc. sulle relaz. tosc. p. 169.

(٨١) Pegol. p. 15, 26, 29, 36, 37.

(٨٢) Regol p. 56 ; Taf. et Thom., III, 444.

(٨٣) Amari, Dipl. arab fior., p. 285, 460 ; Chemseddin, Manuel de la Cosmographie.

(٨٤) Kazwini, trad. Ethé, I, 1, p. 337 ; Chemseddin, op. cit.

(٨٥) Murat., Antiq. ital., p. 369, 376, 378, 381, 386.

وختاما لهذا التعداد ، نضيف أنه في القرن الثالث عشر وجد كثيرا في مجال التجارة نـــوع من الشب ، عـــرف بشب حلب (٨٦) • ويصعب التسليم بأن حلب كانت حقا مصدر هذه السلعة • ومع ذلك كان الشب يرد بالفعل من داخل البلاد • واذا كان لزاما تحديد مكان انتاجه ، ففى الواسع التوقف عند أوديسة Edesse : فالواقع أن شب حلب هـذا كان يوصف بأنه allume di Rocca ، ويذكرنا هذا الاسم باسم روكا (رها) Rocca-Roha ، وهى مدينة من مدن ما بين النهرين، أوديسة القديمـة ، وهي اليوم أورفا • وفي عام ١٤٥٩ اكتشف جنوى اسمه بارتولوميو بيرنتشى Bartolomeo Pernice فى جزيرة اسكيا صخرة الوميئية (تحتوى على الألومين) وشرع فى استغلالها ، ويحكى أنه تعلم حرفة استغلال الشب فى مدينة روكا (الرها) dalla cita di Roccho di soria ، حيث قيل انه أمضى بها عدة سنوات لانجاز أعمال تجارية (٨٧) • وفى هذه القصة أمور غير معقولة : أولا : أليس من المحتمل أن يكون الشخص الذى اكتشف ، أو بالأحرى وجد الألومين فى اسكيا قد تعلم صنع الشب فى جهة خلاف الرها (أوديسة) ، وهى مدينة غير معروفة فى الغـرب على أنهـا مكان تجـارى ، ألم يكن هنـــاك مدينة فوجـة حيث يمـــارس مواطنـون بنشـاط هذه الصناعة ؟ ولنسلم اذا طلب منـــا ذلك بأن جنوبا تعـلم هذه الحـرفة فى الرها فى القـــرن الخامس عشر ، فالحقيقة مع ذلك أن اسم alumen roccae كان معروفا منذ عدة قرون مضت ، وأنه كان شائعا طوال العصور الوسطى ، وهذا التوافق ، ان كان ثمة توافق لايثبت أن هذا الاسم ينطبق على شب وارد من المدينة السابق ذكرها • ويجدر أن نلاحظ فى كتب التجارة ، وفى وثائق العصـــور الوسطى ، أنه كلمـا قابلنا عبـــارة alumen roccoa أو roze فان هـذا النعت لا يشـير بالمرة الى مصدر الشب ، وانما يوضح صفة خاصة لهذه المادة ، تصادف فى أى مكان ، وتستخرج من مناجم فوجة أو مناجم كولونيا (٨٨) • ويبدو لى اذن أنه لا توجد أية علاقة بين النعت alumen roccoe وبين اسم مدينة الرها • ويستخدم الكميائى العربى جابر بن حيان (حوالى عام ٨٠٠) المصطلحين alumen roccoe

---

(٨٦) Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 248 et s. ; Méry et Guindon, Hist. de Marseille, I, 346 ; Capmany, Mem. de Barcelona, II, app. p. 74.

(٨٧) Agost. Giustiniani, Annali di Genova, p. 214; ontanus, dans le Thesaurus de Grävius, vol. IX, 3e part., p. 88.

(٨٨) Pegol., p. 26, 295, 368, 369 Doc. ulle relaz tosc., p. 169 et ss. ; Arch. Venet., XXVII (1884), p. 92.

أو alumen glaciale (الالومين الجليدى) دون تفرقة (٨٩) · ويقول بيجولوتى أن ال allume della rocca هو الذى يستقر على شكل بللورات شبيهة ببللورات الثلج على جدار الاناء الذى يجرى بداخله التحضير (٩٠)· والحقيقة أن كلمة rocca تعنى roche (صخر) ، واذا كان الشب الممتاز مندمجا بدرجة كافية لأن نقارنه بالثلج ، فانه يجوز لنا أن نقارنه بالصـــخر ·

وها نحن قد وصلنا دون أن نشعر الى الحديث عن نوعيات الشب · فالنـــوعية الأولى ، كمـــا قلنا من قبل ، يشار اليها باســـم allume di ghiaccio (٩١) ، أو allume di rocca (٩٢) ، وتتبدى فى كتل متماسكة كالثلج ، صافية ولامعة ، بلون أبيض ، أو ضارب الى الحمرة أو الخضرة الباهتة · يلى هذه النوعية : la sorta della buona allumiera (٩٣) ويتكون نصفها القليل من شب صخرى ، والباقى من شب من الدرجة الثالثة ، وتسمى corda ، أو fossa ، وتجمع من قاع الدنان أو الأحـــواض المستعملة فى التجهيز ، وهى على شـــكل بللورات صـــغيرة ، ومن ثم كان اســـمها allume minuto الذى كان يطلق عليها أحيانا (٩٤) · ونجد فى العصور الوسطى (٩٥) ، غير هذه النوعيات الثلاث ، شب الريش (٩٦) الذى يشبه بشكله لحية من ريش ، أو خصلة من شعر ، ومن ثم تنفلق (أو تفسخ) بسهولة : هذه النوعية تستخلص بنوع خاص من شمال افريقيا (٩٧) · وباذابة الشب بالحرارة ، ومع ماء الورد ، وبياض البيض ، وتركيزه ، يحصل نوع من السكر يقال عنه alumen fiuccarinum يرد ذكـره كثـيرا فى كتب التجـارة ، والتعريفات

---

(٨٩) Mangel, Bibliotheca Chemica, I, 559.

(٩٠) Pegol, p. 368.

(٩١) Pegol p. 211, 248, 308; Uzz., p. 17, 47, 74, 116, 191; Bonaini, l.c., II, 593; Chiarini, p. lxxxiii, a.

(٩٢) Merrifield, p. 19, 65 et s., 87, 89, 285, 893 ; Bourquelot, Foires de Champagne, I, 207.

(٩٣) Pegol., p. 26, 295, 369; ibid. p. 248 ; Cantù, Scorsa di un Lombardo negli archivi Venez., p. 189 ; Sathas, Doc. inéd., III, 266.

(٩٤) Pegol., p. 26, 295, 368 et ss. ; Chiarini, p. lxxiii, Doc. sulle relaz. tosc., l.c.

(٩٥) Capmany, II, 20 ; Tarif de Provence, ob. cit., p. lxxxiv, xci, xcv; Pegol., p. 370 ; Uzz., p. 18, 47, 74, 192.

(٩٦) les Hanserecesse, 1ère., vol. II, p. 236.

(٩٧) Pegol., p. 370 ; El Bekri, dans le journ. asiat., 5e érie, T XII, p. 450.

الجمركية ، ووصفات الفنـــون والحرف فى العصـــور الوسطى (٩٨) كان الشب هو العامل الضرورى لتثبيت الألوان على الأقمشة ، وينسب اليه فضلا عن ذلك خاصية اعطاء الأقمشة لمعة وبريقا : لذلك لا تصبغ أية قطعة من الصوف أو الحرير دون استعمال الشب (٩٩) ، ويستعمله الصباغون ، والمزخرفون ، والمصـــورون ، والمذهبون بكثرة ، فضـــلا عن دباغى الجلود الذين يستعملونه فى اعداد جلودهم (١٠٠) ٠

وكلمـــا ازداد التنوع فى تطبيقات هذا النتـــاج ، وازدادت فروع الصناعة التى تستخدمه ، كان من المؤسف أن يبقى انتاجه فى الغـــرب ناقصا ومتخلفا ، كما وكيفا ، وازداد التخلف هذا بسبب توقف العمل فى كثير من المناجم التى كانت تستغل قبلا ٠ ولم يظهر الشعور القاسى بحاجة الغرب الى الشرق الأدنى فى شأن هذا المحصول الا عنـــدما دمر الأتراك امبراطورية الشرق ، وامارات التركـــمان بآســـــيا الصغرى ، ومستعمرة فوجة الجنوية ، ووضعوا أيديهم على كل مناجم الشب فى تلك البقـــاع ٠ وقدر بمبلغ ٣٠٠ر١٠٠ ريال دينار ذهب الأموال التى كانت تدفع لخزانة السلاطين ثمنا للشب وحده ٠ وكان من قبيل العزاء الضعيف التفكير فى أن الايطاليين هم الذين يستأجرون معظم المناجم ٠ وأخيرا ، فى عام ١٤٦٢ اكتشف رجل من بادوا يدعى جيوفانى دى كاسترو ، يملك مصبغة فى القسطنطينية حتى لحظة استيلاء الأتراك على المدينة ــ ومن ثم فهو يعرف جيدا شب الشرق الأدنى ، وطبقاته الأرضية ــ اكتشف فى تولفا Tolfa بالقـــرب من مـــدينة فيكيـا Civita Vecchia مستودعا لشب فى المرتبـــة الأولى من الجودة (١٠١) ٠ ورحب بيوس الثانى بهذا الاكتشاف ، وكأنه انتصار على الأتراك ، وشـــجع بحماس استغلال المناجم ، وقرر استخدام الأرباح الناتجة منه فى محاربة الأتراك ، ووعد رجال الصناعة المسيحيين بأن يشترى الكرسى الرسولى (الفاتيكان)

---

(٩٨) Pegol. p. 295 Uzz., p. 18, 192 ; Tarifs de Bologne, dans Murat. Antiq. ital. II, 894 ; Méry et Guindon, I, 346; Cf. 378; op. cit., p. lxxxivç Bonaini, Stat. Pis., II, 1114 ; Liber diversarum artium, p. 755; Merrifield, p. 63, 67, 439, 449, 519, 894.

(٩٩) Jord. Catal., p. 63 ; Duc., p. 1; Pachym I, 420; Uzz., p. 116 et s., 169; Bonaini, Stat. Pis., III, 26, 128 et s. ; Bibl. de l'Ecole des chartes, 4e série, T. III, p. 56, 59 ; Merrifield, p. 19.

(١٠٠) Boileau, Réglements des arts et métiers, p. 205, 241.

(١٠١) Piu II, Commentarii, p. 185 et s. ; Guglielmotti, Storia della marina pontificia, II, 334 et ss. ; Mon. Hung. hist. Acta extera, V, 250 et s.

انتاجهم من الشب بدلا من شرائه من « الكفار » (١٠٢) ولما كان المحصول الجديد يفوق القديم بنسبة ٢٠٪ من حيث جودته ، فان الشب الرومانى لم يلبث أن تفوق فى كل مكان على سواه • الا أن وكلاء الفاتيكان راحوا يرفعون الأسعار باستمرار ، ولم تلبث الأمم التى تستعمل الصناعة فيها الشب أن تذمرت من هذا التعسف (١٠٣) • ومع ذلك لم يعد أحد يقصد الشرق بوجه عام لشراء الشب كما كان يحدث من قبل • ثم ان تجارة الشب لم تكن قاصرة على شب البابا وحده ، فقد استعاد الناس فى اسكيا منذ عام ١٤٥٩ ، وفى فولتيرا Volterre منذ عام ١٤٥٨ (١٠٤) إستغلال مناجم الشب ، حتى صارت المادة الأولية متوفرة • ومنذ تلك الآونة ازداد الاهتمام فى أوروبا بالبحث عن طبقات الألومين •

العنبر Ambre

كان العرب ، فى أسفارهم عبر بلادهم الأصلية ، أو فى رحلاتهم البحرية عبر المحيط الهندي يجمعون فى كثير من الأحيان قطعا كبيرة الى حد ما من مادة صلبة ، رمادية اللون ، تشبه الشمع ، تفوح منها رائحة زكية عند تسخينها • هذه المادة المعروفة باسم العنبر ، كانت تشغل عندهم مرتبة ممتازة فى تصنيف العطور (١٠٥) • واختلفت الآراء كثيرا حول مصدر هذه المادة ، ولم يكن ذلك أمرا غريبا ، لأنها كانت توجد تارة وسط موج البحر ، وتارة على الشاطىء ، وتارة بين الصخور أو الحشاف وتارة أخرى فى أجسام بعض الأسماك • وأراد هارون الرشيد أن يحصل على معلومات صحيحة فى هذا الشأن ، فاستفسر من سكان الشواطىء الجنوبية للجزيرة العربية • وتبين من الاستقصاء الذى أجرى فى عدن ، وشرمة Choumna ، حاسك Hasck أن العنبر يخرج من نواح كائنة فى قاع الحبر ، وتاقبه الأمواج على الشواطىء • وتبنى الادريسى هذا الرأى ، وكان قد وجده فى كتاب من كتب الطب ، وقابل بين مصادر قاع قاع البحر هذه وبين مصادر النفط الذى يخرج من الأرض • كذلك أبدى هذه الفكرة قبله

---

(١٠٢) Sanut., Diar., III, 1498.

(١٠٣) Bruyssel. Hist., du commerce et de la marine en Belgique, II, 237 et s.

(١٠٤) Suppl. chron. P. Jac Bergomatic. p. 299, éd. Venet. ; Sanuto, Vite dei dogi, p. 1168.

(١٠٥) Maçoudi, I, 367 ; — يشيد العرب كثيرا بالعنبر •

ابن سينا ، ووردها Sim- Seth (١٠٦) • وهناك رأى آخر قريب الشبه من الرأى السابق : ذلك أن العنبر نبات ينمو فى قاع البحر ، وهو نوع من الاسفنج تنزعه الأمواج وتلقيه فوق الشواطىء (١٠٧) • وفى رأى آخر أنه ليس الا زبد البحر وقد تجمد (١٠٨) • وكل الذين أيدوا رأيا أو آخر من هذه الآراء ، ومن ثم اعتبروا العنبر من منتجات البحر (١٠٩) • كانوا يعلمون أيضا أنه يوجد كثيرا فى جسم حوت العنبر Physeter Polyeyphus ولتفسير هذه الظاهرة ادعى البعض أن هذا الحوت كان قد ابتلع العنبر ومات من عسر الهضم (١١٠) • وثمة آخرون أكدوا أن العنبر يتكون فى جسم الحوت نفسه ، وأنه عبارة عن غائط الحيوان (١١١) • والحقيقة كما أقرها اليونانيون أن العنبر مادة حيوانية ، ولكنه ليس غائط الحيوان ، بل انه ضرب من التيبس ، وغالبا تيبس مرضى • وفى رأى العرب أن العنبر ما جيد الصنف أو رديئه تبعا للجزء الذى يوجد فيه جسم الحيوان (١١٢) • وهناك أخيرا رأى ثالث قائم على ما يؤكده أهالى جزر ملديف : ذلك أن العنبر غائط متجمد لطائر كبير الحجم ، وأن العطر الخاص الذى يفوح منه انتقل اليه من النباتات العطرية التى يتغذى منها الطائر ، ويبقى جزء من هذه المادة مخزونا على الصخور التى تقوم عليها هذه الجزر ، وأن هذا النوع من العنبر هو أنقى أنواعه ، ولكنه أيضا أكثرها ندرة ، وأغلاها ثمنا ، وجزء آخر تحمله الرياح والأمواج ، وينقله البحر الى الشواطىء البعيدة ، وهذا الجزء أقل جودة • وهناك أخيرا جزء ثالث تبتلعه الأسماك ، ولكنه بسبب لها عسر هضم يضطرها أن تتقيأه ، وهذا أردأ الأنواع (١١٣) •

Edrisi, I, 64 ; Avicenne, éd. I
ghavel, p. 26.

Relat., I, 4; Maçoudi, I, 335 et s., Serap

(...) يدرس ابن سينا هذا الرأى

(١٠٩) Kazwini (trad. Ethé, I, 1, p. 246, 251).

(١١٠) Relat., p. 144 et s. : Maçoudi, I, 334 ; Kazwini, op. cit., Avicenne, l.c. ; Serap., l.c.

(١١١) هذا هو رأى طبيب فى بغداد : اسمه جبيش بن حسن ، ذكره ابن البيطار (الجزء الثانى : ٢١٠) ، الادريسى (l.c.) ؛ وابو الفدا (l.c.) ينفى هذا الرأى ، ولكن يؤيده : Constantinus Afr., Opp. (1, 357).

(١١٢) Relat., I, 145 ; Macoudi, I, 335 ; Kazwini, l.c. ; Serap., l.c.

(١١٣) Barbosa, p. 313, a, b; Castanheda IV, 35.

ومن الميسور أن نجد فى كتابات المؤلفين العرب قائمة طويلة بأسماء البلاد والجزر التى يجمع فيهـــا العنبر ، وتقع معظمهـــا فى المحيط الهندى (١١٤) على خط طويل يبدأ من الساحل الشرقى الافريقى (بربرة ، وزنج) أو الجزر المجاورة ، وينتهى عند الصين ، وتجمع أجـــود الانواع الشـــجر فى الجزر الافريقيـــة (١١٥) . وكانت أغنى المناطق بالعنبر المتـــوسط هى منطقـــة « صَحَار » Szohar على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية ، ويحصل عليه الأهالى فى ضوء القمر ، وهم على ظهور الجمال التى تساعدها حاسة الشم على اكتشاف الطبقات التى بها العنبر (١١٦)، ثم جزر خوريا ـ موريا (١١٧) Kourian-Mourian ، وجزر ملديف، ولكاديف (١١٨) ، ومنطقـــة كالنجا Kalinga على ســـــاحل كروماندل (١١٩) ، ثم جزر نيكوبار Nikobar (١٢٠) . وكان العنبر الذى يجمع فى هذه البقاع يصل الى الغرب بطريقين : أولا طريق البحر الأحمر الذى يتزود أيضـــا بكمية من العنبر يدفعهـــا اليه « المحيط » البحر العربى فيستقر على شـــواطئه (١٢١) ، وكان فى عـــدن مستودع خاص لهذه السلعة ، يرد ذكره كثيرا فى المصادر (١٢٢) ، وثانيا طريق الخليج الفارسى ، ومن هناك يتزود بالعنبر العطارون بمدينتى البصرة وبغداد (١٢٣) ، وفيما بعد أسواق طورس (١٢٤) .

وينبئنـــا بيجولوتى بأن التجـــار الغربيين يأخـــذون العنبر مـــن الاسكندرية ، وفاماجوستا ، وبيروت ، وطورس ، والقسطنطينية (١٢٥).

---

(١١٤) Relat. p. 11 ; Edrisi, I, 63, 64 ; Avicenne, op. cit., ; Seth, op. cit.

(١١٥) Relat. p. 114 ; Maçoudi, p. 333 et s.

(١١٦) Relat., l.c. ; Maçoudi, I. 333 et S., 367; Açmay, cité par Malzen dans ses notes sur le voyage de wrede dans l'Hadramaut, p 292; Sur Chihr, voy. introd. du même ouvr., p. 38; Sim. Seth (op. cit.).

(١١٧) Edrisi, I, 49.

(١١٨) Relat. p. 4 ; Maçoudi, I, 335.

(١١٩) Relat p. 30; Maçoudi, I, 339.

(١٢٠) Relat., p. 7, 17; Maçoudi, I, 339; Ibn Khordadbeh p. 286; Edrisi, I, 76 ; Kazwini, trad. Ethé, I, 1, p. 220; Rachideddin dans Elliot, Hist. of India, I, 71; Lassen, IV, 932.

(١٢١) Edrisi, I, 135.

(١٢٢) Ibn Khordadbêh, p. 282; Ibn al Auardi, p. 43.

(١٢٣) Relat. p. 145 ; Maçoudi, I, 335.

(١٢٤) Ibn Batouta, II, 130.

(١٢٥) Pegol., p. 7, 17 et s., 57, 65, 77.

هذا الكاتب لايذكر شيئا عن طبيعة هذا المحصول · أما اوزانو Uzzano فانه يسميه Ambra di balena (ص ١٩٢) مما يثبت أن تجارة الغرب نسبت انتــاجه ، بحق ، الى حيوان بحرى من رتبـــة الحيتان baleine · ولسنا نجد فى كتب التجارة الغربية أية اشـــارة الى الأماكن التي تنبت فيها هذه المادة ، وقلما يتحدث عنها المسافرون الذين يجوبون الشرق ، ويستثنى من ذلك ماركو بولو ، فانه يشير اليها فى سقطرى Sokotora ، وجزر خوريا ــ موريا ، مدغشقر ، وزنجبار (١٢٦)، وباربـوزا Barbosa فى جزر نيكوبار ، وجزر ملديف ، وجزيرتين مجاورتين لسقطرى (١٢٧) · وآن لنا أن نقول ان العنبر لايوجـــد فى الشرق وحده ، فالواقع أن حوت « العنبر » لا يعيش فى المحيط الهندى فقط (١٢٨) ، وهو ان كان وجوده نادرا في المحيط الأطلسي ، ولكنــه يظهر به في كثير من الأحيان ، وبخاصة في الزمان الماضي ، ومن ثم كان يجمع عنبر يطرحه البحر على شواطىء البرتغال واسبانيا (١٢٩) ، عنبر عرف أنه من نوع أقل جودة ، ولكن كان هناك منه قدر كاف لأن يجعل منه سلعة تجارية تصدر حتى الى مصر (١٣٠) · كان العنبر موجودا فى التجارة اما كمادة خام ، فى كتل ليس لها شكل محدود ، بالحالة التى جمعت فيها ، واما قطعا صغيرة مثقوبة ومنتظمة على شكل سبحة (١٣١)· ويستعمل العنبر فى الطب (صبغة العنبر) ، وكان هذا الاستعمال شائعا فى الشرق فى كل الأزمان ، أكثـــر ممـــا كان فى الغـــرب (١٣٢) · أما كعطر (١٣٣) فانه على انعكس من ذلك دخل فى عادات الشخصيات الكبيرة فى الغرب ، فكانوا يحفظونه فى أوعية خاصة على شكل كرات ذهبية ، أو فى أكياس أو علب (١٣٤) · وفى الشرق يعمـــل من العنبر قلائد ، وطسوت ، وتماثيل صغيرة مختلفة الأشـــكال (١٣٥) ، أما فى

---

(١٢٦) Ed. Pauthier, p. 673 et s., 686.

(١٢٧) P. 292, s, 313, a, 318 b.

(١٢٨) Brandt et Ratzeburg, Darstellung der Thiere, I, 104-106.

(١٢٩) Maçoudi, I, 366 et s., Istachrí, p. 25 ; Aboulf., trad. Reinaud, II. 1; p. 242.

(١٢٠) Maçoudi, l.c. M. Sathas (Doc. inéd., III, 365).

(١٢١) Pegol., p. 17, 17, 18; Uzz., p. 14.

(١٢٢) Garcia de Orto p. 149.

(١٢٣) Roland. Patav. (dans Petz, SS., XIX, 46).

(١٢٤) Douet d'Arcq, Choix 11, 306, 341, 347, 508 ; Bibliothéque de l'Ecole des chartes, 6e érle, I, 354, 356; Inventaire du mobilier de Charles V, éd. Labarte, p. 92, 220, 260 etc. ; Mon. Hung. hist., Acta extera, I, 246 et s.

(١٢٥) Quatremère, Mémoires sur l'Egypte, II, 366 et ss. ; Journ asiat., 5e série, XVII, 7.

الغرب فيصنع منه صلبان ، وسبح (١٣٦) ، وأزرار (١٣٧) ، وتحف غريبة الشكل ، وصور فى نقش بارز ، وتماثيل صغيرة ، الخ (١٣٨) ، كما يصنع منه مرصعات فى التركيبات الخشبية بالغرف (١٣٩) · وأخيرا يستخدم العنبر كمادة من المواد التى يتعطر بها الأمراء (١٤٠) ·

البلسم Baume

من أروع عجائب مصر فى العصور الوسطى ، مزرعة المطرية ، بحديقتها التى زرع بها أشجار البلسم ، ويرويها نبع اعجازى ، ويقدسها كل من المسيحيين والمسلمين · وتحكي السيرة المقدسة أن العذراء مريم استراحت برهة عند هذه الشجرة عند هروبها الى مصر مع طفلها اليسوع ، لذلك فليس ثمة حاج من الحجاج الكثيرين الذين يقصدون الأرض المقدسة مارين بمصر وشبه جزيرة سيناء يفوته أن يتوقف عندها فى طريقه (١٤١) · ثم ان الطريق من القاهرة الى سيناء يمر قبالة المطرية ، وتقع هذه الناحية على مشارف الصحراء على بعد أربعة فراسخ تقريبا من القاهرة ، وبجوار مدينة عين شمس التى كثيرا ما يطلق الجغرافيون العرب اسمها على هذه الحديقة المشهورة (١٤٢) · ولكل بقعة من الأرض فى نطاق المزرعة قصتها ، وينسب الخيال الشعبى الى مزرعة البلسم أصلا اعجازيا · وبالاستنتاج الطبيعى ، اعتقد الناس أن هذا الركن الصغير هو الموضع الوحيد فى العالم الذى نما فيه هذا النبات الذى يؤخذ منه البلسم · وفى فترة معينة من السنة تمتلىء غصون الشجيرات بعصارة النبات ، فيعمل

---

(١٣٦) Boileau, Reglements sur les arts et le métiers de Paris, éd. Depping, p. 71; Mon. Hung. hist., Acta extern, I, 249.

(١٣٧) Taf. et Thom., III, 255, 262, 277.

(١٣٨) Douet d'Arcq, Choix, II, 308, 336 et s. ; Bibl. de l'Ecole des Chartes, l.c., p. 428, 430; Leroux de Lincy, Anne de Bretagne, IV, 147 et s. ; Laborde, Ducs de Bourgogne, II, 263; III, 44; Revue archéologique, 1850, p. 613, 614

(١٣٩) Francisque Michel. Recherches sur les étoffes de soie, II, 150 et ss.

(١٤٠) Douet d'Arcq. Comptes de l'argenterie, p. 19.

(١٤١) Simon Simeonis, p. 48-50. ; Ludolf. de Suttem, p. 52 et ss.; Frescabaldi et Gucci, p. 61 et ss., 306 et ss. ; Tucher, p. 367 et s. ; Ghistele, p. 178 et ss. ; Fel. Fabri, III, 2-18.

(١٤٢) Avicenne, lib. 2, éd. Plemp., p. 68 ; Ibn Beitar, I, 160, 296 ; Abdallatif, De cr. de l'Egypte, p. 20, 89 ; le médecin Sim. Seth (de alimentis, éd. Bogdan., p. 14).

البستانيون حزات فى القشرة ، دون مساس بالخشب ، أو يقطعون بعض الاوراق أو البتـــائل (الفســائل) ، أو الأفنـــان ، وللتحال يتضـح البلسم من الجراح التى أصابت النبات ، ويجمع بطرق مختلفة ، اما باليد وحـدها ، أو بنفـافات قطنيـــة أو فى أدنان صغيرة تعلق بالنبـــات ، وتسكب محتوياتها فى أوان أكبر حجما ، ويترك العصير المجموع على هذا النحو حتى يروق ، وبالأفضل فى أشعة الشمس ، فترسب الشوائب فى قاع الأوانى ، ويطفو الزيت النقى (١٤٣) ، فيصفى ويوضع فوق نار فيتخذ لونا أحمر نبيذيا جميلا • ويعتبر البلسم الذى يتحصـــــل بهذه الكيفية أنقى أنواع البلسم ، الا أن البعض يميز عليه البلسم الذى يسيل سيلا طبيعيـا من الحزات التى تجرى فى اللحاء • ولم يكن المحصول يزيد على ٦٠ رطلا فى أحسن السنوات (١٤٤) • وتبعا لمعلومات بيجولوتى يساوى الرطل اثنين أو ثلاثة « ليبرات » (١٤٥) « الليبر = ٥٠٠ جم ــ المترجم) • وتخضع عمليات جنى المحصول لرقابة دقيقة لأنه يجب أن يسلم بأكمله للسلطان ، مالك المزرعة ؛ ويهدى السلطان بعضا منه للأمراء أو للجمهوريات التى يتبـــادل وإياها ، السـفارات (١٤٦) ، كمـــا يعطى شـيئا منه للمسافرين الذين يقدمون اليه (١٤٧) ، ولكبار الشخصيات الدينية أو العلمية غيرهم فى دولته (١٤٨) ، ويذهب جزء آخر للمستشفيات (١٤٩) ،

---

(١٤٣) Abdallatif, p. 20; Seth. éd. Bogdan., p. 14.

(١٤٤) Abdallatif, p. 22 ; Avicenne, éd. Plemp. p. 68 et s.

(١٤٥) Pegol., p. 56-63.

(١٤٦) Tucher, p. 368; Harff, p. 109 et s., Fabri, III, 16 et Breydenbach s. p.

ـ يذكر أن هذه أسماء بعض الأمراء الشرقيين الذى كان السلطان يرسل اليهم بلسما بصفة منتظمة • وكان السلطان يهدى قوارير من هذا السائل الثمين لأمراء مسيحيين مثل كاترين كورنارو ، ملكة قبرص (ماس لاترى ، تاريخ قبرص ، الفصل الثالث ٤٠٦) ، ودوق البندقية (٤٨٢) ، ودوق ميلانو ، جالياس ماريا (Archiv. stor. lomb., I, 165) وكان هؤلاء الأمراء يكلفون سفراءهم أحيانا بابلاغ السلطان رغبتهم فى أن يصلهم منه بلسم ، انظر فى ذلك ، المقريزى :

(cité par de Sacy dans son étude sur Abdallatif, p. 89 et Ludolf de Suthem, p. 53).

ـ كذلك كانت بعض الدول التجارية كالبندقية وبيزا تنتهز فرصة حسن علاقتها بمصر لتطلب من سلاطينها البلسم اللازم لكنائسها • انظر :

Amari, Dipl., p. 253, 281, 358 ; Taf. et Thom., II, 186.

(١٤٧) Ghistele, p. 157.

(١٤٨) Politi, p. 349 ; Fabri, III, 17.

(١٤٩) انظر الفترة المذكورة بعاليه للمقريزى ؛ والقلقشندى • يعدد ابن الاثير مختلف البيوت التى كانت تتلقى زادا منتظما من البلسم ، ويسميها « المستشفى » ، و « قصر سوريا » •

وما يبقى منه يبيعه لبعض الأجانب ذوى المكانة الرفيعة ، كما يفعل ببعض الأعيان الذين أكرمهم بهذه الهدية ، وذلك نظير بعض المال (١٥٠) • وكان بعض المسافرين يجدون من وقت لآخر وسيلة ما للحصول على شيء من هذا النوع من البلسم فى ناحية المطرية نفسها ، غير أن هذا كان يعتبر ضربا من الاختلاس ، فكان على هؤلاء ان يدفعوا ثمن ما يحصلون عليه (١٥١) • ومع ذلك لم يكن بستانيو المطرية والمشرفون عليها يقنعون بهذه المكاسب غير المشروعة ، اذ كان فى وسعهم أن يحصلوا على البلسم بطريق مشروع تماما ، لأن الغصون المقطوعة كانت تترك لهم ، فيقومون بغليها وكبسها ، ويستخرجون منها عصيرا ، هو بالتأكيد أدنى مرتبة من العصير الطبيعى ، ولكن سعره مع ذلك مرتفع • وعلى هذا النحو كان هناك دائما فى مجال البيع والشراء بلسم وارد من حديقة المطرية • الا أنه لايجوز أن يغرب عن البال أن فى العصر الذى كانت فيه الحديقة تغل أوفر محصول لها ، لم يكن بها أكثر من ٤٠٠ الى ٥٠٠ شجيرة بلسم • فهل يكفى هذا للوفاء بكل الطلبات ؟ إننا فى شك من هذا ، حتى بافتراض أن الباعة يبذلون كل مافى وسعهم لزيادة حجم بضاعتهم باضافة عقاقير أخرى اليها • فالواقع أنه لا توجد سلع يشكو الناس من غشها بقدر ما يشكون من غش البلسم (١٥٢) •

وسبق أن رأينا ان الكتاب المسلمين والمسيحيين أكدوا مرارا وتكرارا ، حسبما ورد فى السيرة القدسية أن أشجار البلسم المزروعة فى حديقة المطرية ، والمروية بالنبع الاعجازى هى وحدها التى تعطى بلسما حقيقيا • ورغم هؤلاء فلنا أن نبحث عما اذا كانت هناك أماكن أخرى يأتى منها البلسم • كانت هناك فى العصور الموغلة فى القدم ، قبل أن توجد حديقة المطرية أشجار بلسم فى سوريا ، وفلسطين ، والجزيرة العربية ، ومصر ، وكان اليهود ، والاغريق ، والرومان يعرفون العصير الذى يسيل من هذه الأشجار • وفى الامكان تتبع زراعة شجر البلسم فى فلسطين حتى العصور الوسطى • وثمة حاج فى القرن الثامن يدعى س • فيليبالد S. Wilibald اتيحت له فرصة شراء بلسم فى أورشليم (١٥٣) (بيت المقدس) ، ويحتمل أن يكون هذا البلسم مستوردا ، غير أننا نشك فى ذلك ، حين نعلم أنه بعد مائة سنة ، وجد

---

(١٥٠) Fabri, III, 16,17.

(١٥١) Frescobaldi, p. 62 et S. ; Gucci; p. 308, 310.

(١٥٢) Fabri, III, 18; Brydenbach. a p. ; Schiltberger, p. 117 ; Maundeville, p. 63 ;

(١٥٣) Dans Canisius Basnage, II, 1ère part., p. 113.

حاج آخر يدعى برناردس سبابينز Bernardus Sapiens وجد ايضا في أريحا Jericho مزرعة أشجار بلسم ، تلك التي ذكرها كتاب التاريخ القديم ، ورأى الأهالي وهم يحرون حزات في لحاء الشجر بحجارة مدببة (١٥٤) حتى يسيل العصير (١٥٥) • نقول مع ذلك انه يبدو أن زراعة البلسم قد أهملت في فلسطين منذ زمن بعيد ، فلم يعد لها وجود منذ عصر الحروب الصليبيه • وحين زار بوركاردس Burchardus قرية « انجادى » Engaddi بجبل صهيون في أواخر القرن الثالث عشر (١٥٦) • لم يجد عند موضع مزرعة أخرى مشهورة أيضا في العصور القديمة سوى بقايا هزيلة مهجورة بعد أن أهملها العرب المسلمون • ويقول عبد اللطيف (المتوفى عام ١٢٣١) انه لاتوجد أشجار بلسم بفلسطين (١٥٧) ، ونرى أنه محق في هذا بالنسبة للعصر الذى عاش فيه • ولكنه بعد سطور قليلة يلفت الأنظار الى نوع من شجر البلسم البرى Balsamodendron Gileadense المعروف باسم Bacham ، وينمو في نجد ، وتهامة وصحارى الجزيرة العربية ، وعلى شواطىء اليمن وفارس • وثمة عالم نباتي قوى الملاحظة ، هو أبو العباس النباتي ، من أشبيليه ، ومعاصر لعبد اللطيف ، رأى الشجرة نفسها في الجزيرة العربية ، وبخاصة في الجبال المحيطة بمكة (١٥٨) • كذلك فان أحد شراح ابن سينا ، وهو بليمبيوس Plempius ، قارن بشجر البلسم المزروع بحديقة المطرية نوعا آخر منتشرا على مدى واسع بالحجاز (١٥٩) • وبالاجمال ، لم تكف الجزيرة العربية عن انتاج البلسم ، ويحتمل كثيرا أن تكون الأشجار المزروعة في حدائق فلسطين ومصر كانت مأخوذة من هذا البلد (الجزيرة العربية) • وجاء عصر اقتضت الحاجة فيه الى استخدام الوسيلة نفسها لانعاش مزارع المطرية • وفي عهد السلطان قايتباى (١٤٦٨ ــ ١٤٩٦) يبدو أن الأمر اقتضى احضار عساليج

---

(١٥٤) كان يجرى حز اللحاء في المطرية بحجرة مدببة ، أو عظمة مشحوذة ؛ وكان المعتقد حسب تقليد قديم أن استعمال الة حديدية تضر بالنبات ؛ انظر : عبد اللطيف ص ٢٠ ، وكذا :

— la citation extraite de maundeville, ibid. p. 87; Fabri, III, 16.

(١٥٥) Recueil de voyages et de mémoires, pulb. par la Société de Géogr., IV, 806. Ritter, Erdk., XV, 1, p. 509 ; Petr. Casin., éd. Tosti, p. 129.

(١٥٦) Laurent. Peregrinatores medii oevi, p. 61 ; Ritter, op. cit., p. 648.

(١٥٧) Ed. de Sacy, p. 21.

(١٥٨) de Sacy, commentaire sur Abdallatif, p. 93 et s.

(١٥٩) Avicenne, éd. Plemp., p. 69.

من الجزيرة العربيـــة (١٦٠) ، فى حين أن المزرعـــة كانت فيمـا مضى تتزود ذاتيـــا بـكل العنـــاصر لتحـل محـل الأشـجار التى تمـــوت (١٦١) • وفى الفترة التى زار فيهـــا أرنـولد دى هــارف Arnold de Harff مصـــر دمـر الحديقة عصـــابة من المتمردين ، خلعت جذوع أشجار البلسم ، وهشمت النواعير (الســـواقى) بحيث لم يكن ثمة أمل فى الحصول على نقطة واحدة من البلسم (١٦٢) • وفى مستهل القـــرن السادس عشر ، وجـــد بيير مارتير دانجليريا (١٦٣) Pierre Martyr d'Angleria ، ومارتـــن دى بومجـــارتن (١٦٤) Martin de Boumgarten هذه المزارع فى حالة خراب تام • ولكن ، بعـــد انقضـــاء سنين ، حين أصبح الأتراك ســـادة البلد ، اهتمـــوا بترميم الحديقة ، ومن أجل هذا بعثوا مرارا من يبحث عن فســـائل فى مجاورات مكة حيث تنمو أشجار البلسم بوفرة (١٦٥) : وهذى حقيقة يعرفها كل حاج زار المدينة المقدسة •

ربما يقول البعض : هل أعطت الفسائل المستوردة من بلاد العرب بلسما ؟ لنا أن نشك فى ذلك ، اذ يقول عبد اللطيف ان شجر البلسم البرى من بـلاد العرب لا يعطى بلســـا وهـــذا تأكيد مطلق لا يمـكن قبـــوله دون اعتراض • أولا يقول « النبـــاتى » معاصر عبد اللطيف ، كما سبق ان رأينا ان الشجرة كلهـــا مفعمة بالعطر ، ويكفى انتزاع ورقة ، أو كسر غصن منها حتى يتدفق سائل أبيض ، عطر يتخذ مع الوقت لونا أحمر تماما كالبلسم (١٦٦) : كان يكفى نقل شجر البلسم العربى من رمال الصـــحراء التى نبت فيهـــا الى أرض صالحة حتى تنتج بلسما غزيرا كنظيرتها فى مصر (١٦٧) • حقا ان العرب فى العصـــور الوسطى لم يكونوا يزاولون كما فعلوا فيما بعد زراعة شجر البلسم بقصد الحصول على أجود محصول ، ذلك الذى يحصل بالحز ، ويطلق عليه

---

(١٦٠) Vesling, l.c., p. 235.

(١٦١) Petrus Martyr, Legatio Babylonica, p. 436 et s.

(١٦٢) Harff, p. 87 et s., Sanut., Diar., I, 856.

(١٦٣) Petr. Martyr, l.c.

(١٦٤) Geo., Gemnic., p. 489.

(١٦٥) Belon, Observat., p. 195 ; Alpinus, Hi t. nat. Egypt., II, 27. et ss. ; éd. De Balsamo, p. 62-74 ; Vesling., l.c. p. 237, 239, 286.

(١٦٦) عبد اللطيف ص ٢٢ ، ٩٣ •

(١٦٧) Alpinus, De balsamo, p. 64, 67.

اسم Opobalsamum ، فلم يقدموا على ذلك الا فى القرن السادس عشر حين امتنعت منتجات الهند عن المرور ببلادهم ؟ عندئذ اضطروا لأن يزيدوا من انتاجهم الذاتى ، ولما كان الطلب على هذه السلعة قد زاد ، فانهم أحسنوا زراعته ، وما لبثوا أن أنتجوا كمية كبيرة من هذا البلسم الجيد Opobalsamum الذى يصدر فى قوافل مكة (١٦٨) ، وكانوا حتى ذلك الأوان يقنعون ببيع ثمار شجر البلسم وأغصانه (١٦٩) • وبخصوص استعمال هذه الحاصلات ، كان ما يؤخذ منها من النبتات البرية يعادل فى قيمته ما يؤخذ من النباتات المزروعة • يقول « النباتى » ان ثمار شجرة البلسم العربية تحمل الى سوق مكة ومنها تصدر الى جهات مختلفة ، وان عطارى بلده (اسبانيا) وآخرين غيرهم يعرفونها باسم « حب البلسم » (١٧٠) • وفيما بعد (عام ١٥٤٩) رأى بيلون Belon حب البلسم ، وأغصان شجر البلسم فى حوانيت القاهرة ، واستفسر عن مصدرها ، فقيل له انها تأتى من اليمن عن طريق مكة ، وانها ، حسبما تعيه الذاكرة ، كانت تستورد من ذلك القطر (١٧١) وكانت الحبوب والأغصان تحتوى على البلسم وتستعمل كثيرا فى الطب ، ويضيف أن البلسم المستخلص من الحبوب بالضبط والطهو أقل فى جودته من بلسم Opobalsamum من حيث خاصيته العلاجية ، وثمنه ، وأن البلسم المستخرج من الغصون بالطريقة نفسها كان يعتبر أردأ من الأنواع السالف ذكرها (١٧٢) •ومع ذلك لما كان بلسم Opob نادر الوجود الى حد كبير ، ومن ثم فهو غالى الثمن فلا يستطيع الحصول عليه الا الأثرياء ، فان عامة الشعب كانوا يقنعون بالبلسم المسمى Carpobalsamum المستخلص من الثمرة والمسمى Xyl-balsamum المستخلص من الغصن ، فهذان هما الاسمان الوحيدان اللذان نصادفهما فى كتب التجارة (١٧٣) : أما اسم Opob فلا وجود له بها بالمرة •

---

(١٦٨) Alpinus, De balsamo, p. 64 : De plantis Egypte, p. 30; Vesling l.c., p. 236 et s., 251.

(١٦٩) Alpinus, De balsamo, p. 65 et s.

(١٧٠) De Sacy, Abdallatif, p. 94. Avicenne, p. 69.

– يقول شارح ابن سينا انه كان يستعمل ايضا فى الطب ثمرة وغصون نبات البلسم •

(١٧١) Belon, p. 197.

(١٧٢) Avicenne, éd. Plemp., p. 68.

(١٧٣) Pegol., p. 57, 296, 301 : Uzz. p. 19, 50, 191 ; Bonaini, III, 115. ; Pegol., 57 Bonani, l.c.

– احضر هاتركيلر فى رحلته من ايطاليا الى اولم Ulm نوعى البلسم • Piloti, p. 350 ; Félix Fabri III, 15 ; Abdallatif, p. 22, 89.

كان البلسم يستعمل فى الأصل فى الطقوس الدينية · كعنصر من عناصر التعميد ، والزيت المقدس (١٧٤) ، ثم استعمل فى الطب ، وبخاصة لعلاج الجروح ، وأخيرا لحفظ الجثث · ويبدو أنه كان من العادة الشائعة أن يحمل الشخص معه قوارير العطور ملأى بالبلسم · ويحكى أنه فى حفل أقيم فى تريفيس Trévise (بايطاليا) عام ١٢١٤ بنى بعضهم قلعة يدافع عنها نساء ، ويهاجمها رجال يقذفونها بالأزهار والثمار والتوابل والعطــور ، ومن قذائف قوارير بلسم لابد أن السيدات يستخدمنها كقوارير للعطور (١٧٥) ·

صمغ جاوة (لبان جاوة) Benjoin

عصارة راتنجية (صمغية) Styrax benzoin · وكان نبات الدريان Dryand الذى نسميه بعد تجفيفه Benjoin (لادن) معروفا عند العرب باسم بخور (١٧٦) (لبان) (١٧٧) جاوة · نجد هذا الاسم فى أخبار رحلات ابن بطوطة الذائع الصيت فى مناســبة زيارته سومطرة ، اذ يتحدث مرارا عن اللادن الذى يصنع فى هذه الجزيرة(١٧٨) · والعجيب أن هذا الراتنج لم يعرف فى الغرب الا فيما بعد ، ولانجد له أثرا فى أخبار الرحلات ، والتعريفات الجمركية ، وغير ذلك قبل منتصف القرن الخامس عشر ، ولو باعتباره سلعة تجارية · ولم يبدأ اسم بخور (لبان) جاوة فى الظهور بعض الشىء الا منذ استقرار البرتغاليين بالهند ، نجـــده آنئذ مــذكورا اما بين حاصلات سومطرة (١٧٩) أو الهنــد الصينية (١٨٠) ، واما بين الســلع التى تمر مرورا عابـرا باســواق قاليقوط (١٨١) ، أو هرمز (١٨٢) ، أو ضمن البضائع التى تشحن بالسفن

(١٧٤) Hanbury, Science papers, p. 294.

(١٧٥) Rolandinus Patavinus, dans Pertz, SS., XIX, 46.

(١٧٦) اعتبرت جاوة Javaهنا ، جاوة الصغرى ، Java minor اى سومطرة ·

(١٧٧) Engelmann et Dozy, Glos aire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe, 2e éd., Leyde, 1869, p. 239.
IV, 228, 240.

(١٧٨)

(١٧٩) Hieron. di S. Stefano, p. 345, b ; Varthema, p. 166, b ; Corsali p. 180, a. Roncinntto, p. 108, b ; Barbosa, p. 318, b ; Garcia de Orto, p. 155.

(١٨٠) Roteiro da viagem que fez ... Vasco da Gama, p. 110, 112 ; Corsali, p. 180, a ; Barbaso, p. 317, a ; Empoli, p. 80 ; Summar., p. 334. p. 335, a, 336, a ; Federici, p. 391, b, 397, a, Garcia de Orto, l.c.
Sernigi, p. 120, b.

(١٨١) Barbosa, p. 294, a.

(١٨٢)

البرتغالية (١٨٣) • ومع ذلك لايجوز الظن بأن البرتغاليين هم أول من استوزد هذه المادة الى أوروبا ، فهذا غير صحيح ، لأن فاسكو دا جاما ورفاقه استفسروا طوال رحلتهم الأولى عن ثمن لبان جاوة في ســـوق الاسكندرية (١٨٤) • وعلى ذلك فانه سبق أن قدم منذ وقت ما في هذه السوق الكبيرة التى تعتبر الملتقى العام لأهالى البلاد المطلة على البحـــر المتوسط ، وكان يعتبر بمصر في تلك الآونة سلعة ثمينة ، ويكفى اثباتا لذلك أن نذكر أننا نجد فى قائمة الهدايا المرسلة من قبل سلاطين مصر الى الدوج باسكوالى ماليبييرو فى عام ١٤٦١ ، والدوج برباريجـــو فى عام ١٤٧٦ ، وملكة قبرص فى عام ١٤٩٠ ، نجد تنويها بارطال كثيرة من لبان جاوة (١٨٥) • وفى « تعريفة جمارك بيزا Tarif de Pasi (١٨٦) التى نشرت لأول مرة فى عام ١٥٠٣ يظهر لبان جاوة فى عدة مواضع ، مما يثبت أنه كان ضمن السلع التى يتعامل بها التجار الايطاليون •

خشب الصبر Bois d'aloès

هذا خشب عطرى ، اسمه Aquilaria agallocha Roxb. ، نجد هذا الاسم فى الدفاتر التجارية ، والتعريفات الغربية ، ولكنه أكثر ندرة من أسماء الكثير من العقاقير الأخرى • السبب فى ذلك أن الشرقيين كانوا فى كل العصـــور يستهلكون هذه المادة بكثرة هائلة ، ويحتفظون لديهم بأفضل أنواعه (١٨٧) • وفى عصر ماركو بولو كان خشب الصبر سلعة تستوردها الصين بكثرة ، وكان من السلع القيمة فى سوق زيتون Zayton الكبرة (١٨٨) • وكان يستعمل كثيرا فى الهند فى الاحتفالات الشعائرية • وكان الحجاج الذين يزورون معبد الشمس المشهور بمدينة ملتـــان Moultan يحملون خشب الصبر كقربان : ولم يكن يحرق

---

(١٨٣) M. Baldelli Boni dans son édition de Marco Polo. I. p. liii-lettre de Franc. Guicciardini, dans ses Opere inedite, VI, 219-222.

(١٨٤) Roteiro, p. 116.

(١٨٥) Sanuto, Vite dei dogi, p. 1170 ; Mas Latrie, Hist de Chypre, III, p. 406, 483; cf. Sanuto, Diar., II, 615 ; V, 92, 116, 588.

(١٨٦) Edit. de 1521, p. 62, a, 79, b, 109, b etc.

(١٨٧) Varthema. dans Ramusio, I, 116, b ; Finlayson, The mission Hué (Lond. 1925) ; p. 259.

(١٨٨) M. Polo, Pauthier, p. 532.

كله في المعبد ، بل كان جزء منه يدخل في خزانة الملك ، وجزء يباع لبعض التجار(١٨٩) ٠ وكان في البلاطات الشرقية ، كبلاط الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وبلاط السلطان أكبر الهندي ، مؤونة كبيرة من خشب الصبر (١٩٠) ٠ وفي أوروبا لم يكن استعمال العطور شائعا بالقدر الكافي، الا ان خشب الصبر كان يستعمل كثيرا في صنع الأثاث (١٩١) ، ودخل بنوع خاص ، أسوة بالعرب في « أقرباذين » العصور الوسطى ٠ وكلما وجدنا في مؤلفات طبيب أو عالم بالطبيعيات في ذلك العصر بيانات تفصيلية عن خشب الصبر وأنواعه المختلفة (١٩٢) ، كان ذلك اقتباسا من مصادر عربية ٠ وكان بيجولوتي (ص ٣٧٦) يعرف الخصائص التي تميز خشب الصبر الجيد ، ولكنه لم يحصل على هذه المعرفة من الكتب ، وانما من أسواق الشرق الأدنى ٠ فالواقع أن التجار الغربيين كانوا يحصلون على هذه السلعة من أسواق القسطنطينية(١٩٣) ، ودمشق(١٩٤)، وعكا (١٩٥) ، والاسكندرية ، وتاماجوستا (١٩٦) ، وفي هذه المدينة الأخيرة وجد أحد المسافرين أكثر من حمولة خمس عربات من خشب الصبر مكدسة في دكان بقالة واحد (١٩٧) ٠

وهكذا كان خشب الصبر سلعة شائعة في تجارة العصور الوسطى٠ وان أردنا أن نعرف مصدر هذه السلعة ، كان علينا أن نرجع الى المؤلفين العرب ٠ كان خشب الصبر الذي يحمله الحجاج الهندوس الى ملتان ، خشب ثمين للغاية ، من نوع ممتاز ، يطلقون عليه بلغتهم اسم « كمروني » Kamrouny تبعا لبلده الأصلي كمرون (١٩٨) ٠ وينسب

---

(١٨٩) Relations, p. 135 et s. ; Maçoudi I, 376.

(١٩٠) Quatremère Mém. sur l'Egypte, II, 366 et ss., (d'après Makrizi); Ayeen Akbery, trad. angl. p. Gladwin (Lond. 1800), I, 91.

(١٩١) l'Inventaire du trésor de la coursonne par Douet d'Arcq, Choix de piéces, II, 284, 317, 355 ; Inventaire de Charles V, p. 233.

(١٩٢) Seth. De alimentis, éd. Bogdan., p. 77 et s. ; Albertus M., De vegetabilitus, ed. Meyer et Jessen, p. 344 et s., 467 et ss.

(١٩٣) Pegol. p. 27

(١٩٤) Le pèlerin Baumgarten de Breitenbach : Peregrinatio, p. 112.

(١٩٥) Assises de Jrus., II, 174.

(١٩٦) Pegol., p. 57, 65.

(١٩٧) Ludolf. de Suthem, p. 33.

(١٩٨) Relation , p. 135 ; Abou Dolef (éd. Schlözer, p. 20, 24) Kazwini, dans Gildemeister, p. 214 ; Avicenne (Gildemeister, p. 71); Abou Hanifa (Sérapion, p. 157) ; Wassaf (Elliot, Hist. of India, III, 29).

البيرونى (١٩٩) ، وأبو الفدا (٢٠٠) هذا الاسم الى منطقة جبلية واقعة بين الهند والصين : تلك هى مملكة كاما روبا Camaroupa الهندية القديمة ، فى أقصى حد لانتشار الحضارة الهندية صوب الشرق (٢٠١) ، وهناك توقف الحاج البوذى هيونتانج Hiouenthsang (٢٠٢) فى رحلة عبر الهند ٠ وبعد ذلك تمتد الصحراء ٠ ولما وصل ابن بطوطة الى ذلك الاقليم (الذى سماه كامرو Kamarou) وهو على حدود الهند ، عاد أدراجه (٢٠٣) ٠ ولنا أن نستنتج من اجماع الكتاب العرب أن مايسمونه « قامرون » Kamaroun (كامارو ، كمروب Kamarou, Karéoub) هو الاقليم الذى يطلق عليه حاليا اسم أسام الغربية (٢٠٤) ، ولم يزل هذا القطر الى وقتنا الحاضر ينتج خشب الصبر ، ويشكل مع منطقة « سلهت » Silhet المجاورة الحد الأقصى للأراضى التى ينمو بها هذا النبات (٢٠٥) ويبدو أنه فى الفترات الأولى من العصور الوسطى كانت الشجرة التى تعطى خشب الصبر ماتزال تنمو على الضفة اليمنى من المجرى السفلى لنهر براهمابترا ، اذ تحكى أقدم الأخبار العربية أن شجر الصبر يأتى أيضا من مملكة « رهما » Rahma (٢٠٦) التى تقع على ناصية « دكا » Dacca أعلى ملتقى نهرى براهمابترا والجانج ٠ ولم تكن الأقاليم التى يرويها نهر الجانج صالحة لنمو هذه الشجرة ٠ ويذكر الرحالة الايطالى كونتى تشيتى Conti cite من الأشياء التى رآها فى مارامانيا Maarazia (مارازيا Marahattia) على نهر الجانج (٢٠٧) ، أنه رأى خشب الصبر (٢٠٨) ، ولا يعنى هذا القول بأن هذا الخشب من محاصيل البلد ، ومن جهة أخرى ، يذكر المؤلفون العرب نوعا من خشب الصبر ينمو فى

---

(١٩٩) Sprenger, Post-und Reiserouten des Orients, p. 88 ; Rachideddin, dans Elliot, I, 57.

(٢٠٠) Géogr., II, 1, p. 26 ; II, 2, p. 121.

(٢٠١) Ibn-Khordadbèh, p. 290; Lassen, Ind. Alterth, 1, 66.

(٢٠٢) I, 227 ; II, 254 ; III, 76, 389.

(٢٠٣) IV, 215 et s.

(٢٠٤) Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 151 ; Introd. de l'éd. d'Aboulféda, et celle des relat. p. 1 et s. ; Vivien de S. Martin. Etude sur Hiouenthsang, III, 389; Yule, Cathay, II, 515; Elliot, I, 361.

(٢٠٥) Hanburg, Science papers, chiefly pharmacological and botanical (Lond. 1867), p. 264.

(٢٠٦) Relat. I, 28; Maçoudi, I, 385 ; Ibn Khordadbeh, p. 289.

(٢٠٧) Elliot, I, 361.

(٢٠٨) Conti p. 41

جزيرة سيلان (٢٠٩) ، غير أن هذا ليس الا ذلك الخشب العطرى الذى سماه جارسيا دى أورتو Raıcia de Oroto « خشب الصبر البرى » وهو الخشب الذى كان مستعملا ابان رحلته لترميد الموتى فى سيلان ، وعلى طول سواحل رأس قومورين (٢١٠) ، هذه المعلومة تمهد لنا الطريق لمعرفة أصل كلمة قمارى التى تطلق على نوع من خشب الصبر (٢١١) ، كان هناك بالفعل منطقة بهذا الاسم فى أقاليم رأس كمورن (٢١٢) ، الا أن النبات الذى نتحدث عنه حاليا لم يكن ينمو هناك (٢١٣) ، انما كان ينمو على سواحل الهند الصينية حيث اعتاد العرب أن يتوقفوا عندها ، واسم قمار Comar الذى يطلقونه على ذلك الاقليم ، والموقع الذى يذكرونه (٢١٤) ، يحملنا على التعرف على كمبوديا Cambodg ، واسمها فى اللغة الوطنية خمير Khmer (٢١٥) ،
ورأى ابن بطوطة بالذات النوع الذى نتكلم عنه فى موقع انتاجه بالقرب من مدينة قمارة Kamarah فى بلد « مل جاوة » moul-Java (٢١٦) ، حقا ، من المسلم به بوجه عام أن اسم مل جاوة هذا يشير الى جزيرة جاوة (٢١٧) ، الا أن السيد يولى Yule أثبت أخيرا ببرهان قاطع أنه يخص اقليما واقعا فى القارة الآسيوية نفسها فى خليج سيام (٢١٨) ، فاذا كان الأمر كذلك ، فان شهادة ابن بطوطة تؤيد شهادة الرحالة العرب : وهو بذلك ييسر لنا حل مشكلة أخرى : ذلك لأننا اذا سرنا فى أعقابه نجد فى القطر نفسه مدينة « قاقلة » Kakoulah (*) التى لابد قد أعطت اسمها لنوع آخر من خشب الصبر ،

---

(٢٠٩) Relation , I, 6 ; Ibn Khordadbêh, p. 235 ; Edrisi, I, 72 ; Kazwini Jans Gildc meister, l.c. p. 195; Ibn Batouta, IV, 167.

(٢١٠) Clusius, Exot., p. 172 et s.

(٢١١) والى هذه الجزيرة (قمار) ينسب العود القمرى وبها يعرف وهو جيد لكن العود الصنفى أجود منه (الادريسى م ١ ص ٨٣) ،

(٢١٢) Marco Polo, p. 645.

(٢١٣) M. Lassen, Ind. Alberth, IV, 944; Reinaud, Mém., sur l'Inde, p 223 et ss.; Elliot, Hist. of India, I, 8, 13 not 2.

(٢١٤) Relat., I, 97 et ss. ; Maçoudi, I, 169 et ss. ; Ibn Khordadbêh, p. 291; Aboulf, op. cit.

(٢١٥) Sprenger, Post-und Reiseoruten des Orients, p. 89; Yule, M. Polo, II, 318.

(٢١٦) IV, 240-244.

(٢١٧) Gildemeister, p. 67 ; Dulaurier, dans le Journ. asiat, 4e série, IX, 244 et s.

(٢١٨) Cathay, II, 518 et SS.

(*) قاقلة : على الشاطىء الشرقى لشبه جزيرة الملايو ضمن بلاد مل جاوة على مقربة من كيلانتان الحالية ، ركب ابن بطوطة منها الى الصين ، (المراجع)

ذلك المسمى « خشب قاقلة » (٢١٩) ، وكان يحمل عادة على ظهور الأفيال ، مثله مثل أية حمولة من الأخشاب العادية ، ويستعمل كثيرا كخشب يحرق . ومن الأسهل معرفة أصل كلمة « صنفى » Sanfi التى تطلق على نوع شائع جدا من خشب الصبر (٢٢٠) : فالواقع أن الآراء تتفق بعامة على أن «صنفى» العربية ليس الا « تسيامبا » Tsiampa على الساحل الجنوبى كوشين صين Cahinchine وهكذا ثبت أن تجارة العرب كانت تحصل على خشب الصبر من شبه قارة الهند الصينية ، وأن التجار الغربيين يتلقونه منهم ، ومع ذلك نجد منه أيضا فى الجزر المجاورة للهند الصينية (٢٢١) ، وبخاصة جاوة وسومطرة (٢٢٢) .

وفى العصر الذى دعم فيه البرتغاليون سيادتهم فى الهند ، كانت البلاد التى عرفت بأنها تنتج أحسن أنواع خشب الصبر المسمى كالامبوك kalambouk (Kalambak، Kalampout) (٢٢٣) هى اقليم تسيامبا Tsiampa (٢٢٤) ، وكوشين صين (٢٢٥) ، وسارناو (٢٢٦) Sarnaou . ويؤكد السيد يولى Yule (٢٢٧) أن هذا الاسم الأخير يعنى مملكة سيام ، وأشاركه أنا فى هذا الرأى . فالواقع أن معلومات فرنان منديز بنتو Ferman Mendez Pinto لا تترك مجالا للشك فى هذا الخصوص ، ومن ثم فان أصل هذا الاسم الغريب نجده فى الاسكارينو Scharinao لعبد الرازق (٢٢٨) .

---

(٢١٩) Avicenne, dans Gildemeister, p. 71 et s.

(٢٢٠) Relat I, 18; Maçoudi, I, 330 ; Ibn Khordadbèh, p. 252; Abou Dolef, p. 20, 24; Edrisi, I, 83; Aboulf., Géogr. II, 2, 127; Avicenne, l.c p. 72; Seth; de aliment., éd. Bogdan, p. 77 et s. ; les relations de voyage de M. Polo (éd. Yule, II, 213) et de Conti, (p. 46)

(٢٢١) Maçoudi, I, 341 ; III, 56; Edrisi, I, 89.

(٢٢٢) Kazwini, dans Gildemeister, oj. cit., p. 193, 203; Ibn Batouta 240; M. Polo, p. 567 ; Carte catal., p. 137; Carte de Fra Mauro, p. 49, 50.

(٢٢٣) Giovani da Empoli ... Archiv. stor. ital. 4e série, VI, (1880). p. 167.

(٢٢٤) Sommario, p. 366, b. ; Barbosa, p. 320, a.

(٢٢٥) Sommario, l.c. ; Federici, p. 301, b, 397, a.

(٢٢٦) Varthema, p. 166, b.

(٢٢٧) M. Polo, 2, 222; Elliot, Hist. of India, IV, 514.

(٢٢٨) Not. et extr., XIV, 1, p. 429.

خشب الصندل Bois de Santal

في التجارة ثلاثة انواع من خشب الصندل : الصندل الأحمر ، والصندل الاترجي (الليموني اللون - المترجم) ، والصندل الأبيض ، وكانت هذه التفرقة شائعة في العصور الوسطى (٢٢٩) • وبخصوص الصندل الاترجي ، أو الصندل الأبيض ، فهذا خشب عطري ، اسمه العلمي سانتالم البم Santalum album ، ولاشك في ذلك • والصندل الاترجي (الليموني) يفوح منه عطر زكي ونفاذ ، وكان الشرق أكبر مستهلك له (٢٣٠) ، وبخاصة البلاد التي جرى العرف فيها على حرق جثث الموتى (٢٣١) ، وحرق الأخشاب العطرية في الاحتفال الدينية (٢٣٢) ، وتطبيب الأجسام بالروائح العطرية (٢٣٣) ، ولما كان الصندل الليموني هو النوع المطلوب أكثر من غيره ، كان ثمنه مرتفعا دائما ، فلا يصدر منه الى الغرب الا القدر القليل جدا • ولدينا أول دليل على ذلك في الدفاتر التجارية التي لاتذكر بها هذه السلعة الا نادرا • هذه الحقيقة أيدها صراحة كاتبان عاشا في عصرين متباعدين كثيرا أحدهما عن الآخر : بلاتيريوس (٢٣٤) Matth. Platirius وجارسيادى أورتو (٢٣٥) Garcia de Orto • وبعكس هذا نجد كثيرا جدا في الوثائق الغربية اسم الصندل الأبيض ، وهو ذو عطر أضعف •

وبوجه عام كلما تحدث مؤلف عربي عن خشب الصندل دون تخصيص فانه يقصد صندل « سانتالم البم » • ومنذ أن بدأت اتصالات العرب البحرية مع الهند والصين ، وذلك في العصر الذهبي لميناءي كالة Kalah ، وسيراف Siraf ، كان خشب الصندل من السلع التي يفضل العرب شحنها في السفن (٢٣٦) • وتبعا لكتابهم ، كان

---

(٢٢٩) Pegol. p. 297 et s., 377 ; Uzz., p. 24, 59, 83, 111, 191; Pasi, p. 9, a ; Bonaini, Stat. Pis., III, 437 ; Flückiger, Die Frank-furter Liste, p. 11.

(٢٣٠) Ritter, Endk., V, 821 et ss.

(٢٣١) P. ex. à Ceylan (Relat., p. 50), dans l'Indo-Chine à Tenasserim (Varthema p. 164, b,)

(٢٣٢) Isaac ben Omran dans Ibn Beitar, II, 138.

(٢٣٣) Dans les Indes, v. G. de Orto, p. 173.

(٢٣٤) Circa instans, p. ccxlix.

(٢٣٥) Dans Clus., p. 173 et s.

(٢٣٦) Relation‌. p. 93 et s. ; Isstachri, p. 74.

خشب الصندل يرد من جزر المحيط الهادى (٢٣٧) • وفيما بعد توغل الأوروبيون داخـــل جزر ماليزيا ، واكتسبوا معلومات أدق عن هذه الأصقاع . وعرف عندئذ أن جزيرة تيمور Timor هى التى تحتوى على أكبر عدد من مزارع شجر الصندل الثمين ، وهى التى تزود بهذه المادة عند الضرورة سكان سومطرة ، وجـــاوة ، وملقا (٢٣٨) • ويقول بعض المؤلفين أن هذه المادة موجودة أيضا فى هذه الجهات الثلاث (٢٣٩) ، غير أنه يحتمل أن ما يصل منها الى أسواقها سلعة تمر بها مرورا عابرا ، وليست من نتاج البلد نفسه • فضـــلا عن ذلك فان « السانتالم البم » يغطى مساحـات شاســـعة فى كل من الهند وشـــبه جزيرة الهنـــد الصـينية (٢٤٠) ، وما ينمو منه على ســـلاسل الجبال المحاذية لساحل ملبار هو من النوع الممتاز (٢٤١) •

وفيما يختص بالصندل الأحمر ، يلاحظ أن الخشب العطرى من « سانتالم البم » يتخذ أحيانا صبغة حمراء ، وهذى حالة ليست نادرة • وعلى ذلك يبدو من المحتمل كثيرا أن تأتى أصناف خشب الصندل الثلاثة التى تظهر ضمن السلع التجارية فى العصور الوسطى من نوع واحد فقط من الشجر • ومع ذلك لايمكن الجزم بصحة هذا الرأى • فأصناف الصندل الأحمر Santali Rossi كانت ترد الى الغرب بكميات أكبر بكثير من كميات الصنفين الآخرين (٢٤٢) : وكثيرا ما ذكر هذا الخشب على أنه خشب ملون ، مثلا على أنه عنصر يستعمل فى تلوين الصلصة ، الخ • والخشب المستعمل فى هذه الحالة هو مايسمونه Pterocarpus santalinus Linnfil ، ولم يزل يبـــاع فى وقتنا الحاضر باسم خشب الصندل الأحمر (٢٤٣) • وقد رأى كونتى Conti الشجرة التى يؤخذ منها هذا

---

(٢٣٧) Mçaoudi, I, 222. 341; III, 56; Edisi, I, 82; cf. Crawfurd, Dictionary of The Indian archipelago (1856), au mot Sandal wood.

(٢٣٨) Empoli, p. 81 ; Barbosa, p. 317, a, 319, a, 323, b ; Pifaf, p. 171 ; Garcia de Orto, p. 173; Federici, p. 391, b, 397, a.

(٢٣٩) Ibn Khordadbéh, p. 238 ; Carte catalane, p. 137 ; Fier. da S. S. Stefano, p. 345, a ; Varthema, p. 116 a. ; Gernatis, Viggiat. ital., p. 159.

(٢٤٠) يذكر كونتى بنوع خاص مملكة سيام (ص ٤٥) ، ويذكر فارتيما مملكة بيجو • (المرجع السابق) •

(٢٤١) Ritter. Erdk., V, 815 et ss. ; Royle, Alterth. der indischen Medicin, p. 88.

(٢٤٢) Peg. p. 377.

(٢٤٣) Flückiger et Hanbury, Pharmacographia, 2e éd., p. 199 et ss., 599 et ss.

الخشب على طريق الدكن Dekkan على ساحل كروماندل (بالهند) ، ورأى بيرونيمو داسانت ستيفانو Hieronimo da S. Stefano أمدادا كبيرة منها على هذا الساحل نفسه (٢٤٤) ، ولكنه يعتقد بوجودها أيضـا فى أجزاء أخرى من الهند وسيلان (٢٤٥) .

خشب البقم Bois du Brésil

خشب الصندل الأحمر وخشب البقم هما أشهر أنواع الخشب الأحمر التى تنتجهـا الهنـد . وخشب البقم من جنس « السـابان » (من الفصيلة القرنية ـ المترجم) : Coesalpina Sappan (٢٤٦) ، ويبيعه التجار العرب باسم « البقم » ، ولونه الأحمر فى الغـرب يجعله شبيها بالجمر (bragia, brascia, brasa, braise) ومن ثم أطلق عليـه بطريق القيـاس اسـم : braxile, brasillium, brasile (٢٤٧) ومنه أسماء الايطاليون (٢٤٨) : bersi (berzi, barzi, verzi, verzino — وبقيت التسميتان brasile, verzino هما الأكثر شيوعا . ومن غير المحتمل ان يكون هذا الخشب قد استورده الغرب قبل الحروب الصليبية . وأول مثل معروف لظهوره فى أوروبا ، ورد ذكره بوجه عام بفقرة فى وثيقة لعام ١١٩٤ بخصوص الرسوم التى يتعين على سكان بولونيا دفعها لجمرك فيرارى Ferrare (٢٤٩) . وأشير الى وثيقتين سابقتين على الوثيقة المذكورة ، دون ان أؤكد أنهما أقدم الوثائق فى هذا الخصـوص ، وهما لائحة بتاريخ ١١٤٠ بخصوص الميزانية العامة لمدينة جنوا ، وامتياز الكونت فيليب دى فلاندر يمنح به سوقا لمدينة نيوبورت بالفلاند (٢٥٠) . وبالنسبة

---

(٢٤٤) Conti p. 38 ; Hieron., p. 345, b.

(٢٤٥) Ainslie, Materia indica, I, 385 et s.

(٢٤٦) اساس هذا الاسم هو الكلمة الماليزية سابانج sapang انظر : Marsden, Hist. of Sumatra, p. 95 ; Las en, Indische Alberth., IV, 930, not.

(٢٤٧) Ducange : Brasil, Bragia.

(٢٤٨) بخصوص هذه الاشكال القليلة الاستعمال ، أحيل القارىء الى : M. Bonaini, Stat. Pis., III, 105, 113, 346, 591 et s. ; Messineser Zollrolle, l.c., p. 76 ; Taf. et Thom., II, 233 ; III, 445 ; Archiv. Venet., XVIII, 56 ; Mas Latrie, Hist. de Chpyre, II, 136, 482; Lettre de Menentillc, publ. par M. Kunstmann dans le Münchn.-gel. Anz., 1855, Bulletin der Akad, p. 173.

(٢٤٩) Muratori, Antiq. ital., II, 894.

(٢٥٠) Lib. jur., I, 71 et s. ; warnkönig, Flandrische Staats-und Recht gesch.,., II, 2, p. 90.

لتاجر محنك ، لا تكفيه التفرقة بين خشب البقم وخشب الصندل الأحمر Sandali rossi (٢٥١) : لابد له أن يميز مختلف خصائص خشب البقم ۰ وتختلف هذا الخصائص تبعا للشجرة التى أتى منها ، ان كانت شجرة برية أو مزروعة (٢٥٢) ، وتبعا للبلد الذى أنتجه ۰ وفى هذه الحالة الأخير يميز بيجــــولوتى بــين : le verzino semic, le verzino ameri, colombino ويصنفها تبعا لصفاتها بالترتيب الذى أشرنا اليه : ففى تقديره أن قيمة الثانى لا تبلغ الا خمسة أسداس قيمة الأول ، وقيمة الثالث ثلث قيمة الأول ۰ والأول لونه أحمر ناصع ، والثانى أحمد داكن ، والثالث أحمر مائل الى الصفرة (٢٥٣) ۰ واذا نحن بحثنا فى أصل الأسماء التى أطلقت على أنــــواع خشــب البقـــم المختلفة ، نجـــد أن المســـألة بالنسـبة لـ Verzino colombino بسيطة ، لا صعوبة فيها : فهذا خشب وارد من كولم (٢٥٤) ۰ والواقع أن اسم Colombo فى أخبار الرحلات ، وخرائط العصــــور الوسطى كثيرا ما يقرأ بدلا من اسـم كولم Coulam (Guilon) ويسمى ماركوبولو هذه المدينة Coilun ، ويضيف أن فى مجاوراتها ينمــو نــوع ممتـــاز من خشــب البقــم يســمونه كولونى coiluni قياسا على اسم البلد الذى ينتجه (٢٥٥) ۰ ويذكر كثير من المؤلفين العرب أيضـــا خشــب البقـــم من كولم ، اما بتســـجيل ما رأوه بأنفســـهم ، واما بالاستشهاد بما كتبه آخرون (٢٥٦) وليس من السهل أن نشرح معنى الكنيــــة ameri (almeri) ، هـــذا الاســـم يذكرنا أولا بجبل الأمرى El-Amri الذى يحاذى الساحل الجنوبى للهنـــد قبالة سيلان ، اذ ينمو شجر البقم هناك بوفرة ، ويصدر الى جهات بعيدة (٢٥٧) ۰

---

(٢٥١) Pegol, p. 361, 377.

(٢٥٢) "Verzino salvatico, dimestico" (sic.), p. 298.

(٢٥٣) Pegol. p. 361 ; les Segreti per colori (manuscrit de Bologne, XV sicle) publ. par Merrifield, Original treatises, p. 441, 555, dans Uzzano, p. 69, 111, 114 et dans Chiarini, p. lxxii, cxxxiv, b.

(٢٥٤) انظر المادتين : قرفة connelle ، وزنجبيل gingembre

(٢٥٥) Ed. Pauthier, p. 643 et s.

(٢٥٦) Abou Dolef, p. 23; Kazwini, dans Elliot, Hist. of India, I, 96 ; Aboulfeda, dans Gildemei ter, p. 91 ; Ibn Batouta, IV, 99.

(٢٥٧) Edrisi. I. 184.

قد يكون فى هذا تفسير للاسم ، ولكن هناك تفسير آخر يبدو لى أنه يستحق اهتماما خاصا . فمن البلاد المنتجة لخشب البقم يذكر كتاب العصور الوسطى كثيرا جزيرة سومطرة (٢٥٨) ففى قسم من الجزيرة يواجه الهند توجد منطقة تسمى لامورى Lamori (٢٥٩) أو Lamuri (٢٦٠) ، Lambro, (٢٦١) ، Lamri (٢٦٢) كانت تنتج خشب البقم بكثرة ، ويتحدث عنها ماركو بولو ، وقد أحضر بنفسه بعض البذور ، وأراد أن يزرع بها منها شجرة بقم بالبندقية ، ثم ان محاولته هذه ، لو أنه قام بها فعلا لكان مصيرها الفشل منذ البداية . والآن ، هل لنا أن نذكر عدد الكلمات الأجنبية المبدوءة أو المسبوقة بحرف L والتى حذفت منها اللغة الايطالية حرف L هذا باعتباره حرف جر وليس جزءا لايتجزأ من الكلمة ؟ هذه الخصيصة توضح لنا كيف أن كلمة Lamori قد تحولت الى Amari ، وتتأكد ملحوظتنا بكلمة almeri التى ذكرها كياريني Chiarini والتى بقى بها حرف L . أرانى اذن أميل الى تأييد رأى السيد Yule « يولى » . هذا العالم يسلم بأن البلد المنتج للنوع الثانى من خشب البقم هو المنطقة التى سماها ماركو بولو لامبرى Lambri ، أما كلمة صينى Seni التى تصف النوع الثالث من خشب البقم فلا يبدو لى أن لها صلة باسم الصين ، ولا أريد بذلك القول بأن الصين نفسها تنتج خشب البقم Bois de Sappan ، ولكن يبدو لى أنه يمكن الافتراض بطريق القياس بأن الصينيين كانوا يشحنون هذا الخشب على سفنهم من بلاد مجاورة لبلدهم ، ويحملونه الى الهند ، ولنا فى هذه الحالة أن نختار بين جزر أرخبيل ميرجوى Mergoui (٢٦٣) والهند الصينية ، لأن الأخيرة

---

(٢٥٨) Relat. p. 7, 93; Ibn Khordadbèh p. 286; Edrisi, I, 75, Kazwini, dans Gildemeister, p. 194; Aboulféda, Geogr., II, 2, p. 131; Marsden, Hist. of Sumatra, p. 95.

(٢٥٩) Oderico da Pordenone, dans Yle, Cathay, II, 1er append., p. XVI et I, 84, not.

(٢٦٠) Rachid-eddin, cit. dans Yule, I, 84.

(٢٦١) M. Polo, p. 576; M. Yule, l.c. ; Pauthier, l.c.

(٢٦٢) Aboulf., Géogr., II, 2, p. 13.

(٢٦٣) Maçoudi, I, 338 ; III, 56.

ـ ذكر مثالا للبلاد المنتجة لخشب البقم الجزيرة التى سماها ماركو بولو (بورنيو ص ٥٦٢) وجزر nicobar (ص ٥٨٠) . Soucat

تملك غابات كبيرة من شجر البقم Caesalpinia Sappan (٢٦٤) ٠ وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كشف لنا ارتياد منطقة تناسريم Ténasserim أن هذه المادة موجودة هناك (٢٦٥) ، ولم تزل موجودة بهـا (٢٦٦) ، وفى وفـرة ٠ غـير أن اقليم (بيجو) Pégou (٢٦٧) وسيام ، وكوشين صين قد تنتج هى أيضا هذه المادة ٠

وقد أتاحت لنا دراسة الأسماء التى ذكرها بيجولوتى لمختلف أنواع خشب البقم الفرصة لاستعراض معظم البلاد التى كانت هذه المادة تصدر منها الى الغرب ، ورأينا أن الأمر صحيح وثابت بالنسبة لبعضها ، ومحتمل بالنسبة للبعض الآخر ٠ واستيفاء للموضوع يتعين علينا أيضا أن نضيف أن مقاطعة قاليقوط (٢٦٨) بالهند ، وساحل ملبار بوجه عام (٢٦٩) كانتا تنتجان هذا الخشب للطباعة ٠ وأخيرا ، وبخصوص هذه المادة كانت جزيرة سيلان تشغل احـدى المراتب الأولى من حيث الكم والكيف (٢٧٠) ٠ ويصرح ماركو بولو بان خشب البقم فى سيلان هو الأول من نوعه فى العـالم (٢٧١) ، فى حين يجعل بيجولوتى التفوق لخشب بقم كويلون (كولم) ، ولا يذكر بالمرة خشب سيلان ، ولعل السبب فى هذا الاغفال أن هذه المادة تمر بسوق كويلون ثم تخرج منه متجهة صوب الغرب مخلطة بانتـاج البلد ٠

---

(٢٦٤) Ritter, Endk., IV, 1099 ; V, 115, 145.

ـ ندرك من ثمة ان كالة فى شبه جزيرة ملقا كانت منذ عهد مبكر مستودعا لخشب البقم ، كما هى الآن سنغافورا ٠

(٢٦٥) Conti, p. 40 ; Roteiro que fez ... Vasco da Gama, p. 110; Varihema, p. 164 ; Massari, p. 29, Federici, p. 391, b.

(٢٦٦) O'Riley, Vegetable products of the Tenasserim province ;, dans le Journ. of the Indian Archipelago, IV, 60 ; cité par M. Badger dans son éd. de Varthema, p. 205.

(٢٦٧) Varthema, p. 166 a.

(٢٦٨) Sernigi, dansRamus., I, 126, a.

(٢٦٩) Conti, p. 46.

(٢٧٠) Kazwini dans Gildemeister, p. 203; Ibn Batouta, IV, 166.

ـ فى عام ١٢٨٣ أراد أمير سنغالى أن يوثق العلاقات بين بلده وبين مصر ، فراسل لهذا الغرض السلطان قلاوون ، وذكر بين ما ذكره من حاصلات بلده خشب البقم ٠ انظر : Quatremère, Mém. sur l'Egypte, II, 285.

(٢٧١) M. Pauthier, P. 585; M. Ritter (VI, 122).

ويصل خشب البقم الى السوق في شكل جذوع شجر (مجردة من أوراقها) ، ويجب أن تكون صلبة وثقيلة (٢٧٢) • ويبدأ بنزع اللحاء والطبقة التى تليه لأنها عديمة الفائدة ، فيتعرى القلب (الخشب الصلب) الأحمر اللون ، ومن هذا القلب تستخرج المادة الملونة بوسائل مختلفة (٢٧٣) ، وتدخل هذه المادة في تركيب صبغات للأجواخ (٢٧٤) ، والوان للمنمنمات التى تزين المخطوطات ، وكانت مطلوبة بنوع خاص للألوان الوردية ولكنها قليلة الاستعمال بمعناه الصحيح (٢٧٥) • أما الخشب نفسه فانه يستعمل أحيانا في صنع الأثاث (٢٧٦) •

الكافور Camphre

في عام ٦٩٨ ، عندما سقطت المدائن عاصمة الساسانيين ، وجد الغزاة العرب في الغنائم ، مع العطور والتوابل مؤونة من الكافور ، ظنوها ملحا • بقراءة هذه الحكاية الصغيرة قد يظن القارىء أن العرب كانوا يجهلون كل الجهل هذا العقار ، ولكن هذا غير صحيح • فالواقع أن القرآن جعل في الجنة نبعا من الكافور يمد المؤمنين بشراب عطر ومنعش حتى يطفئوا ظمأهم (٢٧٧) ، ثم أن مؤلفات الكتاب العرب من أصحاب الذوق الرفيع ، أمثال الشاعر امرؤ القيس الذى تألق في حضرموت في مستهل القرن السادس تدل على أن الكافور كان معروفا من قديم الزمان في تلك المناطق (٢٧٨) • وفيما بعد حين قام البحارة والتجار العرب

---

(٢٧٢) Pegol., p. 361 et s.

(٢٧٣) Le Laber divers. art. Moutp. (p. 573) ; Merrifield, Original treatises, p. 53, 441 et s.

(٢٧٤) Bonaini, Stat. Pi ., III, 58, 131.

(٢٧٥) Monteil, Hist. de Français, I, 322 (et notes).

نجد في هذا الباب أمثلة لاستعمال خشب البقم في صباغة الملابس والجلود • وفي خصوص استعماله في المنمنمات ، انظر : Ilg, trad. de Cennени, notes, p. 175.
— En général, cf. Lib. art., p. 745 et s., 748, 751-756, 769.

(٢٧٦) مثلا ، للديكورات المستعملة في المناضد (Laborde Les ducs de Bourgogne) وفي البراميل الصغيرة (Boilau, Livre des métiers, p. 104). ، وفي الترصيع • (ibid., p. 173).

(٢٧٧) القرآن ، ترجمة كازيمرسكي (سورة الانسان ، الآيتان ٥ ، ٦) •

(٢٧٨) Flückiger, Zur Gesch. des Kamphers, dans le N. Repert. f. Pharmacie, de Buchner, XVII (1868), p. 28 et ss.

برحلات الى الهند ، ثم الى الصين كان لزاما عليهم أن يمروا بالأرخبيل الهندى ، وعرفوا فى رحلاتهم المراحل التى يمر بها هذا المحصول ليصل من المناطق الجنوبية فى آسيا الى البلاد المشرقة على البحر المتوسط : كلح فى شـبه جـزيرة ملقـا (٢٧٩) ، وكولم (٢٨٠) ، وصـوفارا Soufara, Sofala (٢٨١) على الساحل الغربى للهند ، وسيراف (٢٨٢) على الخليج الفارسى ، وعدن (٢٨٣) عند مدخل البحر الأحمر ، وزاروا البلاد التى يخرج منها الكافور وشهدوا بأعينهم الشجرة المهيبة التى تحتويه، واستظلوا بظلها (٢٨٤) ، وعرفوا أن الكافور يحصل عليه اما سائلا بعمل حزات فى لحاء الشجرة حتى تسيل منها العصارة ، واما صلبا باستخراج الراتنج المتجمد فى جذع الشجرة (٢٨٥) ، ويجلبونه الى بلادهم اما كمادة خام على حالته عند خروجه من الشجرة ، واما مصفى ومنقى . وعلى هذا النحو كان فى وسع الأطباء وعلماء الطبيعة العرب أن يكون عندهم ، وتحت عيونهم مجموعة منوعة من مختلف أصناف الكافور ، صنفوها متخذين أساسا لتصنيفهم اما موطنها الأصلى ، أو لونها ، أو خصائص أخرى (٢٨٦) . فمن جهة المصدر اتفق الجميع ، من رحالة وجغرافيين (٢٨٧) على القول بأن كافور فيصور Feisour فى جزيرة سومطرة يفوق سائر أنواع الكافور . وعموما يذكر المؤلفون كثيرا هذه الجزيرة على أنها بلد الكافور الأصلى (٢٨٨) ، وان أشهر منطقة تنتج أجود صنف من الكافور هى منطقة فيصور (٢٨٩) ، وتطلق عليها صحيفة أخبار ماليزية اسم بازورى Pasouri ، ويتعين البحث عنها على

---

(٢٧٩) Relat., p. 93; Edrisi, I, 80 ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 132.

(٢٨٠) Abou Dolef, p. 24; Kazwini, cit. dan Elliot, Hist. of India, I, 96.

(٢٨١) Ishak ibn Omran voy. Journ. Asiat., 4e série, VIII, 218.

(٢٨٢) Isstachri, p. 71, 74.

(٢٨٣) Edrisi, I, 51.

(٢٨٤) Maçoudi, III, 56 ; Ibn Khordadbèh, p. 287 ; Kazwini, dans Gildemeister, p. 194, Ibn Batouta (IV, 241); Meyer, Gesch. der Botanik, III, 320 et s.

(٢٨٥) Ibn Khordadbèh. l.c. ; Abou Dolef, p. 25 ; Kazwini, l.c. (cf. l'explication donnée par Dulaurier dans le Journ. asiat. l.c., p. 216).

(٢٨٦) Dulaurier, l.c.; of. (Chams-eddin, p. 127.

(٢٨٧) Relat., p. 7; Maçoudi, I, 338 ; Kazwini, dans Gildemeister, p. 209, dans 7thé, I, 1, p. 405; Chem -eddin, op. cit. ; Abouldéda, Geogr. II, 2, p. 127.

(٢٨٨) Relat., p. 93 ; Edrisi. I, 76 ; Kazwini, dans Gildemeister, p. 194; Chems-eddin, p. 205.

(٢٨٩) Not. et extr., XXVI, l, p. 130, 285.

الساحل الغربي للجزيرة ، شمالي خط الاستواء بقليل (٢٩٠) . نجد هناك أيضا في الوقت الحاضر كافور باروس Baros ، وهو أجود أصنافه كلها . وثمة صنف آخر يحظى بتقدير كبير ، ذلك هو كافور هرنج Herendj أو الصين الصغيرة ، وهو اسم يطلق دون شك على بورنيو (٢٩١) . ويقول ابن سينا ان شجر الكافور ينمو أيضا في الصين (٢٩٢) ، وهذا صحيح ، فقط ينبغي اضافة أن كافور الصين (مثله مثل كافور اليابان) لا يأتي من نفس شجرة سومطرة وبورنيو . فالأول يستخرج من شجرة اسمها (العلمي) : Cinnamomum camphora Nus (سنامومم كامفورانيس) والثاني من شجرة اسمها : Dryobalanops aromatica Goerten

في المملكة النباتية اذن نوعان من الأشجار التي تنتج الكافور ، ولكنهما متميزان . وقد اكتشفت هذه الحقيقة بفضل العلم الحديث ، ولم يكن لدى العرب أية فكرة عن ذلك ، أكثر أو أقل من الأوروبيين الذين قاموا في العصور الوسطى برحلات الى الهند والصين .

ولاشك أن ماركو بولو قد حدد المجال الخاص بكل من النوعين . وهو حين يتحدث عن انتاج الكافور في المنطقة الواقعة بين فوجي Fugui (فوتشيو (Fou-Tchéou وزيتون Zaitaun (تشيوان — تشيو (Thsiouan-Tchéou) ، وهي في الوقت الحاضر اقليم فوكيين Fo-Kien الواقع جنوب الصين قبالة جزيرة فرموزة ، لا يخرج عن نطاق كافور سنامومم Cinnamome أو اللورينية Laurinées (٢٩٣) . وفيما بعد ينتقل بنا الى مجال كافور Dryobalanops حين يصف مقاطعات لامبري Lambri ، وفانسور Fansour بجزيرة سومطرة ، وذكر باهتمام ان المقاطعة الأولى تنتج كافورا بكميات كبيرة ، والثانية تنتج أجود كافور في العالم ؛ ويقول انه يباع بثمن غال جدا (٢٩٤) . ونحن نعرف من قبل مقاطعة فانسور ، فهي ، فيزور ، عند العرب .

---

(٢٩٠) Dulaurier, dans le Journ. asiat., l.c. p. 191.
(٢٩١) Dulaurier, ibid. p. 218.
(٢٩٢) Dulaurier, ibid., p. 216 et s.
(٢٩٣) P. 527 ; Cf. la note de M. Yule, dans son éd. de M. Polo, II, 187.
(٢٩٤) P. 576, 577.

أما مقاطعة لامبرى فانها تقع فى القسم نفسه من الجزيرة ، ولكن الى الشمال ، صوب دايا Daya • وهناك نزل برا المبشر أودريكو دا بوردينونى Oderico da Pordenone قادما من ساحل كرماندل ، ووجد فى هذا البلد ذهبا ، وخشب الصبر ، وكافورا (٢٩٥) • ويذكر كونتى Conti أيضا فى أخبار رحلاته ، وفى بعض خرائط العصور الوسطى كافور سومطرة (٢٩٦) • ووجد كونتى فى طريقه ، وهو يطوف بمملكة سيام وسواحل كمبوديا شجر الكافور (٢٩٧) ، ولا شك أن الأمر هنا يتعلق بكافور سينامم Cinnamomum Camphora

قلنا ان هناك ، الى جانب سومطرة جزيرة أخرى تنتج كافورا من نوع Dryobalanops (٢٩٨) تلك هى جزيرة بورنيو : ولم يوجه الأوروبيون أنظارهم الى هـذه الجزيرة الا بعد أن استتبت السيادة البرتغالية على الهند ، وكان كافور هذه الجزيرة يصل الى الهند عن طريق ملقا ، ويحظى هناك بتقدير كبير (٢٩٩) •

ومن المفيد أن نعرف مصدر الكافور الذى يستورده الغربيون فى العصور الوسـطى ، اذا كانت السـوق الأوروبية تتزود فقط بكافور اللورينيه Laurinées كما تفعل الآن ، لأن كل ما لدينا من كافور يأتينا من اليـابان وجزيرة فورموزا ، أو أن الغربيين ، كانوا يتلقون كافـور Dryobalanops أيضا • وفى وقتنا الحاضر يتصرف هذا الصنف كله فى الشرق • ولا جدوى من البحث فى مؤلفـات بيجولوتى ، أو أوزانو Izzano وغيرهما ، فهم صامتون صمتا تاما فى هذا الشأن (٣٠٠) • ولا يوجد فى الوقت الحاضر أشجار كافور من الصنف الثانى الا فى مناطق محدودة بجزيرتى سومطرة وبورينو ، ولكن يبدو أنها كانت فيما مضى تغطى مساحات أكبر بكثير ، وأن عددها أخذ يتناقص شيئا فشيئا مع ازدياد الطلب على ما فيها من راتنج • ولسـوء الحظ فانه يتحتم قطع الشجرة نفسها للحصول على الكافور الصلب الموجود فى جذعها ، ويجب

---

(٢٩٥) Oderico, dans Yule, Cathay, II, app. 1, p. xvi et s., Cf. les notes du vol. I, p. 84.

(٢٩٦) Conti p. 40 ; Carte catal., p. 137; Fra Mauro, p. 50.

(٢٩٧) Conti, p. 45 ; Kunstmann, p. 24-26.

(٢٩٨) Barbosa, p. 318, b.

(٢٩٩) Varthema, p. 168 a; Barbo a, p. 320, a ; Sommar., p. 334, a ; Seramo, p. 228; Pigafetta, p. 120; Federici, p. 397, a.

(٣٠٠) M. Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, 2e éd p. 510 et ss.

احيانا قطع عشر شجيرات حتى يكون من بينها شجرة تحتوى على المادة الثمينة (٣٠١) • وفى العصور الوسطى كان انتاج كافور Dryobalanops أكثر وفرة من انتاجه فى الوقت الحاضر ، وكان الهنود والصينيون يشترون منه كميات هائلة من سومطرة وبورنيو ، ويستعملونه اما فى تحنيط موتاهم أو تعطير أصنامهم (٣٠٢) ، ومع ذلك كان يبقى بعد نفاد كميات كبيرة منه شيء قليل للغرب • وعلى أية حال كان العرب يتلقون على الأقل كافور فيصور Feïsor : وقد عثر على قطع كبيرة منه فى كنز الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٣٠٣) • غير أن كافور Dryob كان غالى الثمن جدا • وقال ماركو بولو ان كافور فانسور Fansour (فيصور) يباع بسعر مرتفع للغاية • وفى عصر جارسيا دى أورتو ، كان كافور بورنيو يساوى مائة ضعف ثمن كافور الصين (٣٠٤) • أما فى الغرب فان هذا الثمن المرتفع أصلا فى البلد المنتج ، كان يزداد ارتفاعا بعد اضافة مصاريف النقل والرسوم الجمركية • وشيئا فشيئا ، وبالتأكيد ابتداء من القرن السادس عشر ، لم يعد هذا الصنف يرد الى الغرب ، وكان لابد أن تقنع السوق الأوروبية laurinées وهو أقل جودة ، ولكنه أيضا أقل ثمنا • وكان من الثابت على الأقل أن ما تتلقاه السوق الأوروبية باسم كافور بورنيو ـ ان كانت تتلقى بالفعل شيئا منه لم يكن خاليا من الشوائب (٣٠٥) •

كان اسم الكافور فى كل قوائم السلع الشائعة فى تجارة العصور الوسطى ظاهرا وحده دون أية نعوت تحدد مصدره ، ويظهر أحيانا فى شكل اسمه العربى (٣٠٦) ، وأحيانا بالاسم caffera (chaffera) (٣٠٧) المقتبس من اسمه اليونانى ، وأحيانا بشكل مقتبس من أصله الأول

---

(٣٠١) Marsden, Hist. of Sumatra, 3e éd., p. 150.

(٣٠٢) Pelat. p. 35, 50; Barbosa, p. 323, a.

(٣٠٣) ترجع هذه القائمة الى القرن الحادى عشر ، وقد نشرها السيد كاترمير تبعا للمقريزى • M. Quatremère dans ses Mém. géogr. et hist. sur l'Egypte, II, 366 et ss.

(٣٠٤) Clus., Exot. p. 161; قارن الأسعار التى ذكرت فى : Marsden, Hist. of Sumatra, p. 151 et s. ; Crawfurd, Hist. of the Indian Archipelago, I, 418 ; Hanbury, Science papers, p. 394.

(٣٠٥) Garcia de Orto, l.c. ; Federici, l.c.

(٣٠٦) Assises de Jérus., II, 176.

(٣٠٧) Pegol p. 296, 375 etc.

Karpura (٣٠٨) وهى كلمة سنسكريتية ، أدرجت فيها اللغات الجرمانية الجرمانية الرومانية بدلا من حرف r حرف m أو n (٣٠٩) ٠

وكانت مدرسة سالرنو (بايطاليا) قد أدخلت الكافور فى مادتها الطبية ، مقتفية فى ذلك أثر الأطباء اليونانيين والعرب ٠ وأسفر هذا التبنى فى العصور الوسطى عن نتيجتين : فمن جهة ، دخلت معرفة هذه المادة فى نطاق دراسات التاريخ الطبيعى (٣١٠) ، ومن جهة أخرى تزودت حوانيت العطارين والبيوت الى حد ما بهذه المادة (٣١١) ٠

القرفـــة Cannelle

فى المصـــادر المتعلقة بتاريخ التجـــارة ، تذكر قشرة شجر القرفة تارة باسمها القديم cinnamomum أو بالاختصار cinamum أو cennoma ، وتارة بالاسم الأحدث « كانيللا » canella ، مصغر canna ، وأحيانا تجعل المصادر الاسمين متجاورين ليكونا اسما مركبا cannella di cennomo (٣١٢) ٠ والاســـمان مترادفان فى رأى بيجوليتى (٣١٣) ٠ ولكنا نجد فى تعريفة جمركية اسبانية لعام ١٢٤٣ المادتين cinamomum و canella متميزتين احداهما عن الأخرى (٣١٤) مما يثبت أنه كان يعزى أحيانا لكل منهما معنى مختلف عن الآخر ٠ وفى كتاب انجليزى بعنوان Boke of Nature يفرق المؤلف جون رنســـل John Russel (فى القرن الخامس عشر) بين السينامومم ، والكانيـــل قائلا ان الأول أكثر صفاء وأغلى ثمنا من الآخر (٣١٥) ٠ ويبدو تبعا لذلك أن الاسم الأول لابد أن يكون منطبقا على قشرة شجرة القرفة cannello الأصلية ، فى حين ينطبق الاسم الثانى على الكاسيا cassia (سنا) ٠

---

(٣٠٨) Mahn. Etymol. Untersuchungen, p. 126 et s.

(٣٠٩) Uzz., p. 19; Taf. et Thom., III, 444.

(٣١٠) Hildegardis libri physici, II, 8, voy. l'étude de M. Reuss sur ce' ouvrage (Würtsbourg, 1835), p. 39; Otto Cremon., éd. Choulant (dans son édition du Maceé floridu), p. 161; Albertus M., De Vegetabilibus, éd. Meyer et Jessen, p. 491 et s.

(٣١١) Flückiger, Die Frankfurten Liste, p. 11 ; Das Noerdlinger Register, p. 5. : Comptes de l'argenterie, éd. Douet d'Arcq. p. 212.

(٣١٢) Archivio Stor. ital., 3e série, T. XII, 2e part., p. 88.

(٣١٣) Capmany, II, cap. 16.

(٣١٤) Pegol p. 361; Varthema, p. 163, z.

(٣١٥) Flückiger and Hanbury, Pharmacographie, 2e éd., p. 529.

ويبدو أن القرفة لم تكن سلعة نادرة في الغرب في أى عصر من العصور الوسطى . وثمة امتياز منحه شلبيريك الثانى Chilperic II (من ملوك الفرنجة الميروفينجيين ـ المترجم) في عام ٧١٦ (٣١٦) ينبئنا بأن هذه المادة كانت في عهده ترد الى فرنسا عن طريق مصب نهر الرون . كذلك تطلعنا خطابات مكتوبة في أواسط القرن الثامن على القرفة التى يرسلهـا رجال من الكنيسة الرومانية هدايا ، مع الفلفل والعطور الى أصدقاء لهم في ألمانيا ، كما يرسلها رجال من الكنيسة الألمانية الى زملاء لهم في انجلترا (٣١٧) ، وكميـــة من التوابل مهـــداة الى شــــارل (البدين) تحتوى على قرفة (٣١٨) . وفي مرسوم ملكى مدرج في ال Formules de Marculf اجازة لرسل ولى الأمر المسافرين أن يطلبوا لمائدتهم بين ما يطلبوه قرفة . وكان الأطباء يوافقون ، عن يقين ، على أن يكون لدى العطارين دائمـا زاد من القرفة (٣١٩) . وكان يستعمل على نطاق واسع قرفة مسحوقة ، تستعمل كتابل في الأطعمة المطبوخة ، وفي اعداد النبيذ المعطر (٣٢٠) . وكانت القرفة موجودة في كل موانى الشرق الأدنى . وحين كان التجار الغربيون يواصلون رحلاتهم الى داخل القارة الآسيوية ، كان في وسعهم أن يشتروا القرفة من طورس ، وسلطانية ، وسمرقند (٣٢١) . ومع ذلك كانت القرفة مصنفة ضمن السـلع غير الرقيقة التى يفضل تصديرها بطريق البحر ، بدلا من نقلها ضمن الرحلات البرية الطويلة (٣٢٢) . لذلك كانت القرفة متوفرة بدرجـة كبيرة في سوق الاسكندرية ، وتصل اليها عبر المحيط الهندى ، والبحر الأحمر والنيل (٣٢٣) .

---

(٣١٦) Pardessus. Diplom., II, 306.

(٣١٧) Jaffeé, Bibliotheca rerlum germanicarum, III, 110, 156, 199, 214, 218.

(٣١٨) Formulaire de l'évêque Salomon de Constance, éd. Dümmler, p. 37.

(٣١٩) John de Garlandia. Diction., éd., Schéler, dans les Lexicogr. lat. du XII et XIII iècle, p. 28.

(٣٢٠) Ménagier de Paris, II, 107, 111 et s., 248 et s., 273 etc.; Traité de cuisine, éd. Douet d'Arcq, l.c., passim ; Boke of nurture, l.c. ; Douet J'Arcq, Comptes de l'argenterie, p. 356 ; Annal. Ceccan., a.a. 1196.

(٣٢١) Pegol., p. 27, 44, 49, 64 et c., Assis. de Jérus., II, 173; Cepione, p. 25; Ghistele, p. 310, Clavijo, p. 113, 191.

(٣٢٢) Sanut., Secr. fid. cruc., p. 23.

(٣٢٣) Edrisi, I, 51, Pegol., p. 56 et s., 210 ; Bonaini, State. Pi-., III, 591 ; Tucher, p. 371.

ولا جدوى من البحث فى الكتب المخصصة للتجار الغربيين عن أية اشارة الى البلاد التى يرد منها أساسا هذه المادة ، فليس فيها أى بيان عن ذلك . واسم القرفة فى اللغة الفارسية هى « دارصينى » dartchin ومعناهـا « خشب الصـين » ، وانتقلت هـذه الكلمة الى لغة العرب والأرمن (٣٢٤) : ويبدو ان هذا يدل على أن القرفة كانت تستورد من قديم الزمان من الصين الى غربى آسيا . والواقع أن أصل انتاج القرفة فى ذلك البلد قد ضاع فى عهود التاريخ السحيقة (٣٢٥) . وقد وجد ماركو بولو قرفة فى اقليم جندو Guindo الصينى (٣٢٦) . ولم يزل هذا النبات ، الى وقتنا الحاضر ينمو بوفرة جنوبى الصـين فى اقليم كوانجسى Kouang-si (٣٢٧) . وفضلا عن ذلك ، فان من بين المواقع التى كانت السفن الصينية ترسو عندها عند ابحارها الى الغرب ، كان بعضها على سواحل الهند الصينية ، والهند ينتج أيضا قرفة (٣٢٨) ، وكانت منتجات هذه البلاد المختلفة التى تصل فى سفن صينية ، يطلق عليها كل من العرب والفرس اسم دارصينى .

وفيما يتعلق بالقرفة ، يقودنا تداعى الأفكار الى جزيرة سيلان . والشيء العجيب أن هـذه الجزيرة لا ذكر لهـا كمنتجة للقرفة لا عند كوسماس Cosmas ، ولا عند الجغرافيين العرب من القرن العـاشر الى الرابع عشر ، ولا فى أى مصـدر شرقى فى النصف الأول من القرون الوسطى ، فى حين أن هذه المصادر لا تفتأ تثنى على ما فى الجزيرة من أحجار كريمة وعطور ، الخ (٣٢٩) . وأول من ذكرها فى هذا الخصوص هو ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) ، فقد علم هذا الرحالة عند زيارته الجزيرة أن سكان سواحل ملبار وكرماندل يأتون طلبا لشتلات شجر القرنفل ، وكان الأهالى يتركون لهم بلا مقابل الشتلات التى تجلبها السيول من الجبال الداخلية وترسبها على الشواطىء : واقرارا بهذا الكرم من جانب السلطان كان هؤلاء الزوار يقدمون له هدايا من ملابس وأشياء

(٣٢٤) Ritter, Erdk., VI, 126 et s.; Lassen, Ind. Alberth., I, 289 et s. ; Gildemeister, Script. arab. de reb. ind., p. 36 et s.

(٣٢٥) Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, p. 528 et s.

(٣٢٦) Polo, p. 379, 379, 386.

(٣٢٧) Forter Smith, Mat. med. and nat. hist. of China, 1871, p. 52.

(٣٢٨) Carte catal., p. 137; Barbosa, p. 319, a :

(٣٢٩) Cooley, On the regio cinnamomifera of the Ancient Journ. of the R. Geogr. Soc., XIX, 181; Tennent, Ceylon (1859), I, 575; Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, 2e éd., p. 520; Schumann, l.c., p. 46, 48.

اخرى مشابهة (٣٣٠) • ونجد أيضا فقرة خاصة بهذا الموضوع فى مؤلف لكاتب غربى سابق بحوالى عشر سنوات على أخبار ابن بطوطة : ذلك هو يوحنا دى مونت كوفينو Jean de Monte Covino الموفد فى مهمة الى الصين (١٢٩٢ ــ ١٢٩٣) ، فاقام بعض الوقت فى الهند ، ومن هناك ارسل الى وطنه معلومات عن هذه المناطق (٣٣١) • فهو يحكى أنه رأى فى الجزيرة المجاورة طلبار (أى جزيرة سيلان) كثيرا من أشجار القرفة التى تشابه فى شكلها شجر الغار • وفى القرن الخامس عشر ، وصف كونتى شجر القرفة فى سيلان وصفا أكثر دقة (٣٣٢) •

غير أن شجرة القرفة تنمو أيضا داخل الهند نفسها • فقد مر ابن بطوطة وهو يصعد نهرا يصب فى البحر بين قاليقوط وكولم (كوياون) ، مر أمام مزارع قرفة ، وبقم (٣٣٣) وأيد بنيامين دى توديل Benjamin de Tudèle الوصف الذى سجله ابن بطوطة ، فهو يحكى ان مجاورات كولم تنتج قرفة ، ولشهادته هذه قيمتها (٣٣٤). رغم أنه لا يحدث الا بما سمعه • كذلك رأى يوس فان جيستل Joos van Ghistele فى عدن ما أسماه Canneelboom من نوع وصفه بأنه Colobo أو Velledijn (٣٣٥) ونجد هذين النعتين مقترنين باسم زنجبيل كولم ، فى شكل كولومبينو (كولولى) Colombino (Colobi) وبلدى Beledi والنتيجة التى نستخلصها من هذه الفقرة هى اذن أنه عرف ، ليس فقط زنجبيل كولام ، ولكن أيضا قرفة كولام ، وأن شجرة القرفة فى كولام قد توطنت أيضا فى عدن وتأقلمت فيها • وثمة أخبار أخرى تحكى عن وجود شجر القرفة فى قاليقوط (٣٣٦) • وباختصار ، نستخلص من مجموع أوصاف الساحل الذى تقوم عليه هذه المدن أى ساحل ملبار ، أن المنطقة كلها تنتج القرفة (٣٣٧) : فقط ، أن محصول هذا الاقليم اشتهر فى سوق التجارة بأنه أكثر خشونة من محصول القرفة فى بلاد أخرى (٣٣٨) • فهذه القرفة خليط من قشور « الكسيا » cassia

(٣٣٠) وذلك فى ميدنة « بطالة » • Ibn Batouta, IV, 166.

(٣٣١) Münchn. gel. Anz., 185, no 22. ; M. Schumann, p. 50.

(٣٣٢) Conti. p. 39 ; Cf. le récit de ce même Conti, rans Tafur, p 100 et s.

(٣٣٣) Ibn Batouta, IV, 99.

(٣٣٤) Benj de Tudèle, II, 140.

(٣٣٥) Ghistèle, p. 233.

(٣٣٦) Conti, p. 48; P. Alvarez, p. 126, a ; Barbosa, p. 311, b.

(٣٣٧) Marco Po'o, p. 653 ; Conti, p. 46 ; Massari, p. 33 et s.

(٣٣٨) Conti. p. 46, 48.

(السنا) (٣٣٩) ، وأنها نوع منحل من « سينامومم سيلانيكوم » Cinnamamum Ceylanicum ۰ ومنذ أول رحلة قام بها البرتغاليون الى الهند عرفوا أن قرفة قاليقوط أدنى مرتبة من قرفة سيلان ، كما أنهم تيقنوا من ذلك بأنفسهم لأن الصنفين كانا موجودين فى سوق قاليقوط (٣٤٠) ۰ وقد يفسر هذا النقص فى الجودة اذا سلمنا بأن زراعة شجر القرفة كان يعتنى بها فى جزيرة سيلان ، بقدر ما هو معتنى بها فى وقتنا الحاضر ، فى حين أن الأهالى فى القارة كانوا يتركون الشجرة تنمو بطبيعتها ۰ غير أن الأمر ليس كذلك ، فلم يكن أحد يهتم بزراعة هذا الشجر فى أى من الجهتين ۰ أما السبب فى تفوق محصول القرفة فى سيلان فهو جودة النبات نفسه ۰ وكان لهذا الفرق أثره على الأسعار ۰ ففى عصر جارسيا دى أورتو Garcia de Orto كان ثمن قرفة ملبار دوكا واحدا فقط لربعمائة رطل ، فى حين كان يدفع لقرفة سيلان عشرة دوكات نظير مائة رطل (٣٤١) ، أى أربعين ضعفا ۰

الا أن شجرة القرفة لم تكن تستغل من أجل قشرتها فقط : ذلك أن أزهارها (٣٤٢) ، وأوراقها (٣٤٣) تحتوى على زيت أثيرى ، وتماثل القرفة فى رائحتها وطعمها ، مما جعلها مطلوبة هى الأخرى فى التجارة ؛ بل ان الأوراق كانت موضوعا لحركة تجارية مهمة تتطلب منا أن نتحدث عنها بشىء من التفصيل ۰

فكثيرا ما يتردد فى وثائق العصور الوسطى ذكر نوع من الأوراق العطرية التى يطلق عليها اسم folium (ورقة) أو : Houllie, foelge, fulgen (٣٤٤) ، وتستعمل فى المطبخ لتتبيل الطعام (٣٤٥) ۰ ولا شك فى أن هذا الاسم لا يختلف عن الأسماء الأخرى : Folio Indo

---

(٣٣٩) P. Alvarez, p. 126, a ; Barbosa, p. 311, b, 323 a.

(٣٤٠) Roteiro da viagem que fez Vasco de Gama, p. 88, 109; Sernigi, dans Ramus., I, 120, a. ; Gubernatis, Viaggiatori italiani nelle Indie, p. 154, 170; Le Journal flamand relatif au deuxième voyage de Vasco de Gama (Calcoen, éd. allemande, publ. par M. Stier, 1880, p. 18); Sanuto, Diar., IV, 546; VII, 199.

(٣٤١) Clusius, Exot. p. 168 et ss.

(٣٤٢) Pegol., p. 137, 296, 375 ; Uzz. p. 28, Sartorius Lappenberg, Urk. Gesch der Hansa, II, 448.
نجد أيضا أمثلة أخرى عن فرنسا وانجلترا فى :
Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, 2éd. p. 533.

(٣٤٣) Uzz. p. 20.

(٣٤٤) Sartorius Lappenberg, II, 50, 448 : Bourquelot, I, 290 ; Carte catalone, p. 137 ; Ghistele, p. 233, 310.

(٣٤٥) Petit traité de cuisine, éd. Douet d'Arcq, p. 209 et s., 220.

folium indi التى لعبت دورا مهما فى « فارماكوبيا » (دستور الأدوية) الزمان الماضى (٣٤٦) لنضرب مثلا واحدا لذلك : فقد كانت هذه الأوراق عنصرا من العناصر التى تدخل فى تركيب « الترياق » (٣٤٧) · ترى ما هى حقيقة « أوراق الهند » هذه · لقد أبدى البعض رأيين مختلفين نعتقد انه يتعين علينا عرضهما قبل أن نبدى الرأى الذى نؤيده ·

ففى أعقاب احتلال البرتغاليين الساحل الغربى للهند ، سنحت الفرصة لأول مرة لدراسة التاريخ الطبيعى للهند ، دراسة متانية ، وجرى البحث عن النبات الذى ينتج أوراق الهند هذه · وكانت نتيجة البحوث التى أجراها باربوزا Barbosa ، ومؤلف ال Sammaria أنها ليست الا ورقة نبات متسلق يعرف باسم التنبول bétel ، Chavice Betle Miquel ، وكان الهنود وقتئذ يخلطونه ، كما يخلطونه الآن بجوز « الفوفل » ، فيعملون منه عجينة يمضغونها بلذة (٣٤٨) · وقبلا ، فى أواخر القرن الثالث عشر ، أثبت سيمون يانونسس Simon Januensis هذا الرأى فى قاموسه الخاص بالطب وعلم النبات ، وعنوانه Clavis Sanationis ، فعرف هذه « الأوراق » التى يجدها المرء أحيانا فى أسواق الغرب مع الغصون والثمار التى تحملها ، وقال انه يتعرف فيها على أوراق التنبول tamboul التى ذكرها ابن سينا ، ولم يكن باربوزا يجهلها (٣٤٩) · هذا النبات ، tanboul فى اللغتين العربية والفارسية هو اسم ال betel · وقد يقول البعض ان هذه الورقة لم تستعمل أبدا الا فى عمل عجينة التنبول ، وأن هذا الاستعمال مقصور بنوع خاص على سكان الهند : ولكن هذا غير صحيح ، فقد نشرتها التجارة فيما وراء حدود الهند · فالواقع أنه فى فقرة ال Sommario المذكورة بعاليه ان هذه المادة تصدر الى هرمز وعدن وان التعريفة الجمركية لملكة بيت المقدس التى ترجع اليها بين الفينة والفينة بها بند خاص باغصان festuchi les festus) ، وأوراق la feuille dou tembal (٣٥٠) ، وعلى ذلك كانت ورقة التنبول هذه تصل الى عكا ، ولم يكن بين عكا واوربا سوى خطوة واحدة · ولما كانت الورقة المجففة تحتفظ باريجها المستحب ، كان فى الوسع استعمالها كنوع من التوابل فى القصور التى لم يكن من عادة سكانها أن يمضغوا التنبول ·

---

(٣٤٦) Pomet, Histoire générale des drogues, I, 139 et s.

(٣٤٧) Ghistele, p. 186.

(٣٤٨) Ramus, I, 298, b; 329, a.

(٣٤٩) Ibid., 299 a.

(٣٥٠) Assis. de Jrus., II, 176.

وفى مقابل وجهة النظر هذه ، أبدى البعض حججا قوية تماثل بين ال folio indo ، وورقة التنبـول • كذلك كان الأطباء وعلماء الطبيعة العرب يذكرون ورقة معينة باسم « ورقة هندية » • ولكن هذه الورقة مختلفة تماما عن الورقة التى نتكلم عنها هنا • على أننا نعرف العلاقة الوثيقة التى كانت موجودة فى العصور الوسطى بين المصطلحات المستخدمة فى الفارماكوبيا الغربية والمصطلحات الطبية العربية ، ومن ثم ففى مسألة مثل هذه ، لابد أن تبت المصطلحات العربية فى شأنها ، وبهذا الاسم feuille indienne (ورقة هندية) يشير العرب الى المادة التى يعرفها اليونانيون والرومان باسم malabathrum • والحقيقة أن سالماسيوس Salmasyos (٢٥١) ، ودى هيرن Hern (٢٥٢) أرادا أن يماثلا بين ال Malabathrum وبين ورقة التنبول ، الأمر الذى يؤدى بنا الى النتيجة السابق ذكرها • الا أن علماء اللغة والتاريخ الطبيعى الموثوق بهم فى العصر الحاضر ، يشـتقون كلمـة malabathrum من اللفظة الهندية patra (ورقة) ، و tamala (سينامومم كاسيا cinnamomum cassia ويؤكدون أنهـا هى الورقـة المعروفة فى التجـارة بالاسـم المستعار من اللغة الهندية الحديثة teg' pat (taj-pat) (٣٥٣) • فان كان الأمر كذلك ، دون أى مبرر للشـك ، فانا نسـلم بأن التسـمية folio indo تدل على أوراق بعض أنواع السينامومم التى تنتج قرفة من النوع الشائع (٣٥٤) ، وهى أوراق لها مذاق القرفة المعروف ، ولم تزل تستعمل الى يومنا هذا فى جنوب آسيا كمنعش ومنشط (٣٥٥) •

هذا الرأى سبق ابداؤه : مثال ذلك أن جارسيا دى أورتو (٢٥٦) يقر أنه ظن أولا أن ال folio indo ورقة تنبول ، ثم غير رأيه ، وتبنى الرأى الذى عرضناه منذ هنيهة حين وجه بعضهم أنظاره الى أن ابن سينا فرق بين الورقة الهندية وبين ورقة التنبول ، ونسب الى احداهما خصائص

---

(٢٥١) Exercitationes Plinianoe, p. 753 et ss.

(٢٥٢) Historische Werke, XII, 356 et s ., et Abhandl. der Gesch. d. Wiss. zu Götingen, I (1843), p. 6.

(٢٥٣) Lassen, Indisene Alterthumiskunde, I, 289-283 ; Nees ab Esenbeck, De Cinnamomo disputatio, p. 55 et s. ; Meyer, Geschichte der Botanic, II, 88, 169, 387.

(٢٥٤) Nees von Esenbeck Inqmme.en particulier le Laurus Cassia et Laurus Malabathrum.

(٢٥٥) Kosteletzky, Medic-inisch-pharmaceutische Flora. II, 487 et ss.

(٢٥٦) B. Cl.s., p. 175-178.

مختلفة عن الأخرى كل الاختلاف (٣٥٧) • وثمة مدافع عن الرأى المضاد ، وهو اماتس لوزيتانس Amatus Lusitanus ، اضطر لأن يعترف بأن ما كان العطارون فى عصر يبيعونه باسم malabathrum أو folium indum لم يكن سوى أوراق شجر القرفة ، ومن السهل التعرف عليها بتـــذوقها (٣٥٨) • ويؤكد ذلك جيستل Ghistele ، فعند عودته من رحلته ، اقر فى مقـال له بأن البقـالين الغربيين يطلقون على ورق ال Cardomome الذى رآه من قبل فى عدن اسم foullic (folium) (٣٥٩) •

الحبهان (كاردامومم) canncelboom

كان « الكاردامومم » (الحبهان) فى العصور الوسطى سلعة رائجة فى التجارة (٣٦٠) ، تستعمل اما كدواء أو لتقبيل الأطعمة والأشربة • ويبدو أنه كان يصل بعامة الى الغرب عن طريق عدن أو الاسكندرية (٣٦١) طالما بقيت مملكة بيت المقدس ، وكان يمر أحيانا بعكا (٣٦٢) •

وفى مضمار التجارة ، كان يفرق وقتئذ بين ثمرة حبهان الغابات ، وثمرة حبهـان الحدائق ، ويتبين (٣٦٣) هـذا الفرق أيضـا فى وقتنا الحاضر (٣٦٤) • ترى أى بلد كان هو مصدر الحبهان الوارد الى أوروبا فى العصور الوسطى ؟ كان معروفا لدى العرب أن هذا النبات ينمو فى جزر الهند الصينية (٣٦٥) ، فلم يكن ثمة ضرورة للمضى بعيدا الى هذا الحـد للعثور على حبهان حقيقى ، فالالتيارا كاردمومم ماتون Elettaria cardomomum maton ينمو جيدا فى ملبار ، وفى اقليم كنارا وتبعا

(٣٥٧) Ed. Plemp., lib. II, p. 211, 287.

(٣٥٨) In Dioscor., p. 23.

(٣٥٩) P. 233.

(٣٦٠) Pegol., p. 296 ets.

(٣٦١) Edrisi, I, 61 ; Barbosa, p. 310, b ; Pegol., p. 57.

(٣٦٢) Assis. de Jéru., II, 176.

(٣٦٣) Pegol., p. 211, 296; Bonaini, III, 593.

(٣٦٤) Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, 2ed., 643 et s.

(٣٦٥) Macoudi, I, 341; Edrisi., 89.

للمؤلفين القدامى الذين نستعير منهم معظم المعلومات عن هذا النوع ، كان الجبهان موجودا في كنانور Cananore ، وفندرانية Fandaraîn وقاليقوط (٣٦٦) . غير أن البلد الرئيسي المنتج له لم يكن ساحل مليار الذي لم تزل تقوم عليه هذه المدن ، فكان الجبهان موجودا الى الخلف منها قليلا ، في سلسلة جبال غات Ghâts وفي منطقتي كورج Kurg ووياند Wyand الجبليتين (٣٦٧) حيث لم تزل منتجاتهما تتمتع الى الآن بشهرة واسعة .

خيارشنبر Casse

أتيحت الفرصة للتجار الغربيين الذين يسافرون الى الاسكندرية أن يشاهدوا في الحدائق المحيطة بالمدينة أشجارا غريبة يتدلى منها أنواع من العصي أو السيقان (٣٦٨) : تلك هي الكاسيا فستولا Cassia fistula خيارشنبر ، والسيقان هي سنوف (جمع سنفة أو قرن ، وهو وعاء كل ثمر — أو العود المجرد من الورق — المترجم) النبات التي تضم لبابا ذا مذاق حلو ، ومسهلا خفيفا . كانوا يجدون هذه السنوف في أسواق المدينة ، وكذا في أسواق دمياط (٣٦٩) . والواقع أنها كانت من أشهر الثمار التي تنمو على أرض مصر (٣٧٠) . وفي العصور الوسطى كان الناس بعامة يتصورون انه ليس ثمة بلد آخر ينتج هذه الثمرة . وكان بيلوتي يشاطر الناس هذا الاعتقاد . ومن جهة أخرى فان اللجنة التي كلفها البابا يوحنا الثاني والعشرين بدراسة ال Secreta fidelium crucis لسانوتو Sanuto أبدت رأيها بأنه اذا كان في الوسع — كما يقول المؤلف — التزود عن طريق بغداد ، وطورس بمنتجات الشرق التي يمكن استلامها عادة من مصر ، فان هذا الأمر لا ينطبق دون شك على « الكاسية » ، ذلك لأنه من المعروف أن الشجرة التي تنتجها تنمو في هذا البلد وحده (٣٧١) . ولكن هذا غير صحيح : فقد وجد الكثير من المسافرين الغربيين في العصور الوسطى هذه « الكاسيا فستولا » على

---

(٣٦٦) Edrisi, I, 179 ; Varthema, I, 158, bb; Barbosa, p. 311, a, b ; Federici, p. 389 b; Massari, p. 27 ; M. Yule (Cathay, II, 452).

(٣٦٧) Magling et weilbrecht, Das Kurgland (Bâle, 1866), p. 17 et

(٣٦٨) Simon Simeonis, p. 28; Sigoli, p. 168; Piloti, p. 352 ; Harff, p. 78; Kiechel, p. 338.

(٣٦٩) Pegol., p. 56 et s. ; Pasi, p. 54, a., 48, 64.

(٣٧٠) Sanuto ,Secr. cruc., p. 24 ; Ghistel, p. 173.

(٣٧١) Piloti, l.c., Sanuto, p. 3.

ســواحل الهنــد الغربيــة (٣٧٢) ، وبخاصــة فى مملكتى كنانور وقاليقوط (٣٧٣) ، وجزيرة جاوة (٣٧٤) • بقى أن نعرف ما اذا كانت « كاسيه » الهند تصل الى الغرب • ولست أجرؤ أن أجيب عن ذلك بالنفى • ففى فقرة لباربوزا يصف فيها الحركة التجارية الهائلة التى كانت قائمة بين الهند ومصر قبل عهد السيادة البرتغالية ، يذكر الكاسيا فستولا ضمن السلع التجارية التى تصدر من الهند الى الاسكندرية عن طريق عدن والبحر الأحمر (٣٧٥) ، ويستخلص من هذا أن المحصول الهندى كان يباع فى سوق الاسكندرية مع المحصول المحلى •

وثمة العديد من الكتاب ذكروا العلامات التى تعرف بها الكاسيه الجيدة النوع : وفى هذا الخصــوص يعبر بلاتيريوس Platearius طبيب مدرسة سالرنو ، وبيجولوتى التاجر الفلورنسى عن رأيهما بعبارات متماثلة (٣٧٦) : فيقول الأول ان السنفة (القرن) سميكة وشــديدة السواد ، ولا يصدر منها صوت حين ترج (٣٧٧) ، ويقول الثانى أيضا انها سوداء وسميكة ، وسليمة (أى ليس بها تشققات) وثقيلة ، وتلك فى رأيه هى علامات النضج التام •

« كبش » القرنفل Clous de girofle (٣٧٨)

فى الحقب الأولى من العصور الوسطى (٣٧٩) كان القرنفل مستعملا بكثرة ، اما كعنصر فى تركيب بعض الأدوية ، واما كتــابل فى الطبخ واعداد الأشربة العطرية • وفى عهد الكارولنجيين نجد القرنفل فى كل مكان ، آية ذلك مرسوم يبيح لرسل الأمراء المسافرين أن يطلبوا لطعامهم فلفلا ، وقرفة ، وقرنفل ، وتوابل أخرى (٣٨٠) : وتذكره كتب الطهى

(٣٧٢) Jord. Catal, p. 46.

(٣٧٣) Varthema, p 158, b ; Alvarez, p. 126, a ; Barbosa, p. 311, p. 311, a, b.

(٣٧٤) Barbosa, p. 319, a.

(٣٧٥) Barbosa, p. 310, p.

(٣٧٦) Platearius, Circa instan-, p. ccxxx ; Pegol., 366.

(٣٧٧) Colladon, Hist. natur., et médic. des casses, Montp. 1816, p. 65.

(٣٧٨) A. de Candolle, Origine des plantes cultivées, 1883, p. 129.

(٣٧٩) Voy. la note de M. Flückiger dans le Journal de pharmacie d'Al ace — Lorraine, 1885.

(٣٨٠) Rozière, Recueil général des formules, 2e part., p. 934.

فى ذلك العصر فى وصفاتها ، ونرى من ذلك أنه من التوابل الشائعة الاستعمال (٣٨١) • كل هذه المعلومات تثبت أن التجارة كانت تشتغل بهذه السلعة منذ زمن بعيد : فنحن نعرف على سبيل المثال أن القرنفل كان فى عصر الميروفنجيين يجلب الى فرنســا عن طريق مصب نهر الرون (٣٨٢) • وكان للحروب الصليبية بطبيعة الحال تأثير ملائم جدا لتجارة الاستيراد هذه • وطالما بقيت مملكة بيت المقدس ، كانت عكا من الأسواق الرئيسية لهذه السلعة (٣٨٣) • وفيما بعد وصل القرنفل الى أوروبا اما عن طريق طورس (تبريز) ، والسلطانية والقسطنطينية ، أو عن طريق عــدن ، مكة ، والاسكندرية ، وقبرص (٣٨٤) • وكانت حوانيت العطارين تحتوى على كميات كبيرة من القرنفل (٣٨٥) ، وكان أصغر بيت من البيوت البورجوازية يخجل أصحابه اذا خلت خزانة أطعمته من القرنفل ، وذلك اسوة ببيوت الأمراء الكبار (٣٨٦) • وكان القرنفل من الأفاويه المفضلة ، فيوضــع فى اللحم ، والسـمك ، والسجق ، والمحشيات ، وكذا فى النبيذ المتبل (٣٨٧) • ثم ان هذه المادة احتفظت دائما بثمن مرتفع ، فيدفع لشرائها ضعفا أو ثلاثة أضعاف ما يدفع ثمنا لشراء الفلفل (٣٨٨) ، ويرجع هذا الفرق الى بعد البلد الذى ينتجه أكثر مما يرجع الى سعره الأصلى • فالواقع أن القرنفل كان يرد الى أوروبا من جزر الملوك (بأندونيسيا) حيث يبدو أن أهاليها لا يعرفون قيمته ، الى أن وفد الصينيون اليهم يطلبونه ، اما لاستعمالهم الخاص ، أو لتصديره الى بلاد أخرى (٣٨٩) • ففى ممستهل القرن السادس عشر كان « البهار » bohar من القرنفل ، ويساوى حوالى ٧١٢ رطلا خفيفا من

(٣٨١) Dümmler, vol. XII, 6e livrais., p. vi et s.

(٣٨٢) Diplôme de Chilpéric II, de l'an 716, dans Pardessus, Dipl., II, 309.

(٣٨٣) Assis. de Jérus., II, 174.

(٣٨٤) Pegol., p. 18, 49, 57, 65, etc. ; Ghistele, p. 310; Clavijo, p. 113 ; Edrisi, I, 51 ; Fabri, III, 542 ; Tucher, p. 371.

(٣٨٥) Joh. de Garlanria, Dict. éd. Schéler, p. 28; Flückiger, Frankfuler Liste, no 304.

(٣٨٦) Douet d'Arcq, Compte de l'argentérie, p. 218.

(٣٨٧) Bourquelot, Foires de Champagne, I, 287. La Bibliothèque de l'Ecole des chartes, 5e série, I, 209 et ss. ; Schultz, Das Höfische Leben, I, 289 306.

(٣٨٨) Leber, Appréciation de la fortune privée, p. 95 ; Cibrario, Economia politica del medio evo, 4e éd., p. 509; Guirini, dans Albéri, Relax. degli ambase. venet., app., p. 11, 12 ; Flückiger and Hangury, Pharmacographia, 2e éd. 282.

(٣٨٩) Garcia de Orto, p. 180.

موازين البندقية ، يباع في موقع انتاجه لتجار ملقا وجاوة (٣٩٠) بدوكا واحد أو اثنين ، وهو يساوى في سوق ملقا من عشرة دوكات الى أربعة عشر دوكا ، ويصل ثمنه في سوق قاليقوط من خمسين الى ستين دينارا ذهبيا (٣٩١) .

ولم يكن في أوروبا لزمن طويل سوى فكرة غامضة عن البلد الذى يرد منه القرنفل . وكانت السفن العربية المبحرة الى الصين تترك جزر الملوك بعيدا الى يمينها ، فحين يريد المؤلفون العرب تعيين البلد الأصلى لهذه المادة ، كانوا يكتفون بالقول بعامة انها تأتى من الهند أو من جزر الأرخبيل الهندى ، أو يطلقون أسماء غريبة على جزر يذكرون موقعها بشكل غير دقيق مما يجعلنا نتساءل عما اذا كان لديهم فكرة تقريبية فحسب ، أو أنهم يســلمون بأن نبــات القرنفل ينمو في جاوة أو سيلان (٣٩٢) . وهذا غير صحيح ، فلم تكن هذه الجزر سوى مراحل يمر بها القرنفل قبل أن يصل الى غايته . ويزعم ابن بطوطة الذى زار بنفسه جزيرة سومطرة أنه رأى بها أشجار قرنفل . ومع أن هذا أمر يصعب تصديقه ، فانه ليس من المستحيل في العصر الذى عاش فيه أن تكون بعض أشجار القرنفل المجلوبة من جزر الملوك قد استوطنت من قبل في هذه الجزيرة . ولكنا نرى من وصفه لهذه الأشجار أنه يخلط تارة بين القرنفل والقرفة ، وتارة بينه وبين جوز الطيب ، بحيث يجوز الشك في أنه رأى بالفعل ما وصفه ، فيكون من غير الصواب اقامة نتائج ما على أساس مشاهداته تلك (٣٩٣) .

كذلك لم يعرف ماركو بولو الوطن الحقيقى للقرنفل . والأغرب من ذلك هو أنه يبدو معتقدا بأن القرنفل يأتى من اقليم جندو Gaindcu اى من قلب الصين (٣٩٤) ، مع أنه من المعروف عند الكافة أن مناخ الجزر شرط أساسى لنمو شجر القرنفل ، ولخصوبته بنوع خاص (٣٩٥) .

---

(٢٩٠) Barbosa, p. 319, b. ; Polo, p. 654 ; Garcia de Orto, l.c.

(٢٩١) Barbosa, p. 323, a. ; Barbosa, p. 300, a, 310, b, 322, b, 323, b. ; Ramus., I, 120, a.

(٢٩٢) Relat., p. 143 ; Marçoudi, I, 341 ; III, 56 ; Ibn Khordadbéh, p. 288, 294 ; Edrisi, I, 82, 89, 93 ; Kazwini dans Gildemeister, p. 193, 202, 203 ; Kazwini, trad. Ethé, I, 1, p. 227, 229.

(٢٩٣) Ibn Batouta, IV, 228, 240, 243 et ss. et Dulaurier dans le Journ. asiat., 4e série, IX, 248.

(٢٩٤) Polo. p. 385 ; Verhandl der Gesellsch. für Erdk. zu Berlin, 1874, no 1 ; Ruge, Zeitalter der Entdeckungen, p. 63.

(٢٩٥) Crawfurd, Hist. of the Indian archipelago, I, 495 et s.

ومن الأرجح أن ما يقصده فى الفقرة المشار اليها لم يكن كبش القرنفل ، وانما برعم الكاسيه Fiori di Canella الذى يماثل بعض الشىء كبش القرنفل (٣٩٦) . ويذكر هذا الرحالة فى فقرة أخرى كبش القرنفل ضمن الحاصلات التى تشكل ثروة سكان جاوة ، الا أنه يمكن تفسير عباراته بأنها تنصرف الى ناتج أجنبى عن الجزيرة ، انما يمكن الحصــول عليه بسهولة فى الجزيرة (٣٩٧) . وأخيرا ، وجد ماركو بولو كبش القرنفل فى جزر نيكوبار (٣٩٨) .

ويقترب كونتى أكثر من الحقيقــة . ففى أخبــار رحلاته يصف ، لا بالرؤية الفعلية ، دون شك ، ولكن بما سمعه من أفواه أهالى جاوة ، يصــف جزيرتين يسميهما ســنداى Sandaï وبندام Bandam ، ومن السهل أن تتبين أنه ظن المجموعات المشكلة من جزر سوندا وجزر باندا ، ظنها وحدات مستقلة : وفى قوله ان الأخيرة هى وحدها التى تنتج كبش القرنفل ، وفى ذلك لم يكن لديه الخبر اليقين ، أو لعل الأمر قد اختلط عليه (٣٩٩) ، وترتب على خطئه هذا الملحوظة الخاطئة المدونة على خريطة فرامورو Carte de Fra Mauro (٤٠٠) . وأخيرا ، فى عام ١٥٠٤ وصل فارتيمــا Varthema الى جزر الملوك ، وكان أول أوروبى يزور هــذه الجزر ، وأطلق على احداها ، وهى دون شك جزيرة تيرنات Ternate أو تيرور اسم المجموعة كلها ، مونوش (ملوك) ، ورأى فى تلك الجزيرة وبعض الجزر المجاورة لها كبش القرنفل ، ووصف طريقة جنيها (٤٠١) ، ويقول ان سائحين آخرين زاروا جزر الملوك فى فترات قصيرة بين عامى ١٥١٢ ، ١٥٢٠ ، وتركوا لنا هم أيضا بعض الأوصاف : أولئك هم جوان سيرانو Juan Serano (٤٠٢) ، ودوارتى باربوزا Duarte Barbosa (٤٠٣) وبيجافيتا Ant. Pigaffeta (٤٠٤) .

(٣٩٦) Yule, M. Polo, II, 38 ; Richthofen, China, I, 504, not. 2

(٣٩٧) P. 561.

(٣٩٨) P. 580.

(٣٩٩) Conti, p. 46, et Kunstmann, ibid., p. 26; Peschel, Gesch. der Frdk., p. 15, 167, 207.

(٤٠٠) Ed. Zurla, p. 49.

(٤٠١) Ramus., I. 167, b, et la note de M. Badger dans l'édition anglaise de Varthema, p. 245 et s.

(٤٠٢) l'ér. anglaise de Barbosa, p. 227.

(٤٠٣) Ramus., I, 319 b.

(٤٠٤) Ed. Amoretti, p. 144 et ss. ; Empoli, p. 81.

والمعروف أن كبش القرنفل برعم ثمرى لنبات الأوجنيا كاريو فيللاتا Eugenia caryophyllata، وهو محمول بسويقة وينتهى براس صغير مستدير ، ويجمع أو يسقط بهز النبات ، ثم يجفف فى الشمس أو بالدخان ، ثم يعطى للتجار ، ويعتنى بأن يكون ذا لون أحمر قاتم ، ونقيا تماما (٤٠٥) . والغرض من هذه العملية فصل البراعم التالفة أو الضامرة ، وكذا السويقات التى انتزعت من الشجرة مع البراعم واختلطت بها ، ومن ثم يمكن رفض استلام البضاعة اذا لم تكن منقاة على هذا النحو . أما السويقات فانها لا تلقى فى الطريق ، لأن لها بعض الفائدة اذ تحتوى على الزيت الأثيرى نفسه الذى يحتوى عليه القرنفل ، وانما بدرجة أقل ، وتباع على حدة باسم فوستى fusti أو fistuchi di gherofani (٤٠٦) . وتبلغ قيمتها على العموم ثلث قيمة كبش القرنفل ، وهى أيضا ذات لون أحمر ، ولكنه فاتح قليلا ، ويعتبر اللون الباهت عيبا فيه (٤٠٧) . وأحيانا تفصل رؤوس القرنفل وتوضع على حدة وتباع باسم كابيليتى cappelletti (٤٠٨) . وأخيرا ، ولما كانت أوراق القرنفل يفوح منها أيضا عطر ، أخف فى الواقع ، فانها تشكل سلعة تجارية : تلك هى ال fogli (٤٠٩) .

القرمزية (قملة النبات) Cochenille

القرمزية occusilicis) حشرة كروية الشكل ذات لون أسود بنفسجى ، تعيش جماعات على شجر البلوط quercus coccifera ، وتجمع هذه الحشرات وتقتل ، وتباع على أنها مادة للصباغة . وفى العصور الوسطى كانت تسمى بعامة grana, grana da tignere scarlatti, graine d'écarlate بسبب مشابهتها للعنبية . ولم يكن مجهولا أن هذه مادة حيوانية ، ولسنا نقدم برهانا سوى اسم vermicule الذى نصادفه فى قائمة تضم الأشياء النادرة فى الطبيعة ، وذلك فى Formulaire de Salomon » مجموع

---

(٤٠٥) Pegol. p. 299, 316 et s., 374; Chiarini, p. lxxxii, b ; Pasi, p. 6, b.

(٤٠٦) Pegol., p. 18, 57, 65, 88, 229, 296, 300, 309, 374; Uzz., p. 20 ; Bonaini. Stat. Pis., III, 106, 115, 592 ; Archiv. stor ital., 3 série. XII, 2, p. 126.

(٤٠٧) Pegol., p. 374.

(٤٠٨) Plasi, p. 6, b., Barbosa, p. 323, a ; Cliarini, p. lxxxii, a.

(٤٠٩) Pegol., p. 135, 229 ; Uzz., p. 52 ; Assis. de jéu ., II, 174 ; Bonaini, Stat. Pis., III, 106, 115; Garcia de Orio, l.c.

صيغ سالومون » أسقف كونستانس constance (٤١٠) ، والثابت أن هذا الاسم يشير الى القرمزيات (٤١١) · ولما كانت هذه الحشرة تستوطن بروفانس ، ولانجدوك ، واسبانيا ، فان هذه البلاد لم تكن فى حاجة لاستيراد « الحبيبات » من الشرق الأدنى ، والراجح أنها هى نفسها التى كانت ترسل هذه المادة الى شامبانى (٤١٢) وعلى العكس من ذلك كان يبيع القرمزية فى فيرارى ، تجار من بولونيا (٤١٣) ، يستوردونها من الشرق الأدنى عن طريق البحر الأدرياتى · ذلك لأن مدن تسكانيا الواقعة غربى فيرارى لم تكن تتلقى من بروفانس أو اسبانيا الا جزءا من الحبيبات التى تستهلكها ، وكانت تستورد أيضا من اليونان (بلاد الروم) ، وبنوع خاص من البلوبونيز حيث لم تزل هذه المادة تتيح الى يومنا هذا تجارة تصدير مهمة (٤١٤) · وكانت الأسواق الخاصة بهذه التجارة هى كورنثة (٤١٥) ، وبتراس (٣١٦) · وثمة اثنان من ممتلكات البندقية فى الشرق الأدنى ينتجان هذه المادة ، هما أولا جزيرة كريت · ففى عام ١٣٩٤ تشكلت بها رسميا هيئة من الخبراء مكلفة بأن تفحص قبل الشحن فى السفن كل « الحبيبات » التى يجلبها المستعمرون من الداخل الى عاصمة الجزيرة : فيسلم هؤلاء الخبراء شهادات للرسائل التى يثبت لهم أنها من نوع جيد ، أما البضائع المغشوشة أو التالفة فانها تصادر وتحرق (٤١٧) · وكانت كورون هى المستعمرة البندقية الثانية المنتجة للقرمزية ، وهى مدينة بجنوب شبه جزيرة المورة ، وكانت القرمزية التى تجمع فى ضواحى المدينة تعتبر الأولى من نوعها فى العالم من حيث الجودة (٤١٨) · وأخيرا ، وجد المسافر الفرنسى كومون Caumont قرمزية فى الأرخبيل (بحر ايجة) ، فى جزيرة بيبى Pipi الصغيرة ، أو مور جو بولو Amorgo Poulo التابعة لدوقية ناكسوس (٤١٩) ·

وفى معاهدة فلورنسية ترجع الى مستهل القرن الخامس عشر —

---

(٤١٠) Ed. Dümmber, p. 38.

(٤١١) Merrifield, Original Treatises, p. clxxi et ss. 38, 449.

(٤١٢) Bourquelot, Foises, I, 288.

(٤١٣) Doament publié dans Murat., Antiq. ital., II, 894.

(٤١٤) Heldreich Nutzpflanzen Griechenlands (Athenes, 1862), p. 18.

(٤١٥) Pegol., p. 211 ; Uzz., p. 110; Bonanini, Stat. Pis., III, 593 ; Archiv. stor. ital., 3e série, XII, 2e part., p. 81, 127.

(٤١٦) Pagnin, Della decima, II, 96.

(٤١٧) Taf. et Thom. inéd. ; Commem. reg., III, p. 222, no: 408 et s. ; Sathas, Doc. inéd., II, 33.

(٤١٨) Sigoli, p. 167.

(٤١٩) Caumont, p. 85.

ليست فى حوزتى لسوء الحظ – أجرى المؤلف تصنيفا غريبا : فهو يميز الكيرميزى Chermisi (القرمزة) من الجرانا grana ، (سوس الحبوب – المترجم) ، ويقول انهما مادتان صبغيتان مختلفتان : فيتكلم عن الجرانا على أنها مادة رخيصة يمكن الحصول عليها من البرتغال واسبانيا وجنوب فرنسا وبلاد البربر · أما القرمزى فهى بالعكس غالية الثمن ، ولكنه لم يقل من أين يأتى ، ومع ذلك أرى أنه من الصعب ان تكون هذه المادة شيئا خلاف قرمزية الشرق الأدنى ، وأترك لغيرى لهمة تفاصيل هذه المسألة ، ومعرفة ما اذا كانت التفرقة المشار اليها موجودة فى مدن أخرى خلاف فلورنسا (٤٢٠) ·

ويتحدث الاصطخرى عن نوع من القرمزية ، يقول انه موجود فى دبيل Dèbil بأرمينيا وبرذعة Berdâa وآران Arran ، ويصدر من الجهة الأخيرة الى الهند وبلاد أخرى · ويذكر كلافيجو Clavijo أنه يجمع عند قاعدة جبل أرارات نوع من القرمزية يستعمل فى صباغة الحرير (٤٢١) : والمادة فى الحالتين هى قرمزية أرمينيا أو أرارات (٤٢٢) · ومن المشكوك فيه أن تورد هذه المادة الى أوروبا ، الا أنها كانت تستورد اليها باسم Quermesi أقمشة حريرية مصنوعة فى بغداد ، ذات لون يحتمل أن يكون مستمدا من القرمزية (٤٢٣) ولهذا النوع المسمى Porphyrophora تنتمى القرمزية المسماة بولونى Bolone ، وتوجد أيضا فى روسيا ، وألمانيا ، كما توجد فى بولونى ، ولا شك فى أنها تصدر الى غرب أوروبا (٤٢٤) ·

المرجـــــان Corail

من بين المنتجات التى يقدمها الغرب الى الشرق فى مقابل منتجاته ، يشغل المرجان مكانة ليست قليلة الأهمية · وتوجد المغاصات التى يستخرج منها أجمل الأنواع فى القسم الغربى من البحر المتوسط · وأحسن المغاصات وأكثرها ثراء هى مغاصات بونة (٤٢٥) ، وتنيز Tenez

(٤٢٠) M. Gargiolli : L'Arte della seta in Firénze.

(٤٢١) Isstachri, p. 88 et s. ; Clavijo, p. 103; Kremer, Culturgeschichte des Orients, II, 325.

(٤٢٢) Brandt et Ratzeburg, Medicinische Zoologie, II, 355 et s.

(٤٢٣) Marco Polo, p. 48.

(٤٢٤) Lib. divers. art. montp., p. 736.

(٤٢٥) انظر وصف شمال افريقيا فى ابن حوقل ، والبكرى ، فى : le Journ. asiat., 3e serie, XIII, 180; 5e série, XIII, 73. وأعمال أبو الفدا ، وشمس الدين · والقزوينى ·

وسبتة (ميناء اتجاه جبل طارق – المترجم) (٤٢٦) • وكانت مغاصات صقلية ، وترانى ، فانها اشتهرت بالمرجان منذ زمن بعيد (٤٢٧) ، كما اشتهرت بذلك أيضا مغاصات سردينيا ، وكورسيكا • وكان جزء من ناتج هذه المغاصات يبقى فى الغرب ، فيصنع منه جواهر متنوعة الأشكال (٤٢٨) ، ولكن هذا الجزء هو الأقل ، أما الباقى فيصدر • ويقول السيد كول M. Kohl أن المرجان كان مطلوبا بالأخص فى جنوب آسيا حيث يباع بأسعار مرتفعة للغاية ، كما كان الحال فى عهد بلين Pline اذ كان يصدر الى الهند والهند الصينية حوالى ثلثى محصول منطقة البحر المتوسط • وبقيت هذه الأمور على ما كانت عليه فى العصور الوسطى • وشهد ماركو بولو أن أهالى كشمير كانوا من كبار هواة المرجان (٤٢٩) • والمعروف أن المرجان كان عند العرب سلعة يمكن تصديرها دون خوف الى الهند والصين (٤٣٠) • وتبين للبرتغاليين عندما وصلوا الى الهند أن الطلب على المرجان استمر قويا للغاية (٤٣١) • ومن الميسور لنا أن نرسم الطريق الذى كان يتبعه هذا المحصول من البحر المتوسط الى جنوب آسيا ، اذ كانت السفن القطالونية والفلورنسية تحمله أولا الى مصر (٤٣٢) حيث تتلقفه أيدى التجار الشرقيين •

القسط Costus (٤٣٣)

المادة المعروفة باسم القسط هى جذر الأوكلانديا القسط فالك l'Aucklandia Costus Falc ، كانت فى العصور الوسطى ، كما كانت

---

(٤٢٦) ابن حوقل (l.c.) ، وأبو الفدا (II. 1, 194) ، وشمس الدين (ص ٨٣) •

(٤٢٧) الادريسى فى : Amari, Bibl. arab ic. trad. I, 80.
وشمس الدين (ص ٨٣) •

(٤٢٨) Laborde, Not. des émaux, II, 224.

(٤٢٩) Er. Pauthier, p. 127.

(٤٣٠) Clément-Mullet, dans le Journ. Asiat., 7e série. XI.

(٤٣١) Ramus, I, 120, a, 121 a.

(٤٣٢) Piloti, p. 358, 374, Amari, Dipl. arab. fior., p. 383.

(٤٣٣) M. Flückiger ; la Frankfurter Liste, p. 23 et ss. et dans le Pharmac. Journ., 1877, 18 août.

فى العصور التاريخية القديمة معروفة بخصائص علاجية قوية (٤٣٤) ، ويعتبر حانوت العطار الخالى من هذه المادة أنه قليل الزاد (٤٣٥) . ويبدو أنها كانت تستعمل أحيانا كبخور فى أداء الطقوس الدينية (٤٣٦) . ولما كانت من المنتجات الأجنبية بالنسبة لأوروبا فانها كانت ضمن سلع الشرق الأدنى التجارية ، لذلك نجدها مذكورة ، ولو فى القليل النادر فى الكتب التى يستخدمها التجار . ويشير المؤلفون الى نوعين منها : القسط الحلو ، والقسط المر ، ونجد هذه التفرقة أيضا فى الصيدلة (٤٣٧) وفى العصور القديمة كانت الموانى التى تصدر منها هذه المادة هى ميناجارا Minnagara على نهر الأندوس السفلى وباريجازا Barygaza على خليج كمباى . وفى العصور الوسطى يذكر المؤلفون كموطن لهذه المادة ، حوض الاندوس (السند) (٤٣٨) ، حيث تنمو « الاوكلانديا » فى القسم العلوى منه ، وكذا الساحل الغربى للهند (٤٣٩) . وفى القرن السادس عشر كانت المادة تصدر أساسا عن طريق كمباى ، ويتجه جزء منها صوب الغرب عن طريق هرمز وعدن(٤٤٠) ، وجزء آخر صوب الشرق حيث كان يعرف ، كما هو معروف هناك فى الوقت الحاضر باسم بوشو Poucho أو بوتشوك Poutchouk (٤٤١) .

القطن

المعروف أنه بعد سقوط عكا ، كان الحقد على الاسلام الذى بدأ يخمد فى قلوب المسيحيين قد استيقظ بقوة جديدة ، وبتأثير هذا الشعور المتأجج ، اقترح سانوتو Sanuto على العالم المسيحى أن يقطع كل علاقة له بالعالم الاسلامى ، وأوضح ، وهو يرد مسبقا على كل اعتراض أن

---

(٤٣٤) Constant. Afric., Opp., I, 366. Macer floridus ed. Choulant, v. 2165-2168 ; M. Dümmler : S, Gallische Denkmäler, p. vi, et s.

(٤٣٥) Flückiger, Die Frankfurter Liste, nos 88 et s. ; Da? Nördlin. ger Register, p. 5.

(٤٣٦) Jaffé, Biblioth. germ., II, 156 et s., 199, 218.

(٤٣٧) Pegol., p. 135, 296, 300 ; "Costo amaro", ibid. p. 56 ; "Costo amarae e costo dolcie" (sic), Uzz. p. 192; Diplôme de Chilpéric II II de l'an 716 dans Pardessus, Dipl., II, 309.

(٤٣٨) ابن خرداذبة ، ص ٢٨٣ .

(٤٣٩) الادريسى ؛ أبو الفدا (dans Gildemeister, p. 189)

(٤٤٠) Sammario p. 328, 335, b, 336, b, 337, a; Garcia de Orto, l.c.

(٤٤١) Garcia de Orto, dans Clu·., Exot., p. 205.

« المسيحيين » يطلبون من الكفار بعض السلع التى لها أهمية ، فى حين يمكن الحصول عليها من بعض البلاد المسيحية ، وذكر مثالا لذلك (٤٤٢) السكر والقطن ، وبخاصة القطن الذى تنتجه بوليا la Pouille وصقلية (٤٤٣) ، وجزيرة كريت (٤٤٤) ، وبلاد الروم (٤٤٥) ، وجزيرة قبرص ، وأرمينيا ، وكان فى وسعه أن يضيف الى هذا التعداد اسبانيا (٤٤٦) ، ومالطة ، وفى ايطاليا نفسه كلابريا • والواقع أن قطن الغرب كان يقدر فى التجارة بثمن بخس : ويذكر بيجولوتى أن قطن صقلية هو أردأ أنواع القطن ، أما قطن كلابريا وقطن مالطة فان ثمنهما أقل انخفاضا ، وقطن بوليا la Basilicate فان مقبول ، ولم يكن أى من هذا الأنواع يضاهى قطن الشرق الأدنى فى جودته (٤٤٧) • وللعثور على قطن من أجود الأنواع ، كان لابد من الخروج من أوروبا ، بل ومن حدود العالم المسيحى • ومن (خامات ـ أبيفانى Hamah وجهة النظر هذه تفوق أقطان جماه القديمة) (٤٤٨) وحلب سائر الأقطان كلها ، وكانت مجاورات هاتين المدينتين مغطاة بشجيرات القطن ، وتثير خصوبتها الفائقة دهشة السياح (٤٤٩) • وبعد هذه المنتجات الممتازة ، تأتى فى المرتبة الثانية منتجات أرمينيا الصغرى : وكانت أهم المناطق المنتجة للقطن فيها ، مناطق كورشو (كوريكوس) Curcho (Korykos) ، سلفكة Sélefkeh وأضنه Adana (٤٥٠) ، فكانت منتجاتها تباع فى سوق اياس Lajazzo (٤٥١) • ووضع فى نفس الرتبة تقريبا قطن وسط سوريا ، وكان يجنى من شجيرات قصيرة تنمو بنوع خاص فى ضواحى دمشق(٤٥٢) •

---

(٤٤٢) Sanut., Secr. fidel. cruc., p. 24, 33.

(٤٤٣) Amari, Storia dei Muslmani di Sicilia, II, 448; III, 784 et s. ; Bibl. arab. sic., trad. I, p. 82, 91, 233, 266.

(٤٤٤) Archiv. Venet., XVIII, 60; XIX, 104 : Sathas, Doc. inéd., II, 119, III. 439.

(٤٤٥) Sathas, Doc. inéd., II, 197, 119, 126, 131, 135, 154, 161, 219 et s., 226, 227, 267; III, 439; Archiv. Venet., XVII, 262; XVIII, 60 XIX, 104.

(٤٤٦) ابن البيطار (II, 562) ؛ ابن العوام (II, 1, p. 101 et ss.)

(٤٤٧) Pegolotti, p. 367.

(٤٤٨) Pasi, p. 157 a.

(٤٤٩) Ghistele, p. 283 : Varthema, p. 143; Kiechel, p. 259 ; Ghistele, p. 289.

(٤٥٠) Barbaso, Viaggio in Persia, p. 26, b, 27, b ; Sanut., Diar. VI, 538 ; Georg. Gemnic., p. 617.

(٤٥١) Pegol., p. 44; Pasi, p. 157, b.

(٤٥٢) Haythan, Hist. orient., éd. de Helm t., 1585, p. 11, cap. 14.

وأخيرا كانت أقطان عكا (٤٥٣) وقبرص (٤٥٤) ، واللاذقية تشكل فئة ثالثة • هذا التقدير لمختلف الجهات المنتجة هو الذى وضعه بيجولوتى فى الجزء الذى خصصه للقطن • والمعروف أنه فى العصر الذى كتب فيه بيجولوتى لم يعد للدويلات التى أسسها الصليبيون فى سوريا وجود • ولكن على الرغم من النداء الذى وجهه سانوتو الى العالم المسيحى ، استعادت الحركة التجارية نشاطها بين الغرب وسوريا ، وجعلت السفن التجارية الأوروبية تحمل بانتظام ، كما كانت تفعل من قبل القطن (٤٥٥) من اللاذقية ، وبيروت ، وطرابلس (٤٥٦) ، وعكا ، ويافا (٤٥٧) • وما كانت هذه السفن تفعله فى موانى سوريا ، كانت تفعله أيضا مع مركز السيادة الاسلامية ، أى مصر : ذلك أنه فى غضون القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كانت هذه السفن تمضى لتأخذ القطن من الاسكندرية كما كانت تفعل فى عصر الدويلات اللاتينية (٤٥٨) • هذا القطن الاسكندرى كان على ما يبدو انتاجا محليا (٤٥٩) لأن سانوتو ذكر القطن ضمن المنتجات المصرية • وكان سيمون سيميونس ، وبيلوتى (٤٦٠) قد شاهدا مزارع القطن على ضفاف النيل • وأخيرا فان ثمة مؤلفا عربيا من اسبانيا ، وهو أبو عبد الله بن الفضال (٤٦١) ترك مذكرات عن زراعة القطن فى عدة بلاد ، ووصف الطريقة المصرية فى زراعته • ومع ذلك فالغريب أن « عبد اللطيف » (المتوفى عام ١٢٣١) الذى وصف بوجه عام وبمنتهى الدقة كل حاصلات مصر الطبيعية ، لم يذكر القطن ، وأن الغالبية العظمى من الغربيين الذين زاروا مصر فى العصور الوسطى لزموا الصمت التام فى هذا الشأن ، وقد يدل هذا على أن زراعة القطن لم

---

(٤٥٣) Pegol. p. 49; Lannoy, p. 107 ; Ghistele, p. 64.

(٤٥٤) Pegol. p. 64 et s. ; Uzz., p. 191; Ğeorg. Gemnic., l.c.; Casola, p. 49 ; Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 222, 373 ; III, 268, 775 et ss. ; Hagens Pilgerreise, éd. Conrady, p. 247.

(٤٥٥) Taf. et Thom., III, 427 ; Pegol p. 295 ; Douel d'Arcq, Comptes de l'argenterie, p. 365.

(٤٥٦) كانت الضواحى الخصبة لهاتين المدينتين تنتج قطنا بوفرة :
Frescobaldi, p. 145 ; Gucci., p. 413; Baumgarten, p. 129.

(٤٥٧) Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 373; Pasi, p. 48, b, 81, b, 157, b-159, a.

– عند الذهاب من يافا صوب الداخل ، يصادف المرء أيضا حقول قطن ، فى اتجاه رام الله :
Mariano, Viaggio in terra santa, Fir. 1822, p. 17.

(٤٥٨) Lib. jur., I, 71 ç Pegol., p. 56; Uzz., p. 191.

(٤٥٩) M. Yate: (Textrinum antiquorum, I, 471).

(٤٦٠) Sanut., p. 24 ; Simon Simeonis, p. 34 et s., 38 ; Piloti, p. 347.

(٤٦١) ذكره ابن العوام (II, 1, p. 102) • وابن بيطار (II, 652 et s.)
M. Clémint — Mullet, I, 77 ; Meyer, Gesch. der Botanik, III, 249.

تكن متقدمة بهذا البلد ، أو على الأقل لم يكن لها به دور مهم ؛ وعلى أية حال فمن المحتمل أن القطن المحلى كان يباع فى الاسكندرية الى جانب القطن الأجنبى . فمن أين يأتى هذا القطن الأجنبى ؟ من الهند بلا شك . فالواقع أن ماركو بولو يذكر أن قطن مجاورات كمباى كان يصدر الى بلاد مختلفة (٤٦٢) . وعندما وصل البرتغاليون الى الهند ، كان ميناء كمباى والبنغال (بدلتا نهر الجانج) يصدران الى عدن ومكة من جهة ، والى هرمز من جهة أخرى ، مع الأقمشة الرقيعة التى يطلبها كثيرا سكان مصر والأقاليم الغربية لآسيا ، قطنا خاما ، وخيوطا قطنية (٤٦٣) بكميات هائلة . ولنا أن نسلم بسهولة أن جزءا منها كان يرسل الى الغرب . ولا تذكر الكتب الايطالية التى يستخدمها التجار شيئا عن طريق قطن الهند ، ولكن ينبغى الا نخطىء الظن فى ذلك ، لأن المتبع بعامة فى هذا الشأن أن تذكر السلع التجارية تبعا للسوق التى تؤخذ منها ، لا باسم بلدها الأصلى . ولم تذكر هذه الكتب أيضا قطن البلاد التى يرويها نهرا دجلة والفرات(٤٦٤) ، ولا حتى قطن فارس الذى كان وفيرا بقدر كبير ، حتى ان نساجى البلد لم يكونوا على كثرتهم كافين لتصنيعه ، فكان يبقى منه قدر كاف للتصدير ، وكان يتمتع بشهرة كبيرة فى الخارج (٤٦٥) . وعلى العكس من ذلك كانت الكتب تفسح مجالا لقطن تركيا ، أى آسيا الصغرى (٤٦٦) . ونعلم من قبل أن زراعة القطن كانت متقدمة بنوع خاص بين بورصة وقونية ، وأن المحصول ينقل الى أسواق بروسة وافسيس (٤٦٧) .

والاسم الذى أطلق على القطن فى أقدم المصادر الغربية هو بومباسيوم bombacium (٤٦٨) ، ومع ذلك فابتداء من أواخر القرن الثالث

---

(٤٦٢) Polo, p. 666.

(٤٦٣) انظر أمثلة لذلك فى الفصل الخاص بالمنسوجات .

(٤٦٤) Isstachri (الاصطخرى) p. 45 et s. ; Polo, texte de Ramus., cap. 5, fin ; Barbaro, Viaggio in Persia, p. 28, b, 29, b.

(٤٦٥) الاصطخرى ، ص ٨٠ ، ١١٧ ؛ الادريسى ، جزء أول ، ٤٦٧ ؛ القزوينى ، فى Uylenbroek, p. 40. أبو الفدا . Géogr. ، الجزء الثانى ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ياقوت ص ١٣٧ ، ١٥٤ ، ٤٢٠ ، ٤٧٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٦١١ ؛ كلافيجو ، ص ١١٤ .

(٤٦٦) Uzz., p. 76, 185, 191.

(٤٦٧) Harff, p. 203 ; La Broquière, p. 550; Ludolf. v. Suthem, p. 25.

(٤٦٨) Lib. jur., I, 71 et s. ; Taf. et Thom., III, 427.

عشر نجد من آن لآخر كلمة كوتونم Cottonum (وهى مقتبسة من كلمة قطن العربية) (٤٦٩) ٠

البخور (اللبان) Encens

اللبان عصارة بيضاء لبنية اللون ، تسيل من لحاء بعض الأشجار من نوع « البوسويليا » Boswellia ٠ كتب بيجولتى (٤٧٠) – ولم تتغير الآراء فى هذا الخصوص – كتب يقول ان جودة اللبان تتناسب مع بياضه ونقائه ، وأن اللبان الردىء النوع يعرف من حيث أنه مخلوط بالتراب ، أو بقشر الشجر ، وأنه مغشوش وله لون داكن ٠ وفى رأيه أن أحسن نوع منه يصل عن طريق طورس وبغداد ، أما النوع الذى يجلب من الاسكندرية فانه ردىء بصورة محسوسة (٤٧١) ٠ ومن المؤسف أن من عادة بيجولوتى الا يذكر سوى الأسواق التى تباع فيها المادة ، لا البلاد التى تنتجها (٤٧٢) ٠ ومع ذلك فان الذكريات الباقية من الكتاب المقدس ، ومما كتبه المؤلفون القدامى ، نظرا لانتشارها فى عصره ، كانت تجعل الناس بعامة ينظرون الى اللبان على أنه من نتاج بلاد العرب ، وبخاصة اليمن ٠ وفى العصور الوسطى ، يتحدث الرحالة والجغرافيون الغربيون بكثرة عن لبان البلاد العربية (٤٧٣) ٠ ولكن ينبغى بصفة عامة أن نعتبر ما يقولونه فى هذا الشأن ، لا على أنه شىء رأوه بعيونهم ، وانما دليل على سعة معارفهم ٠ ومع أن ماركو بولو لم يزر بلاد العرب ، فانه لم يرد أن يكون صدى للتقاليد الغامضة ، وانما فضل أن ينقل بصراحة ما سمعه من أفواه التجار بخصوص الشجرة التى تنتج اللبان ، والطريقة التى تستخلص منها العطارة ٠ فهو يذكر جهتين تنتجان اللبان « الأبيض » بوفرة : الشحر Escier ، وظفار Dufar ٠ يقول انه فى الجهة الأولى كان السلطان يصادر المحصول كله لحسابه الخاص ، ويدفع للمنتج عشرة بيزنطة ذهبية للقنطار الواحد ، ثم يبيعه للتجار بأربعين بيزنطة (٤٧٤) ٠ وكانت الجهتان واقعتين فى منتصف الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ومتقاربتين كثيرا حتى تكادان تختلطان احداهما بالأخرى : فالأولى

---

(٤٦٩) Annal. Jan., a. a. 1289.

(٤٧٠) Pegol., p. 371.

(٤٧١) Uzz., p. 111, 114, 191 , Pasi, 107 a, 118, b, 186, b et c.

(٤٧٢) Pegol, p. 17 ; Cepione, p. 25; Pegol1., p. 44, 49 ; Ass. de Jér. II, 175, Pegol., p. 64.

(٤٧٣) Jord. Càtal., p. 57; la Carte catalane, p. 118

(٤٧٤) M. Polò, p. 707, 711.

منهما وهى الشحر Cheher أو شحر Chedjer ، ولكن لا يجوز الخلط بينها وبين مدينة شير Chir الواقعة غربا ، من ناحية عدن (٤٧٥) . والمدينة الثانية اسمها ظفار (٤٧٦) Dhafar, Zafar, Dhofar ، وقد تحدث عن هذه الأماكن أقدم الجغرافيين العرب على أنهما مراكز لانتاج اللبان (٤٧٧) ، ويذكرون أيضا ميناءى مرباط Mirbat (٤٧٨) حاسك Hazek (٤٧٩) . وبامعان النظر فى هذه الأمور نرى أن مجموع هذه الأماكن يشكل قسما صغيرا من ساحل شبه الجزيرة العربية ، نجده عند بعض المؤلفين مذكورا باسم مقاطعة مهرة Mahra (٤٨٠) ، ويذكرها اثنان من كتاب أخبار الرحلات ، عاصرا السيادة البرتغالية على الهند ، وهما باربوزا ، ومصارى Massari (٤٨١) فى سياق حديثهما عن انتاج اللبان . هذه المجموعة من المشاهدات تبدو لى أنهـا تقر أمرا مؤكدا ، وبخاصة منذ أن اكتشف الانجليزى ، السيد كارتر M. Carter فى هذه المنطقة فى غضون رحلة قام بها منذ ١٨٤٤ الى ١٨٤٦ فى بلاد العرب شجرة من فصيلة بوسويليا Boswellia تنتج اللبان بالتأكيد . حقا ان هذه الفصيلة وأمثالها التى تنتج لبانا حقيقيا ، تنمو أيضا على ساحل الصومال الواقع قبالة الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية . وهناك تتلقى التجارة فى الوقت الحاضر هذه المادة ، وحدها تقريبا . غير أن هذا لا يثبت شيئا فيما يختص بالعصور الوسطى . ففى تلك الآونة كان جنوب شبه الجزيرة العربية هو بلد اللبان الوحيد ، ولما كانت هناك حركة تجارية نشيطة للغاية بين هذا القطر من جهة وبين بلاد ما بين النهرين ، وفارس من جهة أخرى ، عن طريق الخليج الفارسى ، فاننا نرى بطبيعة الحال أنه فى عصر بيجولوتى كان يوجد فى أسواق بغداد وتبريز أحسن أنواع اللبان .

وليس هناك أى باعث على الاعتقاد بان بلادا أخرى كانت تزود الغرب باللبان . وقد رأى ماركو بولو فى تانا Tannah (على مسافة ليست ببعيدة من مدينة بمباى الحالية) لبانا ذا لون داكن ، كان موضوعا لتجارة

---

(٤٧٥) wrede, Reise in Hadramaut, prĕface de M. Maltzan, p. 38.

(٤٧٦) Ibid. p. 30.

(٤٧٧) Relat., p. 141 ; Istachri, p. 13 et s. ; Edrīsī. I, 48 ; Merassid-Alitthila, cit. par M. Reinaud dans son édit. de la Georgr. d'Aboulfeda, II, 1, p. 124 et s.

(٤٧٨) الادريسى ، جزء أول ، ٥٤ ; Merassid, l.c.

(٤٧٩) ابن القوطية ، جزء ، ٢١٤ .

(٤٨٠) الاصطخرى l.c. و.ابو الفدا ، جزء ثان ، ص ١٢٨ .

(٤٨١) Barboṣa, p. 292, b ; Massari, p. 26.

واسعة (٤٨٢) . ويقول الرحالة المشهور ان هذا اللبان انتاج محلى ومن ثم لم يخلط بينه وبين صمغ جاوة (لبان جاوة) الذى لم يكن يمر بسوق تانا الا مرورا عابرا ، قادما من سومطرة . ولكن يحسن بنا أن نتذكر أن تربة الهند تحمل عددا وفيرا من الأشجار التى يحتوى نسغها (ماؤها) على راتنج مماثل كثيرا للبان بحيث قد يخطىء المرء فيظنه لبانا (٤٨٣) .

نضيف أن الأمر يتعلق أحيانا ، فى مصادر العصور الوسطى (٤٨٤) بلبان يونانى incenso grechesco, incenso di Romania : ولابد أن يكون هذا خليطا من اللبان العربى و « الاستروكاس ليكويد » Storax liquida الذى لم يزل مستعملا الى الآن فى الكنائس اليونانية (٤٨٥) .

الخلنجان Galanga

كتابات الأطباء العرب (٤٨٦) هى التى عرفتنا بجذور الخلنجان Galanga, ou Galgant وتفسر هذه الخصوصية السبب فى أن هذه المادة تحمل فى اللغات اسما مشتقا من الكلمة العربية « خلنجان » Khalandjan التى هى أيضا مشتقة من اللغة الصينية . وعلى ما أعلم فان أول وثيقة ذكر فيها رجل غربى هذه المادة ، نجدها فى مجموعة Formulaire de Salomon III أسقف كونستانس (٤٨٧) : انها رسالة ، محررها مجهول ، موجهة على الأرجح لشارل « البدين » ، فالكاتب يذكر للملك العديد من الأشياء النادرة التى يرسلها اليه مع خطابه ، منها رزمة من القرفة ، ومن جذر الخلنجان Calangani ، وكبش القرنفل ، والمصطكا ، والفلفل . ومن ذلك العصر ، والخلنجان مادة شائعة للغاية فى العالم الرومانى الجرمانى طوال العصور الوسطى ، نجده

---

(٤٨٢) Polo, p. 663.

(٤٨٣) Yule, Marco Polo, II, 331 et s. ; Flückiger, Parmacognosie, p. 33.

(٤٨٤) Pegol., p. 92, 113, 211 ; Bonani, Stat. Pis, III, 592.

(٤٨٥) Hunbury, Science papers, p. 159 et s.

(٤٨٦) Avicenne, éd. Plemj., p. 300 ; Issac ibn Amran, dans Scrap., p. 175; Ibn Beitar, I, 399 ; Ibn- Khordadbèh (p. 294)) et Edrisi (I, 51).

(٤٨٧) Publ. par M. Dümmler p. 37.

مذكورا فى العديد من المؤلفات الطبية (٤٨٨) ، والكتب العلمية (٤٨٩) ، وحتى فى كتب الطهى والتدبير المنزلى (٤٩٠) • ويدخل الخلنجان فى فئة العقاقير والأغذية المهيجة والمنبهة التى يتعاطاها الناس بشغف فى ذاك الأوان • وكان التجار الأوروبيون يجدونها فى موانى الشرق الأدنى التى يترددون عليهـا عادة ، كالقسطنطينية ، وعكـا ، والاسكندرية ، وفاماجوسـتا (٤٩١) ، ويحضرونهـا الى مـوانى ايطـاليا (٤٩٢) ، وفرنسا (٤٩٣) ، واسبانيا (٤٩٤) ، ومنها تنتشر فى الغرب كله •

ويتميز فى مجال الصيدلة نوعان من جذر الخلنجان ، يرد الصغير منه من الصين ، والكبير من جنوب آسيا • هناك اذن ما يدعو الى البحث عما اذا كانت التجارة فى العصور الوسطى تتضمن النوعين : والاجابة عن ذلك بالتـأكيد ، لأن بيجولوتى يذكر نوعين من الخلنجان فى وقت واحد ، الخفيف والثقيل (٤٩٥) ، ولا يطيل الحديث عن النوع الأول ، بل يكتفى بالقول بانه أقل جودة من الآخر • أما الثقيل فانه يصفه قائلا انه من الخارج ذو لون أحمر داكن ، ومن الداخل زكى الرائحة ، ينهش اللسان • هذا الوصف يتلاءم كل الملاءمة مع الخلنجان الصغير ، الثقيل الوزن ، اللاذع ، الداكن اللون الضارب الى الحمرة من الخارج ، والمائل الى السمرة من الداخل ، فى حين أن الخلنجان الكبير خفيف الوزن ، لا طعم له ، ذو لون أحمر داكن أو بنفسجى من الخارج ، وأصفر فاتح من الداخـل • كذلك يختص الموضـوع بالخلنجان الصـغير فى ال Ménagier de Paris ، اذ يتحدث الكاتب قائلا ان أفضل نوع هو الأحمر الفاقع ، وعندما يقطع ، يظهر مقطعا بنفسجيا ، ويضيف أنه ثقيل وذو قوام صلب عند قطعه (٤٩٦) • من الثـابت اذن أنه فى العصـور

(٤٨٨) P. ex. dans Constant. Afr., Opp. I, p. 372; Platearius circa instans, p. ccxxxvii, b ; Gloss. in antidot. Nicol., p. ccxlvii.

(٤٨٩) Hildegardis physica, lib. 2, cap. 17 ; Albertus Magnus, De vegetabilibus, éd. Jes en et Meyer, p. 395 etc.

(٤٩٠) Ménagier de Paris, II, 112, 150, 160, 166, 172, 218 etc. ; Traité de cuisine, éd. Douct d'Arcq, dans le Biblioth. de l'École des chartes, 5e série, I, 209 et ss ; Comptes de l'argenterie, p. 218, 232, 265 et s.

(٤٩١) Pegol. p. 18, 27, 49, 57, 65, 99 etc. ; Assises de Jérusalem, II, 175.

(٤٩٢) Pegol., p. 99, etc. ; Taf et Thom., III, 444.

(٤٩٣) Bourquelot, I, 290.

(٤٩٤) Capmany, Memor., II. 20 ; appenr, p. 73.

(٤٩٥) Pegol., p. 296, 375 ; Uzz. p. 20 .

(٤٩٦) II, 112, 230.

الوسطى كان النوعان من الخلنجان معروفين فى التجارة . كما كانت الخصائص التى تفرق بين النوعين معروفة على وجه اليقين .

ووجد ماركو بولو (٤٩٧) فى غضون رحلاته نوعى الخلنجان . ولكنه لم يفرق بينهما . والخلنجان الذى رآه فى اقليم فو ـ كين فى الصين كان من النوع الصغير ، ويقول انه وجده فى جزيرة جاوة (٤٩٨) ، وفى البنغال كان من النوع الكبير . وعند وصول البرتغاليين الى الهند وجدوا الخلنجان الكبير على ساحل ملبار ، فى مجاورات كمباى ، وفى جزيرة جاوة (٤٩٩) ، ولكنهم كانوا يتلقون أيضا الخلنجان الصغير من الصين مباشرة ، مع الرواند ، ويعيدون تصديره الى البرتغال (٥٠٠) .

الفوه Garance

يزرع الفوه Rublia tinctorum فى أوروبا منذ عدة قرون . وذكر فى « أوامر شارلمان » المشهورة باسم warentia (٥٠١) . ومع ذلك كان يستورد أحيانا من الشرق . ومع ذلك نصادف فى تعداد السلع التجارية المتداولة فى عصر بيجولوتى ما يسمى Robbia di Romania (من اليونان) ومن الاسكندرية ، وقبرص (٥٠٢) . والراجح أن الفوه الذى كانت أوروبا تتلقـــاه عن طريق الاسكندرية كان يأتى من شبه الجزيرة العربية ، وتتلقاه عن طريق قبرص حيث يرد اليها من سوريا ، ومع ذلك كان فوه جنوب شبه الجزيرة العربية يصدر بعامة عن طريق عـدن الى بلاد الفرس والهنـد (٥٠٣) . وفى عصر الادريسى ، كان فوه جورجيا ، وهو من أجود الأصناف ، يصدر من هناك الى الهند ، رغم طول السـفر ، فيعبر أولا بحر قزوين ، ثم ينطلق من جرجان Djordjan ويتم الجزء الباقى من الرحلة بالطرق البرية (٥٠٤) . ومن خوى Khoï

---

(٤٩٧) II. 422, 522, 524, 561.

(٤٩٨) La Carte catalane, (p. 137).

(٤٩٩) Varthema, p. 157, a ; Empoli, p. 91 ; Garcia de Orto, dans Clusius, Exot., p. 211 ; Acosta, ibid. p. 275.

(٥٠٠) Clus., Exot., ibid. ; Balli. dans de Bry, Orient. Indien, 7e part., p. 38.

(٥٠١) Pertz, Mon. Germ. Leges, I, p. 184, 186.

(٥٠٢) Pegol., p. 211, 298 ; Bonani, II, 593.

(٥٠٣) Varthema, p. 155 ; Corsali, p. 187, a ; Barbosa. p. 292, a ; Sommar., p. 325, b, 328, a.

(٥٠٤) Edrisi, II, 330 ; cf. ibid. 333 ; Kaziwini, trad. Ethé, I, 1, p. p. 262 ; Aboulf. trad. Reinaud, II, 44.

وهى مدينة واقعة على الحدود بين فارس وارمينيا ، ويرسل الى الهند نوع من « الجذور الحمراء » (وهى على الأرجح جذور الفوه) ، يصنع منها الهنود لونا أحمر ، وتستعمل أيضا فى خوى نفسها فى صباغة الأقمشة cremesini (٥٠٥) .

الزنجبيل Gingembre

كان الزنجبيل فى العصور الوسطى من أشهر التوابل المعروفة ، واستعماله شائعا كاستعمال الفلفل تقريبا . ومن نافلة القول أن نقدم هنا أدلة تثبت ذلك ، فسوف يدفعنا هذا شوطا بعيدا . على أنه لما كان الزنجبيل نباتا ينمو فى بلاد كثيرة متباعدة بعضها عن بعض ، فمن المهم البحث عن البلاد التى تتزود أوروبا منها به . وللعثور على هذا البلاد ، لا نجد دليلا أفضل من بيجولوتى . ففى الفقرة التى يعرض بها خواص الزنجبيل ، يعدد ثلاثة أنواع ، ويقول ان نوعين منها ينموان فى الهند . والثالث فى مجاورات مكة (٥٠٦) . ومع ذلك فالزنجبيل ينمو أيضا على تربة الصين ، بل انه منتشر بهـا ، بسعر بخس للغـاية لا يصـــدقه العقل (٥٠٧) . ومع ذلك لا يتكلم بيجولوتى عنه ، مما يثبت أن انتاج هذا البلد منه لم يكن قد وصل بعد الى أوروبا ، ربما لبعد المسافة . أما عن الزنجبيل الذى يقول بيجولوتى انه يباع فى سوق تانا ،والزنجبيل الذى رآه مسافرون آخرون فى عصور أخرى فى أسواق سمرقند وطورس فانه يكون واردا أيضـــا من الهند والصين (٥٠٨) . نضيف أيضـــا أنه حين يذكر بيجولوتى الهنـد على أنهـا موطن الزنجبيل ، يبدو أنه لا يقصد أن تشمل هذه التسمية العـامة الهند الصينية ، ولا القسم الشرقى من الهند نفسها ، ذلك أن تفكيره لا ينصرف الا الى الساحل الغربى للهند . ويبدو أنـه لا يعرف أن جزر الهنـد الصينية ، وســـواحل البنغال (٥٠٩) . وكرماندل (٥١٠) يمكن أن تقدم نصيبها من الزنجبيل للاستهلاك لندرس معه اذن نوعى الزنجبيل اللذين ينموان فى الهند :

---

(٥٠٥) Ramusio, II, 82, p.

(٥٠٦) Pegol, p. 360 et. s., 296.

(٥٠٧) Marco Polo, p. 359, 365, 386, 490, 522, 524; Aderico da Pordenone, ér. Yule, l.c., p. xxiv.

(٥٠٨) Pegol., p. 4 ; Clavijo, p. 191 ; Ghi tele, p. 310.

(٥٠٩) M. Polo, p. 422 ; Varthema, p. 165, a ; Empoli, p. 80 ; Garcia de Orto, p. 212.

(٥١٠) Voy. la lettre du Fr. Menetillo de Spolète, dans les München. gel. anz., 1855, p. 173.

البلدى beledi والكولوبينو Colombino ، والأول منتشر فى أقاليم عـديدة ، أما الثـانى فتختص به مقـاطعة كولم Koulam · والواضح أن كلمة beledi (٥١١) مشتقة من الكلمة العربية « بلدى » ، وهى التى أطلقها المسلمون المقيمون بالهند على الزنجبيل المحلى لتمييزه عن الزنجبيل الوارد من الخارج ، وربما لم يكن هذا النعت منطبقا الا على زنجبيل السهول ، فى مقابل زنجبيل الجبال ، ويبدو أنه لا يتضمن فكرة المحصول العامى ، أو البرى (٥١٢) ، فالنوع البلدى فى ذهن المؤلف هو على ذلك نوع ممتاز · ونجد هذا الاسم كثيرا فى مصادر أخرى تتعلق بتـاريخ التجـارة (٥١٣) · ويحـكى الرحالة الايطـالى نيكولو كونتى Niccolo Conti الذى سار بحذاء الساحل الهندى ابتداء من كمباى متجها صوب الجنوب ، وزار على شاطىء كانارا Canara باشاموريا Pachamuria (باكانور Baccanore) ، وهيلى (Helli (Ely، Hili، بالقرب من مون ديلى Mont Dely الحاليـة ، يحكى أنه سمع ثلاث تسميات مختلفة لزنجبيل القطر : البلدى ، والجبلى gebeli ، والديلى (٥١٤) · وقد سبق أن تكلمنا عن معنى كلمة البلدى ، أما النعت gebeli فانه يشير الى زنجبيل الجبل ويشير النعت ديلى الى مجاورات ايلى (Ely (Hili · والثابت أنه يتعين قراءة الكلمة deli كما توجد مدونة فى النص الإيطالى لراموزيو Ramusio ، أما كلمة neli فى النص الايطالى لكونستمان M. Kunstamann فانها غير صحيحة · والواقع أن باربوزا Barbora يروى أن مملكة كانانور Cananore تنتج نوعا من الزنجبيل أقل بياضا ، وحجما ، وجودة من الأنواع الأخرى ، أطلق عليه اسم dely لأنه ينمو فى مجاورات جبل ديلى ، ومن هناك ينتشر صوب الجنوب حتى مدينة كنانور (٥١٥) ·

نعود الآن الى الزنجبيل البلدى ، فنذكر أن مسـافرا قد رآه فى البلد نفسه الذى ينتجه : انه باربوزا ، اذ يقول ان النوع الذى أطلق

---

(٥١١) Voy. Dozy et Engelmann, Glossarie, 2e éd., p. 232; Abdallatif, Descr, de l'Egypte, ēd. Silvestre de. Sacy, p. 38.

(٥١٢) Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, 2 éd., p. 636.

(٥١٣) Uzzano, p. 20, 61, 111; Chiarini, p. lxxlii, a; Rasini, p. 53, b; 83 et ss., 118, a ; Bonaini, State. Pis., III, 591 ; Capmany, Mem., II, 163 ; Biblioth. de l'Ecole de Chartes, 1873, p. 50 ; Sanut., Diar., I, 830; III, 1198, IV, 168, 232, 240, 265 419; VI, 64 etc.

(٥١٤) Conti, éd. Kunstmann, p. 37. ; ibid., p. 15 ; Yule, Cathay, Ibn Batouta (IV, 80) ; Corsali, p. 178, b. 179, b ; Balbi, p. 48 ; Garcia de Orto, p. 212.

(٥١٥) Barbosa, p. 311, a ; M. Polo, p. 648 ; Varthema, p. 158, b ; Sommario, p. 333 ; Massari, p. 26, 33.

عليه هذا الاسم ينمو خلف قاليقوط ، على مساحة تبلغ حوالى ستة الى تسعة أميال ، ويحظى بالتقدير نظرا لجودته (٥١٦) ٠

كان النوع الثانى من الزنجبيل ، فى رأى بيجولوتى هو كولومبينو ، لانه ينمو فى كولومبو الهندية nell'isola del Colombo d'india هذا التعبير يحتاج الى شرح ٠ فالواقع أن هذه الفقرة لا تتعلق بكولومبو عاصمة جزيرة سيلان ، ولا حتى بجزيرة بذاتها ، ولكن بمدينة بحرية ٠ فاما أن بيجولوتى يستخدم كلمة ile (جزيرة) بالمعنى الواسع الذى تشمله الكلمة المرادفة لها فى اللغة العربية ، أو أنه ، وهذا أرجح ، كانت معلوماته عن موقع المدينة التى يتكلم عنها غير صحيحة ٠ فالمبشرون من مواطنيه ، وهم أودريكو دا بوردنيونى ، وجوردانس كاتالانى ، وجيوفانى دى مارنيـولى (٥١٧) يذكرون من وقت لآخر مدينة يسمونها كالمبـوم Colombum (كتب أودريكو بالومبـوم Palumbum وهى ليست سوى كويلون (كولم عند العرب) على ساحل ملبار ٠ كانت مجاورات هذه المدينة تنتج زنجبيلا جيدا ٠ وعلى أية حال فان هذه الحقيقة يؤيدها أربعة من رحالة العصور الوسطى ٠ بنيامين دى توديل ، وماركو بولو ، وأوودريكون دا بوردنيونى ، ونيكولو كونتى (٥١٨) ٠ ويختلف هـؤلاء فيما بينهم فقط بعض الشىء من حيث التسمية التى يتعين اطلاقها على هـذا النوع ٠ واسم كويلون يتحول فيما كتبه ماركو بولو الى كوالون Coilun ، والى كولوين Coloen عند كونتى ، وكل واحـد من هؤلاء يشتق صفة الزنجبيل من اسم البلد الذى وجده فيه ، فيجعل الأول منه كوالونى Coiluni ، والثانى كولوبى Colobi ، وشاهدت فى لغة بحارة العصور الوسـطى على نطاق واسـع الصيغة كولومبينو التى استخدمها بيجولوتى (٥١٩) ٠

---

(٥١٦) Barbosa, p. 311, b, 323, a ; Conti, p. 48; Hieron da S. Stefano, p. 345, a Varthema, p. 162, a ; Sommar, p. 333, a ; Sernigi, ibid. p. 120, b; Massarí, p. 27; Nikitin, p. 20.

(٥١٧) Oderico da Pordenone, éd. Yule, pp. xi-xiii ; Jord. Catal., p. 50, 55 ; Marign., p. 88.

(٥١٨) Benj. de Tud., p. 140 ; M. Polo, p. 644; Oder., p. xiii ; Conti. p. 46.

(٥١٩) Uzz., p. 20, 61, 111 ; Chiarini, p. lxxiii, a ; Bonaini, State. Pis., III, 591 ; Leber, l.c. p. 80; Ménagier de Paris, II, 111, 230; Douet d'Arcq, p. 218 ; Pegol., p. 296, 360.

ويســـمى بيجولوتى النوع الثـالث Giengiovo micchino (زنجبيل مكة) (٥٢٠) ، ويقول انه وارد من مجاورات مكة ٠ هذا النعت مختلق عن عمد ، وينبغى تفسيره بأن الموضوع المقصود لم يكن من نتاج الاقليم ، وانما هو سلعة فى سوق مكة (٥٢١) ، وإلا ينبغى أن يعزى الى كلمة « مجاورات » معنى واسع للغاية ، لأن الاقليم الذى ينمو فيه هذا النوع من الزنجبيل يشمل شبه الجزيرة العربية كلها مع جزر البحر الأحمر (٥٢٢) ، وربما أيضا زنجبار ومدغشقر (٥٢٣) ٠ هذا النوع من الزنجبيل الذى يحمل هـــذا الاسم ويمر بالاســكندرية ومنهـــا الى أوروبا (٥٢٤) ، قال عنه بيجولوتى انه أقل جودة من سائر الأنواع ، وأنه صغير ، يصعب قطعه ٠ والغريب أن صحيفة Ménagier de Paris تقول عكس هذا تماما ، فنطالع فيها أن هذا النوع له كل صفات الزنجبيل الجيد ، ويتميز بنوع خاص بســهولة قطعه ، وأن الزنجبيل الوارد من كويلون أدنى منه مرتبة ٠ ويبدو أن الأسعار التى ذكرها كاتب الصحيفة تدل بالفعل على أن بياناته لم تكن قائمة على تقدير شخصى ٠ ففى عام ١٣٩٣ ، على سبيل المثال كان ثمن الرطل من زنجبيل كويلون (كولومبين) فى السوق الفرنسية أحد عشر « صول فرنسى » sols ، أى حوالى ٣١ فرنكا من نقودنا الحالية ، وثمن « ربع الرطل » من زنجبيل مكة خمسة « صــولات » أى عشرين صــول ، ثمن الرطل ، أى الضعف (٥٢٥) ٠ ويتحدث سانوتو فى كتابه Diarii كثيرا عن التوابل ، ويعطى قوائم بالأسعار ، لا يغيب عنهـا الزنجبيل : فقط لم يكن للزنجبيل من نوع كولومبينو وجود فى التجارة فى العصر الذى كتب فيه ، ومن ثم لا نعرف عن طريقه سوى القيم النسبية للزنجبيل البلدى ، والمكى ، وسعر النوع الثانى أقل دائما من سعر الأول ٠

كان الزنجبيل يبـــاع على شـــكلين : اما أخضر ، واما محفوظا (بمعـــالجته بالســـكر ٠٠٠) (٥٢٦) وكان الهنـــود يعـــدون منـه

---

(٥٢٠) Sanut., Diar., p. ex. : III, 1198 ; IV, 168 ; V, 35 ; XI, 56, 104 et ss., 827 et ss ; Priuli, p. 169.

(٥٢١) Fabri, II, 542.

(٥٢٢) Viaggi alla Trna, p. 146, b, 148, a ; Abou Hanifa dans Ibn Beitar, I, 537 ; Ibn-al-Mogawir, dans Sprenger, Post-und Reiserouten, p. 133 ; Abdallatif, p. 25 ; Massari, p. 26 ; Ghistele, p. 233.

(٥٢٣) Abdallatif, l.c. ; Harf. p. 146.

(٥٢٤) Pegol., p. 308, 360 ; Uzzè p. 20, 61, 111, 114, 191 ; Pasi, p. 53, b, 83, a, etc.

(٥٢٥) Cf. le Ménagier de Paris, p. 111, 230, avec Pegol., p. 360.

(٥٢٦) Pasi. p. 118. a ; Joh. de Garlandia, ibid. ; Uzz., p. 20.

مستحضرات محفوظة (٥٢٧) ، عرفها العرب باسم « زنجبيلية » Zindjebliyeh (٥٢٨) ، يشتريه الغربيون من الاسكندرية : وهذا ما أسموه Zenzeverate d'India (٥٢٩) • وفى الغرب كان العطارون يصنعون معجونا معظمه من الزنجبيل ، ومن ثم كان اسمه diazimzibereos (٥٣٠) • وفى الطهى يستعمل الزنجبيل على الأخص كنوع من التوابل ، مع اللحم والسمك ، ويدخل أيضا فى تحضير الأنبذة المتبلة (٥٣١) •

صمغ الكثيراء Gomme Adragant

هناك أنواع عديدة من الشجيرات من جنس الاسطرغالس astragales (أصابع العروس ـ نبات من جنس الكثيراء من فصيلة القرنيات الفراشية ـ المنهل) ، تنفرد بخاصية معينة ، ذلك أنه اذا أجرى حزات على جذعها ، أو حدث شق طبيعى فى اللحاء ، ينسكب من النبات سائل لزج ، يتجمد للحال عند تعرضه للهواء الجوى • هذه المادة تشترك فى الحركة التجارية باسم Gomme adrayante • ويذكر بيجولوتى بلدين يؤخذ منهما هذا الصمغ ابان العصور الوسطى ، بلاد الروم ، وتركيا ، أى اليونان ، وآسيا الصغرى (٥٣٢) • والواقع ، كانت اليونان فى التاريخ القديم كله موطن صمغ الكثيراء ، ولم تزل الى وقتنا الحاضر تنتج منه تشكيلة تعرف بشكلها الخيطى أو الدودى ، ويطلق عليها اسم « صمغ كثيرا المورة » • الا أن أحسن نوع منه يأتى من وسط آسيا الصغرى ، ويمر فى الوقت الحاضر عن طريق أزمير أو القسطنطينية • ولكن فى عصر بيجولوتى (٥٣٣) كانت ستالية Satalia هى السوق الكبيرة

---

(٥٢٧) Ibn Batouta, III, 126 ; Barbosa, p. 323, a ; Garcia de p. 212.

(٥٢٨) Silvestre de Sacy, éd. d'Abdallatif, p. 312.

(٥٢٩) Pegol., p. 298, 317 et ss. ; Uzz. p. 26. ; M. Hanbury, Science papers, p. 480, 483 ; Schultz, Das höfische Leben, I, 293, not. 2.

(٥٣٠) Voy. Guiot de Provins, Bible, dans les Fabliaux et contes, éd. Barbazan et Méon, II, V. 2621, 2627 : Joh. de Garlandia, p. 28.

Ménagier de Pari-, p. 107.

de cuisine, éd. Douet

I, 209 et ss.

Pegol., p. 296, 376 ; Ibn Beitar (trad. franç., p. 19 ; Pegol., p. 113; Cf. Hamilton, Reisen [illegible]

(٥٣٣) Pegol., p. 376 ; Pomet, Hist. des drogues, II, 16.

لصمغ كثيراء آسيا الصغرى ، ولم يكن هذا سوى نتيجة طبيعية لموقع هذه المدينة • ففى شمال خليج ستالية يمتد اقليم مشهور بجودة هذا المحصول، وهو بيسيديا القديمة Pisidi التى أصبحت منذ غزو الأتراك آسيا الصغرى ولاية حميد Hamid (٥٣٤) • ويذكر بيجولوتى أيضا سوقين يوجد فيهما صمغ الكثيراء : قبرص والاسكندرية (٥٣٥) •

وفى العصور الوسطى ، كان هذا الصمغ يستعمل لعدة أغراض ، فكان يعتبر دواء منشطا (٥٣٦) • ويمارس الشاعر جيوت دى بروفنس Guiot de Provins فى فقرة من شعره الهجائى بعنوان la Bible (الكتاب المقدس) يمارس قريحته الوقادة على حساب أطباء مونبيلييه ، وأثمان الأدوية التى يصفونها (٥٣٧) : فيذكر ، بين ما يذكر ، فى بيت الشعر رقم ٢٦٢٢ مشروبا يسميه دياراجم diadragum • ونجد هذا المشروب نفسه عند مؤلفين آخرين بأشكال أصح diadragagantum (٥٣٨) أو dyadragantum (٥٣٩) ، ويضيف ذلك الذى استخدم هذه التسمية الأخيرة ملاحظة فحواها أن العطارين يعطون هذه المادة على أنها دواء منعش • بل ان الاسم نفسه يدل على أن صمغ الكثيراء هو العنصر الأساسى فى المادة • ومن جهة أخرى ، كانت صناعة العصور الوسطى يستعمل هذا الصمغ فى اعداد اللازورد وفى التذهيب (٥٤٠) • ولم يسعنى أن أجد دليلا أكيدا على استعماله كمثبت فى الصباغة •

صمغ اللك Gomme laque

فى الهند والهند الصينية أشجار من الفصيلة السوسنية (الفوربيونية) Euphorbiaccées وبخاصة من نوع Aleuites laccifera Willd التى تغذى آلافا من الأرض من جنس الكوكس لاكا Coccus lacca هذه الأرضة تستقر على الغصون وتثقبها بخرطومها ، وتخرج بذلك عصارة النبات الراتنجية (الصمغية) التى تتدفق فى الخارج ، ويختلط بها غالباً بعض

---

(٥٣٤) Fluckickiger and Hanbury, Pharmacographie, 2 éd., p. 176.

(٥٣٥) Pegol. p. 56, 376.

(٥٣٦) Constantinus afric, opp. I, p. 366, 383.

(٥٣٧) Fabliaux et contes, éd. Barbazan et Méon, II, 391 et s.

(٥٣٨) l'Archiv. stor. ital., 3e série, XIII, 2, p. 126.

(٥٣٩) Joh. de Garlandia, Mictionarius, éd. Géraud, suppl. au Paris sous Philippe le Bel, p. 596, éd.Schéler ; Flückiger, Das Noerdlinger Register, p. 12.

(٥٤٠) Liber divers. art., p. 748, Muratori, Antiq. ital., II, 373, 376.

المواد السائلة الخاصة بها ، وتكسبها على أية حال لونها الأحمر الجميل ، ويتكون على هذا النحو حول الغصون قشرة سميكة حمراء ، تنتهى بأن تغطى الأرضات نفسها : هذا هو صمغ اللك (٥٤١) · وكان هذا الصمغ معروفا من قديم الزمان على أنه مادة صباغة ، ويستعمل فى تركيب البريق أو الورنيش ومعاجين التلميع · وكان صمغ اللك مادة منتشرة كثيرا فى تجارة العصور الوسطى (٥٤٢) ، ويتكلم عنها بيجولوتى بطبيعة الحال ، ولكن يبدو أنه لا يعرف أن صمغ اللك هو نتاج حشرة ، ويعتبر أنها زائدة فطرية أو ثمرة بعض النباتات ، ويقسمها الى أنواع ثلاثة : اللكا أسيربا lacca acerba ، أى اللك الأخضر ، وله لون مماثل للون التوت قبل نضجه ، وهو جامد الملمس ، (٢) اللكا ماتورا lacca matura أى اللك الناضج ، ويتكسر بسهولة تحت ضغط أصابع اليد ، (٣) la lacca communale intra acerba e mature ، وهو نوع وسط بين النوعين السابقين (٥٤٣) · ويصل صمغ اللك الى السوق اما كمادة خام ، أى بحالته الأصلية ، ولم يزل به شظايا من الغصون ، مما يضفى عليه مظهرا غير مقبول لدى المشترى (٥٤٤) ، أو مفرغ فى قالب بعد تليينه على النار · ومن ثم فهناك تصنيف آخر ، الى lacca cruda (لك خام) ، و Lacca Cala (لك ناضج) (٥٤٥) ، وهناك أخيرا نوع يباع على حدة باسم polvere di lacca وهو مسحوق مكون من جزيئات منزوعة من الجزء الخارجى من القشرة ، ونوع اسمه fiori di lacca ، وهو سلعة أخرى نشك فى أنها صمغ على شكل حبات الخرز (٥٤٦) واسم صمغ اللك نفسه يكشف عن أصله ، فهو مشتق من الكلمة الهندية لاكسا làxa أو لاكها lakha (٥٤٧) · وان لم يخب ظنى ، فان نيكولو كونتى كان

---

(٥٤١) Brandt et Ratzeburg, Medicinische Zöologie, II, 226 et ss.

(٥٤٢) Lib. jur., I, 71 ; Taf et Thom., III, 444 ; Assis de Jérus ; II, 174 ; Pegol., p. 17, 44, 49 etc. ; Uzz., p. 111 ; Chiarini p. lxxxii, b ; Capmany, II, 2, p. 4, 17, 20 ; appenr., p. 73.

(٥٤٣) Pegol. p. 308, 314 et s., 366 et s. ; Uzz. et Chiarini, opè cit. ; Brandt et Patzeburg, l.c., p. 228.

(٥٤٤) Pegol, p. 366 ; Garcia de Orto, p. 158.

(٥٤٥) Pegol., p. 297. "Lacha cruda" : Lib. divers. art Montp., lib., I, cap. 0, p. 754.

(٥٤٦) Pegol. p. 296, 308, 366.

(٥٤٧) Lassen, Ind. Alterth, I, 317 ; III, 31 et s.

أول رحالة أوروبي رأى صمغ اللك في الموضع الذي يتكون فيه (٥٤٨) ، وهو اذ يروى اكتشافه هذا ، يذكر في الوقت نفسه أسماء الأسـواق الرئيسية التي تباع فيها هذه السلعة · ولم تتغير الأمور بمرور الزمن : فهذه الأسواق ما زالت هي قاليقوط (٥٤٩) ، وكمباى (٥٥٠) · غير أن هذا لا يرشدنا الى المكان الحقيقي المنتج لصمغ اللك · فاقاليم وسـط شبه الجزيرة الهندية ، وتشغل مملكة نرسنجا Narsinga متانة متميزة وكانت تتمتع في هذا الخصوص بطبيعة أكثر عطاء (٥٥١) · ثم كان هناك ساحل كروماندل (٥٥٢) ، والى الشمال حوض نهر الجانج (٥٥٣) · غير أن البلد الذي ينتج حقيقة أكبر كميات من هذه المادة هو الهند الصينية ، في أقاليم بيجو (في بورما) Pégou ، ومرتابان Martaban ، وتنساريم Ténassérim ، في بورما ومملكة سيام (٥٥٤) ، عثر كذلك على الكثير من صمغ اللك في جزيرة ، سومطرة ، وكان من الحاصلات المحلية ، رغم ما يقوله جارسيا دي أورتو (٥٥٥) واللك المرتاباني ، واللك السومطري مادتان متميزتان ، يبدو أنهما كانتا منتشرتين جدا في تجارة الشرق (٥٥٦) · وعلى عكس ذلك لا أجد في تجارة الغرب في العصور الوسطى مثالا لنعت يلحق باسم صمغ اللك لتحديد مصدره · أما بيجولوتي فانه يضيف أحيانا النعت chonabaiti أو ganbainti ، (٥٥٧) باسم النوع الذي يصفه بأنه lacca matura (لك ناضج) ولعل هذا تحريف لاسم كمباى الذي يكون عندئذ موطنا لهذا النوع بالذات · كذلك لا شك في أن الغرب يتلقى صـمغ اللك من قاليقوط عن طريق عدن والاسكندرية (٥٥٨) ·

---

(٥٤٨) Ed. Kunstmann, p. 48 et s.

(٥٤٩) Sommario, p. 335, b, Sernigi, p. 120, massouri, p. 27.

(٥٥٠) Sommario, p. 34 b ; Varthema, p. 157, a ; Sommar ; p. 327, a ; 328, a ; Massari, p. 26 ; Nikitin, p. 21.

(٥٥١) Barbosa, p. 317 a.

(٥٥٢) Roteiro da viagem que fez Vasce da Gama, p. 109.

(٥٥٣) Balbi ; de Bry's Reisen, p. 30.

(٥٥٤) Varthema, p. 166, a ; Roteiro, p. 112 ; Corsali, p. 180, a ; Barbosa, p. 316, b, 317, a, 323, a ; Empoli, p. 80; Sommario, p. 334, b, 335, a, 336, a.

(٥٥٥) Roncinotto, p. 108, b ; Varthema, p. 167, a ; Roteiro, p. 100, 113 ; Crawfurd, Hist. of the Indian achipelago, III, 437 ; Wirsner, Gummi-Arten, p. 140.

(٥٥٦) Barbosa, p. 317, a; Garcia de Orto, l.c.

(٥٥٧) P. 315, 366.

(٥٥٨) Sommario, p. 325, 6 ; Roteiro, p. 116. ; Pegol. p. 56. ; Guicciardini, Opere inedite, VI, 222 ; Sernigi, p. 120, a.

ولما كان صمغ لك مرتابان ينافس الانتاج المحلي (٥٥٩) ، كما كان أهالي كجرات يشغلون مكان الصدارة في كمباى ، فانهم يرسلون سفنهم طلباً لصمغ اللك من مرتابان (٥٦٠) • والثابت أن صمغ اللك الذى تنتجه الهند الصينية يصل الى أوروبا عن طريق قاليقوط وكمباى •

وقبل أن نختم هذا الموضوع ، نبين أن البعض يخلط أحيانا بين اللكا lacca (صمغ اللك) وبين الجرانا graana (بذر القرمز) ، فمثلا ، اللكا دى رومانيا lacca di Romania (صمغ اللك من اليونان) لا يمكن انتاجه الا بواسـطة الكوكس ايليسز Coccus Ilicis (قملة القرمز) ، وليس الكوكس لاكا Coccus Lacca

وعن استعمال صمغ اللك ، نكتفى بالقول بأنه يستعمل فى صناعات الصباغة ، والصقل (٥٦١) ، وفى الطب (٥٦٢) •

النيلج (النيلة) Tndigo

عرفت العصور القديمة مادة الصباغة التى تستخرج من نباتات من جنس الانديجوفيرا Indigofera ، وأطلقوا عليها اسما مشتقا من اسم البلد الذى ينتجها • وفى العصور الوسطى كانت بغداد هى السوق الكبيرة للنيلج • ومن بين صفات النيلج ، كانت جودة نيلج بغداد هى الأكثر ترددا فى الكتب التى يستخدمها التجار ، والمؤلفات الخاصة بالتجارة والجمارك فى ذلك العصر (٥٦٣) ، وأوصـت بهـذه المادة بعض الكتب الخاصة بالفنون والحرف لأنها تحتوى على لون أزرق أكثر مما تحتوى عليه مواد صباغية أخرى (٥٦٤) • وليس هناك أى دليل على أن النيلج

---

(٥٥٩) Barbosa, p. 323, a.

(٥٦٠) Sommario, p. 335, a.

(٥٦١) Lib. divers. art. Montp., lib. I. cap. 0, p. 754.

(٥٦٢) Dialacca. Locktinctur, dans flüchiger, Nordlinger Register, p. 12.

(٥٦٣) Pegol, p. 15, 65, 73, 211, 296, 308, 371 ; Uzz., p. 21, 53, 80, 111, 114 ; Pasi, p. 9, a, 79, a, 88, b, etc. ; Bonaini, State, Pis., II, 1116 ; III, 104, 113, 434, 436, 592 ; Archiv. stor. ital., 3e série, XII, 2, p. 237; Capmany, Mem., II, append ; p. 73.

(٥٦٤) Liber divers. art. Montpell., p. 744, 750 ; 769 ; Cennin, trad. Ilg, chap. 19, 47, 61 ; Merrifield, Orig. treatie , p. 87, 273, 275.

الذى يباع فى بغداد كان من انتاج مجاورات هذه المدينة ، بل هناك شك فى ذلك . غير أن من السلع التى تستورد فى بغداد فى وقتنا الحاضر ، لتبين نيلج الهند (٥٦٥) . ولا مانع من الافتراض بأن الأمر كان كذلك فى الزمان الماضى ، نظرا لسهولة المواصلات بين هذه السوق وبين الهند عن طريق الخليج الفارسى ، ومن ثم فان الهند كانت تصدر الى سوق بغداد جزءا على الأقل مما كان يباع بها باسم :

— Indaco di Baldacca, di Bacadetto, di Bagadeo, di Gabbadeo

أو بأسماء أخرى مشتقة من الاسم نفسه الذى حرفته اللهجات الشعبية . فى جودته ، فكان هـذا المحصـول من سلع التصدير المهمة . ويذكر الوسطى عن انتاج النيلج . ويذكر ماركو بولو بنوع خاص المزارع الكبرى التى رآها فى كويلون (كوالون) (٥٦٦) وجوزيرات (٥٦٧) ومجاورات كمباى (٥٦٨) . غير أن نبات النيلج ينمو أيضا فى بلاد أكثر قربا من بغداد ، فيزرع على نطاق واسع فى اقليم كابول : وكانت له شهرة كبيرة ، ويصدر منه كميات كثيرة (٥٦٩) . وفى جنوب شرقى فارس كان أهالى كرمان يزاولون بنشاط هذه الزراعة ، كما كان أهالى هرمز (المدينة القائمة على اليابسة) يحصلون فى مزارعهم على محصول من النيلج ممتاز فى جـودته ، فكان هذا المحصـول مع سـلع التصـدير المهمة . ويذكر المؤلفون العرب كثيرا نيلج الهند ونيلج كرمان فى آن واحد ، ولا يفرقون كثيرا من الاثنين ، الا أن نيلج الهند أكثر صفاء من الآخر (٥٧٠) . ثم لم تكن هناك أهمية لمعرفة المكان الحقيقى الذى يرد منه النيلج ، ذلك أنه يبدو واضحا أن منتجات الهند ، وكابولستان ، وكرمان تسلك كلها طريق بغداد ، ومنها تنتقل الى الغرب بتسمية واحدة : نيلج بغداد (٥٧١) . فاذا انتقلنا الى النيلج الوارد من جهات أخرى ، تبين لنا أنه لا وجه للمقارنة بين نيلج قبرص ونيلج بغداد (٥٧٢) ، فالاول أكثر خشونة ،

---

(٥٦٥) Ritter, Erdk., XI, 812, 817, 822.

(٥٦٦) P. 644.

(٥٦٧) P. 660 ; Nikitin, p. 21.

(٥٦٨) P. 666 ; Nikitin, p. 9 ; Conti, p. 49 ; Hieron de S. Stefano, p. 179, b ; De Gubernatis, p. 169.

(٥٦٩) Edrisi, I. 183 ; Ibn Haoukal (cit. dans Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 245).

(٥٧٠) Istachri, p. 80 ; Edrisi, I, 424; Ibn Beitar, II, 567 ; Avicenne, cit dans Beckmann, Beiträge zur Geschichte der Erfindunger, IV, p. 508.

(٥٧١) Pegol., p. 12.

(٥٧٢) Le glossaire de l'Hist. de Chypre, par M. de Mas Latrie ; Pegol., p. 65.

وثمنه فى الأسواق أقل أربعة أضعاف من نيلج بغداد (٥٧٣) . ويمتدح الادريسى المزايا التى لا نظير لها للنيلج الذى يسميه نيلج واحات مصر العليا (٥٧٤) ، ومع ذلك يعتبر انتاج مصر من هذا النوع أقل جودة من نيلج الهند (٥٧٥) ورغم ذلك فان زراعة النيلج كانت متقدمة هناك كثيرا : بل ان ذلك كان من الخصائص التى تسترعى انتباه المسافرين الغربيين (٥٧٦) . وفى وسعنا أن نذكر أيضا فى هذا الخصوص شمال افريقيا (٥٧٧) ، واسبانيا (٥٧٨) ، وصقلية (٥٧٩) ، غير أن هذه البلاد تقع خارج الدائرة التى تشملها دراستنا هذه . وختاما لهذا البحث عن أنواع النيلج الشائعة فى تجارة العصور الوسطى ، يبقى لى أن أذكر : l'induco (saccafe, sacheze), l'indaco socafe del golfo الذى يبدو لى أنه هو نفسه السابق ذكره ، باسم آخر . وأخيرا : l'indico rifanti ، واعترف اننى لم أستطع أن أعرف موطنه ، ولو بالتقريب (٥٨٠) .

ولمعرفة الآونة التى بدأت فيها التجارة تنشر النيلج فى العالم كله ، يتعين الرجوع الى أصول العصور القديمة ، ومع ذلك فلكى يشيع تداول النيلج فى أوروبا ، كان لابد على أقل تقدير من ظهور الدافع الجديد الذى أحدثته الحروب الصليبية للصلات التجارية بين الشرق والغرب (٥٨١) . وترجع أقدم الوثائق التى تذكر النيلج فى العصور الوسطى الى القرن الثانى عشر ، وتنتمى الى ايطاليا (جنوة ، فيرارى) (٥٨٢) . ويتبين بالتالى ظهور النيلج فى فرنسا عام ١٢٢٨ فى قائمة من السلع المفروض عليها رسوم جمركية فى مرسيليا (٥٨٣) ، وفى انجلترا عام ١٢٧٤ على

(٥٧٣) Pegol. p. 371, 296.

(٥٧٤) I. 122 et s.

(٥٧٥) Abdallatif, éd. de Sacy, p. 36.

(٥٧٦) Arnold, Lubec., éd. Pertz, XXI, p. 238 ; Sigoli, p. 171.

(٥٧٧) Bonaini, State. Pis., III, 104, 113, 434.

(٥٧٨) ابن العوام ، جزءان ، ١ ، ص ٢٩٧ وما يليها .

(٥٧٩) Huilland-Bréholles, III t. dopl. Friderici III, vol. V, p. 571.

(٥٨٠) Pegol. p. 296, 113 ; Uzz., p. 21, 53, 80, 111, 114 ; Capmany II, app. p. 73 ; Bonaini, l.c., III, 592; Petit Thalamus de Montpelier p. 237.

(٥٨١) حتى نهاية الدويلات اللاتينية فى سوريا ، كانت بيروت سوقا للنيلج : Taf et Thom., II, 233.

(٥٨٢) Lib. jur., I, 71 et s. ; Murat., Antiq., II, 894.

(٥٨٣) Méry et Guindon I, 347, Bourquelot, p. 291.

فاتورة (٥٨٤) ، وفى زمن أقرب الى عصرنا الحاضر ، وجدت طريقة لاستخراج لون أزرق جميل من البستل Pastel ، ولم يتردد المخترع فى أن ينسب لهذا المنتج صفة الـ indicum ، ولو أن النيلج لا يدخل فى تركيبه (٥٨٥) .

العـــاج Ivoire

هل كان العاج الذى يرد الى الغرب ابان العصـور الوسطى يأتى معظمه من الهند أو من أفريقيا ؟ انها لمشكلة يحسن ايجاد حل لها ، ولو أن كتب التجارة فى ذلك العصر لا تزودنا بأية معلومات فى هذا الخصوص . ويذكر بيجولوتى العديد من الأسواق التى يمكن الحصول منها على هذه المادة : فمنها على سبيل المثال الاسكندرية ، وعكا وفاماجوستا (٥٨٦) . على أنه لا يوجد فى هذا البيان أى دليل يثبت صحة ما ورد فيه من أماكن . ويشير الادريسى الى عدن التى رأى فيها العاج ، ولكن هذه السوق تختص بالتجارة العابرة ، تتلقى العاج من أفريقيا كما تتلقاها من الهند . ويتحدث الاصطخرى فى ذلك عن سيراف : فالواقع أنه لابد أن يصلها عاج من الهند . ومع ذلك ينبغى الا ننسى أن هناك حركة تجارية نشيطة تربط الميناء بالساحل الشرقى الافريقى (٥٨٧) ، ومن ثم فان منتجات هذا البلد لابد أن تكون موجودة بوفرة فى هذا الميناء (٥٨٨) . على أن ثمة معلومة تقطع فى هذه المسألة ، يؤيدها ثلاثة من المؤلفين الذين كتبوا فى عصور مختلفة : ذلك أن الهند لم تكن ابدا مكتفية بما عندها ، فكانت مضطرة دائما لأن تستورد عاجا من أثيوبيـا ، من أجل استهلاكهـــا الخاص (٥٨٩) . والواقع أن العاج أكثر وفرة فى اثيوبيا منه فى الهند . والمعروف أن الفيل الأفريقى له أنياب أطول وأثقل بكثير من أنياب الفيل الهندى (٥٩٠) ، وأن الأنثى تفوق الذكر من هذه الناحية ، ومن ثم فان

---

(٥٨٤) Cennini, trad. Ilg, p. 157.

(٥٨٥) Segreto per colori (XV siècle), dans Merrifield, Orig. treaties, p. 413. et s.

(٥٨٦) P. 49, 56, 65 ; les Assises de Jérus., II, 175 ; le Liber Plejiorum, p. 116.

(٥٨٧) Maçoudi, III, p. 6.

(٥٨٨) Edrisi, I, 51 ; Is tachri, p. 74.

(٥٨٩) Cosmas, Indicopl., éd. Montfaucon, p. 339 ; Maçoudi, III, 8 ; Garcia de Orto, p. 166.

(٥٩٠) Cosmas, l.c.

باستيلاء الصياد على واحد من هذه الحيوانات يأتيه بربح وفير . وعلى العكس من ذلك فى الهند حيث يؤدى الفيل المستأنس خدمات منوعة ، ومن ثم يلقى رعاية وعناية ، فهو بنوع ما حيوان مقدس ، لا يصاد ، ويترك حتى يموت موتا طبيعيا . ويعطى عاجا أقل بكثير من عاج نظيره الافريقى . ولما كان الهنود يصنعون من العاج أشياء كثيرة لاستعمالهم الخاص (٥٩١) . فانهم يلجأون الى أثيوبيا للحصول على العاج . ومن جهة أخرى كان الصينيون يستهلكون قدرا هائلا من العاج (٥٩٢) ، ولما لم يكن فى مقدورهم أن يتزودوا به من الهند ، فانهم يحصلون عليه من المصدر نفسه (أثيوبيا) . وفى عصر المسعودى كان الطلب على العاج شديدا فى هذين البلدين فتسبب ذلك فى ندرة هذه المادة فى البلاد الاسلامية . وعلى هذا تكون الاجابة عن السؤال الذى طرحناه بعاليه نابعة من الظروف نفسها : فالغرب لم يكن فى وسعه الا بصفة استثنائية أن يحصل على عاج من الهند (٥٩٣) لأن انتاج الهند منه غير كاف لاستهلاك الغرب ، ومن ثم فان القسم الأكبر من العاج الذى يرد الى أوروبا كان يأتى من الساحل الشرقى الأفريقى . ويتحدث ماركو بولو بدهشة ــ دون أن يزور بنفسه هذه البقاع ــ عن الكميات الهائلة من العاج التى تتكدس بنوع خاص فى أسواق زنجبار ، ومدغشقر . ويذكر فارتيما Varthema زيلع Zeilah على الساحل ، فى مواجهة عدن على أنها من أكبر أسواق العاج (٥٩٤) .

وفى العصور الوسطى ، كان يصنع فى أوروبا من العاج أشياء كثيرة (٥٩٥) ، كالأمشاط (٥٩٦) ، ومقابض السكاكين (٥٩٧) وجلود الكتب الفاخرة ، وزخارف الكنائس (٥٩٨) ، وغير ذلك . وكان يعطى بمثابة دواء باسم Spedio di Liofante (٥٩٩) رماد أعظم أو أنياب الفيل المحروقة .

---

(٥٩١) Garcia de Orto, l.c. ; Maçoudi, l.c.

(٥٩٢) Maçoudi, l.c.

(٥٩٣) M. Polo, p. 85.

(٥٩٤) M. Polo, p. 677, 686 ; Ramus., I, 155, a.

(٥٩٥) Nicc. da Poggibonsi, (II, 73).

(٥٩٦) M. Dümmler : Formulaire re Salomon, III, éveque de Constance, p. 38.

(٥٩٧) Boileau, Réglements, desarts et méitiers de Paris, p. 155.

(٥٩٨) Boileau, ibid et p. 158.

(٥٩٩) Pegol., p. 207 ; Uzz. p. 24, 53, 192 ; Cf. Constantin. Ap., Opp., I, 370 ; Platearius circa instans, p. 250.

اللادن Ladanum

النباتات من الفصيلة سيستس Cistus ، ومنها سيستس كريتكوس Cistus creticus L. الذى ينمو فى جنوب أوروبا ، وعلى السواحل الغربية لآسيا ، تنتج مادة لزجة ذات لون داكن (٦٠٠) ، وكانت فيما مضى ، وبخاصة فى العصور الوسطى سلعة تجارية يستوردها الغرب (٦٠١) ، أما الآن فانها لم تعد معروفة الا فى الشرق الأدنى · يحكى بيجولوتى ، وبازى أنها تجلب من جزيرة قبرص · ويقول ابن سينا ان راتنج اللادن الوارد من هناك هو الأفضل (٦٠٢) ، الا أنه من حيث وفرة الانتاج ، كان لكانديا المرتبة الأولى ، على الأقل فى الفترات اللاحقة لهؤلاء الكتاب (٦٠٣)· ويزعم السـيد انجر M. Unger أن اللادن لا يجمع الا فى هاتين الجزيرتين (٦٠٤) · ولست أعارضه ان كان يقصد بذلك العصر الحاضر ، ولكن اذا كان بيانه العام هذا يشمل العصور الوسطى ، فلى أن أذكر له فقرة مما كتبه شهاب الدين ، يقول فيها هذا الجغرافى العربى المشهور ان الراتنج المشار اليه يجمع فى منطقة بآسيا الصغرى يسميها « أكبرا » Akbara ، ومنها يصـدر أكبر قدر من هـذا المحصـول الى البلاد المسيحية (٦٠٥) · وبمقاربة هذه الفقرة بفقرة أخرى لنفس الجغرافى (ص ٣٣٨) ، ومقابلة الفقرتين بوصف لرحلات معاصره ابن بطوطة (٦٠٦)، نستنتج أن « أكبرا » هذه لم تكن سوى « بلى كسرى » Bali Kesri وهى موضع أجتازه ابن بطوطة عند ذهابه الى برجام Pergame (برغمة Pergamah عند بروسة (٦٠٧) التى تنسب اليها الخرائط الحديثة بعض الأهمية ·

---

(٦٠٠) M. Unger et M. Kotschy (p. 393 et s .) ; Belon, Observations, p. 15 ; Tournefort, p. 29 et s. ; Sieber, Reise nach Kreta, II, 65-68.

(٦٠١) Pegol. p. 4, 17, 56, 65, 99 ets. ; Pasi, p. 141, b.

(٦٠٢) Canon, lib. II, éd. Plempius, pfl 176 ; Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 497, 535.

(٦٠٣) Unger et Kotschy, op. cit., p. 406 et s. ; Belon, l.c. ; Tournefort, l.c. et p. 35.

(٦٠٤) Op. cit., p. 409.

(٦٠٥) Not. et extr., XIII, p. 365 et s.

(٦٠٦) Les notes de M. Defrémery dans les Nouvelles annales des

(٦٠٧) Les notes de M. Defrémery dan: les Nouvelles annales des voyages, 1815, II, 21 et s.

وكان راتنج اللادن يستعمل فيما مضى فى الطب ، مثلا فى تركيب « اللزقة » (٦٠٨) ، كما يستعمل فى تحنيط الجثث (٦٠٩) ٠

الكتـــان Lin

كانت أوروبا تنتج ما يكفى من الكتان ، فلا تحتاج الى طلب هذه المادة من جهات أخرى من العالم ٠ ومع ذلك ، ولما لم يكن الكم هو كل شىء ، فانها لم يسعها الاستغناء عن كتان مصر الذى لم يكن له نظير فى أى مكان آخـر (٦١٠) ٠ وينمـو الكتان بوفـرة على طـــول نهـر النيـــل ، أعلى القـاهرة (٦١١) ، وعلى فـروع النهـر على سـاحل البحر ، وداخـل الدلتا (٦١٢) ٠ وكان جزء كبير من المحصول يستهلك فى البلد نفسه . فقد كان به عدد كبير من ورش النسيج التى يصنع بها بنوع خاص أقمشة رفيعة (٦١٣) ٠ ويحب الأهالى ، رجالا ونساء الملابس الكتانية (٦١٤) ٠ ومع ذلك كان الكتان الخام يتيح مجالا لحركة تجارية ضخمة ، فيصدر من دمياط ، وبخاصة من الاسكندرية (٦١٥) الى شمال افريقيا ، وجزيرة قبرص ، والقسطنطينية ، وايطاليا ، واسبانيا (٦١٦) ٠

زهرة جوزة الطيب ، أو زهرة البسباسة Macis

(انظر جوز الطيب Noix muscade)

الترنجبين ، الترنجين ، عسل الندى Manne

نطالع على خريطة فرامورو Fra Mauro (٦١٧) ، بالقرب من مكة ، شرحا يقول ان الترنجين يوجد فى شبه الجزيرة العربية ، فى كثير من

(٦٠٨) Henkel, Waarenlexicon, p. 210.

(٦٠٩) Comptes de l'argenterie des rois de France, publ. par Do p. 19.

(٦١٠) Sanut, p. 24 ; Journ. asiat., 5e série, XVII, 27.

(٦١١) Ibn Batouta, I, 95.

(٦١٢) Edrisi, I, 316, 317 ; Merrasid-el-Itthila, cit. Aboulféda, éd. Reinaud, II, I, p. 141 ; Piloti, p. 347 ; Tafur, p. 77.

(٦١٣) Edrisi, I, 320

(٦١٤) Frescobalri, p. 45, 46 ; Piloti, p. 351.

(٦١٥) Pegol. p. 16, 56, 317 ; Piloti, p. 351 ; Rôle des douanes des Me sine, l.c., p. 77.

(٦١٦) Ibn Batouta, l.c.; Pegol., l.c. ; Uzz. p. 80 Banaini, Stat. Pis., III, 105 ; Archiv. stor. ital., 3e série, XII, 2 part., p. 124 ; Capmany, II, app., p. 78.

(٦١٧) Er. Zurla, p. 48.

أنحائها ، وأنه أحسن ترنجبين فى العالم ، وأن الناس يفضلون ما يسقط منه على أوراق النباتات على ما يسقط على الحجارة ، وأن الترنجبين الذى يجمع فى البلد نفســه (فى شبه الجزيرة العربية ، أو فى مكة) يسمى مشبينا مكينـا Mechina ·وتنـوه آخـر الكلمـات على الخريطة بأن هذه مادة متداولة فى التجارة · ولم تسفر الأبحاث التى أجريت فى العصر الحديث عن اثبات أن الترنجبين متوفر بهذا القدر فى بلاد العرب · ونجد فيها الهاجى كاميلورم Alhagi Camelorum ، وسوف نرى أن فى فارس يتضح من هذا النبات نوع من الترنجبين ، ولكن لا أعرف ما اذا كان هذا النبات ينتج أيضا فى بلاد العرب هذا العصير العسلى القوام دون اجراء عملية صناعية · وثمة نبات آخر يمكن أن ينتج الترنجبين ، ذلك هو تماريكس جاليكا Tamarix gallica المنتشر فى بلاد العرب ، ولكنه لا يعطى ترنجبينا الا فى بعض وديان جبل سيناء ، وبكميات محدودة · وفى عصرنا الحاضر يحمل بدو سيناء محصـولهم من الترنجبين الى ســوق القاهرة (٦١٨) ، فليس من المستحيل اذن فى العصور الوسطى أن يرسل ترنجبين سيناء هذا عن طريق مكة الى الاسكندرية ، ومنها الى الغرب(٦١٩)· ونجد فى بعض المؤلفات اشارة الى ترنجبين سوريا (٦٢٠) · والراجح أننا هنا بازاء نوع من الترنجبين يمر بســوريا مرورا عابرا : انه الترنجبين Terendjebin أو العصارة العسلية التى تنضح من الالهاجى كاميلورم الذى لم يزل يجمع اليوم فى فارس ، وبنوع خاص فى خراسان ، فى مجاورات بخارى ، ومنها يصدر تجاريا (٦٢١) ·

وكان هذا الترنجبين يجمع قبلا فى العصور الوسطى ، وهذه حقيقة لا مجال للشك فيها ، وكان الأطباء العرب يعرفونه ويعرفون مصدره(٦٢٢)· كان يباع فى أسواق سمرقند ، وتبريز ، والسلطانية(٦٢٣) ، كما كان فى مجاورات هذه المدن (٦٢٤) · ويؤكد جستيل Ghistele أن العطارين الغربيين يســتوردونه من فارس (٦٢٥) : ويرجح أنه يمـر بحـلب

---

(٦١٨) M. Ritter, Endk, XIV, 665 et ss. ; Flückiger, Pharmakognosie des Pflanzenreichs, p. 13 et ss.

(٦١٩) Ghistele (p. 311).

(٦٢٠) Pasi, p. 90, b, 22, a, 115, b, 187, b, 189, a 190, b, 192, a. 193, a ; Pegolotti, p. 18, 57, 65, 99, etc.

(٦٢١) Polak, Persien, II, 278, 276.

(٦٢٢) Avicenne (éd. Gildemeister, p. 174 et s). Ibn Beitar (I, 207).

(٦٢٣) Clavijo, p. 113, 191 ; Ghistele, p. 311.

(٦٢٤) Edrisi, II, 200 ; Ghistel, op. cit., ; Tournefort, Voyage, I, 124.

(٦٢٥) P. 217.

أو اللاذقية · ولما كان التجار لا يتوغلون كثيرا فى داخل البلد ، فانهم كانوا يعتبرونه من انتاج ســوريا ·

وفى الوقت الحاضر يستورد صيادلة بلادنا الترنجين من صقلية ، ويستخلصونه من دردار الترنجين Fraxinus Ornus · على أنه لا يوجد دليل أكيد على أن صقلية كانت تنتج فى العصور الوسطى ، وقد يخطىء المرء اذا أرجع الى عصر الســـيادة العربيــة توطين دردار الترنجين فى الجزيرة (٥٢٦) ·

المصطكى Mastic

النبات الذى يسيل من جذعه وأعضائه الراتنج المسمى المصطكى هو ضرب من « المصطكى الصغيرة » (بستاشيا لنتسكس) Pistacia Lentiscus ويتميز عن سائر أنواع هذه الفصيلة بطبيعته الشجرية · والبستاشيا لنتسكس ينمو بوفرة فى كل البلاد التى تحيط بالبحر المتوسط · غير أن النوع الذى ينتج المصطكى لا يأتى الا من الأرخبيل اليونانى (٦٢٧) ، ولا يلقى عناية زراعية ، واستغلالا منظما الا فى جزيرة خيوس (٦٢٨) · ومنذ أقدم الأزمان لم يعرف الشرق جزيرة خيوس الا أنها «جزيرة المصطكى» · وفى العصور الوسطى كان المسافرون الذين يمرون بالأرخبيل (بحر ايجه) لا يفوتهم أن يتوقفوا بالجزيرة ، ويذكروا فى رواياتهم هذا المحصول الفريد فى نوعه (٦٢٩) · وبانعام النظر فى هذا الخصوص نلاحظ ، كما لاحظ من قبل بوندلمونتى Buondelmonti ان زراعة المصطكى مركزة فى الجنوب، والجنوب الغربى من القسم المنخفض بالجزيرة (٦٣٠) الذى يحمل الطرف

---

(٦٢٦) Hanbury, Science papers, p. 355 et ss. ; Flückiger and Hangury, Pharmacographia, 2 éd., 409 et ss.

(٦٢٧) Heldreich, Nutzpflanzen Griechenlands (Athènes, 1862), p. 61 ; M.M. Unger et floischy (Die Insel Cypern, p. 421) ; Flückiger, Documente zur Geschichte der Pharmacic, Halle, 1876, p. 31, 41, 65), Istachri, (p. 43)).

(٦٢٨) Unger, l.c., p. 419 et ss. ; Fustel de Coulanges, Monographie de l'ile de Chio, dans le: Archives des missions scientifiques, V, p. 486 et ss.

(٦٢٩) Daniel, éd. Nordoff, p. 7 : Jord. Catal., p. 64; Wilh. V. Boldensele, p. 240, Ladolf von Suthem, p. 23 ; Clavijo, p. 42; Buondelmonti, p. 118 et s ; Ghistele, p. 338 ; Tafur, p. 134 et s.

(٦٣٠) M. Unger (op. cit).

الجنوبي منها اسما ذا دلالة ، وهو كابو ماستيكو Capo Mastico ٠ ويحصل اصطناعيا على سيلان الراتنج باجراء حزات على جذع الشجرة ، وكان الرحالة وعلماء الطبيعة فى العصور الوسطى يعرفون هذه الطريقة ٠ وفى التجارة تفضل المصطكي المتجمدة بشكل جلطات على الشجرة نفسها على المصطكي المتساقطة على الأرض ، رغم أن الأهالي يعتنـون بكنس الأرض وبسط أقمشـة تحت الغصــون لمنـع اختــلاط المــادة الثمينة بأية قاذورات (٦٣١) ٠

والمعروف أن المصطكي تستعمل في صنع منجزات عطرية ، وتركيب بعض أنواع « الورنيش » ، وكان قدامى الأطباء ينسبون اليها خصائص علاجية ٠ لذلك لم يكن أهالي خيوس يجدون أية مشقة في تصريف محصول جزيرتهم الرئيسي ، ولا يصدرون الى الغرب الا جزءا قليلا منه ، ويذهب القسم الاكبر الى الشرق ٠ ويقول بيجولوتي ان أسـواق المصطكي هي الاسكندرية ودمشق ، ورأى في الاسكندرية صندوق المصطكي يباع بسعر مائة دوكا ٠ وكانت سجلات « الماهون » الجنوى الذى امتلك الجزيرة أمدا طويلا تعرفنا بالاتجاهات التي تسلكها رسالات المصطكي ٠ وتجد في ذلك العصر ان رودس ، وقبرص ، ومصر ، وسوريا ، وأرمينيا ، وآســيا الصغرى ، واليونان لم تكن تستهلك سوى ثلث المحصـول (٦٣٢) ، ولا شك في أن المصطكي كانت من العناصر المفضلة لدى الشرقيين في تركيب اللبان الذى يمضغونه ، والعطور التي يحرقونها ٠

الموميـــا Mumia

يطلق اسم مومياى Moumiay أو موميناهى Mouminahi في فارس على نوع من القطران المعدني pisasphalte الذى اشتهر بأن له خصائص علاجية (٦٣٣) ، وكان أحسن نوع منه يستخرج من غار يرجع أهالي البلد

---

(٦٣١) Platearius, Circa instans, p. ccxli ; Aboulf., trad. Reinaud, I., 1, p. 263 ; Wilh. V. Boldensele, p. 240.

(٦٣٢) Piloti, p. 375 ; Hopf. art. Gistiniani, dans Ersch et Gruber, p. 333; Pegol. p. 17, 48, 56, 64, etc.

(٦٣٣) M. Reichert, dans le Deutsche Archiv. für Geschichte der Medicin und medicinischen Geographie, III, 140 et ss. Honigberger, Früchte des Morgenlandes, p. 407 ; Polak, Persien, II, 274 et s.

اكتشافه الى عصر الملك فريدون Féridoun الأسطورى (٦٣٤) ، ويقع هذا الكهف على مسيرة عدة أيام الى الجنوب الشرقى من شيراز ، فى مجاورات داراب (دار ابجرد) Darab, Darabgerd ، وكان المحصول يعتبر فى كل الأزمان ملكا للعاهل ، ومن ثم كان الغار خاضعا لرقابة شديدة (٦٣٥) • وكان للأمراء وحدهم حق التصرف فى هذه المادة الثمينة ، ومن ثم لا تدخل فى مجال التجارة الا بتصريح منهم • وفى عصر الادريسى ، كان يباع من هذه المادة فى الخارج • وكان هناك فضلا عن ذلك نوع من هذا القطران اقل جودة فى أنحاء أخرى من فارس حيث يباح لكل انسان أن يجمع منه ما يشاء دون أن يدفع ضريبة للملك ، وكان من الجائز الاتجار فى هذا النوع ، ويحصل به التاجر دائما على ربح طيب (٦٣٦) •

ونصادف أحيانا بين السلع التجارية فى العصور الوسطى اسم موتميا ، موميا Munmia, Mummia(٦٣٧) ، لعله كان يطلق على تلك المادة القارية (الزفتية) السوداء ، وعلى ذلك النوع من الزيت المعدنى ، ويصفها كيمفر Kcempfer بأنها succus bituminosus ومع ذلك لم يذكر بيجولوتى سوى سوق واحدة تباع فيها هذه المادة ، فلم يكن من المستحيل أنه يقصد شيئا آخر • ويتحدث عبد اللطيف(٦٣٨) فى وصفه مصر عن أشخاص يمارسون التنقيب فى المقابر القديمة ، فيجدون فيها الكثير من الأشياء الثمينة ، وعلى الأقل بقايا أقمشة وأخشاب يمكن الاستفادة منها ، وكانوا يجمعون من داخل الجماجم ، ومواضع الأحشاء فى الجثث مادة سوداء ، قارية ، وهى من فضالة التوابل والعطور المستعملة فى التحنيط ، ويبيعونها باسم المومياء ، ويضيف المؤلف أن هذه المومياء تختلف عن الموميا المعدنية الطبيعية ، ويمكن أن تحل محلها • وفى عام ١٤٢٤ أجرى فى القاهرة تحقيق مع أشخاص يمارسون هذه المهنة المشبوهة على نطاق واسع ، فيحصلون على هذه المادة « الموميا » بحرق جثث ترجع الى عصور

---

(٦٣٤) Seligmann, Uber drei höchst seltene persische Handschriften (Vienne, 1833), p. 36-38; Yaqout, p. 227.

(٦٣٥) Istachri, p. 74 ; Edrisi, I, 395 et s. ; Yakout, l.c. ; Aboulfeda, Géogr., II, 2, p. 100 ; Chems-eddin, p. 97 ; Rachid-eddin, ed. Quatremère, p. 442 ; Charmony, introd. à l'éd. du Chéref-nameh, I, 1, p 119 et s. ; Ritter, Asien, VIII, 737, 761 ; Spiegel, Eranische Alterth., I, 88.

(٦٣٦) Koempfer, l.c. ; Polak, l.c. ; Charmony, l.c. p. 215.

(٦٣٧) Pegol. p. 57, 181, 297 ; Bonaini, Stat. Pis., III, 438.

(٦٣٨) Ed. de Sacy, p. 197 et ss. ; Chems-eddin, (p. 97).

موغلة في القدم ، ويبيعونها للفرنجة الذين يدفعون خمسة وعشرين ريالا ثمنا للقنطار الواحد منها (٦٣٩) •

وكان الاطباء العرب ، ومن يحاكونهم في الغرب يساوون بين الموميا المعدنية والموميا المستخرجة من جثث قدماء المصريين ، وينسبون اليها نفس الخصائص العلاجية (٦٤٠) • ويبدو أن الخرافات أسهمت في الحفاظ على غلاء هذه المادة البشعة المستخرجة من الجثث • وعلى أية حال فانها تشبه كثيرا المحصول الطبيعي بحيث يصعب التفرقة بينهما •

المســك Musc

العطر النافذ الذى تطلق عليه اسم المسك(٦٤١) ، أو بيسام Bisam هو كما يعرف الجميع مادة حيوانية يفرزها أيل المسك الذكر (موسكس موسكيفروس) Moschus moschiferus ، ويحتويه انتفاخ (جيب) أشعر قريب من السدة • وفي القرن السادس يحكي كوسماس Cosmas (٦٤٢) في أخبار رحلاته أن الناس يصيدون هذا الحيوان بقصد الحصول من جسمه على الجيب الذى يحتوى على هذا العطر النفيس •

وثمة فصل طويل عن المسك ، مشترك في كتابات أبي زيد حسن السيرافي والمسـعودى (٦٤٣) يحتـوى على وصف تفصيلي لصيد هـذا الحيوان • يقول هذان الكاتبان انه عندما يؤخذ المسك من جسم الحيوان لا يكون العطر بعد يانعا ، اذ يكون كريه الرائحة وقتئذ ، ولا تزول هذه الرائحة الا بعد أن يجف تماما : ويكون العطر أحلى حين ينضج على جسم

---

(٦٣٩) Silvestre de Sacy (Chrestomathie arabe, II, 54), de la description de l'Egyptc de Makrisi.

(٦٤٠) Ibn Beitar, II, 537, 705 et ss. : trad. franç. III, 366 et ss. ; Avicenne, éd. Premp., p. 197 ; Cnstant. Afr., I, 372; Matth. Platearius, Gloss. in antidot. Nic., p. ccxlviii, verso ; id. Circa instans, p. ccxli, verso.

(٦٤١) Kühn, Moschi antiquitates, Lips. 1833 ; C.F. Heusinger, Meletemata quoedam de antiquitatibus castorei et mo chi, Marbourg 1852.

(٦٤٢) Ed. Monfaucon, p. 335.

(٦٤٣) Relat., I., 114 et ss. ; Maçoudi, I, 353 et ss.

الحيوان ، ويتخلص الحيوان منه بأن يحك جسمه على الحجارة (٦٤٤) ، وعلى هذا النحو تجف المادة فى الهواء الطلق • وهناك أشخاص يعرفون الأماكن التى يتردد عليها الحيوان ، فيذهبون اليها بحثا عن هذه المادة ، ويجمعونها • هذا النوع الممتاز قلما يصدر ، لأن الأمراء الوطنيين يصادرونه لاستعمالهم الشخصى • ويعيش أيل المسك فى منطقة واقعة بين التبت والصين • وعطر التبت يفوق دون شك فى جودته عطر الصين ، وذلك لسببين : أولا لأن الحيوان يجد على السفح التبتى لغذائه نباتات عطرية (٦٤٥) لا وجود لها فى الصين ، وثانيا لأن أهالى التبت يتركون المسك فى الجيب الذى يتكون فيه ، ويبيعونه هكذا ، فى حين أن الصينيين يبدأون باستخراج المسك ، وغشه • ويعطينا الفصل الذى لخصناه فكرة كاملة تقريبا عن المعلومات التى كانت عند العرب بخصوص مصدر المسك • أما مطالعة ما كتبه كتاب آخرون عالجوا الموضوع نفسه فانها لا تفيد الا فى تعيين حدود المناطق التى يعيش فيها أيل المسك بشىء من التفصيل • يقول هؤلاء أن أيل المسك يعيش أولا فى التبت والصين ، كما ذكرنا بعاليه ، ثم فى بقاع فى وسط آسيا يسكنها القرغيز Kérghizes (٦٤٦) ، وفى الهند الصينية ، ومملكة سودجا Moudja التى هى على الأرجح أركا Arakan (٦٤٧) وأخيرا فى جزر سيلان ، وجاوة ، واليابان (٦٤٨) ، ولكنهم أخطأوا بلا شك فى ذكرهم البلد الأخير • أما المسك الذى وصفه كتاب ذلك العصر بأنه « مسك الهند » (٦٤٩) فانه لابد يرد اما من الهند الصينية أو من المناطق الجبلية التى تمثل الحد الأقصى الشمالى للهند •

وكان الفرس والعرب ، وهم من كبار هواة العطور ، كما يدل على ذلك ما لا حصر له من قصائد شعرائهم (٦٥٠) ، كانوا يستوردونه بطرق

---

(٦٤٤) Edrisi, I, 189; Sim. Seth, éd. Bogd., p. 70 ; éd. Langkavel, p. 66 et s. ; Kaswini, ér. Heusinger, op. cit., p. 20.

(٦٤٥) Rulin, considerations d'histoire naturelle à propos des relat., II, 74 ; Flückiger, l.c., p. 47; Heusinger, l.c., p. 22, 28. ; Edri i., I, 189. 493 ; Kazwini ... Heusinger, p. 20.

(٦٤٦) Abou Dolef, p. 12, 15 ; Isstachri, p. 124, 126; Avicenne, éd. Plemp., p. 188; Edrisi, II, 224.

(٦٤٧) Relat., I, 31 ; Maçondi, I, 389 ; Edrisi, I, 88 ; Lassen, Ind. Alterthumsk, I, 388 ; IV, 356 et s. ; MM. Reinaud (Relat., I, cvi) et Dulaurier (Journ. asiat., 4e série, VIII, 168).

(٦٤٨) Ibn Khordadbèh, p. 285, 294 ; Edrisi, I, 72 ; Kazwini, éd. Gildemeister, p. 195.

(٦٤٩) Avicenne, l.c. éd. Plempius ; Heusinger, p. 19, trad Gilde-mei ter Cf. Seth, De alim., éd. Langhavel, p. 66 et s.

(٦٥٠) Maçondi, I, 367.

متعددة · ومن الأسباب التى تجعل الأفضلية لمسك التبت على مسك الصين، هو أن الأخير لا يمكن وروده الا بطريق البحر ، ومن ثم يتلف أثنـاء العبور (٦٥١) : ولعل هذا يثبت أن مسك الصين كان يصدر الى الغرب عن طريق البحر وحده · وبخصوص مسك الهملايا أو وسط آسيا الذى ينحدر صوب البحر عن طريق حوض نهر الاندوس (السند) فان الرحلة البحرية أقصر بكثير (٦٥٢) · فالواقع أن الخليج الفـارسى غير بعيد عن نهـر الاندوس ، وهناك يفرغ المسك فى ميناء اسمه دارين Darin بجوار البحرين ، ومن ثم أطلق عليه اسم المسك الداريني (٦٥٣) · وفى عصر سابق ، كانت عدن تذكر على أنها سوق من أسواق المسك ، وتحظى بهذا الامتياز لأن المسافة ليست بعيدة بين نهر السند ومدخل البحر الأحمر (٦٥٤) · الا أن القسم الأكبر من المسك الذى يصل الى أقاليم آسيا الغربية كان على ما يبدو طرق القوافل وحدها · وكانت فارس تتلقاه من شمال آسيا عن طريق طلاس Talas (وهى مدينة واقعة بين بحر آرك وبحيرة بلخاش، شرقى أترار Itrar)) ، وخيوة Khiva (٦٥٥) ، أما مسك هضاب وسـط آسيا العالية فانه يمر بختن Khotan وتركستان (٦٥٦) · وينحدر مسك التبت فى بخـارى عن طريق أقاليـم وخـان Wakhan وبدخشان Badakchan (٦٥٧) · وأخـيرا فمن المؤكد أن مسـك الصـين لم يصـدر دائمـا بطـريق البحـر ، فلابد أن القوافل كانت تحمـل منه الشىء الكثير · فالأرمن (٦٥٨) ، على سبيل المثال كانوا يعرفون هذا العطر ، والثابت أنهم لم يكونوا يتلقونه عن طريق البحر · وقد وجـد كلافيجو Clavijo فى أسواق سمرقند ، كما وجد ابن بطوطة فى سوق طوروس (٦٥٩) مسك الصين الذى كان بالتأكيد مسك القوافل ·

---

(٦٥١) Relat., I, 115 ; Maçoudi, I, 353.

(٦٥٢) éd. Montf., p. 337.

(٦٥٣) Merassid al Tithila (extr. de Yakout) cité dans le Journ. asiat., 6 série, V, p. 511.

(٦٥٤) Ibn al wardi, p. 43.

(٦٥٥) M. Flückiger (Zur Geschichte des Moschus, p. 46).

(٦٥٦) Sprenger (iibd) et Isstachri, p. 124.

(٦٥٧) Isstachri, p. 124, 126 ; Ibn Haoukal, dans le Journal of the Bengal Society, XX, p. 165 ; Edrisi, I, 479, 483, 492.

(٦٥٨) Moïse de Khorène, Géographie, trad. Saint Martin, Mémoire sur l'Arménie, II, 377.

(٦٥٩) Clavijo, p. 191 ; Ibn Batouta, III, 130 ; Cf. Viggio d'un mercante che fu nella Persia, dans Ramusio, II, 83, b.

ويصل المسك الى سواحل البحر المتوسط بجميع الطرق التى ذكرناها آنفا • ويشير بيجولوتى الى وجوده فى سوق الاسكندرية (٦٦٠) • وقبل ذلك بزمن بعيد ، ظهر المسك فى تعريفة جمارك عكا (٦٦١) •

ومنذ القرنين السادس والسابع كان بعض الأطباء اليونانيين يوصون باستعمال المسك (٦٦٢) • وكان أطبـــاء مدرسة سالرنو يصفونه كثيرا لمرضاهم تشبها بالأطباء العرب (٦٦٣)•ومع ذلك فقلما نجده مذكورا ضمن السلع التجارية فى القرون الوسطى • ولا شك أن سعره كان مرتفعا جدا ، بحيث كان استعماله محدودا للغاية ، اللهم الا فى مجال الطب • وفى قائمة خزانة ملك فرنسا ، المحررة فى عام ١٤١٨ نجد علبة مسك فضية على شكل تفاحة (٦٦٤) ، وكان المسك من العناصر المستخدمة فى بلاط فرنسا لتعطير الأمراء (٦٦٥) •

ونادرا ما توغل الرحالة الغربيون الى البلاد التى يصدر منها المسك • ويقول بنيامين دى توديل Benjamin de Tudele (٦٦٦) ان المسك من منتجات التبت ، ولكنه عرف ذلك بالسماع فقط • ويستثنى من ذلك ماركو بولو الذى رأى بعينيه الحيوان الذى يفرز المسك ، وذلك فى كثير من أقاليم الصين ، وفى التبت ، وأعطى عنه وصفا غير دقيق : فهو يروى كيف يصاد الحيوان ، ويعرفنا باسمه بلغة مغولية guden ، ويقول ان المسك الذى يعتبر أحسن مسك فى العالم مسك سنجى Singuy ، أى ســـنتج فو Sining-fou ، وهى مدينـــة مجاورة لـــكوكو نور Koukou-Noor (٦٦٧) • ويقول المبشر جوردانس كاتالانى بعبارات عامة ان أمبراطورية الخان الأكبر (أى الصـــين) هى التى تنتج أحســـن المســـك (٦٦٨) •

---

(٦٦٠) P. 57 : "muschio".
(٦٦١) Assis de Jérus., II, 74.
(٦٦٢) Heusinger, op. cit., p. 20 et s., et Flückiger, op. cit., p. 38.
(٦٦٣) Constant. Afr., Opp., I, 354 ; Platearius, Circa instans, p. ccxlii, au verso ; Heusinger, l.c., p. 22.
(٦٦٤) Douet d'Arcq., Choix, II, 293.
(٦٦٥) Douet d'Arcq., Comptes de l'argenterie, p. 19 ; Investaire du mobilier de Charles V, éd. Labarte, p. 103, 218, 233, 295, 315, 356.
(٦٦٦) Ed. Asher, p. 119, 129.
(٦٦٧) Ed. Pauthier, p. 204, 269, 366, 375 et s., 385.
(٦٦٨) Jord. Catal., p. 59.

وفى العصر الذى وطد فيه البرتغاليون سيادتهم فى الهند ، كان جزء من المسك المرسل الى الغرب يصدر أولا عن طريق البحر الى ملقا ، ومنها يعاد تصديره الى الهند ، ثم الى الاسكندرية ، اما عن طريق عدن (٦٦٩) أو الخليج الفارسى وبيروت (٦٧٠) ، وجزء آخر يتخذ الطرق البرية انطلاقا من موطنه الأصلى حتى هرمز (٦٧١) • ومن جهة أخرى كان ميناءا بيجو Pégou ، وتنسـاريم Ténasserim يصـدران المسك من داخل الهنـد الصينية (٦٧٢) •

الاهليلج Myrobalans

الاهليلج ثمرة ذات نواة ، من جنس البرقوق ، كان فى العصـور الوسطى ، فجا (٦٧٣) ، أو مسكرا (٦٧٤) سلعة من السلع المستوردة أكثر شيوعا مما هو فى وقتنا الحاضر • وكان المعروف ، فى التجارة (٦٧٥) ، وفى حوانيت العطارين (٦٧٦) خمسة أنواع من الاهليلج • وانا لنجد هذه التفرقة فيما كتبه الأطباء أو علماء الطبيعة الشرقيون (٦٧٧) ، وكذا فى كتابات الغربيين الذين أتيح لهم دراسة منتجات الهند فى عهد السيادة البرتغالية • وها هو التقسيم الذى أجراه المؤلفون :

---

(٦٦٩) Corsali, p. 130, a ; Barbosa, p. 292, a. 310, b. 317, b, 320, b; Sommar., p. 337, a.

(٦٧٠) Gubernatis, Viaggiat. ital., p. 159, 160, 164.

(٦٧١) Barbosa, p. 294, a.

(٦٧٢) Roteiro, p. 111 et s. ; Massari, p. 28; Barbosa, p. 316. b, 317, a ; Sommar, p. 334, b, 336, a ; Federici, p. 395.

(٦٧٣) "Mirobalani crudi" ; Uzz, p. 22.

(٦٧٤) Mirobalani conditi, confetti, in conserva di Zucchero : Pegol., p. 134 et s., 181, 297, 301, 377; Uzz., p. 21, 54 ; Pasi, p. 9, a, 90, b, 93, a, 109, b, 115, b.

(٦٧٥) Pegol., p. 296, 297 ; Uzz., p. 19, 192; Pasi, p. 90, b ; Donaini, State, Pis., III 437 etc.

(٦٧٦) Flückiger, p. 7.

(٦٧٧) Abou Mansour Mowafik, trad. Seligmann, p. 22 et s., 45. ; Mohammed Hosen Chirazi, cité par M. Fleming dans les Asiat. researches, XI, 182 et s. Avicenne, Canon I, 2, ed. Plemp., p. 111 ; Iln Beitar, I, 78 et s., 407 ; II ; 572 ; trad. française, II, 393-397.

١ ـ ميروبالانى امبليتش Mirobelani emblici : ويطلق عليها المؤلفون الهنود القدامى فى الكثير من الأحيان اسم أمالاكا amalaca أو أمالا amala ، ويسميه العرب أمليج amledj ، وتشكل مجموعة متميزة ، لأن الشجرة التى تنتجها من الفصيلة الوسنية (أو الفوربيونية) وهى Phyllanthus emblica ، فى حين تنمو الأنواع الأخرى على أشجار فصيلة القسميات Combretaccées .

٢ ـ Mirobalani bellirici ، وبالعربية بليلج beliledj وهى ثمرة ال terminali bellirica Poxb (٦٧٨) .

٣ ـ ميروبالانى شيبولى Mirobalani chebuli (كيبولى ، كابلى ، شيبولى (Kebuli, cabuli, chieboli) ، وهو ثمرة التيرمينالبا شيبولا رينر Terminalia Chebula Retz

٤ ـ ميروبالانى ايندى Mirobalani indi وهو مماثل للأنواع السابقة ، ولكنه أكبر حجما بعض الشىء لأنه يجمع قبل أن يتم نضجه (٦٧٩) .

٥ ـ ميروبالانى ستيرينى Mirobalani citrini ، ويسمى كذلك لأن لونه أصفر ليمونى عندما يكون نيئا ، وأصفر ضارب الى الحمرة حينما يكون جافا ، ويختلف عنه النوعان السابقان بلونهما الداكن . ويبدو أن الشجرة التى تحمل الميروبالانى ستيرينى هى نوع من الترمينالبا شيبولا (٦٨٠) .

وتنمو أشجار الميروبالان (الاهايلج) أساسا فى الهند . وكولم فى الجنوب على ساحل ملبار هى أقصى موقع وتسمح لنا مصادر العصور الوسطى بأن نتقصى هذه الأشجار ، ومع ذلك فهى هناك نادرة (٦٨١) . وفى الشمال وجدت هذه الأشجار فى أفغانستان ، فى مجاورات كابول (٦٨٢) . ثم أنه لا جدوى من محاولة ايجاد علاقة اشتقاقية بين النعت « شيبولى » (أو كابلى) chebuli وبين اسم أحد الأنواع التى

---

(٦٧٨) Avicenne, l.c. p. 77 ; Ibn Awan, trad. Clément-Mullet, II, 2, p. 237; Devic, l.c., p. 64.

(٦٧٩) Ainslie, l.c., I, 237-239.

(٦٨٠) Ainslie, l.c. ; wight and walker-Arnott ; I, 313 ; Erne t Meyer, dans la Linnoea, XI, 576.

(٦٨١) Abou Dolef, p. 25.

(٦٨٢) Ibn Khordadbéh, p. 246 ; Abou Dolef, p. 22 ; Edrisi, I, 182 ; Yakout, p. 470 ; Chems-eddin, p. 246. Aboulféda (Géogr., II, 2, p. 285).

ذكرناها بعاليه وبين عاصمة أفغانستان (كابول) (٦٨٣) • ومن السلع التى كان اقليم خراسان ملتزما بتسليمها كل سنة لبلاط بغداد شحنة من الاهليلج زنتها رطلا (٦٨٤) • والنتيجة الطبيعية التى يمكن استخلاصها من هـذه المعلومة هى أن شـجرة الميروبالان كانت تنمـو فى هـذا الاقليم • ومع ذلك فمن المشكوك فيه أن شجرة غزيرة الانبات مثل هذه الشجرة قد تأقلمت فى هضبة صحراوية ذات مناخ شديد البرودة كهضبة خراسان • ومن الأرجح أن نرى فى هذه الحقيقة دليلا على وجود تيار استيراد كبير يتجه من الهند الى فارس متخذا الطريق التجارى الكبير ، طريق كابول وهرات Herat وهو تيار تجارى يستورد الثمرة التى تحدثنا عنها بنوع خاص • ونفس هذا المصدر الضرائبى ، الذى استقينا منه المعلومة السابق ذكرها يذكر لنا اقليم السند بانه مكلف بان يورد سنويا للبـلاط ١٥٠ رطلا من خشب الصبر • غير أن الثابت أن تربة هذا الاقليم لم يكن بها صبر بالمرة ، ولكن هذه المادة كانت موجودة بوفرة فى أسواق هذه البلد • الثابت اذن أن خلفاء بغداد لم يكتفوا بالزام الأقالم التابعة لهم بتوريد منتجاتهم الخاصة ، وانما كان على سكان خراسان أن يوفوا بالجزية المفروضة عليهم ، لا باحضار الاهليلج من غاباتهم أو حدائقهم، وانما بجمعه من أسـواقهم • وكانت أوروبا تسـتورد الاهليلج اللازم لاستهلاكها عن طريق عدن والاسكندرية (٦٨٥) ، وتستلم فقط ثمارا من الهند مجففة أو محفوظة (فى السكر أو الخل أو الدهن ، الخ) من موطنها ، بقصد تصديرها (٦٨٦) ، وتنمو أشجار الاهليلج كلها بلا نظام فى غابات سـاحل ملبـــار (٦٨٧) ، وبخاصـــة فى ضـــواحى قاليقوط (٦٨٨) وباتيكالا Batkoul ، على بعد خمسة وخمسين ميلا انجليزيا شمالى منجلـــور Mangalore (٦٨٩) وهى أقـــل وفـــرة فى كنـــانور Cananore (٦٩٠) وبوجه عام ، وعلى الأقل فى عهـد السيادة البرتغالية ،

---

(٦٨٣) Leclerc, éd. d'Ibn-Baitar, III, 397.

(٦٨٤) Ibn Khaldoun, Prolégomènes, 1ère part (Not et extr., XIX) p. 365.

(٦٨٥) Edrisi, I, 51 ; Ibn al Wardi, p. 43; Pegol., p. 57; Barbosa p. 310, 6 ; Corsali, p. 179, a.

(٦٨٦) Garcia de l.c. ; Barbasa, j. 300, a.

(٦٨٧) Sammario, p. 333, a.

(٦٨٨) Sommario, p. 333, a.

Conti, p. 48 ; Varthema, p. 162, a; Barbosa, p. 311 b ; P. Alvarez, p. 126, a ; Massari, p. 27.

(٦٨٩) Barbosa, p. 300, a ; Corsali, p. 178, b, 179, a ; Garcia de Orto, l.c.

(٦٩٠) Varthema, p. 158, b ; Barbosa, p. 311, a.

كانت ثمار المنطقة الواقعة شمالا ، بين ديبل Daboul وكمباى Cambaye (٦٩١) تفضل لأغراض التصدير ، لأنها كانت أقل عرضة للتعفن (٦٩٢) •

ويحب أهالى الهند ثمار الاهليلج لما لها من خواص تساعد على هضم الطعام ، وخاصية ملينة خفيفة : وكانت هذه الثمرة ، منذ أقدم الأزمان عنصر من عناصر الأقرباذين عندهم (٦٩٣) • وكان من العقاقير المفضلة عند الأطباء الهندوس مركب من أنواع الاهليلج الثلاثة يسمونه تيسفالا Tisphala أو تريفالا Triphala (٦٩٤) • وقد أدخل العرب هذا العقار فى دستور عقاقيرهم (الأقرباذين) ، اسوة بالكثير من ثمار الهند ، وأدخلوه فى عدد كبير من التركيبات ، فكانوا يخلطونه مثلا ببعض التوابل لمضاعفة خواصها الهضمية (٦٩٥) •

ومن العرب انتقلت أنواع الاهليلج كدواء الى البيزنطيين الذين أدرجوها فى دساتير عقاقيرهم فى أوائل القرن الثانى عشر (٦٩٦) ، والى الغربيين حيث صارت عندهم من العقاقير المعتمدة طبيا بتأثير مدرسة سالرنو (٦٩٧) • ومنذ أن جعل الأطباء يصفون لمرضاهم مستخلصات وأقراصا من الاهليلج ، التزمت التجارة بتزويدهم بهذه المادة • وفى وسعنا أن نتحقق عن طريق السجلات التجارية فى العصور الوسطى أن الاهليلجات كانت تصل الى أوروبا عن طريق ايطاليا ، ومنها تنتشر حتى تصل الى الفلاندر (بروج) (٦٩٨) • نجدها أيضا فى بيوت بعض الأمراء الى جانب ثمار أو توابل أجنبية أخرى (٦٩٩) • على أنه ليس من الثابت أن هذا الهاضوم (عقار يساعد على هضم الطعام) لم يكن الناس يتعاطونه الا كدواء ، فربما كان يقدم على المائدة للتحلية • ولم تعد هذه الثمار

---

(٦٩١) Conti (p. 49).

(٦٩٢) Garcia de Orto, l.c.

(٦٩٣) Serap., p. 136, b; Ibn Beitar, trad. Southeimer, I, 78.

(٦٩٤) Royal, p. 36.

(٦٩٥) Ibn Beitar, I, 78 et s., 163 et s., 559 et ss.

(٦٩٦) Meyer, Geschichte der Botanik, III, 375, 390.

(٦٩٧) Constantinus Afric., Opp., I, 345 ; Platerius, Circa instans.

(٦٩٨) سبق ذكر الفقرات التى وردت بها هذه المعلومة فى بداية هذا البند •

(٦٩٩) Laborde, les ducs de Bourgogne, III, 303 ; Douet d'Arcq (Comptes de l'argenterie des rois de France au XIVe siècle, p. 236, 390) ; La "Vis" de Loucrent de Médicis, par Fabroni, II, 337.

معروفة فى الغرب فى وقتنا الحاضر منذ أن اختفت من دساتير العقاقير الطبية ، ولم تعد تستعمل الا استثناء فى الدباغة والصباغة (٧٠٠) ٠

جـــوزة العفص Maix de galle

المعروف أن « الجال » (حشرة العفص) Cynips galloe tinctorioe حشرة تنتج لدغتها نتوءات على غصون أشجار البلوط ، ومنها ما يستعمل فى الصباغة ٠ ومن طبيعة هذه النتوءات أنها تضم كمية من الدباغ tannin ولها خصـائص قابضة تجعل منها عنصرا مفيدا فى الطب ، وفى بعض الصناعات (٧٠١) ٠ وتعرف هذه المادة بجوزة العفص ، وكانت تشكل فى العصور الوسطى سلعة تجارية مهمة (٧٠٢) ٠ وكان المطلوب أن تكون ثقيلة ذات لون ضارب الى الخضرة : أما الأصفر منها فكان يعتبر ردىء النوع، وكان يستورد من اليونان وآسيا الصغرى ، وبنوع خاص من هذا البلد الأخير (٧٠٣) ٠ وكانت سوق الاسكندرية تتلقى هذه المادة من جاليبولى ، وبالاتيا ، وستالية ، وكانديلور (٧٠٤) ، ومن ثم يمكن القول بأن أوروبا كانت تستورد هذه المادة من هذه الموانىء ٠ وقد تسنى لنا أن نتعرف على شحنة من جوز العفص صدرها من جزيرة خيوس الى بروج تاجر جنوى ، غير أن هذه حالة فردية (٧٠٥) ٠

جوزة الطيب noix muscade ، والبسباسة

يقول السيد مارتيوس M Martius (٧٠٦) فى مقالاته فى تاريخ جوزة الطيب والبسباسة ان هاتين المادتين كانتا معروفتين منذ قديم الزمان ٠

---

(٧٠٠) Henkel, Warrenlexicon, p. 87 ; Flückiger, Frankfurter Liste, p. 19 et r.

(٧٠١) Merrifield, p. 289 et ss.

(٧٠٢) Pegol., p. 16, 42, 49, 56, 64, 98, 101, ets. ; Lib. jur, I, 71 et s. (Doc. re 1140) ; Taf et Thom., III, 444.

(٧٠٣) Pegol., p. 16, 296, 309, 372 ; Misc. distor. ital., X, 74, 77 ; Frankf. Liste, p. 8.

(٧٠٤) Piloti, p. 371 et s.

(٧٠٥) Atti della Soc. ligure di storia partria, V, 464.

(٧٠٦) Sitzungsberichte der München Akad., 1860, p. 152 et ss., et neues Repert, fâr Pharmacie, vol. IX (1860), p. 529 et ss.

ومن قبل اعتبر الطبيب سيميون سيث Siméon Sith الذى عاش فى أواخر عهد الأمبراطورية البيزنطية أول كاتب اغريقى أشار اشارة صريحة الى جوزة الطيب (٧٠٧) · وبعده ببضعة عقود ذكر كاتب غربى ، وهو كونستانتينوس أفريكانوس Constantınus Africanus جوزة الطيب والبسباسة ، ذكرهما باسميهما (٧٠٨) · وكان الاثنان من أشياع العرب فى مجال الطب ، وكانت هاتان المادتان من السلع التجارية الشائعة عند العرب منذ زمن بعيد · ولم يكن ميسورا العثور فيما كتبه الجغرافيون العرب على معلومات أكيدة عن البلد الذى ينمو فيه جوز الطيب ، فهم يكتفون بأن يذكروا بعبارات عامة الهند ، أو البلاد التى تطل على المحيط الهندى ، أو جزر بحار كرونج والصنف Kerdendj et Senf (وهى أجزاء من المحيط الهندى) ، واذا ذكروا أحيانا ، وبنوع خاص بعض الجزر ، فان ما يصفونه منها يكشف عن مفاهيم غير محققة ، فيصعب البحث على أساس معلومات غامضة على هذا النحو (٧٠٩) · ونجد الجهالة نفسها فيما يتعلق بطبيعة الشجرة ، حتى لقد خيل لابن بطوطة أن جوزة الطيب هى ثمرة القرنفل (٧١٠) · وفى أواخر القرن الثالث عشر ، حين بدأ الرحالة الغربيون يظهرون بكثرة فى الشرق الأقصى ، سطعت الأضواء شيئا فشيئا على هذا الموضوع ، هو وغيره من الموضوعات · ومع ذلك لم يعرف الموطن الحقيقى لجوزة الطيب منذ البداية · ويعدد ماركو بولو المنتجات التى تشكل ثروة سكان جزيرة جاوة الكبرى ، فيذكر جوز الطيب بعد « الكبابة » ، والخلنجان ، وكبش القرنفل ، وغير ذلك من التوابل (٧١١) · وتساءل البعض كثيرا عما اذا كان اسم جاوة الكبرى يمثل فى خاطره الجزيرة التى نسميها حاليا جاوة ، أو بورنيو (٧١٢) · ولم تجد هذه المسألة حلا لها · وعلى أية حال ، وبالنظر الى تخلف الحضارة فى هذه المناطق فى عصر الرحالة المشهور ، فانا لندهش بحق من أن زراعة جوز الطيب قد انتقلت فى تلك الآونة من الدائرة الضيقة التى تشمل الجزر الصغيرة التى نشأت بها الى احدى الجزر الكبرى فى الأرخبيل الهندى ، وهو عمل تولاه فيما بعد المستعمرون الأوروبيون وتكلل بالنجاح·ولعلنا نحرف المعنى الذى تضمنته

---

(٧٠٧) De alimentis, éd. Bogdan., p. 55 et s. ; ed. Longhavel, p. 56 ; Meyer, Gesch. der Botanik, III, 363.

(٧٠٨) Opera, i, 355:

(٧٠٩) Relations, p. 143 ; Marçoudi, I, 341 ; Ibn kordadbeb, p. 294 ; Edrisi, I, 89, 93.

(٧١٠) IV, 243.

(٧١١) P. 561.

(٧١٢) M. Peschel, Gesch. der Erdk., p. 160 et s.

عبارات ماركو بولو بأن نجعله يقول ان هذه الأنواع كلها كانت من حاصلات ثروة جاوة الكبرى • هذه الأشياء التى كان ماركو بولو يحسد سكان الجزيرة على اياها ، ما الذى يمنعنا من أن نسلم بأن بعضها منتجات محلية ، والبعض الآخر أجنبية ، وأن جوز الطيب وكبش القرنفل ينتميان الى الطائفة الثانية (أى الأجنبية) • ولنا أن نبدى هذه الملحوظة بشأن أخبار المبشرين اوديكو دابوردينونى ، وجوردانوس كاتالانى ، والفلورنسى جيوفانى دا ايميولى ، اذ نطالع فى أخبارهم ، بين ما نطالعه أن جوزة الطيب كانت موجودة فى جاوة ، ولكنا نشك فى أنهم خلطوا فى تعدادهم المنتجات الواردة الى جاوة ، اما من جزر أخرى من الأرخبيل ، أو من الهند الصينية ، بين هذه المنتجات وبين منتجات الجزيرة نفسها (٧١٣) •

والخريطة القطالونية المشهورة ، وهى من أعمال القرن الرابع عشر تنسب الى جزيرة سومطرة اسم جاوة ، أو بالأصح جانا Jana : وفى شرح هذه المنتجات على الخريطة نجد كلمة nou moscade (٧١٤) ، ويبدو لنا هنا أيضا أن هناك خلطا بين المنتجات المحلية والمنتجات الأجنبية •

ويبدو من العسير ، على الأقل اثبات أن توطين جوز الطيب الذى يباشره الانجليز فى الوقت الحاضر بنجاح فى جزيرة سومطرة (٧١٥) كان له سوابق فى العصور الوسطى ، فهذا أمر غير محتمل • وكان نيكولو كونتى (فى القرن الخامس عشر) أول من اكتشف فى مجال البحث عن الموطن الحقيقى لجوز الطيب أن أحدا لم يوفق فى ذلك ، اذا لم يمتد بحثه الى أبعاد كافية : وأبدى أنه يمكن العثور على هذا الموطن شرقا فى الأرخبيل الهندى ، لا فى سومطرة ، ولا فى جاوة الصغرى ، ولا فى بورنيو (جاوة الكبرى) ، ولكن فى جزيرة يسميها سنداى Sandaï (٧١٦) • وهو نفسه لم يصل حتى هذا المدى ، وتفسيراته فى ذلك غير واضحة ، ومن المستحيل تقريبا التخمين باسم الجزيرة التى يشير اليها • فان اعتبرنا نطق هذا الاسم (سنداى) ، وتصورنا من ثمة جزيرة من جزر السوند Sonde ، فانا نكون قد تجاوزنا محيط الدائرة التى ينمو فيها جوز الطيب بالفعل ، وان لبثنا داخل هذه الدائرة ، لا نجد فيها اسما مماثلا لاسم سنداى ، ولست أدرى على أية معلومات استند اليها السيد ميجون

(٧١٣) Oderico da Pordenone, p. XVII ; Jord. Catal., p. 51, et note de M. Yule sur ce passage ; Empoli, p. 81.

(٧١٤) Ed. Buchon et Tastu, p. 137.

(٧١٥) Marsden, History of Sumatra (1811), p. 146 et ss.

(٧١٦) Conti, p. 46 ; la Carte de Fra Mauro (éd. Zurla, p. 49).

في تأكيده بأن جزيرة سنداى هي نفسها جزيرة بورو Major (٧١٧) Bouro ، الا أن موقع هذه الأخيرة عند الطرف الغربي لمجموعة جزر أمبوينا Amboines (شرقي اندونيسيا – المترجم) يؤكد كثيرا الرأى الذى أبداه العالم الانجليزى . والواقع أن جوزة الطيب لم تكن تنمو في جزر باندا بل كانت تمتد حتى جزر أمبوينا وجزر الملوك . ويتعين البحث عن الموطن الحقيقي لجوزة الطيب في هذه المجموعات الثلاث (٧١٨) . وفي عهد سيادة البرتغال في الهنـد ، كانت جزيرة باندا الكبرى تعتبر ، وهى وبعض الجزر المجاورة لها المركز الكبير لانتاج جوزة الطيب (٧١٩) ، ولم تزل كذلك حتى وقتنا الحاضر ، خاصة وأن الهولنديين اهتموا باعدام كل أشجار جوز الطيب التي اكتشفوها في سائر جزر المنطقة (٧٢٠) .

وكثيرا ما نجد فيما كتبه المؤلفون اسم « البسباسة » macis الى جانب اسم جوزة الطيب ، والألمان يسمونها Muskatblüthe (أو زهرة جوز الطيب) (٧٢١) ، ويرجع أصل هذه التسمية الى فكرة خاطئة كانت شائعة في العصور الوسطى ، في الشرق وفي الغرب (٧٢٢) ، اذ ارتأى للناس بعامة أن البسباسة هي زهرة جوز الطيب ، ولكنها في الواقع بطانة ، أو غشاء يحيط بالبذرة (بذرة جوزة الطيب) ، وهى نفسها محاطة بلب وقشرة الثمرة . وعندما تنضج الثمرة فوق الشجرة تكون البسباسة ذات لون أحمر أرجواني يتحول الى أصفر برتقالي حين تنزع من الجوزة وتجفف في الشمس ، وعندئذ تصير سلعة تتداولها التجارة . وقد عرفت طبيعة البسباسة الحقيقية منذ زمن بعيد (٧٢٣) ، ويشبهها موندفيل ،

---

(٧١٧) India in the 15th century (Hahluyt Society, no 22), Lon 1957, p. lxvi.

(٧١٨) CraWfurd, Hist. of the indian archipelago, I, 505 et s.

(٧١٩) Varthema, p. 167, b ; De Gubernatis, Viaggiatori ital., p. 159, 170 ; Serano, p. 227 ; Barbosa, p. 319, b, 323, b ; Pigafetta, p. 116 ; Federici, p. 301, b, 397, a ; Garcia de Orto, p. 178 et s.

(٧٢٠) Crawfurd, l.c.

(٧٢١) "Muscaten blomen" dans les hanse-Recesse, 2e part., vol. II, p. 236.

(٧٢٢) Jacq. de Vitry, l.c. ; Platearius, l.c. ; Isaac Ibn Omran dans Serapion, p. 121.
p. ccl ; Ibn Batouta, IV, 243; Crawfurd, l.c., I, 506 et s.

(٧٢٣) Jacq. de Vitry, p. 1100 ; Platearius, Gloss in antidot. Nic.,

وبلاتيريوس بقشرة البنـدقة (٧٢٤) : ويعطيهـــا فارتيما ، وباربوزا ، ومابسميليانو ترانسيلفانو (٧٢٥) ، وبيجافيتا (٧٢٦) ، وجارسياديأورتو أوصافا أدق (٧٢٧) .

ويصنف سانوتو جوزة الطيب والبسباسة ضمن التوابل الرقيقة التي يفضل للحصول عليها دفع نفقات النقل طويل المدى بالطرق البرية ، على تعريضها لمخاطر النقل البحرى . هاتان المادتان كانتا تمران في الأصل بمدينة بغـــداد ، وفيما بعـد بطورس (٧٢٨) ، ونجـــد في أســواق طورس ، والسلطانية ، وسمرقند (٧٢٩) : وهذا أمر طبيعي . ولكنا نتبين أيضا وجودها في سوق الاسكندرية (٧٣٠) مما يثبت أنهما كانا كثيرا ما ينقلان عبر المحيط الهندى . ثم ان الادريسي (٧٣١) يذكرهما ضمن السلع المستوردة من شرق آسيا الى عدن . واخيرا ، تشير بعض المصادر الى وجودهما في عكا ، في عصر السيادة اللاتينية ، ولعلهما يصلان الى هناك بطريق أو بآخر (٧٣٢) .

وكانت هناك دائما فروق بين سعر جوزة الطيب وسعر البسباسة . كانت البسباسة ، وهي أرق وأندر من جوزة الطيب تباع في الهند بسعر يزيد خمسة أو ستة أضعاف السعر الذى تباع به جوزة الطيب في زمن باربوزا (٧٣٣) ، وثلاثة أضعاف الثمن في عصر جارسيادى أورتو (٧٣٤) . وقد دون سانوتو في صحيفته أسعار مختلف السلع في سوق الاسكندرية، حصل عليها من التقارير المرسلة الى البندقية : ونجد من وقت لآخر أسعار جوزة الطيب والبسباسة ، وسعر الأخيرة أعلى دائما من سعر الأولى . وارتفع هذا السعر عامي ١٥١٠ ، ١٥١١ وبلغ أكثر من ضعفه (٧٣٥) .

(٧٢٤) P. 233.
(٧٢٥) Dans Ramusio, I, 167, b, 319, b, 347, a, ,352 a.
(٧٢٦) Ed. Amoretti (1800), p. 146.
(٧٢٧) P. 178 et s.
(٧٢٨) Secr. fid. cruc; p. 22, 23.
(٧٢٩) Ghistele, p. 310; Clavijo, p. 113, 191.
(٧٣٠) Pegol. p. 57.
(٧٣١) I, 51.
(٧٣٢) Assis. de Jérus., I, 174.
(٧٣٣) P. 319, b, 323, b.
(٧٣٤) P. 179. ; Crawfurd, l.c., III, 403.
(٧٣٥) Sanut., Diar., IV, 169; V, 35 ; VI, 64; XI, 57 et s., 104 et ss., 527 et ss ; XII, 153 et s ., 207 et ss.

ولا يضيرنا دون شك أن نعرف ما اذا كان هذا التفاوت فى الأسعار موجودا فى الغرب : فنجد فى حسابات بلاط فرنسا فى العصور الوسطى أن السعر المسجل لنصف رطل من جوزة الطيب كان douze deniers (اثنى عشر درهم - أو فلس : نقد روماني ثم فرنسى - المترجم) (٧٣٦) فى حين أن نصف « الرباع » أى ثمن الرطل من البسباسة كان يباع بسعر لا يقل عن ثلاثة الى أربعة دراهم (٧٣٧) ٠

وفى العصور الوسطى كان جوز الطيب والبسباسة يستخدمان كثيرا فى فنون الطبخ ، أولا باعتبارها من التوابل للأطعمة ، ثم كعنصر فى اعداد النبيذ المعطر (٧٣٨) ٠ ونطالع فى كتاب عن المطبخ الألمانى فى القرن الخامس عشر بعنوان Buch von guter Speise أنه يجب لصنع « محشى جيد ! » أن يوضع به خلنجان gaigan ، وفلفل ، وزنجبيل ، وكمون ، وكبش قرنفل ، وبسباسة muscat-Blumen (٧٣٩) ٠

اللآلىء Perles

كانت مصائد اللؤلؤ ، كما هى فى وقتنا الحاضر متركزة فى موقعين من المحيط الهادى : الخليج الفارسى ، والمضيق الذى يفصل الهند عن جزيرة سيلان ٠ وسوف نقتصر فى حديثنا عن الموقع الأول تاركين جانبا بعض الأرصفة المتناثرة هنا وهناك (٧٤٠) ٠

فاذا دخل المرء الخليج الفارسى ، قابل أولا فيما بعد مضيق هرمز ، ساحل القراصنة ، حيث كان هناك فى عصر الادريسى مدينة اسمها ظفار Djolfar (٧٤١) ٠ والى الأمام من هذا الساحل مجموعة من الجزر معروفة لدى الجغرافيين العرب باســم Kither أو قطر Kotor (٧٤٢) ٠

---

(٧٣٦) Douet d'Arcq, p. 219.

(٧٣٧) Menagier de Paris, II, 111; Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, 2e éd., p. 503 et s.

(٧٣٨) Menagier, l.c., p. 112, 148, 155, 160, 230, 236, 248 et s., 273 etc. ; Schultz, Das höfische Leben, I, 306.

(٧٣٩) Bibliothek des lit. Vereins, IX, 11.

(٧٤٠) Edrisi, I, 161 et s. : Isstachri, p. 17 ; Albirouni, dans le Journ. asiat, 4e série, IV, 267 ; Edrisi, I, 171.

(٧٤١) Ritter, Asien, XII, 379, 389.

(٧٤٢) Ibid. p. 390.

هذه المجموعة من الجزر(٧٤٣) مع ظفار(٧٤٤) كانت مطروقة فى العصور الوسطى بسبب وجود أرصفة المحارات ذات اللآلىء فى مجاوراتها ، ولم يزل يستغلها حتى وقتنا الحاضر سكان النواحى المجاورة (٧٤٥) ٠ وبالصعود قليلا فى الخليج الفارسى ، يقابل المرء أرصفة لآلىء أخرى أكثر شهرة : تلك هى جزيرة البحرين ٠ كان الاسم الحقيقى لهذه الجزيرة فى العصور الوسطى أفال Aval ، ولم تكن البحرين سوى المدينة الرئيسية بها ٠ وفى كل سنة ، فى فصل صيد اللؤلؤ ، يتقابل عندها تجار البلاد المجاورة، فيستأجرون مراكب تستقل غطاسين وصيادين ، وينطلق الاسطول ، ويتكون عادة من عدد كبير من المراكب ، بحثا عن رصيف لآلىء ٠ وعندما تجد المراكب الرصيف تلقى مراسيها ، ويستغل القوم الرصيف ثم ينتقلون الى رصيف آخر ، وهكذا دواليك ، وتبقى المراكب فى عرض البحر ، ليل نهار ، حتى ينتهى التجار الذين استأجروها من ملء أكياسهم ٠ وعندما يعودون الى البر ، يفرزون لآلئهم ، ويجعلون منها ثلاث فئات حسب حجمها ، ويبيعون جزءا منها ، ويحملون معهم الباقى (٧٤٦) ٠ فاذا لم يبتعد المرء كثيرا عن جزيرة البحرين ، يصادف مصيدة لآلىء أخرى فى مواجهة بلدة القطيف (٧٤٧) ٠ نذكر أيضا ، على الضفة المقابلة من الخليج ، فى مواجهة بلدة بوشهر Abouchehr جزيرة خارك Karck (كراك Karrak) حيث سنحت الفرصة للبعض فيما مضى أن يجد بين اللآلىء القليلة القيمة عينات فاخرة (٧٤٨) ٠ وهناك أيضا ناحية الشرق مصائد جزر لار Lar (حاليا بوشعيب Boucheab (٧٤٩) وقيش Kich (حاليا كن Kenn (٧٥٠) ٠

ويقع مركز كبير آخر لصيد اللؤلؤ بين جزيرة سيلان ، وشبه القارة الهندية ، وقد تحدث عنها الكتاب فى كل العصور ٠ وفى العصور الوسطى

---

(٧٤٣) Maçoudi, I, 328; cf., ibid. 239 ; Edrisi, I, 157.

(٧٤٤) Edrisi, I, 167; Barbosa, p. 294, a ; Empoli, p. 81, 85 ; Garcia Orto, p. 223.

(٧٤٥) Ritter, op. cit., p. 591 et ss., d'après., Whitelock.

(٧٤٦) Edrisi, 1, 373 et ss. ; Ibn Batouta, II, 244 et ss., Aboulfeda, (Géogr., II, 2, p. 129) ; Barbosa, p. 293, a, 294, a.

(٧٤٧) Aboulm., Géograph., II, 1, p. 136 ; Banj de Tudéle, p. 137.

(٧٤٨) Maçoudi, 1, 239, 328 ; Isstachri, p. 18, 73 ; Kazwini, trad. Ethé, I, 1, p. 235 ; Aboulf., Géograph., II, 2, p. 129; Teifachi, dans Ravius, Specimen, p. 68 ; cf. Clément-Mullet, dans le Journ. asiat., 6e série, XT, 26.

(٧٤٩) Yaqout, p. 501 et s. ; Cf. Ritter, VIII, 778.

(٧٥٠) Ibn Khordadbeh, p. 288;Errisi, I, 153 ; Yakout, p. 500 ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 129 et s. ; Ibn Batouta, IV, 163 et s.

ذكر أقدم الجغرافيين العرب أرصفة اللآلئ عند ساحل سيلان (٧٥١) . وقد اعتقد البعض في زمن البيروني ، أى في النصف الأول من القرن الحادى عشر أنها قد نضبت (٧٥٢) ، الا أن الادريسى ذكر اللآلئ الغالية الثمن التى تصاد فى سيلان . وفى الآونة التى تواجد فيها المبشر جوداتوس كاتالانى فى الهند ، كان الصيد فى هذه الأنحاء يعطى من جديد نتائج عظيمة حتى كان يشــغل أكثر من أربعة آلاف زورق خلال ثلاثة شــهور من السنة (٧٥٣) . وهنا ، كما فى الخليج الفارسى ، كانت الأرصفة موزعة على طول شاطئ خليج منار Manaar ، وتمتد على الجانب الأيمن ، أى على الشاطئ الغربى لسيلان ، من جزيرة منار حتى شيلاو Chilaw (٧٥٤) . وبين هذين الموقعين تقوم بلدة بوتلام Poutlam ، ويؤكد السيد يول Jule (٧٥٥) أن هذه البلدة هى نفسها بلدة بتلار Betelar التى ينطلق منها صــائدو اللؤلؤ فى عصر ماركو بولو . وكان ملوك مأبار Maabar يعتبرون هذه الأرصفة ملكا خاصا لهم ، ويحتفظون لأنفسهم بجزء مهم من منتجات الصيد ، وكان تجار مأبار ــ وليس سيلان ــ هم الذين يضطلعون بهذا العمل (٧٥٦) .

ويبدو أن الأمور تغيرت بعد ذلك : فحين زار ابن بطوطة سيلان كان مالك المصائد أمير من سيلان ، فقال له الرحالة الذائع الصيت وهو يمتدحه ان لآلئ قيس أقل قيمة من لآلئ سيلان (٧٥٧) .

وحتى القرن الرابع عشر ، لم يكن معروفا سوى مصائد لآلئ سيلان ، أى فى الجانب الأيمن من خليج منار ، وابتداء من القرنين الخامس عشر والسادس عشر أخذت شهرتها تذوى أمام شهرة أرصفة كايل Cail (٧٥٨)، ولم تزل أطــلال هذه المدينة ظاهرة فى الموقع المســمى « كايل القديمة »

---

(٧٥١) Relat., p. 5, 6 ; Maçoudi, I, 328 ; Ibn Khordadbèh, p. 286; Isstlchri., p. 18.

(٧٥٢) Journ. asiat., 0 série, IV, 267.

(٧٥٣) Edrisi, I, 72 ; Jord. Catal. p. 49.

(٧٥٤) Rotter, A ien, VI, 161 ; Federici (p. 390).

(٧٥٥) Yule, Marco Polo, II, 274, traduction et commentaire.

(٧٥٦) Polo, éd. Pauthier, II, 603 et ss.

(٧٥٧) IV, 168 et s. ; Oderico da Pordonone (p. xxi).

(٧٥٨) Conli, p. 38 ; Roteiro, p. 109 ; Varthema, p. 163, a ; Barbosa, p. 301, 314 b ; Smpoli, p. 79.

Vieux Kayl على بعد ميل انجليزي ونصف ميل أعلا مصب نهر تامرابارنى Tamraparni بمقاطعة تينفيللي Tinevelly (٧٥٩) . وبعد أن نعمت هذه المدينة زمنا طويلا بأهمية كبيرة كميناء بحرى ، وموقع تجارى ، أصابها الخراب بسبب تراكم الرمال تدريجيا في مجرى النهر ، مما أبعد المرفأ عن البحر ، فهجرها سكانها ، ولم يعد اسمها يشير الى أرصفة اللآلئ في هذه الناحية من الخليج ، فحل محلها توتوكورين Toutocorin في هذا الخصوص . ثم ان أرصفة اللآلئ هذه لم تكن تضارع في امتدادها أرصفة ساحل سيلان (٧٦٠) . وعند وصول البرتغاليين كانت مصائد « كيل » في أوج ازدهارها ، وكانت أساطيل الصيد تبرح ميناءها مرتين في السنة ، وتمضى لاستغلال مصائد ساحل سيلان . وكان ملك كولم ، ومقره مدينة كايل قد أجر مصائد هذا الجزء من الخليج لتاجر عربي كبير ، وأقام وكيلا عنه يشرف على مصائد سيلان ، ويحتفظ هو لنفسه بكل اللآلئ الكبيرة ، أما الصغيرة فتسلم لتجار كايل الذين اشتهروا بمهارتهم في صنع الجواهر والاتجار بها (٧٦١) .

ولسنا نتوقف لنناقش مسألة ما اذا كان الغرب يتلقى لآلئ من الهند : ذلك لأن اللآلئ التي توجد في أسواق مكة (٧٦٢) ، والاسكندرية (٧٦٣) كان معظمها يأتي من هناك دون شك . أما اللآلئ الواردة من الخليج الفارسي الى فارس ، وبلاد ما بين النهرين ، وآسيا الصغرى ، وسوريا فربما تكون قد صيدت في الهند ، وجلبت في السفن التي تعبر الخليج . ومع ذلك فالراجح من حيث العدد أن لآلئ الخليج الفارسي كانت تحتل المكانة الأولى في السوق الأوروبية . وفي تذييل قديم لمذكرات ماركو بولو (٧٦٤) ، قد يكون هو نفسه مؤلفه ، نطالع أن معظم اللآلئ الواردة من الهند الى البلاد المسيحية كانت تثقب في بغداد . وعلى عكس ذلك ، يبدى كاتب لاحق ، هو كلافيجو أن أحدا لم يزعم في أى مكان أنه يثقب اللآلئ ويصنع منها حليا مثلما يجرى ذلك في هرمز ، ولابد من القول بأنه يعتمد في رأيه هذا على شهادة التجار المسيحيين والعرب بالاجماع ، ويصف الكاتب صناعة الحلى

---

(٧٥٩) M. Yule ç Marco Polo, II, 307 et s.

(٧٦٠) Ritter, Asien, VI, 10 et s., 163.

(٧٦١) Barbosa, p. 314, a, b. ; Roteiro, p. 171 et s.

(٧٦٢) Varthema, p. 151.

(٧٦٣) Pegol., p. 57.

(٧٦٤) Texte dans Ramuso, II, 5, b.

من اللآلئ فى طورس (٧٦٥) • وكانت طورس ، والسلطانية ، وسمرقند ، وبغداد مدنا تجارية كبيرة على اتصال دائم بالخليج الفارسى ، كما كانت أيضا السوق الرئيسية لتجارة اللؤلؤ (٧٦٦)

وفى عصر بيجولوتى تعطلت تجارة اللؤلؤ بصورة خطيرة فى الغرب بفعل قوانين الحد من النفقات المالية التى سنها الأمراء وسلطات المدن (٧٦٧) • ثم ان أسعارها أصبحت شديدة الارتفاع ، فلا تسمح باستعمالها على نطاق واسع • ومع ذلك كشفت دراسة قوائم الجرد لدى ملوك فرنسا للسيد دويه دارك M. Douet d'Arcq عن حقيقتين هامتين : أولا أن هؤلاء الأمراء يملكون كميات هائلة من اللآلئ (٧٦٨) ، وثانيا أن هذه اللآلئ كلها ليست من أصل شرقى ، فقد ورد بعضها من اسكتلندا (٧٦٩) •

الأحجار الكريمة (٧٧٠)

لم يكن معروفا فى العالم ، قبل اكتشاف البرازيل ، وارتياد جبال الأورال غير قارة واحدة تحتوى على طبقات من الأحجار الكريمة ، تلك هى آسيا ، بالاضافة الى مصر • الا أن مصر كان نصفها من حيث الموقع أسيويا • ولنبدأ بها فى بحثنا عن الأماكن التى بها تلك الطبقات •

كان فى مصر العليا مناجم زمرد ، استغلت على نطاق واسع فى العصور القديمة ، ومنذ عصر متأخر كانت منتجات هذه المناجم تصدر الى الهند (٧٧١) • يقول المسعودى انه كان يستخرج هناك نوعان من الزمرد :

---

(٧٦٥) Clavijo, p. 115.

(٧٦٦) Pegol., p. 8, 305 ; Clavijo, p. 114, 191 ; Khislele, p. 310 ; Ramu io, II, 83, b. ; Teifachi dans Clément-Mullet, Essai sur la minéralogie arabe : Journ. asiat., 6e série, XI, 303 — 509

(٧٦٧) Pegol., p. 306.

(٧٦٨) Douet d'Arcq, p. 395.

(٧٦٩) l'Inventaire de Charles V, roi de France, dans le Revue archéologique, 1850, p. 500, 507, et éd Labarte. p. 35. 40 etc. ; Lacroix et Seré, Hist de l'orfévrerie - joaillerie (Paris, 1850), p. 46.

(٧٧٠) M. Clément-Mullet ; Essai sur la minéralogie arabe, publié dans le Journ. asiat., 6e série. XI.

(٧٧١) Cosmas, ed. Montfaucon, p. 339 ; Relat., I, 153.

نوع يباع لملوك البلاد المشرفة على المحيط ، كالهند ، والسند ، والحبشة ، والصين ، وكان هؤلاء الملوك يحبون التزين بالزمرد ، وكان يسمى لذلك « بحرى » bahri ، أما النوع الآخر فكان يطلبه بالحاح ملوك أوروبا ، ومن ثم كان اسمه « مغربى » maghrebi (٧٧٢) • وكانت مناجم الزمرد هذه واقعة على حدود مصر والنوبة (٧٧٣) عند بقعة اسمها « خربة » Kharbah فى اقليم قفط Kibt على مسيرة سبعة أيام من حاضرة هذا الاقليم ، كوبتوس القديم Koptos (٧٧٤) ، على خط عرض أسوان تقريبا (٧٧٥) ، وسط سلسلة الجبال الممتدة فى الصحراء بين النيل والبحر الأحمر (٧٧٦) • وكان الاقليم ينتمى الى قبيلة البجة Bedgah البدوية ، ولكن المناجم كانت تستغل لحساب سلاطين مصر الذين كانوا يقيمون بها عمالا حتى عام ١٣٥٩ • وفى هذا العصر أهملت هذه المناجم بسبب قلة عائدها دون شك (٧٧٧) • وكانت أرض مصر تضم غير الزمرد ، « والبريل » béryl ، قرينه المعتاد (الزمرد الريحانى) ، تضم « الياقوت الأحمر » rubis• ففى عام ١٢٧٠ اكتشف منجم منه بالقرب من قرية تارا Thara على بضعة فراسخ جنوبى القاهرة (٧٧٨) ، وربما كان يرد من هناك « ياقوت الاسكندرية » الذى كثيرا ما ورد ذكره فى مصادر العصور الوسطى (٧٧٩) •

ولننتقل الى آسيا • اذ كانت طبقات الأحجار الكريمة متوفرة للغاية حتى ليستحيل علينا أن نعدد كل ما ورد ذكره فى مصادر العصور الوسطى ، فيتعين علينا أن نقتصر على الأكثر أهمية منها • ومن هذه الناحية كانت فارس البلد الذى يتمتع بأكبر حظوة • كان الفيروز (الفيروزج)

---

(٧٧٢) Maçoudi. III. 44 et s.

(٧٧٣) Clément-Mullet, l. e. p. 72.

(٧٧٤) Maçoudi, III, 43 et s.

(٧٧٥) Clément-Mullet, l.c., p. 72, 73, not. 1 ; Edris;i I, 36.

(٧٧٦) Ibn Beitar, trad. Dozy, dans la Zeitschrift der deutschen morgenländischen Ges., VIII. 199 ; Teifachi, op. cit.

(٧٧٧) Quatremère, Mémoires sur l'Egypte, 173 et ss. ; Chems-eddine,, p. 326; Wilh. von Boldensele, p. 249 ; Nice da Poggibonsi, II, 61. Calcaschandi (l.c., p. 13).

(٧٧٨) Mohammed ben Mansour, Traité res pierres préeieuses, dans Hammer, Fundgr. des Orients, VI, 112 ; M. Clément-Mullet, l.c., p. 43.

(٧٧٩) Douet d'Arcq. Comptes de l'argenterie, I, 169, II, 38 Inventaire du mobilier de Charles V, ed. Labarte (1879), p. 16, 19.

متوفرا في أقاليم كرمان (٧٨٠) ، وخراسان ، وكان أجمل أنواعه موجودا في الاقليم الأخير ، في مجاورات نيسابور (٧٨١) • وكانت هناك طبقات أرضية من هذا الحجر الكريم في المناطق الجبلية لنهر جيحون العلوى ونهـــر سيمون وهى المعروفة بأسماء فرغانة Ferghana ، وبذخشان Badakhchan (٧٨٢) ، واشتهر هذا الاقليم الأخير بنوع خاص باللازورد الذى كان مستعملا فيما مضى فى عمل الأصباغ (٧٨٣) ، ونوع من الياقوت الأحمـر ، أو بالأحرى أنواع « اللعل » التى سنتكلم عنها بعد قليل •

والحق يقـــال ان اللازورد لم يكن ينتمى الى هـــذا الاقليـــم وحـــده ، فقد وجد فى أماكن أخرى ، لا داعى لذكرها من باب الايجاز • غير أن لازورد بدخشان كان يحظى بالتقـــدير ، ويصدر الى جميع أنحاء العالم ، كما ينبئنا بذلك الادريسى • ومن ثم يحق لنا أن نسلم بأنه يدخل بنسبة كبيرة فى تركيب « الحجر الأزرق الســـماوى » بوجه عام ، وبخاصـــة اللازورد الأسمانجونى ، وكذا « لازورد بغـــداد » الذى كان شائعا جدا فى تجـــارة العصـــور الوسطى (٧٨٤) ، ويستعمله دائمـــا الرســـامون الغربيون (٧٨٥) • كانت تلك المناطق الجبلية تنتج أيضا نوعا من الياقوت الأحمر الذى يصدر الى الغرب : وهذا أمر لا ريب فيه • وفى مؤلفات الكتاب الغربيين فى العصور الوســـطى ، كلمـــا ورد ذكر الأحجار الكريمة (٧٨٦) ، كان ثمة حجر منها لا يفوتهم أن ينوهوا به ، ذلك هو

---

(٧٨٠) Polo. p. 73 ; Yule, Marco Polo, I, 87 ; Fra Mauro, p. 43 ; Mohammed ben Mansour, op. cit., p. 133; Auseley. Travels, I, 211.

(٧٨١) Ibn Haoukal, trad. Anderson, Journ. of the Bengal Soc.. (1853), p. 154 ; Edrisi, II, 185; Moh. ben Mansour, oj. cit. ; Teifachi, dans Clément-Mullet, p. 153 et s., Clavijo, p. 128; Ritter, Erdk., 325-330.

(٧٨٢) Istachri, p. 130, 133 ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 215 ; Cf. Ritter, Erdk., VII, 671, 735, 746, 760 ; VII, 326 ; Clément-Mullet, p. 152 et s.

(٧٨٣) Ibn Haoukal, op. cit., p. 165 ; Istachri, p. 120 ; Edrisi, I, 678 et s. ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 208 ; Chehabeddin, p. 243 et s., 246 ; Ibn Batouta, III, 59 ; Polo, p. 120 : Clément-Mullet, p. 198.

(٧٨٤) Bourquelot, Foires, I, 290 ; Pegol., p. 295, 373 ; Uzz., p. 17, 48, 192; Ilg, Cennini, p. 156 et s. ; Pegol., p. 375.

(٧٨٥) Liber divers. art. Montp., p. 743 ; Ilg, op. cit., p. 158, et s. ; Merrifield, passim, p. 340 et ss.

(٧٨٦) Pegol., p. 307 ; Uzz., p. 282 et ss.

« الياقوتة الوردية اللون » rubis balais ، أو balais فقط ، وبالايطالية balascio ، وباللاتينية balassius ، والاسم مقتبس مباشرة من اسم اقليم بذخشان أو بلخشان (٧٨٧) ، ونجده بالفعل شرقي هذا الاقليم ، في جبال أقل ارتفاعا من الجبال التي يستخرج منها اللازورد (٧٨٨) . وكانت المناجم التي يستخرج منها أحجار الياقوت هذه صعبة الاستغلال(٧٨٩) ، ثم ان ملوك البلد كانوا يحتفظون لأنفسهم بالحق المطلق في التصرف في محصولها ، ولا يتركون للتجارة الا مقادير صغيرة منها ، وهي طريقة ممتازة للحفاظ على سعر مرتفع لها (٧٩٠) ، ومن ثم كانت هذه الحجارة الكريمة نادرة للغاية ، ومطلوبة بشدة . ومن حيث علم المعادن تنتمي هذه الأحجار (الياقوت) الى مجموعة « اللعل » (الاسبينل) spinelles ، وتصنف من حيث الصلابة والبريق في درجة أدنى من الياقوت نفسه (الكورندم الأحمر) corindons rouges ، ومع ذلك تتميز بلون أحمر فاقع يميل بالأكثر الى اللون الوردي (٧٩١) ، وبقيت أسعارها في السوق الاوروبية أكثر انخفاضا بدرجة محسوسة من أسعار الياقوت الأصلي ، وبخاصة عندما تكون مثقوبة (٧٩٢) ، وهي حالتها بوجه عام (٧٩٣) . وكثيرا ما تكشف عن وجودها في دفاتر الجرد الخاصة ببيوت الأمراء ، وفي حسابات الملوك (٧٩٤) .

كانت بلاد الهند في كل الأزمان موطن أثمن أنواع الأحجار الكريمة . ولنبدأ بالهند نفسها : فسوق كمبلي تتلقى من داخل شبه الجزيرة خلقيدونيات calcedoines ، وكورنالين (عليق أحمر) Cornaline ، وبجادبات (٧٩٥) . ويبدو أن الكورنالين كان يصدر بكميات كبيرة

(٧٨٧) Ibn Haoukal, op. cit., p. 165 ; Edrisi, I, 178 ; Chehab-eddin, p. 243 et s. ; Ibn Batouta III, 59, 86; Cherif eddin, Hist. de Timbourbec., III, 357; Pegol., p. 118 et s. ; Clavijo, p. 182 et s., Clément-Mullet, p. 115 et s. ; les notes de Quatremère, dans son édition de Makrizi, II, 1, p. 71, et dans cell d'Abdelrazzak, Not et extr., XIV, 1, p. 222 et s., 490 et ss.

(٧٨٨) La carte no 3 jointe à l'éd. de Marco Polo de M. Yule : Polo, I, 168.

(٧٨٩) Chehab-éddin, p. 246.

(٧٩٠) Polo. l.c.

(٧٩١) Clément-Mullet, l.c., p. 112, Barbosa, p. 321, b ; Kluge, Eedelsteinkunde, p. 284 et ss.

(٧٩٢) Pegol. p. 307.

(٧٩٣) Uzz., p. 283.

(٧٩٤) Les compte de M. Douet r'Arcq. p. 124, 168, 169.

(٧٩٥) Conti, p. 37 ; Varthema, p. 157, a ; Corsali, p. 179, b ; Barbosa, p. 297; b. Garcia de Orto, p. 222.

الى أوروبا عن طريق مصر (٧٩٦) ٠ وفى مجاورات سندان Sindan (أعلا بومباى) وكمباى فى ولايات بلهرا ، ملك مانكير Balhara de Manki ، كان يوجد ، على الأقل فى زمن المسعودى (٧٩٧) ، طبقات أرضية من زمرد ، تعادل فى جمالها زمرد مصر العليا ، وتصل الى مكة عن طريق عدن وموانى أخرى فى جنوب بلاد العرب ٠ ويطلق عليها صناع الجواهر وتجارها اسم « المكية » mekki ، والى الجنوب فى مرتفعات غات Ghâts خلف سواحل كنارا Canara (غرب الهند) ، وملبار ، نجد « صافير » (لازورد ، ياقوت أزرق) أقل جودة فى الحقيقة من صافير Saphir سيلان (٧٩٨)٠ غير أنه من بين كل الأحجار الكريمة التى عددناها حتى الآن ، لم يكن واحد منها يضارع أنفسها كلها ، وهو الماس ٠ كانت طبقات الماس موجودة فى القسم الشرقى من الهند ، فى خمس مقاطعات متميزة ، محصورة بين حوض نهر بنير Pennair والمجرى الأوسط لنهر الجانج Gange أى بين خطى العرض ١٤° ، ٢٥° شمالا ٠ فهل كانت كل الطبقات المعروفة حاليا موجودة هناك أيضا فى العصور الوسطى ؟ ربما كان من الخطأ تأكيد ذلك ٠ يذكر ماركو بولو أن البلد الوحيد الذى يوجد به الماس ــ ولعله محق فى ذلك فى العصر الذى كتب فيه ــ مملكة مونتفيلى Montfili التى أطلق عليها مؤلفون آخرون اسم أمبراطورية Télingana (تلينجانا) (٧٩٩) ، وينسب اليها دون سبب معقول اسم ميناء مونتابالى (Montapali, Motupalle) ، ويقع هذا الميناء جنوبى مصاب نهر كريشنا Krichna ، وكان له فى ذاك الأوان أهمية أكبر مما له فى الوقت الحاضر ، ويظهر على الخريطة القطالونية باسم Butfilis (٨٠٠) ٠ ويتردد اسم كرشنا أو كستنا Kistna كثيرا فى كتابات المؤلفين اللاحقين لماركو بولو ، ودائما فى خصوص الماس ، وعلة ذلك أن مناجم الماس التى أضفت شهرة عالمية على مدينة جولكوندا Golconde توجد فى المجرى المتوسط والعلوى من هذا النهر (٨٠١) ٠ ومن جهة أخرى ، يذكر كونتى الذى زار بيسناجور Bisnagor القديمة أنه كان يوجد ماسات على مسيرة

---

(٧٩٦) Barbosa, l.c.

(٧٩٧) Maçoudi, III, 47 et s ; cf. I, 177; Lassen, Ind. Alterth., II, 855 not., III, 171, 490 et s., 536 et s.

(٧٩٨) Barbosa, p. 322, a ; Garcîa de Orto, p. 221.

(٧٩٩) Valentino (da) Moravia (1515) dans de Gubernatis, p. 170.

(٨٠٠) M. Yule (II, 297).

(٨٠١) Ritter. Erdk., VI, 350.

وهى مملكة مورفيلى أو مونصول أو مولفولى ، وفى الواقع هى موتشلى باتان ، وهو اسم مدينة قصبة حلت محل اسم الاقليم ، فهى مدينة وميناء تجارى قرب مصب نهر الكستنا ، تتبع مملكة جولكوندا والتى كانت تشتهر بميناء ماسو ليباتام ٠ (المرجع) ٠

خمسة عشر يوما شمالى هذه المدينة (٨٠٢) • هذا البيان ينطبق تماما على موقع مناجم الماس التى استدل عليها فى المجرى المتوسط لنهر كرشنا ، غربى جولكوندا (٨٠٣) • ويميز بعض الكتاب المعاصرين لعهد السيادة البرتغالية بين ماسات المنجم القديم التابع لمملكة الدكن Dekan وماسات منجم اكتشف حديثا فى مملكة نارسنجا Narsinga التى كانت عاصمتها مدينة بيسناجور التى زارها كونتى ، ويقولون ان ماسات المنجم الأول كانت تفوق جودتها ماسات المنجم الثانى ، ولكنهم لا يحددون بالضبط موقع أى من المنجمين (٨٠٤)• وصنفت أيضا ، بعد ماسات مملكة نارسينجا ماسات صفراء من مجاورات باليكات Paleacate ، وهى حاليا بوليكات Poulicat شمالى مدراس (٨٠٥) • يثبت هذا أنه من القرن السادس عشر كانت تستغل طبقات الماس الموجودة فى أقصى الجنوب ، والمعروفة حاليا فى الهند (٨٠٦) • وبوجه عام ، فان انتاج مناجم الماس فى العصور الوسطى كان أكبر مما هو عليه فى الوقت الحاضر • وكان المعروف أن ملوك الهند المسلمين كانوا يملكون وحدهم كميات هائلة من الماس (٨٠٧)• ومهما كانت ضخامة هذه الكميات فانه لم يكن يصل منهـا الى الغرب الا القدر اليسير • ومع ذلك فلم يكن ثمة أمير فى أوروبا لا يملك بعض الماسات ضمن حليه •

وفى بلاط فرنسا ، وبخاصة برجنديا ، كان الصناع المهرة الذين يقطعون الماس ويصقلونه لا يكفون عن ممارسة حرفتهم هذه • وفى باريس، وبروج ، على سبيل المثال كانوا يشكلون طائفة خاصة • ويعرض علينا باربوزا قائمة بأثمان الأحجار الكريمة الرئيسية فى مستهل القرن السادس عشر (٨٠٨) ، ونتبين بها فرقا هائلا لصالح الماس • ولم يكن الأمر كذلك فى القرن الثالث عشر حين استعلم التيفاشى Teifachi عن ثمن الأحجار الكريمة فى أسواق بغداد والقاهرة : فقد كان متوسط ثمن الياقوت الأحمر وقتئذ أعلى من ثمن الماس(٨٠٩) • وبخصوص الياقوت الأحمر ، يبقى علينا أن نبحث عن موطنه الأصلى • والمعروف أن أرض سيلان تحتوى

(٨٠٢) P. 57 ; Cf. p. 37 ; Ederici (p. 297, a) et Garcia de Orto (p. 218) ; Elliot, Hist. of India, IV, 107.

(٨٠٣) M. Lassen, Ind. Alterth., IV, 159 ; M. Ritter, l.c.

(٨٠٤) Barbosa, p. 321, b ; Garcia de Orto, l.c., cf. Barbosa, p. 301. Varthema, p. 158, a.

(٨٠٥) Corsali, p. 180, a.

(٨٠٦) Ritter, VI, 346 et s.

(٨٠٧) Labord, Notice des émaux, II, 247 et ss.

(٨٠٨) 320, b-322, b.

(٨٠٩) Clément-Mullet, p. 510 et s.

على مجموعة لا حصر لها من الأحجار الكريمة ، وبعضها ذو قيمة كبيرة . وتتركز الطبقات الأساسية في المجموعة الجبلية القائمة وسط الجزيرة ، وتشرف عليها قمة آدم Adam (٨١٠) . والسيول التى تتدفق من هذه الجبال تجلب معها الأحجار الكريمة ، وترسبها في الوديان والسهول حتى شاطىء البحر . وفي القسم الجنوبي من الجزيرة يكفى كشط رمال الجداول أو طمى السهول للكشف عن الأحجار من كل نوع ، فيما عدا الماس ، على عكس ما يردده بعض المؤلفين (٨١١) . من ذلك المعل (الياقوت الأحمر) ، واللازورد (الياقوت الأزرق) ، والزبرجد (الياقوت الأصفر) ، والبجادى ، والبلخش ، والجمشت ، وعين الهر (٨١٢) ، الخ (٨١٣) . وليس أى حجر من هذه الأحجار من منتجات سيلان . ومع ذلك كان الياقوت الأحمر يحظى بتقدير عظيم حتى ان كوسماس Cosmas لا يذكر سواه بين منتجات الجزيرة (٨١٤) ، كما أن بيلادورى Bladori يسمى الجزيرة نفسها جزيرة الياقوت (٨١٥) . ومع ذلك لم يكن الياقوت وفيرا ، ولم يكن موجودا خارج دائرة ضيقة للغاية (٨١٦) ، ولم يكن له مع ذلك نظير في جودته ، واذا كان ينقصه شيء من تالق الألوان ولمعانها ، فان السنجاليين كانوا يعالجون هذا النقص بتعريض الحجر بضع ساعات لجمر متقد ، وهي تجربة يقاومها الياقوت الحقيقى فلا ينفجر بفضل صلابته التى تفوق صلابة الماس (٨١٧) . ولم يكن ياقوت الهند الصينية

---

(٨١٠) Edrisi, I, 71 et s. ; Kazwini dans Gilremeister, p. 198; les manuels de l'amateur de pierreries de Teifachi, publié par Elément-Mullet, l.c., p. 40 et s. ; Mohammed ben Mansour dans les Fundzr. des Orients, VI, 130.

(٨١١) Ibn Khordadbeh, p. 285 ; Edrisi, I, 71 et s. ; Kazwini dans Gildemeister p. 198 ; Oderico da Pordenone, p. xxi.

(٨١٢) حجر كريم او صخرة ، فيها خط واضح له تاثير الضوء فى عين الهر .

(٨١٣) Relat., p. 5 ; Quatremère dans le Journal des savants ; dec. 1846, p. 519; Ibn Batouta IV, 173 et s. ; M. Polo, p. 586 Conti, p. 39 ; Hier. di S. Stefano, p. 345, b ; Varthema, p. 163, ; Corsali, p. 179, b 180, a, 184, a ; Barbosa, p. 314, a, etc. Tennent, Ceylon, 4e éd., I (1860), p. 31-40.

(٨١٤) Ed. Montfaucon, p. 336 et s.

(٨١٥) Journ. Asiat., 4e érie, V, 163 et s.

(٨١٦) Roteiro, p. 109; Ibn Batouta, l.c.

(٨١٧) Teifachi, l.c., p. 46 ; Kenz et Tudj-djar, ibid. p. 48 et s. ; Barbosa, p. 314, a, 321, a ; Kluge, Ede's'einkunde, p. 130 et s.

يعد بودا هو مؤسس نظام السنجاليين Singa'cse الدينى وأهل سيلان يقدسونه وينسبون آثار القدم التى على الجبل اليه لا الى ادم كما يعتقد المسلمون . (المراجع) .

فى حاجة لأن تجرى له هذه التجربة ، لأنه يملك بريقا أحمر قويا ، ولكن ياقوت سيلان اشتهر بأنه أكثر صلابة وأغلى ثمنا ·

وفى مستهل القرن السادس عشر ، علم الغرب (٨١٨) أن الهند الصينية تصدر أيضا الى الهند ياقوت ذا قيمة كبيرة حيث يصقل فيها ، ومكان التصدير هو بيجو Pégou · ولكن بامعان النظر نتبين أن هذا الياقوت ياتى من منطقة أفا Ava ، أو من جبال كابيلان Capellan ، أو كابلانجام Capelangem ، شرقى هذه المدينة · وتحتوى أرض الهند الصينية أيضا على بلخش أو صافير (ياقوت أزرق) (٨١٩) ·

هذه الأحجار الكريمة الواردة من الهند الصينية ، اذ تنقل الى أسواق بالياكات ، شمالى مدراس ، فانها تختلط هناك بالأحجار الكريمة الواردة من سيلان ، وماسات الدكن Deccan · هذا الجمع من الأحجار الكريمة الواردة من جهات مختلفة جعل من هذه المدينة أهم سوق فى الهند لهذه السلع (٨٢٠) بل وأهم على كل حال من سوق قاليقوط المتخصصة فى الأحجار الكريمة الواردة من سيلان (٨٢١) · واذا أردنا البحث عن الأسواق الرئيسية التى تمارس فيها هذه التجارة ، متجهين من الشرق الى الغرب ، نجد أسواقا فى فارس ، وهرمز ، وشيراز ، وطورس (٨٢٢) (تبريز) ، والسلطانية (٨٢٣) ، وبغداد (فى بلاد ما بين النهرين) (٨٢٤) ، وحلب (٨٢٥) ، ودمشق (٨٢٦) فى سوريا ، والقاهرة (٨٢٧) ، والاسكندرية(٨٢٨) ، فى مصر ، وأخيرا،على مشارف أوروبا ، القسطنطينية،

---

(٨١٨) Hier. di Stefano (p. 345, b) ; Roteiro, p. 112, M. Polo, p. 586.

(٨١٩) Varthema, p. 104, a, 165, b ; Corsali, p. 179 b ; Barbosa, p. 301, a, 314, a, 315, b, 315, b, 317, a, 320, b; 321, a, Sommar, p. 334, b ; Federici, p. 395, a, b; Serano, p. 225.

(٨٢٠) Varthema, p. 164, a ; Corsali, p. 179 b ; Barbosa, p. 315, b.

(٨٢١) Roteiro, p. 88 ; Sernigi, p. 120, a, b.

(٨٢٢) Barbosa p. 294, a ; Varthema p. 156, b ; M. Polo, p. 60 ; Ibn Batouta, II, 120 ; Ghistele, p. 310; Clavijo, p. 114.

(٨٢٣) Clement-Mullet, p. 503.

(٨٢٤) Ghistele, p. 291 ; Posi, p. 178, b ; 179, a ; 190, a.

(٨٢٥) Ludolf von Suthem, p. 98; wilh. von Boldensele, p. 284.

(٨٢٦) Clément-Mullet, l.c. ; Frescobaldi, p. 41 ; Gucci, p. 330 ; Nicc. da Poggibonsi, II, 60 et s.

(٨٢٧) Fel Fabri, III, 177.

(٨٢٨) Pegol., p. 307.

أو بالأحرى بيرا ، وحدد بيجولوتى (٨٢٩) قيمة الأحجار الكريمة تبعا لسعرها فى هذا الموقع ، فى حين أن التيفاشى Teifachi اتخذ أساسا لقيمتها الأسعار التى كانت تدفع فى زمنه (القرن الثالث عشر) فى بغداد والقـــاهرة (٨٣٠) ٠

وفى العصور الوسطى كان التجار الغربيون يتصلون بهذه الأسواق ارضاء لكبار السادة النبلاء ، الكنسيين ، والعلمانيين الذين كانوا شديدى الولع بالمجوهرات ٠ وكان الصاغة وتجار الجواهر يتولون تصنيع هذه الأحجار الكريمة ، ويكفى لمعرفة الأشياء التى يستعملونها فى صنعها تصفح قوائم كنوز بيوت الأمراء والكنائس ، أو مشاهدة منتجاتهم فى متاحفنا ، فهى تكشف عن براعتهم وحذقهم ٠ ولا يدخل فى موضوعنا البحث عن مزيد من التفاصيل ، فذلك من شأن تاريخ الصناعة ، الذى يحكى عما بذل من محاولات فى الغرب لتقليد الأحجار الكريمة واللآلىء (٨٣١) ٠

الفلفل (الأسود والأبيض)

الفلفل هو العينبة (ثمرة لحمية كالعنبة ـ المترجم) المجففة لنبات بيبير نجرام Piper nigram ، اسود اللون حين يجفف فى الشمس دون أن ينزع جلده ، وأبيض حين ينزع أولا جلده ٠ ويكفى بضع كلمات لوصف هذا النوع الأخير ٠ فالفلفل الأبيض قلما ذكرته المصــادر التى رجعنـا اليها ، مما يثبت أنه لم يكن معروفا فى الغرب فى العصور الوسطى ، كما فى الوقت الحاضر كان يجد له هواة فى الشرق ٠ وفى هذه البلاد كان يفضله على ما يبدو كثير من الأشخاص بدعوى أن طعمه أقل لذعا ، وأنه أقل اجهادا للمعدة من النوع الآخر (٨٣٢) ٠ وقد رأى ماركو بولو كميات كبيرة منه فى أرخبيل ماليزيا (٨٣٣) ، والراجح أنه كان يصدر من هناك الى الصين حيث لم يزل مرغوبا فيه الى وقتنا الحاضر (٨٣٤) ٠

(٨٢٩) Clément-Mullet, l.c.

(٨٣٠) Merrifield, Orig., treatie', p. 507 et ss.

(٨٣١) Pegol., p. 297 ; Uzz., p. ss ; Bonaini, Stat. Pis., II, 437; Bourquelot Foires, p. 291 ; Douet d'arcq., Comptes de l'argenterie., p. 236.

(٨٣٢) Marsden, Hist. of Sumatra, 3e éd., Lond. 1811, p. 139; Meyen, Pflanzen-geographie, p. 467; Ibn Beitar, II, 263.

(٨٣٣) Marco Polo, p. 550.

(٨٣٤) Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, 2e édition, p. 581.

والفلفل الأسود له جلد أسود مغضن ؛ وتشيع عنه أغرب القصص عند العرب ، وحتى عند الاوروبيين · اذ كان البعض يحكي أن الارض التى ينمو عليها تعيش فيهـا الافاعي ، ولا يعـرف أحد كيف يطردها سوى باشعال النار ، فيسود الفلفل وتجف بذوره (٨٣٥) · وتصور آخرون أن الفلفل يحمص (٨٣٦) · ومع ذلك ظهرت الحقيقة شيئا فشيئا ، مع ازدياد عدد الرحالة الذين جعلوا يزورون بلد الفلفل · وفى الشرق اسـهم ابن بطوطة (٨٣٧) ، وفى الغـرب مبشرون مثل جوردانس كاتالانى ، وأودريكو دابوردينونى ، ومارنيولا ، وتجار مثل نيكولو كونتى ، وييرون دى سان ستيفانو (٨٣٨) ، أسهم كل هؤلاء ، بنشر أخبارهم فى اذاعة أفكار أصح بشأن هذا المحصول الطبيعى المهم · وعرف من ذلك الحين أن الشمس وحدها تلعب دورا ، وذلك حين تطرح بذور الفلفل على حصر أو جوخ بعد اسقاطها من النبات ، وعرضها على أشعة الشمس المحرقة ، فتتخذ هذا اللون الأسود ، والمظهر المتغضن · كذلك أوضح هؤلاء أن شجيرة الفلفل نبات متسلق يتعلق بالأشجار ، مثل الكرمة (شجرة العنب) فى ايطاليا ، واللبلاب · كذلك عرفنا بنوع خاص المنطقة التى يأتى منها ، ومداها · فضلا عن ذلك كانت هناك بيانات ترجع الى عصور سابقة · فلمعرفة أن ساحل مليار كان الموطن الحقيقى للفلفل كان يكفى الرجوع الى أخبار رحلة معروفة برحلة « اريانوس Arrien » وكذلك فمنذ أواسط القرن السادس كتب كوزماس ، فى أعقاب رحلته الى الهند مذكرات يتكلم فيها عن بلد الفلفل الذى يسميه بلد « ميل Male » ، ويذكر فيه خمسة موانى (٨٣٩) يصدر هذا المحصول منها · وتحت الأسماء التى يذكرها ، من السهل أن نتعرف فى مانجاروث Mangaruth على مدينة مانجلور الحالية ، وفى بودوباتانا Pudopatana على بودفاتان Boddfattan لابن بطوطة ، وتقع على مسافة غير بعيدة من تلليشيرى Tellicherry (٨٤٠) · وتشابه الأسماء يجعل من السهل تقريبا التعرف على الأماكن · ولم يكن العرب القدامى يجهلون من أين يأتيهم الفلفل الذى يتلقونه عن طريق

---

(٨٣٥) Jacq. de Vitry, p. 1099; Harff, p. 146.

(٨٣٦) Ibn Batouta, IV, 77, Jord. Catal., p. 49, et Marignola, p. 88.

(٨٣٧) Ibn Batouta, IV, 76 et s. ; Edrisi, I, 172, Aboulfeda, Géogr., II, 2. p. 115.

(٨٣٨) Jord. Catal. l.c. ; Oderico da Pordenone, p. xi, xiii ; Marignola, l.c. ; Conti, p. 40 ; Hier di S. Stefano, p. 345, a.

(٨٣٩) Montfaucon, Collectio nova Patrum, II, 337

(٨٤٠) Yule, Cathay, II, 451, 453 ; Dulaurier, Journal asia., 4 série, VII, 155.

سيراف وعدن (٨٤١) : فعندهم منذ عهد بعيد كان اسم ملبار مرادفا لبلد الفلفل (٨٤٢) ٠

كان ماركو بولو أول رحالة غربي وصف الهند عيانا ، وتبين له أن زراعة الفلفل منتشرة في ممالك كثيرة متناثرة على طول الساحل الغربي لشبه الجزيرة ، أى ليس في مملكة ملبار وحدها ، ولكن أيضا في ممالك اسماها جوزيرات Garzurat ، وايلى Ely ، وكوالن Coilun (٨٤٣) ٠ فاذا كان يقصد بما سماها مملكة جوزيرات اقليم كجرات الحالى Goudjerate ، فانه يكون بذلك الكاتب الوحيد الذى زعم أن زراعة الفلفل تمتد أيضا مسافة بعيدة نحو الشمال : بل لقد اتهم الادريسى نفسه بالمبالغة حين روى أن شجيرة الفلفل تنمو بوفرة في جزيرة تقع في مواجهة باروتش Barotch ، أى في منطقة خليج كمباى (٨٤٤) ٠ غير أن ماركو بولو يقول ان هذه الشجرة لا وجود لها في تاناه (بالقرب من بومباى) Tanah (٨٤٥) وفى الوسع ، بامعان النظر في فكره ، أن نرى أن حدود مملكة جوزيرات واقعة بين تاناه وبين ملبار ، أى أنه يجعلها جنوبى تاناه ، ومن ثم فلا علاقة لها بكجرات ، أو لعل ماركو بولو لم يتحدث بشأنها الا بما سمعه عنها ، وأعتقد أنها تقع بعيدا الى الجنوب ، أبعد من حقيقتها (٨٤٦) ٠ وفيما يختص بمملكة ايلى ، فان ذكره اياها لا يتيح مجالا للمناقشة : فان اسم هذه المملكة موجود في اسم رعن جبل ديلى Mount Dely ، شمالى كنانور ٠ وأخيرا فان وصف زراعة الفلفل في مملكة كوالون (كويلوم ، كولام) يحمل كل خصائص المشاهدة الشخصية ٠ وكان بنيامين دى توديل يعرف أن شجيرة الفلفل توجد بوفرة في مجاورات هذه المدينة (٨٤٧) ٠ وفيما بعد توقف اثنان من المبشرين من الرهبان الفرنسيسكان، اودريكو دا بوردينونى، حين كان ذاهبا الى الصين (١٣٢٤ ـ ١٣٢٥) ، وميرنيولا عند عودته من الصين ، توقفا عند كويلون ، أحدهما عند مروره بها ، والثانى أقام بها أكثر من سنة (١٣٤٨ ـ ١٣٤٩) (٨٤٨) ، وسنحت لهما فرصة كافية لمتابعة نمو

---

(٨٤١) Isstachri, p. 74 ; Edrisi, I, 51, 172.

(٨٤٢) Ibn Khordadbèh, p. 284.

(٨٤٣) M. Polo, p. 644, 648, 653, 660.

(٨٤٤) I, 178 .

(٨٤٥) M. Polo, p. 663.

(٨٤٦) M. Yule, II, 336 et s.

(٨٤٧) Benj. de tudéle, éd. Asher, p. 139.

(٨٤٨) M. GermanaZ Die flirche der Thomaschristen, p. 194, 199 et s.

هذه الثمرة حتى تمام نضجها ، ويحيطا علما بالكميات التى تصدر منها الى « العالم بأجمعه » (٨٤٩) ٠

واذا أخذنا بما يقوله اودريكو دابوردنيونى ، فلم يكن أكبر انتاج للفلفل قاصرا على ضواحى كويلون ، وانما يمتد على طول الساحل ، شمالى المدينة الى مسافة تقدر بمسيرة ثمانية عشر يوما ٠ فهو يقول ان الساحل كله (٨٥٠) من فلاندرينا Flandrina الى سنجيلين Cyngilin مغطى بغابة من شجيرات الفلفل المتلاصقة : على أنه لا ينبغى أن نأخذ هذا الكلام على علاته ، ذلك لأن شجيرة الفلفل تحتاج لكى تثمر الى ضوء وهواء (٨٥١) ٠ ومدينة فلاندرينا هذه ليست الا مدينة فندرانية Fandaraina التى ذكرها كل من الادريسى وابن بطوطة ، وهى جهة زالت من الخرائط منذ زمن بعيد ، وتقع على بعد حوالى عشرين ميلا انجليزيا شمالى قاليقوط (٨٥٢) ٠ ويعتقد السيد يول أن سنجيلين تقابل كرانجانور Cranganore (٨٥٣) ، ورأى أنها بالأحرى كايان كولام Kayan Koulam على بعد بضعة أميال شمالى كويلون ٠ وتنبئنا مصادر أخرى بأن مجاورات هذه المدينة تنتج كمية كبيرة من الفلفل (٨٥٤) ٠ واذ تحدد على هذا النحو الاقليم الذى بلغت فيه هذه الزراعة أعلى درجة من الوفرة والاتساع ، نلاحظ أنه يوجد بين هذين الحدين كوشين وقاليقوط (٨٥٥) ، وهما مدينتان لهما أكبر درجة من الأهمية فى تاريخ تجارة الفلفل ٠ ومع ذلك فالثابت أن زراعة الفلفل لا تنحصر كلها فى الحدود التى ذكرناها ، انما كانت تجارتها تزاول فقط فى أماكن قليلة ، بكثافة واحدة ، ولم تشغل فى أية جهات أخرى دون انقطاع مساحات شاسعة مماثلة ٠ ففى الجنوب مثلا كانت هذه الزراعة تمتد حتى رأس قومورين (٨٥٦) أو بالأصح حتى جرباتن Djerbatan ، فى مواجهة جزيرة سيلان (٨٥٧) ٠

---

(٨٤٩) Oderico, p. xi, xiii, Marignola, p. 88 et s., 111, 113.

(٨٥٠) L.C., p. xlii ; Massari, p. 33.

(٨٥١) Ritter, Erdk., V, 869.

(٨٥٢) Yulo, Cathay, I, 75 ; II, 453 et s.

(٨٥٣) Ibid, I, p. 75 II, p. 455. ; Roteiro, p. 108 ; Gdynocus, Nouv. orbis, éd. de 1555, p. 207; Massari, p. 27.

(٨٥٤) Varthema, p. 136, a ; Barbosa, p. 312, b ; Sommario, p. 333, a.

(٨٥٥) Ibn Batouta, IV. 77, Conti, p. 48 ; Hieron di S. Stefano., p. 345, a ; Msasari, p. 27.

(٨٥٦) Garcia de Orto, p. 181.

(٨٥٧) Edrisi, I, 179, 184.

ومن جهة أخرى ، وجدت شمالي فندرانية شجيرات الفلفل متناثرة في مملكة كنانور (٨٥٨) ، ثم في مملكة ايلي ، كما يقول ماركو بولو ، وفي مجاورات مانجلور (٨٥٩) ، وباتيكالا Battecala (٨٦٠) ، حيث كان الانتاج غزيرا ، وكلما تقدم المرء شمالي مملكة كانارا Canara أصبحت بالتدريج أكثر ندرة ، حتى تتلاشى تماما ٠ وبالنسبة للعرب يشكل كل هذا الجزء من الساحل ملبار ، ويجعلون حده الشمالي عند سندابور Sindabour الذي يقابل موقعه على الأرجح مدينة جوا Goa الحالية (٨٦١) ٠

كانت جزيرة سيلان تنتج الفلفل هي أيضا : وهذه حقيقة ثابتة منذ زمن موغل في القدم (٨٦٢) ، والراجح أنها تنافس ساحل ملبار في تزويد أوروبا بما تحتاج اليه منه ٠ وفي الفترة التي كان فيها البرتغاليون يحكمون ملبار ، ويركزون في أيديهم تجارة الفلفل في تلك المنطقة ، كان ثمة مهربون جريئون يحملون الى مكة فلفل سومطرة (٨٦٣) ، ومن هناك يمضون دون شك الى أوروبا ٠ فضلا عن ذلك ، كانت منتجات المناطق الواقعة بعد الهند تتخذ غالبا وبوجه عام طريق الصين(٨٦٤) ٠ وقد تغيرت أذواق الصينيين (٨٦٥) ، ولكنهم كانوا في ذاك العصر شديدي الولع بالفلفل ، اذ كانوا يدفعون بسهولة خمسة عشر دوكا لصاع واحد لم يكن يتكلف في سومطرة سوى اربعة دوكات (٨٦٦) ٠ وقدر ماركو بولو أنه في مقابل السفينة التي تقلع من الهند متجهة الى الاسكندرية ، أو بالأحرى الى الغرب ، حاملة شحنة من الفلفل ، تتجه مائة سفينة أو أكثر بشحنة الفلفل الى الصين (٨٦٧) ٠

---

(٨٥٨) Varthema, p. 158, b ; Barbosa, p. 311, a ; Garcia de Orto, l.c. ; Ibn Batouta IV, 84.

(٨٥٩) Ibn Batouta, IV, 80.

(٨٦٠) Massari, p. 35.

(٨٦١) Yule, Cathay, II, 444 et s., 450. Corsali. p. 179, a.

(٨٦٢) Ibn Khordadbèh, p. 285.

(٨٦٣) Conti, p. 40 ; Roncinotto, p. 108, b ; Hier. ri S. Stefano, p. 345 b. ; Varthema, p. 116, b ; Sommario, p. 344, b ; Corsali, p. 180, a ; Barbosa, p. 318, b, 322, b ; Bubernatis. Viagg. ital. p. 158.

(٨٦٤) Polo, p. 550 ; Somm., p. 337, a ; Cirsali, p. 180, a, Barbosa. p. 317, b : Garcia de Orto, p. 181 et ss.

(٨٦٥) Yule, Polo, II, 166.

(٨٦٦) Barbosa, p. 320, b.

(٨٦٧) Marco Polo, p. 531 ; Empoli, p. 87.

ومع ذلك ، لم تكن كميات الفلفل التى تأتى بها التجارة الى أوروبا قليلة ، ولم يكن ثمة طريق برى أو بحرى يتجه من الشرق الى الغرب لا يمر به الفلفل بقدر ما • لذلك فاننا نضيع وقتنا ان حاولنا أن نعثر فى كتب التجارة والتعريفات الجمركية على اسماء كل الأسواق التى توجد فيها هذه المادة • وقد رأينا فى سياق دراستنا هذه ان مصر كانت تشغل من حيث « الترانزيت » المرتبة الأولى مع كل ما فى هذا الوصف من مزايا ومساوىء • وفى الغرب ، احتكرت البندقية القسم الأكبر من هذه التجارة، الى اليوم الذى استولت فيه البرتغال على تجارة الهند بوجه عام • غير أنه لم يكن ثمة مدينة ، كبيرة كانت أو صغيرة لم تكن لتجارة الفلفل فيها فروع • فبغض النظر عن العطارين (٨٦٨) ، لم يكن ثمة تاجر يسافر من أجل أعماله لا يحمل معه فلفلا ، ولو لسداد رسوم الترانزيت أو الدخول • وبالفعل كانت هذه الرسوم فى كثير من الأنحاء تحدد بالفضة والفلفل ، وحتى بالفلفل وحده (٨٦٩) • وكان اليهود يدفعون غراماتهم وضرائبهم كلها بالفلفل ، فالواقع أن عددا كبيرا منهم يزاولون التجارة (٨٧٠) ، وكان من المسلم به بوجه عام ، ودون حاجة الى اثبـــات ، أن كل انســـان ، حتى ولو لم يكن من أهل التجارة ، عنده فلفل فى بيته • وثمة ضرائب كانت تجبى بالفلفل من البورجوازيين ، والفلاحين ، ورجـــال الدين ، وغرامات يحكم بها على هؤلاء فيدفعونها بالفلفل بدلا من النقود (٨٧١) •

وقد أثبت السيد كاناليه Canale فى كتابه « تاريخ جنوا » ، والسيد تشبراريو M. Cibrario فى كتابه « الاقتصاد الســـياسى فى العصـــور الوسطى » ، والسيد ليبر M. Laber فى كتابه الذى ذكرناه من قبل ، أثبتوا قوائم الأسعار لمختلف الأغذية المستعملة فى عصرهم ، وأدى السيد روجـرز M. Rogers (٨٧٢) العمل نفسه بالنسبة لانجلترا : ويؤكد لنا هؤلاء أنه اذا أردنا كتابة تاريخ التغيرات التى طرأت على أسعار التوابل ، فليس هناك من هذه التوابل ما نملك عنه معلومات وافية بقدر ما نملك من معلومات عن الفلفل • ومهما كانت هذه السلعة واسعة الانتشار ،

---

(٨٦٨) Géraud, Paris sou Philippe le Bel, p. 531 ; Boileau, Règlements sur les arts et métiers de Jaris, p. 322.

(٨٦٩) Hüllmann, Städtewesen des Mittelalters, I, 29 et s.

(٨٧٠) Cassel, art. Judden, dan Ersch et Gruber, p. 112 ; Deppring, Hist du commerce entre le Levant et l'Europe, I, 288 et s. ; Michel, Hist. du commerce de Bordeaux, II, 414 et s.

(٨٧١) Leber, Essai sur l'appérciation de la fortune pricée au moyen âge, 2 éd., p. 108 ; Lib. jur. I, 134, 145.

(٨٧٢) A history of agriculture and prices in England, vol. I, p. 635 et ss., vol II, p. 543 et ss.

فان ثمنها يوجه عام كان مرتفعا على الدوام ، بحيث لم يكن في متناول الطبقات الفقيرة ، على الأقل بصورة اعتيادية (٨٧٣) . لذلك كان يتخذ منه هدايا (٨٧٤) : فقد اعتقدت الجمهورية أنها كانت سخية حيال الامبراطور هنرى الخامس حين تعهدت بتزويده سنويا بخمسين رطلا من الفلفل (٨٧٥) .

وفي العصور الوسطى ، كان الناس يحبون الأطعمة المتبلة ، وكل ما يحث الناس على الشراب ، ومن ثم كان الفلفل مطلوبا بالضرورة : فكان يوضع منه مع اللحم والسمك(٨٧٦) لتتبيلهما ، كما كان الناس مولعين بالصلصة المتبلة بالفلفل (٨٧٧) . وكان الفلفل يوضع حتى في الحلوى (٨٧٨) .

الفلفل الطويل (الفليفلة ، الفلفل الأحمر)

بعد أن تكلمنا عن الفلفل المستدير Pèter tondo كما يسمى أحيانا (٨٧٩) ، وهو النوع الذى كان موضوع الباب السابق ، يتعين علينا أن نقول بضع كلمات عن الفلفل الطويل : وهو أيضا ثمرة فلفلية Pieper officianarum Cas de Cand وثمرة نباتات أخرى من نفس الفصيلة ذات الانتاج الأقل جودة . وكان « كونتى » أول من لاحظ من الرحالة الغربيين وجود الفلفل الطويل في سومطرة : ومعظم المصادر التى تكلمت عنه تذكر موطنا له أولا سومطرة ، وبخاصة منطقة

(٨٧٣) Rogers, l.c., I, 627 ; Leber, l.c., p. 95, 305.

(٨٧٤) Jaffé, Biblioth. rer. german., III, 110, 156, 199.

(٨٧٥) Charte du 22 mai 1111 : Valentinelli Regester, lére partie, p. 416, dans les Abh. der hist. Cl. der München. Akar., IX (1866), p. 415.

(٨٧٦) Radulf. de Diceto, éd. Twysden, p. 526 ; Schultz, Das Höfische Leben, I, 289, 293 et s.

(٨٧٧) Ekkeh., l.c. p. 154 ; Guiot de Provins, la Bible, éd. Barbazan et méon, Fabliaux et contes, II, V. 1540 et s. ; Schultz, l.c., I, 284 et s., not. 287.

(٨٧٨) Rogers, l.c., I, 627.

(٨٧٩) Pegol. p. 297; Uzz., p. 56.

بيدير Pedir شـــمالى الجزيرة ، ثم جـــاوه (٨٨٠) ٠ ويقـــول جارسيا دى اورتو ، ومؤلفون آخرون ان موطن الفلفـــل الطويل هو البنغال (٨٨١) ٠ ولما كان هذا الاقليم الهندى ، وجزيرتا جاوة وسومطرة أبعد عن أوروبا من البلاد المنتجة للفلفل الأسود ، فان هذا سبب كاف لأن ندرك أن الفلفل الطويل كان أكثر ندرة من الآخـــر فى أســـواق الغرب (٨٨٢) ، ومع ذلك كان من الضرورى أن يكون موجـــودا منه فى حوانيت العطارين (٨٨٣) ، وكثيرا ما كان يستعمل فى الطبخ (٨٨٤) ٠

الراونـــد Rhubarbe

تفيد بعض المعلومات الحديثة بأن الراوند الحقيقى هو جذر نبات : Rheum officinale Baillon ، وأنـــواع أخـــرى من الـ « رروم » Rheum من نفس الفصيلة لم تتح الفرصة حتى الآن لتحديد خصائصها النباتية (٨٨٥) ٠ وكان العرب يعرفون الراوند تمام المعرفة ، ولا يجهلون أنه يأتى من الصين ، ويباع عندهم باسم راوند فارس ، أو راوند الترك ٠ الا أن الأطباء العرب كانوا يعرفون تمام المعرفة أنه فى الحقيقة نوع واحد من الراوند ، يرد من الصين ، وأنه قد أطلق عليه هذان الاسمان لأنه يرد عن طريق فارس ، وبلاد الترك (٨٨٦) ٠ وليس ثمة شك فى أنه فى العصر الذى لم تكن فيه طرق القوافل فى وسط آسيا متاحة للتجـــار الأوروبيين ، كان هؤلاء يتسلمون الراوند من العرب ٠ وفى وســـعنا ، بالرجوع الى هذه السلعة فى قوائم جمارك عكا (٨٨٧) أن نؤكد دون تردد

---

(٨٨٠) Conti, p. 40 ; Hieron. di S. S. Stefano, p. 345, b; Corsali, p. 180, a ; Varthema, p. 166, b ; Barbosa, p. 318, b ; Federici, p. 397, a.

(٨٨١) Garcia de Orto, p. 182 ; Massari, p. 28 ; Federici, l.c., Jord. Catal. .(p. 49).

(٨٨٢) Pegol., p. 18, 57, 65, 99, 211, 218, 229, 297 ; Bonaini, Stat. Pis., III 502 ; Douet d'Arcq, Comptes de l'argenterie, p. 236 p. 236 ; Bourquelot, Foires, p. 291 ; Capmany, Mem., II, app p. 78.

(٨٨٣) Flückiger, Frankfurter Liste, p. 11 ; Nördlinger Register, p. 5.

(٨٨٤) Ménagier de Paris, passim ; Traité de cuisine, dans la Biblioth de l'Ecol de chartes, 5 série, J, 209 et ss.

(٨٨٥) Flückiger and Hanbury, Pharmacographia, 2éd., p. 491 et ss.

(٨٨٦) Edrisi, I, 187; Ibn Beitar, I, 482.

(٨٨٧) Assis. de Jérus., II, 176.

أنه لا ياتي من أى مصدر آخر ·ويعطي بيجولوتي وصفا دقيقا عنه (٨٨٨)· وعندما ألف كتابه كانت طرق وسط آسيا قد انفتحت بالفعل للتجارة · ومن أوائل الرحالة الذين تجرؤوا على ارتياد هذه الطرق جويوم دى روبروك Guil. de Rubrouck ، اذ رأى الراوند يستعمله كدواء راهب يزاول التطبيب ، ويقيم فى بلاط منجو Mangou خان المغول (٨٨٩) · وتعقب ماركو بولو آثاره ، وتجاوزها فعبر صحراء منغوليا ، ودخل الصين حيث عاش عدة سنوات ، وأطلق على أول اقليم صيني وطأته قدماه اسم تانجوت Tangut : وهى تقابل على وجه التقريب اقليم كانسو Kansou الحالى ، ووجد هناك الراوند . وعلم أنه من حاصلات جبال ذلك القطر(٨٩٠)·ويتحدث أودريكو دا بوردبنونى بعبارات المديح عن حاصلات اقليم آخر اسمه « كانسان » Cansan ، ويقول ان الرواند شائع هناك (٨٩١) · ولابد أن اقليم كانسان (كنشان Kenchan) القديم هذا يقابل ، ولو جزئيا اقليم شان سى الحالى Chan-si · ولنرجع أخيرا الى شاهد ثالث ، لاحق فى الواقع للعصور الوسطى · ففى العصر الذى عاش فيه — راموزيو Ramusio ، الذى كان يجمع بهمة أخبار الرحلات ، رأى فى البندقية تاجر راوند من مواطنى جيلان Ghilan اسمه «حاجى محمد» أيد تماما معلومات ماركو بولو · فهذا التاجر قام برحلات عديدة الى الصين، ولكنه لم يتجاوز مدينتى Succuir و Campicn الواقعتين على الحدود لأن الصينيين لم يسمحوا للقوافل بالتقدم بعدهما ، وذكر ان الراوند ينمو على الجبال الصخرية فى مجاورات Succiu (٨٩٢) · هذه المدينة هى سكوير Succuir التى ذكرها ماركو بولو ، وهى حاليا سو شاو Sou-chao · أما كامبيون ، فانها تقابل كامبسيو Campiciou حاضرة تانجوت ، فى أخبار ماركو بولو (٨٩٣) ، وهى حاليا كان شاو Kan-Cheo ، أو كان تشيو Kan-tcheou ، والمدينتان تتبعان اقليم كان سو الحالى · وهكذا يشير اثنان من مصادرنا الى اقليم كان سو (٨٩٤) ، ومصدر واحد الى اقليم شان سى Chen-si .

(٨٨٨) Pegol., p. 377.

(٨٨٩) Guill. de Rubrouck, p. 323, 324, 342.

(٨٩٠) Marco Polo, p. 165.

(٨٩١) Yule, Cathay, I, p. 148 ; II, app. 1, p. xxxvi.

(٨٩٢) Ramusio, Navigationie viaggi, II, 14, b-16, b.

(٨٩٣) M. Polo, p. 165.

(٨٩٤) M. Flückiger, l.c., p. 9 ; "grande géographie de la chine".

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الراوند الحقيقى هو الراوند الآتى من هذين الاقليمين ، ومن اقليم ثالث الى الجنوب منهما ، هو اقليم سى تشوان Sé-tchouan لأن موطنه هو الجبال الشاهقة التى تشكل سلسلة بايانكارا Bayankara مركزها (٨٩٥) • ويوجد الراوند أيضا على الهضاب المرتفعة شمالى النبت ، وكان الادريسى يعرفه من قبل (٨٩٦) • ففى عصره كان الراوند يصدر من هناك الى جهات بعيدة ، غير أن هذه الحركة التجارية لم يعد لها وجود • ويبدو أن المناطق المرتفعة هى أنسب الأماكن لنمو الراوند : وقد زعم البعض أنه ينمو أيضا على شاطىء البحر ، الا أن أحدا لم يتحقق من صحة ذلك فى وقتنا الحاضر • اذ يقول ماركو بولو انه يوجد فى الجبال المجاورة لسيجوى Sigui (سويو ، سو شساو (Souiou, Sou-cheo) جنوبى مصب نهر كبانج (٨٩٧) ، الا أن السيد يسول Yule يشك فى صحة ذلك ، حتى فى عصر الرحالة ذائع الصيت• فهل لنا أن نعرف الطرق التى كان الراوند يسلكها عند وروده من جبال الصين الشاهقة الى الغرب ؟ يزودنا حاجى محمد ببعض المعلومات عن خط السـير الذى اتخذه فى هذا السـبيل ، على الأقل فى القـرن السادس عشر • فبعد أن أجرى مشترواته فى كامبيون ، وفى سكوير ، اجتاز صـحراء جوبى ، مارا بواحة خميل Khamil ، ثم سـار بمحاذاة السفح الجنوبى لجبال تيان شان حتى كاشغر Kachgar ، ومن هناك وصل الى سمرقند وبخـارى ، وأخيرا عاد الى وطنـه عن طريق هراة والساطانية • وفى عصر سابق كان على القوافل أن تحمل الراوند عن طـريق كاثـاى الى تانـا ، وقد وصـف بيجولوتى هذا الطريق • وعندما تجتـاز القوافل وسـط آسـيا ،• تتوقف فى مدن عديدة حيث تترك جزءا من حمولتهـا • وثمـة بعض الكتـاب المحدثين بنـوع ما ذكروا من أسـواق الراوند سـمرقند ، وهراة ، وطورس (تبريز) (٨٩٨) • ولا يذكر بيجولوتى فى هذا الخصوص سوى بعض موانى البحر المتوسط مثل بيرا ، والاسكندرية ، وفاماجوستا (٨٩٩) • وربما كانت بيرا تتلقى الراوند من تانا أو طربزون ، كما تتلقاه فاماجوستا من حلب ، ولكن بالاجمال كانت المدينتان تستقبلان قوافل تجتاز وسط آسيا • على حين ، يضعنا اسم الاسكندرية (٩٠٠) على طريق آخر : فهو

---

(٨٩٥) Richthofen, dans Petermann, Mittheilungen.
(٨٩٦) Edrisi, I, 494 : voy. M. Sprenger, dans Flückiger, l.c., p. 10.
(٨٩٧) P. 490. ; M. Flückiger (l.c., p. 12).
(٨٩٨) Clavijo, p. 191 ; Varthema, p. 156, b ; Ghistele, p. 310 ; Ramuso, II, 83, b.
(٨٩٩) Pegol. p. 18, 57, 65.
(٩٠٠) Roteiro chefez Vasco da Gama, p. 116.

يجعلنا نفكر في أنه في ذلك العصر كان الراوند يصدر أحيانا من الصين عن طريق البحر ، كما كان يحدث فيما بعد في عصر السيادة البرتغالية على الهند (٩٠١) . بقى أن نعرف ما اذا كان بعض تجار الراوند يفضلون هذا الطريق ، وهذا أمر مشكوك فيه ، لأنه من المسلم به ، كما ينبئنا جارسيا دى أورتو (٩٠٢) أن الراوند لا يتحمل سفرا طويلا . ويقول فيديرتشى Federici الذى كان على دراية بتجارة تصدير المنتجات الصينية بطريق البحر ، ان الراوند تنقله القوافل الكبيرة التى تجتاز بلاد الفرس (٩٠٣) .

واسم الراوند قلما يوجد فى كتب تجارة العصور الوسطى : ومع ذلك فانه كان على وجه اليقين منتشرا فى قسم كبير من أوروبا (٩٠٤) .

الزعفران Safran

يطلق اسم الزعفران Safran على مياسم زهرة الكروكس ساتيفس Crocus sativus المجففة . كان هذا النبات منتشرا فى العصور الوسطى فى كل أنحاء آسيا وأوروبا (٩٠٥) ، وكان موطنه الشرق الأدنى ، ومنه استوطن فى اسبانيا منذ القرن العاشر ، وطنه بها العرب على الأرجح (٩٠٦) . وشيئا فشيئا انتشر فى سائر بلاد أوروبا ، اما لأنه أرسل اليها من اسبانيا مباشرة ، واما على أثر العلاقات التى توطدت فى الحروب الصليبية بين الشرق والغرب . يبدو اذن أن الغربيين لم يكونوا بحاجة للذهاب الى الشرق للحصول على الزعفران ، وكان فى

---

(٩٠١) Corsali, p. 130, a ; Barbosa. p. 292, a, 310, b. 217, b. b. 320, b. 323, b ; Alvarez, p. 126, a ; Gubernatis, Viaggiatori ital., p. 159, 164.

(٩٠٢) Ed. Clusius, p. 297.

(٩٠٣) Federici, p. 390, b.

(٩٠٤) Bonaini, Stat. Pis., III, 106, 115 ; Chiarini, p. lxxxiii, a, b ; Capmany II, app., p. 74 ; Bourquelot, Foires de Champagne, p. 288 ; Merrifield, Orig. treaties, p. 89; Mon. Hung. hist.. Acta extera, I, 245.

(٩٠٥) Ritter, Endk. Kleinasien, I, 736 et ss. ; Bechmann, Beitr. Zur Gesch. der Erfind, II, 79 et ss. ; Flückiger and Hanbury, Pharmacographia 2 éd. p. 663 et s.

(٩٠٦) Maçoudi, I, 367 ; Ibn al-Awam, Livre de l'griculture, trad. Clément-Mullet, II. 116 et ss.; Calendrier de Cordoue (an 961, éd. Dozy, Leyde, 1873, p. 33, 109.

أسواق بيزا زعفران ايطاليا وقطالونيا (٩٠٧) : وكان الألمان يتزودون فى البندقية بزعفران بوليا ، وكلابريا ، ورومانيا (٩٠٨) • ومع ذلك يذكر بيجولوتى وجوده فى كل أسواق الشرق الأدنى التى يرتادها التجـــار الغربيون ، ولعله كان هناك بمثابة سلعة للاستيراد ، لا للتصدير • وقد تبين أن مصر وقبرص كانتا تجلبان من الغرب جزءا على الأقل من زادهما من الزعفران (٩٠٩) هـــذا صحيح ، الا أن صفات هـــذه المادة المستوردة لم تكن تفى بكل الحاجات • ويضع المسعودى زعفران اسبانيا فى مرتبة أدنى من مرتبة زعفران الشرق (٩١٠) • وثمة فرنسى ، صاحب دراسة فى تحضير الألوان ، فى القرن الثالث عشر غالبا ، وهو بيير دوســـانت أومير Pierre de Saint-Omer يعترف بأن انتاج بلده من الزعفران ردىء ، فى حين أن انتاج اسبانيا وايطاليا جيد ، ولكنه يضيف قائلا ان أحسن صنف من الزعفران ـ حسب شهادة ايزيدور Isidore هو زعفران قليقلة Cilicie (٩١١) • ولم يكن زعفران قليقلة هـــذا معروفا فى الكتب وحدها ، فقد كان الغرب يستورده • ومنذ الفترات الأولى من العصور الوسطى كان المصـــورون يستعملونه للرســـائل الذهبية (٩١٢) • أما زعفـــران كوريكوس Korykos فكان مشـهورا بنـوع خاص : فمن باين Pline ، وسترابـون Strabon حتى فليكس فابرى (٩١٣) Félix Fabri dIUlm ، اتفق كل الكتاب الذين كتبوا عنه على امتـــداح لونه الأصفر الذهبى الجميل ، وعطره • وكذلك كان فى فارس نوع ممتاز من الزعفران ، وبخاصـــة فى مجاورات اصفهان ، وهمذان (٩١٤) ، وحلوان Holwan • ولهذا كانت أوروبا تستهلك دائما كميـة من منتجات الشرق من الزعفران ، وهى أجـود مما تزرعه أوروبا منه •

---

(٩٠٧) Pegol., p. 211 ; Bonaini, Stat. Pis., III, 74, 273, 592.

(٩٠٨) Greiff, Journal de Luc. Rem (1860), p. 32 et s, note.

(٩٠٩) Piloti, p. 358, 374; Pasi, p. 210 et s.

(٩١٠) Maçoudi, I, 366.

(٩١١) Merrifield, Orig. treaties, p. 131-133.

(٩١٢) Muratori, Antiq. ital., II, 376.

(٩١٣) Plin., Hist. nat., XIII, 2 ; XXI, 17 ; Strabon, éd. Muller et Dubner, p. 572 ; Fabri, éd. Hassler, III, 215 ; Ibn Batouta, II, 329 ; Piloti, p. 371.

(٩١٤) Ibn-Haoukal, éd. Uylenbroek, p. 3-7 ; KazWini, ibid, p. 24, 32 ; Edrisi, II, 168 ; Aboulféda, Geogr., II, p. 160, 163, 166, 225 ; Ibn-al-Awam, l.c., II, 118.

وكان الأطباء العرب (٩١٥) يوصون باستعمال الزعفران كدواء ، كما كان يستعمل كثيرا فى طب العصور الوسطى ، وفى الطهى لتتبيل الطعـــام (٩١٦) ، وفى التصـوير كلون (٩١٧) ، وأخيرا فى الروائح العطـرية (٩١٨) ٠

السقمونيـة Scammonée

باجـراء حزات فى جذر نبـات « كونفولفولس ســـقمونيا » Convolvulus Scammonia ، وهو نبـات متسـلق منتشر فى شـمالى ســوريا ، وفى آسيا الصغرى كلها ، يسيل سائل أبيض يتخذ بتعريضه للهواء قوام الراتنج ٠ والسقمونية مسهل قوى ، ودواء معروف من قديم الزمان ، وأكثر استعمالا فى طب العصور الوسطى ، والقليل من مواد الصيدلة البحتة هى التى يتردد اسمها أكثر من هذه المادة فى مصـــادر تاريخ التجارة (٩١٩) ٠ وفى العصور الوسطى ، كانت سقمونية أنطاكية تعتبر أحسن الأنـواع (٩٢٠) ٠ وقد رأى رولف Rauwolfi سقمونيـة فى حوانيت حلب (٩٢١) ٠ ويقول بيلون Belon انه عن طـريق حلب أيضـــا تصـــل السقمونية الى الغرب (٩٢٢) ٠ وفى المصـــادر التى رجعنا اليها ، نجد محصول آسيا الصغرى هذا كثيرا مذكورا باسـماء scammonea di Soria, soriana, d'Antiochia ، وفى مــرة واحـــدة صـــادفنا التســـمية Scammonea Turchesca (٩٢٣) ٠ وفى Libell of policye أنه فى حـوالى عام ٣٦٠ كـان البنـــادقة والفلورنسـيون هم الذين جلبـوا السـقمونية الى انجلترا ٠ وفى

---

(٩١٥) Ibn Beitar, I, 530 et ss.

(٩١٦) Bourquelot, Foires de Clhampagne, I, 286.

(٩١٧) Cennini, trad, Ilg. cap. 49.

(٩١٨) Michel, Commerce de étoffes de soie, I, 79 et s., II, 450.

(٩١٩) Pegol., p. 18, 57, 65, 99, 135, 131, 211, 219, 129, 297, 300, 375 ; Uzz, p. 59, 192 ; Pasi, p. 45, b, 54, a, 172, a, 176, a, 186, b, 193, a ; Peg., p. 375 ; Bonaini, III, 106, 115 ; Douet d'Arcq., p. 401.

(٩٢٠) Abou Mansour Mowafik, éd. Seligmann, 2éme partie, p. 30, 83 ; Ibn Beitar, II, 31, trad. franc., Not. et extr. XXV, I, p. 260.

(٩٢١) Morgenländ, Reise, p. 126.

(٩٢٢) Observ., p. 281.

(٩٢٣) Uzz., p. 192.

الفقرة التالية من الموضـوع نفسه ، نجد كلمة d'agredye ، وقد صرح السيد هيرزبرج M. Herzberg (ص ١١٧) آخر ناشر لهذا الكتـاب بأنه لم يستطع تفسـير هذه الكلمة : انهـا الدياجريديوم أو الدياكريديوم le Diagrydium, le Diakrydium وهو عقـار من فصيلة السقمونية ، كان كثيرا ما يستبدل بتلك المادة (٩٢٤) .

الحرير الخام

لقد أوضحنا منذ بداية دراستنا هذه التطور التدريجي لانتاج الحرير في اتجاه الغرب ، وبمرور الزمن امتدت هذه الحركة حتى وصلت الغرب ، حيث عرفت زراعة التوت ، وتربية دود القز . وعرف غـرب اسـبانيا وصقلية بنوع خاص اقامة قواعد راسخة لصناعة الحرير في هذين البلدين بأن نشروا بهما انتاج المـادة الأولية . ففي الأندلس ، على سبيل المثال لم يكن حول مدينة جائن Jaën أقل من ثلاثة آلاف ناحيـة يزاول أهليها تربية دود القز (٩٢٥) : وكانت مملكة غرناطة تنتج كميـات من الحرير الخـام تكفى لشـغل العـديد مـن نسـاجي المرية ، ويبقى لديها بعد ذلك ما يكفي للتصدير (٩٢٦) . وفي ايطـاليا ، كان الانتـاج المحلي لم يزل في مهده ، وكانت المادة الأولية التى تسلمها لنساجي لوكا ، وفلورنسا ، وجنوا ، والبندقية غير كافية من حيث الكم والكيف . وفي فرنسا لم تأت المحاولات العديدة التي بذلت في أواخر العصور الوسطى لادخال تربية دود القز بأية نتيجة ملموسة بالنسبة للصناعة . وبالتالي ، كانت التجارة ، بما لها من علاقات مع الشرق الأدنى قادرة على أن تزود الصناعة الغربية بالمواد الأولية بكميات وفيرة ، وبأصناف جيدة لتجعلها قادرة على منافسة المصانع الشرقيـة . وقد رأينا أن الجنويين كانوا يسافرون بحثا عن الحرير في جيلان منذ أواخر القرن الثالث عشر (٩٢٧) . وفي القرن الخامس عشر جعلوا يترددون هم والبنادقة على شماخي Chamaki

---

(٩٢٤) Flückiger, Die Frankfurter List, p. 46.

(٩٢٥) Edrisi, Description de l'Afrique et de l'Espagne, éd. Dozy et Goeje, p. 248.

(٩٢٦) Bourquelot, Foires re Champagne, I, 207 ; Conde, Hist. de la dominacion de les Arbes en Espana, III, 38 et s. ; Della decima dei Fiorentini, II, 117.

(٩٢٧) Yaqout, éd. Barbier de Meynard, p. 187, Chehab-eddin, p. 294 ; Clavijo, p. 114 et s.

فينبغى أولا أن نلقى نظرة صــوب جنوب وجنـوب غـربى بحر قزوين للعثور على أصـــل مختلف أنـــواع الحرير التى نصـــادف أسماءها فى مصـــادر العصور الوسطى • ولكى تكون لدينـــا فكرة عن تنوعهـا يكفينا أن نتصفح كتب بيجولوتى ، أوزانو Uzzano ، والائتــــان من فلورنسا ، وتشريعات بيزا ، ووثائق لوكا ، وكلها زاخـــرة بالمعلومات فى هذا الخصوص • السبب فى ذلك هو أن مصـــــانع تسكانيـــا كانت تستعمل بالأخص حرائر واردة من الخــــارج (٩٢٨) • والاسم الذى يظهر غالبا هو سيتا جيللا seta ghella أى حرير جيلان • ونصادف أحيانا اسما مشابها ، هو سـيتا ليجى seta leggi ، ويرى السيد يول (٩٢٩) فى ذلك شيئامغايرا ، فيقرأ ghelli ، وأعتقد أن هذا خطأ ، وأن الموضوع يتعلق بحرير لاهيجان Lahidjân وهى مدينـة واقعـة فى المنطقة التى تحمـل هـذا الاسـم ، غربى سفيدرود Sefdroud ، وهى جزء من جيـــلان ، ومنطقة لاهيجــــان هذه تنتـج وتصدر فى العصور الوسطى حريرا ممتازا ، ولم يزل تنتجه الى وقتنــا الحاضر (٩٣٠) • وقد أكد هذه الواقعة كثير من المؤلفين (٩٣١) •

واذا نحن وجهنا أنظـارنا من جيلان صوب الشرق ، وجدنا اقليم مازندران Mazenderan (طبرستان) ، وحاضرته آمل Amol • وانى لأؤكد ، دون أن أخشى أية معارضة أن هذا الاقليم هو الموطن الاصلى لنبات سيتا مازاندرونى seta masandroni (٩٣٢) ، وســيتا أمالى seta amali ، ولهــذا الرأى ما يثبتـــه ، خاصـــة وأن الاصـطخرى يقول ان طبرستان (مازندران) هى من بين كل البلاد الاسلامية التى تنتج أكبر قدر من الحرير (٩٣٣) • ومن الخطأ أن نشتق اسـم سيتا بيسيا شـبيرى seta pisciacheri من اسـم بنجــا ـ هزار Pendja-Hezar وهى ناحية من مجاورات سـارية Sâri (٩٣٤) • والثابت على العكس

(٩٢٨) Pegol., p. 212, 298, 301 et s. ; Uzz., p. 192, Bonaini, Stat. Pi. inediti, III, 593.

(٩٢٩) Marco Polo, I, 56.

(٩٣٠) Spiegel, Eran. Alterth., I, 77 ; Ritter, Erdk., VIII, 644.

(٩٣١) Yakout, éd. Barbier de Meynard, p. 503 ; Aboulféda, Géogr II, 2, p. 173 ; Chehab-eddin, p. 298.

(٩٣٢) Barbaro (Viaggio in Persia, dans les Viaggi alla Tana, p. 48.

(٩٣٣) Istachri, p. 100 ; Yakout, p. 382 ; Aboulféda, Géogr., II, 2, p. 175.

(٩٣٤) Dorn, dans les Mém, de l'Acad de S, Pétersbourg, XXIII (1877).

من ذلك أن السيتا سترافى ، سترافاجى ، سترافاتينا seta stravai, stravagi, stravatina (... stranai) (٩٣٥) قد استعارت اسمها من اسم المدينة المعروفة استراباد Asterabad (Strava) (٩٣٦) المجاورة للزاوية المكونة في الجنوب الشرقي لبحر قزوين • هنا نمس حدود السهوب ، ولابد من العودة الى الوراء ، والانتقال الى الساحل الغربي ، فنبدو منطقة طالش Talich ، وحاضرتها لنكوران Lenkorān ، وكأنها قد أعطت اسمها لسيتا تالانى ، أو تالينا seta talani (talina) • ويجعل فرامورو موطن هذا النوع من الحرير شمالا ، في السهل الذي تقوم عليه مدينة محمود أباد Mahmoudabad ، وهي مدينة لم يعد لها الآن وجود ، وكانت واقعة على شاطىء البحر (٩٣٧) ، بجوار مصب نهر الكر Kour (٩٣٨) ، (٩٣٩) والى الغرب من هذه المنطقة ، داخل الأراضى ، تنتج منطقة اران Arran نوعين مختلفين من الحرير ، استعار أفضلهما اسمه seta canare, chanarvi (٨٤٠) من قصر كانار Canar الواقع في سهل قراباغ Karabagh وسط مزارع توت ، أما الآخر فاستعار اسمه من مدينة شيكى seta siechi ou sacchi : Cheki (٩٤١) • وبالقرب من حدود جورجيا كان أهالي جانجا (جنزة) Gandja Djanza ـ حاليا اليزابيث بول Elisabethpol يزاولون باسم Seta gangia تجارة حرير من صنف ممتاز (٩٤٢) ، كان أهالى لوكا يستعملونه كثيرا (٩٤٣) • وكان نساجو لوكا يستوردون الحرير أيضا من جورجيا (٩٤٤) التى تنتج الحرير بوفرة • ولكننا على هذا النحو نقترب كثيرا من البحر الأسود : فلنعد اذن الى منطقة بحر قزوين •

---

(٩٣٥) Uzz., p. 192 ; Della decima, II, 117 ; Pasi, p. 45 etc. ; Barbaro, l.c., p. 47, b.

(٩٣٦) Steava," dans Barbaro, l.c., p. 42, 47, b, 48.

(٩٣٧) Angiolello, dans Ramusio, II, 73, b ;

(٩٣٨) Sadik-Isfahani, Géog. Works, p. 73 ; Dorn, dan le Bulletin de l'Acad. de S. Pétersb., IV (1862), p. 364.

(٩٣٩) Zurla, Fra Mauro, p. 46.

(٩٤٠) Ibid., p. 46 ; Angiolello l.c. p. 73, b ; Pegol., p. 301.

(٩٤١) Zurla, l.c. ; Uzz., q. 192.

(٩٤٢) Dorn, Geogr. caucas., dans les Mém. de l'Acad. de S. Pétersb., Sciences polit., 7 série, VII (1838), p. 593 ; Dubois re Mont péreux, IV, 106.

(٩٤٣) Bini, I Lucchesi a Venesia a Venezia, I, 45 et s.

(٩٤٤) Bini, l.c. ; M. Polo, p. 41.

ففى حوالى عام ١٦٠٠ كانت مدينة شماخى (شيماكا) Chamaki, Chemaka ومجاوراتها تصدر سنويا كميات من الحرير تكفى ٢٠٠٠٠ حمولة بغال (٩٤٥) • وبخصوص حقبة العصور الوسطى ، لايسعنا الا أن نرجع فى ذلك الى شهادة جيوفانى بربارو Giov. Barbaro ، ورى جونزاليزا Ruy-Gonzalez، وكلافيجو Clavijo ويوس فان جيستيل Joos van Ghistele (٩٤٦) ولكنا لانجد فى كتب التجارة ذكرا لأى نوع من الحرير يذكرنا بهذا النوع (٩٤٧) • الا أن الثابت أن بعض تجار الحرير الجنويين والبنادقة كانوا يمارسون تجارتهم هناك ، وقد نوه كلافيجو صراحة بذلك • وفى أواخر العصور الوسطى ، حين أصبحت الطرق التجارية فى منطقة البحر الأسود التى سدها الترك غير صالحة للايطاليين ، كان حرير شماخى ، وشروان Chirwan بوجه عام يصدر بطريق القوافل ، ويصل بعد أن يقطع طرقا طويلة ملتفة الى حلب ودمشق حيث يدخل فى نطاق يطرقه الغربيون بسهولة (٩٤٨) • نذكر أيضا كبالا Kabala (٩٤٩) فى شمال غربى شماخى : ويمتدح حمد الله القزوينى (٩٥٠) كثيرا حرير هذه المنطقة : وكانت تجارة الغرب تستلم هذا الحرير باسم seta-cavallini (٩٥١) • ومن بين جميع البلاد التى كانت أوروبا تطلب منها الحرير ، لم يكن ثمة بلاد تمونها بأنواع كثيرة من الحرير مثل منطقة قزوين (٩٥٢) • وفى امكاننا أن نلخص فى بضعة سطور ما بقى لنا أن نقوله فى هذا الموضوع • فحرير الصين الذى لابد أن يفكر المرء فيه حين يبحث فى هذه الصناعة لم يكن يسلم ، ولا يمكن أن يسلم كميات كبيرة منه الى الصناعة الغربية ، ولا ضرورة للبحث عن سبب لذلك سوى بعد الشقة • ومع ذلك فانى أعتقد أن حرير شاتوجا (كابتوجا) Seta Chattuja (captuja) (٩٥٣) لابد أنه كان يأتى من

---

(٩٤٥) Dorn, l.c., p. 552, Ahmed Razsy.

(٩٤٦) Barbaro, l.c., p. 49, b ; Clavijo, p. 114; Ghistele, p. 311.

(٩٤٧) Contarini (Viaggi alla Tana, p. 80).

(٩٤٨) Sanut., Diar., IV, 192, IV, 488.

(٩٤٩) D'Ohs on, Peuples du Caucase, p. 174, Dorn, Caspia, dans les Mém. de l'Acad. de S. Pétersb. XXIII (carte).

(٩٥٠) Dorn, Geogr. causes., l.c., p. 458.

(٩٥١) Uzz., p. 192.

(٩٥٢) Barbaro, p. 48.

(٩٥٣) Pegol. p. 302 ; Bini, p. 49.

كاتاى (أى الصين) · أما حرير مرداكاسيا Seta merdacascia (٩٥٤) فان اسمه يذكرنا ببلد يربى فيه دود القز منذ زمن موغل فى القدم ، ذلك هو اقليم صغديانة Sogdiane : وتتأكد نظريتنا اذا ثبت أن هذا النوع من الحرير يرد من مرو شاهيدجان Merv Chahidjan وهو مركز واحة تقع على حدود صغديانة ، من ناحية ايران ، يرويها نهر المرغاب Mourgâb ، وكان فى كل زمان ينتج ويصدر كميات من الحرير (٩٥٥) · وكانت فارس تنتج أيضا كمية اضافية من الحرير (٩٥٦) ، ومن ثم لم تكن أسواقها الكبيرة فى طورس والسلطانية ، أو مصانعها بحاجة ـ عند الاقتضاء ـ الى أن تستورد الحرير من الخارج · ومع ذلك كان يوجد فى أسواق السلطانية حرير من جيلان وشماخى (٩٥٧) · وكان نساجو يزد Yezd يستعملون حرير استراباد ومناطق أخرى تشرف على بحر قزوين (٩٥٨) · ولنا أن نذكر فى خصوص انتاج حرير فارس أولا يزد نفسها ، ثم سرت فى كردستان ، ومرند Merend فى أذربيجان ، وهراة فى خراسان ومدنا أخرى كثيرة (٩٥٩) ، ويتيح لنا هذا أن نصل الى موطن حرير كولسميا Seta Colusmia فى صولدانيا Soldania ، وكان يستعمل بكثرة فى لوكا ، وأثبتت الوثائق ذلك : فلابد أن هذا الحرير كان فارسيا ، ولنا أن نقول الشىء نفسه عن حرير كولوزام seta colozam (لعله الخراسانى) (٩٦٠) · نجد أيضا فى وثائق بيزا ، ولوكا حرير صوريانا Seta soriano (٩٦١) : ويعتقد السيد بينى M. Bini أنه يمكن ربط علاقة بين هذا الاسم وبين اسم مدينة صوريا Soria باسبانيا ، غير أن هذا غير صحيح ، ففى الامكان اثبات أن هذا الحرير مصدره سوريا ، ويكفى أن نرجع فى ذلك الى ما سبق أن ذكرناه عن انتاج الحرير فى طرابلس وأماكن أخرى فى هذا البلد · وكان حرير

---

(٩٥٤) "Zide mordicaz", dans les Hanse-Recesse, 1ère part., II, 236.

(٩٥٥) Istachri. p. 117; Aboulféda, Géogr., III, 2, p. 186.

(٩٥٦) Jord. Catal, p. 40; Ghistele, p. 310.

(٩٥٧) Clavijo, p. 114.

(٩٥٨) Barbaro, Viggio in Persia, p. 42.

(٩٥٩) M. Barbier de Meynard ; Yakout, p. 213, 524, 611 : Ibn Batouta, III. 75 ; Ghistele, p. 303, 305.

(٩٦٠) Bini, p. 47, 49 ; Aboul., Géogr., II, 2, p. 189, 197.

(٩٦١) Bonaini, Statc. Pis., III, 593; Uzz., p. 58; Bini, p. 59.

آسيا الصغرى يدخل فى التجارة باسم seta turci (وليس turti) أو Turchia • وأحيانا يحدد المؤلف اسم المصدر ، فيقول : سمرنة (أزمير) ، وفيلادلفيا ، والمالمسترا Malmistra (٩٦٢) • وهناك أخيرا اسم يرد كثيرا وهو seta di Romania • ويبدو أن النعت rustica (ريفى ، فلاحى) الذى يقترن أحيانا بهذا الاسم يشير الى أن هذا الحرير لم يكن جيد الصنف ، وكان ، كما يدل عليه اسمه ينتسب الى ذلك القسم من أوروبا الذى يدخل ضمن التسمية العامة Levant (ليفانت ، الشرق الأدنى) • وهنا أيضا ، تنوه المصادر بنوع خاص ، ومن وجهة النظر التى تهمنا ببعض الأماكن ، مثل فيريا Veria (بيرويا القديمة Beroea) ، وكافاليرى Cavalieri ، وبتراس Patras ، وكلارينزا Clarenza (٩٦٣) : ومن الميسور التوسع فى هذه القائمة ، تبعا لما سبق أن ذكرناه بخصوص انتاج الحرير فى المورة ، ودوقية أثينا •

التوتياء Tutie

يطلق اسم التوتياء ، اما على ركاز الزنك بالحالة التى يخرج بها من المنجم (توتياء طبيعية) ، أو أكسيد الزنك المختلط بالمخلفات العالقة بمداخن الأفران ، والتى تعامل على أنها معادن حديدية تحتوى على زنك (توتياء صناعية) • وقد عرف العرب التوتياء فى هذين الشكلين ووصفوها، وعنهم عرفها الغرب (٩٦٤) • ونجد هذا الاسم كثيرا فى قوائم السلع التجارية فى العصور الوسطى (٩٦٥) ، يصحبه بعامة عبارة « من الاسكندرية » (٩٦٦) • ومع ذلك يصعب الاعتقاد بأن هذا الوصف يشير الى مصدر هذه المادة : وقد أبدى هذه الملاحظة السيد جارسيا دى أورتو (٩٦٧) • وأرض مصر لا تحتوى على معادن (؟) : ومن ثم كانت

---

(٩٦٢) Pegol., p. 212, 301 ; Bonaini, III, 593 ; Bini, p. 48, 53 : Chehab-eddin, dans le Nouv. annal. des voy., 1851, II, 22 : cf. Hase, not., dans Lebeau, XIX, 520 et s.

(٩٦٣) Bini p. 48 et s. ; Arch. stor. ital., 4 série, IV, 16.

(٩٦٤) Ibn Beitar, I, 217 et ss. ; Avicenne, ér. Plempius, p. 236; Silvestre de Sacy, Christomathie arabe, 2e édit., III. 453 et ss. ; Hopp, Gesch der Chemie, IV, 114 et s.

(٩٦٥) Pegol., p. 57, 114, 135, 229, 300, 309, 378; Uzz. p. 114.

(٩٦٦) Pegol., p. 298 ; Pa i, p. 90, b, 95, b, 107, a. 114, a, 116 a. 118 b, 262, a.

(٩٦٧) Clusius, Exot., p. 165.

التوتياء تاتيها من جهات بعبدة ، من فارس ، أو الهند ، أو الصين • وليس من شك فى أن فارس كانت تستغل ثروات أرضها بهمة تفوق ما تبديه حاليا فى هذا السبيل : فكانت المناجم ، ومن ثم أفران صهر الحديد مركزة بنوع خاص فى اقليم كرمان (٩٦٨) • وقد رأى ماركو بولو مسابك فى مدينة بهذا الاقليم ، سماها كوبينام Cobinam (كوبينان Kouhenan) تنتج توتياء وخف سبودم Spodium (٩٦٩) • وكقاعدة عامة ، عندما يصادف المرء فيما كتبه مؤلف عربى كلمة توتياء ، يقرأ فى أعقابها مباشرة كلمة كرمان على أنها موطنها الأصلى (٩٧٠) • وقد كتب جارسيا دى اورتو بالنص أن التوتياء التى يقال انها من الاسكندرية ترد فى الواقع من كرمان • وفى مجاورات أصفهان كانت تستغل مناجم زنك (توتياء طبيعية) (٩٧١) • ويؤكد جارسيا دى أورتو خطأ أنه لاتوجد توتياء فى الهند • ولكن كان العرب يعرفون توتياء ترد من الهند ، وذكرها كتابهم كثيرا (٩٧٢) • نذكر أيضا ، وبنوع خاص كالة Kalah ، فى شبه جزيرة ملقا ، وكان بها مصانع تعالج القصدير (٩٧٣) • وأخيرا كانت الصين تصدر نوعا من التوتياء ، يطلق عليه فى فارس اسم حجر الصين ، أو حديد الصين (Kharai Sini، Ahen Sini) (٩٧٤) وكان الأطباء العرب ينسبون الى التوتياء خصائص قابضة ، ومجففة ، ومنعشة ، ويستعملونها فى معالجة أمراض العيون (٩٧٥) •

الجدوار Zedoar

الجدوار (بالعربية جدوار أو زيدوار ، وتسمى أحيانا بتحريف :

---

(٩٦٨) Maçoudi, I, 242 ; Istachri, p. 79 etc.

(٩٦٩) M. Polo, p. 93 ; Carte de Fra Mauri ; Yule, Marco Polo, I, 117 et s.

(٩٧٠) Abou Mansour Mowafik, trad. Seligmann, I, 50 ; Avicenne. l.c. ; Yakout, p. 483, 235 ; Mohammed ben Mansour, dans Fundgr. des Orients, VI, 141.

(٩٧١) Aboulfeda, Géog., II, 2, p. 170.

(٩٧٢) Avicenne, l.c. ; Ibn Beitar, l.c. ; Mohammed ben Mansour. op. cit.,

(٩٧٣) Abou Dolef, p. 26.

(٩٧٤) KazWini, trad. Ethé, I, 1, p. 427 ; Silvestre de Sacy, l.c.

(٩٧٥) Ibn Beitar, op. cit., Golius, Lex., S. V. Tutia ; Marco Polo, I, 93, et Yule, Marco, Polo, I, 113.

سيتوفال (٩٧٦) ، أو سيتونال (citoval, citonal) هو جذر « الكوركوما زيدواريا روسكو Curcuma Zedoaria Roscoe » وهو مادة تجدها عادة مذكورة فى كتب التجارة ، وفي تعريفات الجمارك فى العصور الوسطى (٩٧٧) • وكان التجار الغربيون يتوجهون الى موانى الشرق الأدنى للحصول عليها، حيث تباع لهم على أنها من منتجات الشرق الأقصى • ويبدو أن البلد المنتج للجدوار (٩٧٨) هو بوجه عام القسم الشرقى من الهند • وقد وجد كونتى Conti النبات الذى ينتج الجدوار فى مجاورات قاليقوطا ، ويؤكد باربوزا Barbosa ملاحظة هذا الرحالة (٩٧٩) ، ويضيف أن الموطن الحقيقى لهذا النبات هو كننانور Cananore التى يصل المرء اليها بمحاذاة الشاطىء صوب الشمال (٩٨٠) ، ونجده أيضا فى جاوة ومدغشقر •

وينصح الأطباء العرب باستعمال هذا الجذر المر كترياق ضد السموم (٩٨١) ، ومن ثم يستخدم فى الصاغة للقضاء على التأثيرات الضارة الناتجة من استنشاق المواد الزئبقية (٩٨٢) • وهو من جهة أخرى يعتبر بمثابة مادة منشطة لمفعوله المنعش المنشط للمعدة : ومن ثم لايقتصر استعماله على مجال الطب (٩٨٣) ، اذ يضاف أحيانا الى الأطعمة والأشربة بمثابة تابل من التوابل (٩٨٤) •

---

(٩٧٦) Ibn Beitar ; M. Amari, dans les Atti della Societé Ligure, V, 635, trad. en français par M. Leclerc, dans Not. et extr., XXV, I, p. 252.

(٩٧٧) Pegol., p. 17, 49, 56. 64, 98 ; Capmany, II. 20 ; append, p. 73 ; Bourquelot, Foire', I, p. 287.

(٩٧٨) Ed. Hunstmann, p. 48.

(٩٧٩) Massari, p. 27.

(٩٨٠) Barbosa, p. 311, a, b, 323 b.

(٩٨١) Ibn Beitar, I, 243 ; Macer floridus, éd. Choulant, p. 117.

(٩٨٢) Theophilus, Divers. art. Scherula, éd. Escalopier, p. 167.

(٩٨٣) M. Amari, not. 2 : Ibn Beitar.

(٩٨٤) Ménagier de Paris, II, 219 ; Hoefer, Hist. de la Chimie, I, 474.

ثالثا ــ المنتجات المصنوعة

الخيوط الذهبية والفضية

كان يصنع فى العصور الوسطى خيوط ذهبية وفضية لها مظهر الخيوط المعدنية المسحوبة بتأثير الحرارة ، ومن ثم أطلق عليها أسماء : الذهب المغزول ، والفضة المغزولة ، ولم يكتشف سر هذه الصناعة الا فى وقتنا الحاضر ٠ اذ كانت هذه ببساطة خيوطا من الكتان محاطة بغلاف رقيق للغاية من أمعاء الخنازير أو الخراف ، ومكسوة بطبقة من الذهب (١) ، فكانت تستعمل لتطريز أرضيات زخرفية أو حواف (حواشى) على ثياب أو بسط ، أو تنسج فى القماش نفسه ، فينتج البروكار (الديباج) ٠ وكانت قبرص أشهر مركز لانتاج هذه الخيوط (٢) ، ومن ثم كان اسم « ذهب قبرص » مرادفا للذهب المغزول٠ وكان فن نسج الحرير ، والتطريز قد استورد من الشرق الى الغرب : وكانت عبارة Mysterium ausi fillati الواردة فى صك جنوى

---

(١) Fremer, Culturgeschichte de Orients, II, 294 ; Laborde, Notice desémaux, bijoux et objets divers expo és dans les galeries du musée du Louvre, 2e part. (1853), p. 410 et s; 413.

(٢) Doule d5Areq. Comptes de l'argenterie, 1ére série. p. 25, 192, 199, 209 et s. ; Pegol., p. 65 (cf. p. 42, 46) ; Uzz., p. 191 ; Mas Latrie, Hist. ee Chpyre, II, 448, 535.

ترجع الى نفس المصدر (٣) • وقد دخلت صناعة خيوط الذهب والفضة لوكا وباريس منذ القرن الثالث عشر (٤) • وفي جنوا اكتسب هذا الفرع من الصناعة أهمية كبيرة حتى وضعته السلطات تحت حمايتها لصـــالح الطبقات الفقيرة والتجارة ، واتخذت اجراءات رادعة ضد الغش (٥) • وكان في البندقية وميلانو صناع للخيوط الذهبية والفضية (٦) • وبعد أن عدد بنديتو ديي Benedetto Dei الفلورنسي المدن الايطاليـــة الأربع التي ذكرناها آنفا ، قال انه ينبغي أن يضاف الى هذه القائمـــة مسقط رأسه الذي يوجد فيه قرابة ثلاثين مشغلا متخصصـــا في هذه الصناعة (٧) • وقد ازدهر هذا الفرع من الصناعة ، أولا لمنافسة المواد المماثلة في الشرق الأدنى ، ثم لتصدير منتجاتها الى هناك • ونتوه في هذا الخصوص بمدن لوكا ، وجنوا ، ومقاطعة بروفانس حيث كانت خيوطها مطلوبة في القسطنطينية منذ زمن بعيد (٨) •

البورسلين (الخزف الصيني)

كان لكلمة بورسلين في العصور الوسطى ثلاثة معان مختلفة (٩) • ففي الأصل كانت تطلق على المحارة التي تحمل هذا الاسم مع الحيوان الرخوي الذي يعيش بداخلها ، أو المحارة وحدها باسم كورس Couris ، وكانت هذه المحارة تستعمل بمثابة عملة ســـائرة في كثير من أقطـار الشرق (١٠) • وكانت تطلق ثانيا على المادة التي تصـنع منهـــا أوان أو منقولات ، نجد وصفها مثلا في بعض قوائم جرد كنوز بلاطات ملوك فرنسا وبرجنديا • ولا يبدو أن الآراء قد اتفقت على طبيعة هذه المادة •

---

(٣) Germain, Hist. du commerce de Montpellier, II, 346.

(٤) Boileau, Règlemets, éd. Depping, p. 74, 193, 385 ; Livre de la taille de Paris, dans Géraud. Pari sous Philippe le bel, p. 510 ; Gegol., p. 18 ; Uzz., p. 5, 7, 48, 192 ; Douet d'Arcq. 2 série, p. 29, 35.

(٥) Germain, l.c. ; Douet d'Arcq, I, xxxii ; Pegol., p. 18, ; Uzz. p. 48, 192.

(٦) Bonaini, Stat. Pis, III, 594 ; Uzz., p. 5, 7 ; Laborde. Notice, l.c., p. 413 ; Francisque Michel, II, 368.

(٧) Pagnini, II, 276.

(٨) Pegol., p. 18.

(٩) Mahu, Etymol Unters., 1ère livr. (Berl 1863). p. 11-15.

(١٠) Marco Polo, p. 389, 393, 400, 431, 564.

والنقطة التى يدور حولها الخلاف هى ما اذا كانت هذه المادة من الصدف أو من العقيق اللبنى اللون (١١) . وأخيرا فهو المصطلح المستخدم للخزف الصينى (١٢) ، ولعله قد ظهر تماثل بين الناتج الصينى وبين المحار بسبب بياض كل منهما ، وشفافيته ولمعته ، ولعله فى البداية قد افترض أن المحار يدخل فى تكوين البورسلين (١٣) .

وليس لنا أن نهتم بالبورسلين الا من حيث أنه منتج مصنوع فى الصين . فالثابت أن هذا الفرع من الصناعة كان يهم كثيرا الرحالة العرب فى العصور الوسطى ، ســـواء منهـم من اقتصر على جمع المعلومات عن الصين ، أو من زارها بالفعـــل (١٤) . كذلك كان يعـرف عنه بعض الشىء الغربيون الذين يهتمون بشئون الشرق (١٥) . فماركو بولو مثلا يسترسل الى حد القول بأن خزف الصين كان فى زمنه منتشرا فى العالم كله ، وهو فى ذلك مخطىء بالتأكيد . فتبعا لكل الظواهر لم يكن الخزف الصينى آنئذ قد وصل الى الغرب ، انما كان منتشرا فى فارس . مثال ذلك أن شاعر طورس (تبريز) العظيم همام الدين Homam-eddin كان يملك من الخزف الصينى مالا يقل عن أربعمائة قطعة (١٦) . وفى القرن التالى تحقق لابن بطوطة أنه منتشر فى الهند وســـوريا وآســـيا الصغرى (١٧) . وعلى ذلك فلابد أن الغربيين استطاعوا من ذلك الحين أن يحصلوا عليه من أسواق عديدة ، منها دمشق ، مثلما فعل مارتان دو بومجارتن Matrin de Boumgarten الذى اشترى منهـــا فى عام ١٥٠٨ (١٨) . أطباقا من الخزف الصينى ، وعلى الطريق التجارى الكبير الذى يربط آسيا بأوروبا مارا بمصر ، لم يظهـر الخزف الصينى

(١١) M. Laborde : Notice des émaux, II, p. 465 et ss . ; M. Labarte, Inventaire du mobilier de Charles V, p. 220 et s. ; M. Belgrano, Atti della Soc. Lig., IV, 184.

(١٢) Marco Polo, p. 533.

(١٣) هذا الاعتقاد الخاطىء قد عبر عنه أحد شارحى مذكرات ماركو بولو . انظر
l'éd de Baldelli Boni I, 111, not. 100 ; Humboldt, Krit : Unters., III, 77 : Barbosa, p. 320 b. Scaliger (Exercit., xci)

(١٤) Relat., p. 34 ; Ibn Khordadbèh, p. 292, 294. Edrisi, I. 193 et s. ; Ibn Batouta, IV, 256, 272.

(١٥) Marco Polo, p. 533 ; Jord. Catal., p. 59 ; Gios. Barbaro, Viaggio in Persia, p. 43.

(١٦) Sadi, Gulistan, trad. Defrémery, p. xxiii ; Clavijo, p. 152.

(١٧) Ibn Batouta, I, 238 ; II, 304 ; III, 123, 227.

(١٨) Mart. a Baumgarten, Peregrinatio, p. 112 ; Georg. Gemnic., p. 588.

أيضا الا فى عصر متأخر نسبيا : فقد وجد فى سوق عدن فى زمن الادريسى أوان فخارية مصنوعة فى آسيا ، الا أنه لم يثبت أنها من الخزف الصينى (١٩) ٠ وفى سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣١ ـ ١٤٣٢ م) وجد بالتأكيد خزف صينى فى شحنات السفن الصينية الخيزرانية التى كان ربانتها يشكون من المعاملة التى يلقونها فى عدن ، ومن ثم يدخلون بسفنهم فى البحر الأحمر حتى جدة (٢٠) ٠ وبدأ ظهور الخزف الصينى فى هذا العصر بين الهدايا التى يرسلها سلاطين مصر الى ملوك أوروبا (٢١) ٠ ومن ذاك الحين كانت أسواق القاهرة تتزود دائما بالخزف الصينى ، ولكن رغم وفرته ، ظلت أسعاره مرتفعة جدا ٠ وقد أبدى الرحالة الفرنسى بيلون Belon هذه الملاحظة فى عصر لم يعد ينتمى الى العصور الوسطى (٢٢) ٠

وكان البنادقة يستوردون من مصر الى ايطاليا أشياء مصنوعة من الخزف الصينى ، ولكن لا يتسنى مع ذلك القول بأن هذه السلعة قد دخلت حقا فى مجال التجارة ٠ وبالرجوع الى الفصل ٤٤ من قانون برشلونة البحرى Consolat del mar (٢٣) ، وجد السيد بيشل Peschel (٢٤) ٠ فى قائمة للسلع التى كانت متداولة فى التجارة الجارية بين الاسكندرية ٠٠ وقطالونيا كلمة Porcellane فظن أنه يرى فى ذلك أول أثر لدخول الخزف الصينى فى الغرب بطريق التجارة ٠ غير أننا نلاحظ أولا أن الفقرة المشار اليها قد أدرجت فى القانون فيما بعد،

---

(١٩) Edrisi, I, 51 ; Cf. Ritter, Arabien, I, 241.

(٢٠) Makrizi, cit. dans Quatremère, Mém. sur l'Egypte, II, 291.

(٢١) انظر قائمة الهدايا المرسلة الى الدوق فوسكارى فى عام ١٤٤٢ ٠
(Taf. et Thom., inéd.)

ـ والى شارل السابع ، ملك فرنسا ، فى عام ١٤٤٧ ٠
(Matthieu d'Escoucfy, éd. Beaucourt)

ـ والى الدوق ب٠ ماليبيرو فى عام ١٤٦١ ٠ (Sanuto, Vite, p. 1170)

ـ والى كاترين كورنارو فى عام ١٤٧٦ ٠
(Ma'i piero, II, 605, rectifiée dans Mas Latric, Hist.)

ـ والى رئاسة البندقية عام ١٤٩٨ ، ١٥٠٣ ٠
(de Chypre, III, 405) (Sanut. Diar., II, 615 ; V, 92)

ـ والى لوران رو مديسيس فى عام ١٤٨٧ ٠
(Biographie par Fabroni, II, 337)

(٢٢) Belon, Observations, Anvers, 1555, p. 236-237.

(٢٣) Il Consolato del mare, éd. Westerveen (Leyde, 1704), p, 40 et s.

(٢٤) Deutsche Vierteljahrs chrift, 1855, p. 176,

وأنها لم تكن موجودة فى النص الأصلى · وثانيا ، يمكن المقابلة بين هذه المعلومة وبين فقرة لبيجولوتى الذى عدد السلع التى تبـــاع فى سوق البندقية ، فذكر منها البورسلين بين الحنظل (القريع) Coloquinte ، المر myrrhe (٢٥) · ويخلص من الفقرتين المشار اليهما أن سلعة البورسلين ، من حيث تحديد ثمن البيع ، أو تحدير ثمن النقل ، كانت مسعرة بالقنطار · فهل يمكن التسليم بأن أوانى الخزف الصينى تباع بالوزن ؟ ألا يتعلق الأمر فى الحالتين بأصداف لها اسم البورسلين تصدر الى الغرب ليجرى تشغيلها بصناعة خاصة بها ؟

الســـــكر

المعروف أن قصب السكر كان يزرع فى الهند ، والهند الصينية ، وأقاليم الصين الجنوبية قبل أن ينتشر فى بلاد الغرب (٢٦) · الا أن الهنود والصينيين لم يكونوا هم الذين اخترعوا الطرق الصناعية التى جعلت من السكر سلعة تجارية شديدة الأهمية · فعلى مدى قرون طويلة كانوا يكتفون بسحق القصب ليستخرجوا منه العصير ، ثم تبخير العصير وتخثيره على النار ··وقد نشأت طريقة تكرير السكر بوسيلة كيمائية فى شمال الخليج الفارسى · ومن المحتمل أن ثمة تجارا من هذه المنطقة رأوا قصب السكر فى الهند فجلبوه ووطنوه فى ســـهول خوزســـتان · فهذا الاقليم الذى تحف به الجبال شمالا وشرقا ، ويحده غربا المجرى الأدنى لنهر دجلة ، وجنـــوبا الخليج الفارسى ، ويرويه العديد من القنوات ، كان ملائما كل الملاءمة لزراعة قصب السكر ، وسرعان ما ثبت صحة ذلك· اذ كانت وفرة محصول قصب الســكر فى هذا الاقليم كبيرة ، حتى انه منذ القرن الثـامن ، كان يدفع منه للخليفة اتاوة عينية ســـنوية تبلغ ٣٠٫٠٠٠ رطل من السكر (٢٧) · وكان الأهالى يعالجون زراعته بوسائل منطقية ، وزادوا من خصوبة التربة بالاكثار من قنوات الرى (٢٨) ·

---

(٢٥) Pegol p. 13.

(٢٦) K. Ritter, dans les Abh. der Gerl. Akad., ann. 1839, Phil. hist. Kl. p. 305 et ss. ; Histoire de la guerre de Navarre en 1276 et 1277 par Guill. Anclier, une note de Francisque Michel, p. 426 et 55.

(٢٧) Ibn Khaldoun, Prolégomènes, 1ère partie, dans Not. et extr., XIX, 364 ; Kremer, Culturgesch. des Orients, I, 266 et s,

(٢٨) I fachri, p. 57 et s. ; Cf. Edrisi, I, 381 et ss ; Yahout, p. 6 62, 137, not., 191 (218, 390 l'introduction de Cherfnaméh de Cherefeddin, I, 1, p. 100 et s,

وهناك طرف أكثر ملاءمة لتقدم هذه الصناعة من خصوبة التربة ، ذلك هو تطور الدراسات الطبية فى هذا الاقليم ، وكذا البحوث المعملية التى تعالج العقاقير كفرع من الدراسات الطبية : وكانت مراكز هذه الدراسات جامعة جنديسابور Djondisapour ، ومدينـــة الأهواز ٠ ويقول الكاتب فى « الجغرافيـــة الأرمينيـــة » المنســـوبة لوسى دى خورين Moïse de Khorène عن جنديسابور أنه يصنع بها السكر (٢٩)٠ ولنا أن نفترض أن الأطباء ، والكيميائيين البارعين فى الجامعة قد وجدوا طريقة لتنقية عصير قصب السكر وبلورته ، وهو أهم حاصلات البلد ٠ وليس مستحيلا من ثمة أن تكون هذه الوسائل الصناعية قد تحسنت فى بغداد لأن الخلفاء كانوا يبذلون أقصى جهدهم لتشجيع العلوم الطبية والارتقاء بها ٠ وعلى أية حال ، فانه حتى منتصف القرن الخامس عشر ، حيث لم يعد الخلفاء يقيمون منذ زمن بعيد فى بغـداد ، عـــرفت هذه المدينة بانتاجها الوفير من السكر ، وجودة مرباتها ومشروباتها ، وما يصدر من هذه المنتجات الى فارس وبلاد أخرى (٣٠) ٠ فالعرب هم الذين نشروا فن تكرير السكر فى دولة الخلفاء كلها ، ثم نقلوه الى ما وراء حدودها ، شرقا وغربا ، وسوف نحاول تعقب أثرهم ، أولا ناحية الشرق ، دون أن نأخذ فى الاعتبار تسلسل الأحداث فى الزمان ٠

ففى عهد قوبلاى ، أول خان مغولى عظيم ، وصل الى الصين رجال قادمون من القاهرة ، وعلموا الأهالى فن تكرير السكر بأن يلقوا فيه رماد بعض النباتات (البوتاس) ، وكان كل ما يعرفونه فى ذاك الأوان أن يركزوا السكر بالطبخ ، فيجعلوا منه عجينة سوداء متماسكة ٠ فكانت هذه هى بداية صنع السكر فى الصين ، كما ذكر ماركو بولو (٣١) الذى وصل هناك بعد زمن قليل ٠ واذا كانت تجارة السكر قد اكتسبت هنـــاك أهمية كبيرة ، كما يؤكد لنا ماركو بولو(٣٢)، واودريكو دا بوردينونى(٣٣) ومؤلف كتاب Livre de l'estat du grand Caan (٣٤) فانها تدين فى ذلك لوفرة محصول قصب السكر بها ، وللمناخ الدافىء بالأقاليم الجنوبية،

(٢٩) Saint-Martin, Mémoires sur l'Arménie, II, 371 ; Cherif-eddin, Cheref nâmèh, trad. Charmoy, I, 1, p. 105.
(٣٠) Gios. Barbaro, Viaggi in Persia, p. 46.
(٣١) Texte italien de l'éd. Baldelli-Boni, p. 350 ; Yule, Marco Polo, II, 183. Journ. asiat., V, 42.
(٣٢) Ed. Pauthier, p. 511, 524, 526 et s.
(٣٣) P. xxiv, éd. Yule.
(٣٤) Ed. Jacquet, p. 65.

كما تدين أيضا للمصريين الذين أتوا اليها بفن تكرير السكر . أما فى الهند فقد ظهر العرب بصفتين : غزاة وتجار (٣٥) . فهل كان لوجودهم هناك أثر ملموس فى صناعة السكر ؟ هذا سؤال لم تتبين الاجابة عنه بوضوح . ففى فقرة لفريشتا Ferishta (٣٦) أوردها السير ريتر Ritter ، تتعلق بالسلع التجارية الموجودة فى سوق « دلهى » فى عهد السلطان علاء الدين (١٢٩٦ ــ ١٣١٧) ، يذكر المؤلف بين ما يذكره السكر الخام الأحمر ، والسكر الأسمر (المشوب) ، والسكر المصفى . فلو اعتبرنا كلمة « السكر المصفى » هذه بمعناها الحديث ، لاستنتجنا من ذلك أنه كان يصنع فى الهند فى ذاك الأوان سكر مكرر ومبلور . غير أن ثمة شرقيا آخر ، هو شهاب الدين ، كتب فى حوالى عام ١٣٦٠ يقول بلهجة مؤكدة ان المنتج المصنوع فى الهند لم يكن سكرا مبلورا ، ولكنه سكر أبيض مشوب (٣٧) . بقى أن نعرف ما اذا لم يكن من الواجب أن نعتبر مصطلح « السكر المصفى » Candi عند فريشتا بالمفهوم الذى كان له فى الهند فى القرن الثانى عشر : فقد كان مرادفا لكلمة melasse (عسل قصب السكر ــ مولاس) (٣٨) ، وفى الوسع تقديم براهين كثيرة تثبت ذلك . ولسوء الحظ لايسعفنا ماركو بولو باى عون فى هذا السبيل : فهو يذكر السكر ضمن منتجات البنغال ، ولكنه لم يقل كيف كان يصنع (٣٩) . وينبغى للعثور على روايات أخرى كتبها غربيون الرجوع الى عهد السيادة البرتغالية . فقد رأى فاريتما Varthema فى ميناء باتيكالا Batticala بمملكة كانارا Canara كثيرا من السكر ، وبخاصة سكر Zucchara candido ad usanza nostra . فهذى أول مرة نجد فيها كلمة Sucre Candi (السكر المصفى) مستخدمة بلا شك بالمعنى الذى يعطيه اياها الغربيون . ومن جهة أخرى يبدى باربوزا Barbosa ملاحظته بان السكر يباع فى باتيكالا فى شكل مسحوق ، فانهم لايعرفون هناك أن يصنعوا منه قوالب ، وكان الأمر كذلك فى البنغال حيث يصنع سكر أبيض جميل (٤٠) . ويبدو لى انه من السهل التوفيق بين هذه

---

(٣٥) Ibn Haoukal, Account of Seind, transl. by Anderson, journ of the Bengal Soc., XXI (1852), p. 51. ; Ibn Haoukal, éd. Gildemeicister, p. 176, 173 et s., et Yakout.

(٣٦) Trad. Briggs, I, 359.

(٣٧) Not. et extr., XIII, 175 et s. : cf., p. 212.

(٣٨) Lassen, Ind. Alterth., I, 272, not. 2.

(٣٩) Ed. Pauthier, p. 422.

(٤٠) P. 300, a, 415 b.

البيانات المختلفة · واذا لم يكن بوسعنا أن ننكر أن الهنود كانوا يعرفون في أواخر القرون الوسطى فن تكرير السكر ، فانه قد ثبت بالبرهان أنهم لم يكونوا يعرفون اعطاء السكر القوام والصلابة اللازمين لتشكيله قوالب ، فكانوا اذن في هذه النقطة الجوهرية متأخرين عن العرب ، وعن الغربيين ·

كانت الصين والهند تصدران السكر ، فكانت هرمز وعدن ، على سبيل المثال تتلقيان سكرا من سواحل الهند الغربية (٤١) ، ولكن من المشكوك فيه كثيرا أن تكون أوروبا قد استعملته في طعامها ، فالشقة بعيدة جدا · وهناك بلاد أخرى أقرب الى أوروبا ، تنتج من السكر ما يكفي لكل الاحتياجات · وليس من المحتمل بالمرة أن يكون الغرب قد استورد هذه السلعة من أقاليم فارس ، مثل سجستان ، وخراسان ، وفارس ، وخوزستان (٤٢) · ولعلي أقول الشيء ذاته عن مكران Mekran بالجنوب الشرقي من ايران اذ لم يكن القوم هناك قد صنعوا نوعا خاصا من السكر المكرر ، وهو خليط من السكر وزيت اللوز الحلو ، ويسمى في اللغتين الفارسية والعربية « فانيد » fanid (٤٣) ، ويوجد أيضا في الغرب باسم penidium · وكان العطارون في القرون الوسطى يعدون للمرضى المصابين بالكحة والسل الرئوى شرابا يدل اسمه diapenidium وحده على أن هذا النوع من السكر هو العنصر الأساسي فيه (٤٤) · وترجع شهرة هذا السكر في الغرب الى وصايا الأطباء العرب (٤٥) · يقول ابن سينا ، مع آخرين غيره ، أن « الفانيد » يصنع في مكران وحدها ، ومنها يصدر الى بلاد أخرى · ويتفق معه الجغرافيون العرب ، الادريسي ، وابن حوقل ، وياقوت (٤٦) ،

---

(٤١) Barbosa, p. 292, a, 300, a.

(٤٢) Ibn Khaldoun, l.c., p. 365 ; Rhazi, cité par Ibn Beitar. II, 443, trad. franc dans No. et extr., XXV., 1, p. 266; Yaquot, 94 p. 358.

(٤٣) Flückiger, Documente zur Gesch. er Pharmacie, p. 32 : Dozy et Engelmann, Glossaire. p. 112 ; Renaud. Mém. sur l'Inde. p. 240 ; Devic, Dict., p. 27; Leclere, annot. d'Ibn Beitar, l.c., p. 268.

(٤٤) Joh. de Garlandia, Dictionarius publ. par Schéler, dans le Lexigor. lat. ç p. 56.

(٤٥) Rhazès, dans Ibn Beitar, II, 36 ; Avicenne, ér. Plemp., lib., II, p. 241, et dans Gildemeister, p. 177.

(٤٦) Ibn Haoukal, Account of Seind, transl. by Anderson. l.c., p. 55 : Edrisi, I. 165 ; Yacquot, p. 306, 468, 519, 539 et s.

اذ يقولون ان « فانيد » مكران » وبخاصة مدينة « مسكان » Masekan كان موضوعا لمبادلات تجارية مهمة ، ويصدر الى بلاد بعيدة (٤٧) . وفي زمن أقرب الى وقتنا الحاضر ، لم يعد مؤلفو الكتب المتصلة بموضـــوع التجارة ، مثل بيجولوتي يذكرون هذا النوع من السكر : والراجح أن أنواعا أخرى قد حلت محله ، حتى اختفى من مجال التجارة .

قلنا فيما سبق ان الغرب لم يكن في حاجة للذهاب الى تلك البلاد النائية طلبا للسكر ، فقد نمت مزارع قصب السكر مع نمو الســـيادة العربية ، وفي وسعنا أن نتحقق من وجودها منذ القـــرن العاشر في سوريا ، وبخاصة في مجـــاورات طرابلس (٤٨) . وينبئنـــا البكري El-Bekri (وهو كاتب من منتصف القرن الحادي عشر) أنه كان في مصر مثل هذه المزارع منذ زمن باكر ، فهو يتحدث عن مطاحن للسكر مقامة على الضفة اليسرى للنيـــل ، عنـــد « ترنوت » Terennout وهي مكان يقع على بعد حوالي أربعين ميلا شمال غربي القاهرة (٤٩) . وفي وسعنا أن نثبت كذلك وجود مزارع قصب السكر في شمال أفريقيا كله في القرنين العاشر والحادي عشر (٥٠) ، ومن هنـــاك انتقل قصب السكر الى أسبانيا في أعقاب العرب (٥١) ، ونشأت بها زراعة تلقى عناية كبيرة ، وقامت صناعة السكر تبعا لقواعد هذه الصناعة كلها (٥٢) . والغالب أن العرب هم الذين وطنوا قصب السكر في صقلية (٥٣) . حقـــا ، ان أقدم الأدلة على وجود هذه الزراعة بالجزيرة لايرجع الا الى عصر السيادة النورماندية ، الا أن اسم massara (معصرة) الذي مازال يطلق على مطاحن السكر هو من أصل عربي (٥٤) ، وهذا برهان قاطع على أن هذه الزراعة قد أدخلها العرب في الجزيرة .

---

(٤٧) Chems-eddin, (p. 238).

(٤٨) Istachri, p. 37.

(٤٩) Description de l'Afrique septentrionale ; Journ. asiat., 5 série, XII, 415.

(٥٠) Ibn Haoukal, ibid, 4e série, XIII, 164, 238. 243 ; El Bekri, ibid. 5e série, XII, 456, 490, 532; XIII, 480 et s.

(٥١) Le calendrier de Cordoue de l'année 961 ; par R. Dozy, Leyde, 1873. p. 25, 41, 91.

(٥٢) Ibn-al-Awam, Livre de l'agriculture, trad. Clément-Mullet, I. 365 et ss., et préface, p. 26.

(٥٣) Amari, Storia dei Musulmani in Sicilia, II, 445.

(٥٤) Doc. de 1175, publ. dans Pissi, Sicilia sacra, I, 454.

وهكذا ، فقبل الحروب الصليبية ، وجد الغربيون السكر على متسارف بلادهم : ومنذ بداية هذه الحقبة استولوا هم أنفسهم على البلاد التى يزرع بها قصب السكر • وقد أشرنا فى هذا الخصوص الى طرابلس، تبعا لشهادة الاصطخرى ، فهناك بالذات وجد الصليبيون قصب السكر لأول مرة ، وهناك رشفوا العصير بلذة (٥٥) • وتتيح لنا الوثائق أن نتتبع زراعة قصب السكر فى تلك المنطقة طوال العصور الوسطى (٥٦) ؛ وفيما بعد ، ابتهج الصليبيون حين وجدوا قصب السكر ليرتووا بعصيره عند « فالينيا » Valenia (امارة أنطاكية) : ويؤكد أبو الفدا هذا الحدث : فبالاضافة الى فالنيا يذكر « حصن المرقب » Markab وهى ناحية تقع على بعد ميل من فالينيا ، ويضيف فى خصوص هذه الناحية أن الأهالى يتاجرون فى التين المسكر (٥٧) • كان هنـاك أيضا مزارع فى مجاورات موانى أخرى فى سوريا ، مثل صور (٥٨) ، وصيدا (٥٩) ، وبيروت (٦٠) ، وعكا (٦١) ، وقيصرية (٦٢) ، وفى الداخل على ضفاف بحيرة طبرية ، ونهر الأردن ، وأريحا ، ونابلس (٦٣) • وكانت معظم هذه المزارع موجودة قبل وصـول الصليبيين • فلم يكن السوريون يعرفون زراعة قصب السكر وحدها ، ولكنهم عرفوا أيضا طريقة عصره لاستخراج العصير ، وتركيزه على النار ، ثم تجفيفه على مهل حتى يتكون السكر (٦٤) •

---

(٥٥) Alb. d'Aix, éd. Bongar , p. 270.

(٥٦) Edrisi, I, 356 et s. ; Burchard. p. 28 ; Aboulf., Géogr, II, 2, p. 30 ; Chems-eddin, p. 282 ; Ghistele, p. 276; Machaut, p. 211, 286.

(٥٧) Fulch. Carnot., éd., Bonjars, p. 401 ; Hist... Hieros, pas sec., ibid., p. 594 et s. ; Aboulf., l.c., p. 32.

(٥٨) Guill. de Tyr, XIII, 3 ; Burchard., p. 24 ; Taf. et Thom., I, 169 ; II, 368 et s. ; Ghistele, p. 63.

(٥٩) Burchard., p. 26 ; Strehlke, Tab. ord. tenton., p. 51.

(٦٠) Wilbrand d'Aldenbourg, p. 167, et Chroniques de Chpre, Mas Latrie, Hist. de Chypre, I, 273 ; Gucci, p. 413.

(٦١) Strehlke, l.c., p. 17, 20, 69 ; Paoli, Cod. dipl., I, 50, 178, 209, 249 ; Prutz, Malteser Urkunden, p. 118.

(٦٢) Cartulaire du S. Sépulere, éd. Rozière, p. 277.

(٦٣) Jakuts Reisen, publ. par Wüstenfeld, p. 459 ; Jacq. de et s. ; Theitmar, éd. Laurent, p. 32 ; Burchard, p. 58, 59 ; Alcold. de Monte Croce, p. 109 ; Frescobaldi, p. 123 p. Gucci. p. 383 : Nicc. da Poggibonsi, II, 323 ; Strehlke, op. cit.. p. 9. Prutz, Culturgesch, der Kreuzz, pp. 554.

(٦٤) Alb. d'Aix, p. 279 ; Jacq. de Vitry, p. 1975, 1099; Burchard. p. 87.

وعندما استولى الغربيون على البلد ، لم يهملوا هذه الزراعة لأنها مصدر لايرادات كبيرة (٦٥) • وبخصوص صناعة السكر اتبعوا تماما الطرق التى كانت مستخدمة قبلهم : وكان الأصل العربى لهذه الطرق يتبدى فى كلمـــة massar (معصرة) التى أدخلوها فى لغتهـــم وأطلقوها على آلة العصر (٦٦) • وفى عكا ، كانـوا يسخرون الأسرى المســـلمين فى صناعة السكر (٦٧) • وفى صور كانت هذه الصناعة مزدهرة حتى ان فردريك الثانى « هو هنشتاوفن » طلب منها عمالا يرسلهم الى بالرمو : ذلك أن صناع السكر فى صقلية فقدوا التقاليد الصناعية السليمة ، فأراد الامبراطور النهوض بهذا الفرع من الصناعة (٦٨) • وكانت صور تصدر دائما سكرا كثيرا الى الغرب (٦٩) • وبالاجمال ، وفى غضون فترة الحرب الصليبية ، كانت ســـوريا هى المصـــدر الرئيسى لتموين الغـــرب بالسكر (٧٠) • وعندما انهارت الدويلات اللاتينية ، ورثت جزيرة صقلية بعضا من زبائنها ، ولكن حتى نهاية العصور الوسطى ظلت ســـوريا ، وبخاصـة مناطق دمشق وطرابلس (٧١) ترسل الى أوروبا سكرا متعدد الأشكال ، من قوالب سكر (٧٢) ، وسكر مكرر ، ومسحوق السكر • وبعد سقوط هذه الدويلات اللاتينيـــة فى ســـوريا ، ورثت جزيرة قبرص(٧٣) ــ كما ذكرنا بين ما ورثت من صناعات أخرى ، زراعة قصب السكر ، وصناعة السكر • فكانت الأرض مغطاة فى كل الأنحاء تقريبـــا بمزارع قصب السكر ، ولكن هذه الزراعة كانت مركزة أســـاسا فى مقاطعات » بافو « Baffo (بافوس) ، وليميســـو Limisso (ليماسول) ــ وهما مدينتـــان بقبرص • واهتم الملوك أنفسهم بهذه الزراعة ، وكانت مزارعهم الرئيسية موجودة فى مجاورات بافو : وكانت

(٦٥) Burchard, p. 24.

(٦٦) Taf. et Thom., II, 368 ; Strehlke, p. 9, 28. ; Taf. et Thom., II, 380 ; Paol, Gori. dipl., I 39 ; Dozy et Engelmann, p. 61 ; Dozy, Glos . e l'éd. d'Edrisi, Description de l'Afrique, p. 345 et s.

(٦٧) Michaur Reinaud. Bibliothèque des croisades, IV, 126.

(٦٨) Huillard-Bréholles, Hist. dipl. Friederici II, T.V., pars 1, p. 574.

(٦٩) Guill. de Tyr, XIII, 3.

(٧٠) Pegol., p. 49 ; Assis de Jérus., II, 174, 176 ; Taf. et Thom., II, 233.

(٧١) Pegol., p. 297, 298, 311, 362 et ss. ; Uzzé p. 114, 191 ; Pa i, p. 39, b, 42, a, 1, b.

(٧٢) Pegol., p. 363 :

(٧٣) Herquet, Königsgestalten des Hausses Lusignan (Halle, 1881), p. 165-170.

المنتجات تباع بوجه عام لتجار بنادقة ، ومع ذلك لم يكن محظورا بيعها لتجار من أمم أخرى (٧٤) • وكان الكورنارو Cornoro ، وهم أفراد أسرة فينيسية يملكون في اقليم ليميسو ، وفي ابيسكوبيا (بيسكوبى) Episcopia (Piskopi) مزارع شاسعة ، سماها جيستيل Ghistel « المقر الرئيسى لصناعة السكر فى جزيرة قبرص كلها » (٧٥) • وعندما زارها الايطالى كازولا Casola (١٤٩٤) رأى فيها أربعمائة شخص يشتغلون بصناعة السكر : وكان أجود المنتجات تصدر الى البندقية (٧٦) • وكانت أراضى أسرة الكورنارو مجاورة لضيعة كولوسى Colossi (٧٧) التى يملكها فرسان رودس ، ويستغلون فيها حقول قصب السكر ، ومعامل تكرير ، وكان انتاجها يسلم بوجه عام لبيت مارتينى Martini من البندقية (٧٨) • وكان لهيئة فرسان القديس يوحنا أيضا فى انجزيرة أملاك مخصصة لهذه الزراعة (٧٩) • وكان الغالبية العظمى من سكر قبرص يذهب الى الغرب ، وكانت قبرص هى دائما الموطن المشار اليه لسكر « البودرة » (٨٠) •

ومن حيث وفرة المحصول ، كانت مصر على ما يبدو متفوقة على سائر البلاد المشرفة على البحر المتوسط (٨١) • وتطورت مزارع قصب السكر على طول نهر النيل ، من مصر العليا حتى الدلتا ، غير أن أحسن الأراضى فى هذا الخصوص هى الأراضى الواطئة التى يرويهما فرعا رشيد ودمياط (٨٢) • وفى كل الأنحاء ، فى المدن ، وفى الأرياف ، يصادف

---

(٧٤) Mas Latrie, l.c., III, 218-221; Ghistele, p. 248.

(٧٥) Mas Latrie, l.c. II, 434, 455, 457, 503; Ghistele, l.c. : Mas Latrie, II, 373 ; Casati, La guerre di Chioggia, p. 188 et s.

(٧٦) Viaggio a Geru alemme (éd. Porro). p. 49; Mas Latrie. III, 67, et s.

(٧٧) Stephan von Gumppenberg., p. 245; Georg. Gemnicensis. p. 616; ; Sanut., Diar., X, 106 ; Sathas, Doc. inéd.. III. 35 et s.

(٧٨) Mas Latrie, III, 27. 88.

(٧٩) Ibid. II, 499, 500.

(٨٠) Pegol. p. 64, 210, 297, 364; Uzz., p. 23, 82, 191 ; Chiarini, p. lxxix ; Bonaini, Stat. Pis., II, 591; Archiv. Stor. ital., 3 série, XXI, 2 part., p. 126 ; Mas Latrie, II, 95 : III, 728, 775, 777 ; Archiv de l'Orient latin, II, 2, p. 25.

(٨١) Calcachandi (op. cit., p. 34 et s.)

(٨٢) Edrisi, I, 123, 124 et s., 129, 304 ; Aboulf., II, 1, 140 ; De Sacy, Chrestomathie arabe, I, 278 ; III, 7 et s. ; Frescobaldi, p. 32. 34 ; Sigoli, p. 169; Gusci, p. 282 ; Lannot, p. 112; Pilotti, p. 347 : Simon Simeoni, p. 34, 34, 88 ; Baumgarten, p. 39: Harf. p. 83 et s. ; Ghistele, p. 194, 205.

المرء أبنية خاصة ، فيها أعواد قصب السكر المقطوعة ، تعصر فى طواحين تديرها ثيران ، وبجوارها أفران ضخمة يطبخ فيها العصير (٨٣) • وكان السكر المصنوع بأجهزة التقطير يملأ أسواق القاهرة (٨٤) والاسكندرية (٨٥) ، ويشتهر بنوع خاص بجودته (٨٦) • وسوف نتحدث عن مختلف أنواع السكر المصنوع فى مصر بعد أن نستعرض مختلف بلاد حوض البحر المتوسط التى يشتغل الناس فيها بهذه الصناعة •

ترى هل ينبغى أن ندرج آسيا الصغرى ضمن هذه البلاد ؟ هذا أمر مشكوك فيه • ويعدد شهاب الدين ، بين حاصلات هذا البلد سكرا طيب المذاق ، لا هو حريف ، ولا هو شديد الحلاوة (٨٧) • غير أن هذا السكر ، كما ذكرنا منذ هنيهة هو من قبيل العسل ، ويرجح أنه ليس من سكر القصب ، انما هو المادة السكرية فى العسل • ويعتقد السيد تافيل M. Tafel أنه يجد تلميحا بمزارع قصب السكر فى « بيثينيا » Bithynie وذلك فى فقرة من معاهدة عام ١٢٠٤ التى أتم بها الصليبيون تقسيم الامبراطورية اليونانية ، ولكنه اضطر للاعتراف بانه أخطأ فى ذلك ، ومن ثم صحح قراءته الأولى succoriis فجعلها servochoriis (٨٨) • وأخيرا ، فان بيجولوتى ذكر السكر ضمن السلع الموجودة فى أسواق ستالية ، واياس Lajazzo (٨٩) • على أن هذا لايثبت أى شىء ، وخاصة لأنه ثبت أن أهالى ستالية بنوع خاص ، وأهالى كانديلور Candelore جارتها كانوا يتزودون بالسكر من مصر (٩٠) • ثم انه بالنظر الى مناخ آسيا الصغرى ، وطبيعة تربتها فانا لانرى أية بقعة فى هذا البلد يمكن توطين زراعة قصب السكر بها • ويمكن تطبيق هذه

---

(٨٣) Harff, p. 83; Leo Africanus, Descriptio Africae, Antv. 1556, p. 265, b. Ibn Batouta, I, 101; Makrisi, Hist. des sultans mamlouks. II, 2, p. 67, Khalil Dhaheri, dans de Sacy, l.c., III, 8 et dans Volney, Oeuvres, II, 235, Quatremere, dans se notes de l'éd. de Makrizi, II, 1, p. 3 et s.

(٨٤) Edrisi, I. 129 ; Frescobaldi, p. 49 ; Sigoli, p. 190.

(٨٥) Friscobaldi, p. 27; Pegol., p. 56, 364.

(٨٦) Sigoli, p. 190 ; Boldensele, p. 249 ; Haython, Hist. orient. Helmst. 1858, p. 48, Itiner. regis Ricard., I, p. 390; Makrizi, l.c., I. 1, p. 37.

(٨٧) Not et extr., XIII, 336.

(٨٨) Tafel, Komnenen unr Normannen, p. 55, not. ; cf. Taf. et Thom., I, 175 et s.

(٨٩) Pegol., p. 42, 44.

(٩٠) Sanut, p. 29.

الملاحظة نفسها على اليونان القارية . ومع ذلك يبدو أنه فى عهد سانوتو Sannto أى فى مستهل القـــرن الرابع عشر ، كان قصب السكر يزرع فى المورة (٩١) . ولنا أخيرا أن نعتبر دون تردد ، ضمن البـــلاد المنتجة للسكر جزيرتى رودس (٩٢) ، وكانديا (كريت) (٩٣) . ويؤدى بنا هذا الى الحد الأقصى للبلاد التى تشملها التسمية العامة لكلمة ليفانت Levant . فنحن الآن نعـــــرف ما يكفى لأن نقول ما هى بلاد « الليفانت » التى كانت تزود الغرب بالسكر فى العصـــور الوسطى . ويمكن تقسيم هذه البلاد الى فئتين ، حسب أهمية انتاجها : فنضع فى الفئة الأولى مصر ، وسوريا ، وقبرص ، وفى الثانية ، وفى فئة ثالثة عند الضرورة ، كانديا ، ورودس ، والمورة . ومع ذلك لاننسى أن الغــــرب لم يكن يتزود بالسكر من الشرق الأدنى (الليفانت) وحده ، وأن سكر صقلية (٩٤) كان منتشرا فى التجـــارة . والواقع أن كل الملوك الذين تعاقبوا على الجزيرة ، من ملوك نورمان ، وأمـــراء أسرة هوهنشتاوفن وبيت أراجون شجعوا فيها زراعة قصب السكر . وصناعة السكر (٩٥) . فكان السكر ينتج فيها بثمن يخس حتى ان البنادقة أنفسهم كانوا يفضلونه أحيـــانا على سكر مصر وسوريا (٩٦) . وليس من النادر أن نجـــد

---

(٩١) Sanut. p. 24 ; Ritter, Verbreitang des Zuckerrohrs, l.c. p. 400 et .

(٩٢) Pegol. p. 364.

(٩٣) Sanut, l.c. ; estraits des Misti : de l'an 1330, dans Mas Latrie, l.c., II, 136; de l'an 1334, dans Daru, Hist. de Venise ; cf. Archiv. Venet., XVIII, 68; Fel. Fabri, III, 280.

(٩٤) Uzz., p. 94, 165, 191, 195 ey s. ; Chiarini, p. lviii, b. ; Pasi, p. 55, b. 119, a, b, 152, b ; Rymer, Foedera, VII, 745 ; Brown. L'archivio di Venezia, con riguardo speciale alla storia inglese. Venez. e Torino, 1865, p. 288 ; P. 288 ; P. 286, 288 ; Paciolo, Trattatio, de computi, p. 79 et ss.

(٩٥) Pirri, Sicil, sacra, I, 454 ; Hugo Faleandus, dans Del Re, p. 284 ; Huillard-Bréholles, Hist. dipl. Friderici II, T.V. 1, p. 574, 589 ; Capitula regni Sicilioe,. éd Testa, p. 567, 572; Ritter, op. cit., p. 401 et ss. ; (Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, II, 445 ; III, 785 et s.

(٩٦) Ritter, p. 491.

فى العصور الوسطى سكرا اسبانيا ضمن السلع التجارية(٩٧)٠وأخيرا . ففى أواخر هذه الفترة ، نافس سكر ماديرا (جزيرة برتغالية فى المحيط الأطلسى ــ المترجم) سائر أنواع السكر منافسة شديدة ٠ وكان الدون هنريك البرتغالى don Henrique هو الذى أدخل هذه الزراعة فى الجزيرة بأن أرسل اليها شتلات من صقلية ، ونجحت فيها زراعتها (٩٨) لدرجة أن السوق الأوروبية غصت بالسكر بصورة لم يعرف مثلها من قبل (٩٩) ، وترتب على هذه الوفرة انخفاض شديد بالنسبة لسكر الشرق الأدنى . وصقلية ، واسبانيا (١٠٠) ٠ ومن جهة أخرى بذل البرتغاليون نشاطا كبيرا لتصريف بضائعهم ٠ وفى حوالى عام ١٤٩٠ بدأت هذه المنتجات الدخيلة تظهر فى حوانيت جنوا (١٠١) والبندقية ٠ وبعد قليل راح العالم الجديد (أمريكا) الذى اكتشف أخيرا يصدر الى السوق الأوروبية سكرا يفوق فى جودته كل ما عرف من سكر حتى ذلك الحين ، وكان لابد لبلاد حوض المتوسط التى كانت فى ظروف أقل ملاءمة من حيث المناخ ، وأجر اليد العاملة أن تقر بهزيمتها فى هذا المجال وتتخلى عن هذه الصناعة (١٠٢) ٠

وليس فى خطتنا هذه أن نتتبع عمليات صناعة سكر قصب السكر فى العصور الوسطى (١٠٣) ، ويكفينا أن نعلم أن أهالى البلاد المشرفة على البحر المتوسط كانوا يعرفون العمليات الرئيسية لتكرير العصير (١٠٤) وتركيزه على نار هادئة ، وترويقه ، وبلورته ، وأن فى وسعهم ، وباختيارهم أن يصوغوه اما قوالب سكر ذات لون أبيض ، وكثافة ، وصلابة

---

(٩٧) De Valence : Pasi,p . 186. b ; Brown, l.c., p. 283; re: Malaga : Uzz., p. 59, 191 ; Warnhönig, Hist. de Flandre, IV, 347.

(٩٨) Cadamosto, dans Rausio, I. 98, a.

(٩٩) Sanut., Diar., I, 916, Cf II, 138, 165.
ــ وكانت المراكب البرتغالية تحمل شكر ماديرا الى بيرا ، والى أبعد منها ٠

(١٠٠) Hartm. Schedel, Liber Chronicarum (Norimb, 1493), fol. ccxc: Malipiero, Annali Veneti, p. 631 ; Sanuté., Diar., I, 271; Capmany, IV, append. p. 95.

(١٠١) Zeitschr. für Staatswiss., 1881, p. 845, 850.

(١٠٢) Sanut., Diar., I, 270 et s., 303, 640 : II, 333 et s. ; Malipiero. Annali Veneti, p. 630. 633, 640, 647.

(١٠٣) Platearius, Circa instau , p. cclii ; Bartholomoeus anglicus, De proprietatibus rerum, lib. XVII, cap. 197, De Zucaro ; Burchardus de Monte Sion (éd. Laurent, p. 87) en Palestine ; Caumont (p. 117) en Sicile Ibn-al-Awan (I, 367).

(١٠٤) هذا هو رأى : M. Hoefer (Hist. de la chimie, I, 449).

لا عيب فيها (١٠٥) ، واما سكراً مصفى ذا شفافية تامة · فكان السكر يكرر كثيرا أو قليلا ، ومن ثم كان تقسيم السكر الى ثلاث فئـــات ، تبعا لمرات الطهو (١٠٦) · وكان بيجولوتى يعـرف أنواعا كثيرة من قوالب السكر ويقسمها بالترتيب الآتى تبعا لجودتهـــا ، بادئا بأفضلهـــا : mucchera (كثيف ، ناصـع البيـــاض ، هرمى الشـكل) (١٠٧) ، caffettino (مستدير القمة) (١٠٨) ، bambillonia (هرمى الشكل ، بأحجام مختلفة) (١٠٩) ، musciatto (كبير ، مفاطح القمة ، أقل كثافة ، وأرخص من الأنـواع الســابقة ، ملائم للتجـــارة الصغيرة) (١١٠) ، domaschino (أقل الجميع جودة ، مفلطح أو مدبب القمة) (١١١) ، أما سكر « البودرة » Polvere di Zucchero ، أو ببساطة polvere فهو أيضا على شكل قالب عند خروجه من المرجل ، ولكنه لما كان قليل التركيز ، فانه غير متماسك ، ومن ثم يصير مسحوقا أثناء نقله ، ولذلك يفضل الناس السكر الجاف الأبيض ذا القطع الكبيرة · وقد سبق أن رأينا أن جزيرة قبرص تصنع هذا السكر بكميات كبيرة ، وجودة فائقة · ويلقى هذا السكر استحسانا كبيرا ، يليه فى الترتيب من حيث المزايا ، سكر رودس ، وسوريا ، وكرك Krak (١١٢) ، والاسـكندرية ، ولابد أن التسـمية الأخيرة تسرى أيضـا على القاهرة (١١٣) التى يذكرها بعض المؤلفين على حدة (١١٤) · وكثيرا ما كان الجزء الأكثر نقاء فى قالب السكر يفصل منه طرفه ، وهو أقل نقاء ، ويباع على حدة (١١٥) ، وكان فى التجارة ، الى جانب السكر القوالب ، والسكر « البودرة » ، كما سبق أن ذكرنا ، السكر المصفى (القندى) candi · والمطلوب أن يكون فى قطع كبيرة ، شفافة ،

---

(١٠٥) Edrisi, I, 208.

(١٠٦) Uzz., p. 165, 191 ; Pasi, 54, a, b, 55, b, 84, a, 91, b, 114, a, Mas Latrie, III, 220, 232, 497, 535.

(١٠٧) Pegol, p. 298, 362 ; Pasi, p. 41, b, 54, a, 57, a, b, 58, a, 81, b, 144, a, 150, a ; Douet d'Arcq (p. 245 et s., 253).

(١٠٨) Pegol, p. 210, 298, 311, 362; Bonaini, Stat. Pis., III, 591 ; Douet d'Arcq, p. 215, 220, 246 ; caffon, ibir., p. 206, 212 ; Ordonn. des roi de France, II, 535.

(١٠٩) Pegol., p. 210, 298, 311, 373 ; Uzz., p. 191.

(١١٠) Pegol., p. 298, 311, 363.

(١١١) Ibid. p. 298, 311, 363 ; Uzz., p. 114, 191.

(١١٢) "Cranco" : Pegol., p. 365 et s.

(١١٣) Pegol., p. 364-366 ; p. 297.

(١١٤) Pegol., p. 297 ; Uzz., p. 23.

(١١٥) Pegol., p. 364 ; Mass Latrie, III, 38, 249.

ومتبلورة (١١٦) · وكلمة « قندى » أصلها هندى ، ووصلت الى الغرب مارة بفارس وبلاد العرب (١١٧) ·

وفى أثناء صنع السكر ، لا تتبلور الكتلة كلها : فثمة جزء من العصير يكون لزجا ، لزوجة صفراء وسميكة ، تسيل أو تسحب من المرجل بمغرفة (١١٨) ، ويملأ منها براميل ، ويعطى للتجار باسم العسل، أو « المولاس » mellaci, mellas (١١٩) · ويعطر السكر أحيانا بمزجه بمـــاء الورد ، أو بروح البنفســج ، ويحصـــل هـكذا من جهـة على : Zucchero rosato, sucre rosat, roset vermeil (١٢٠) · ومن جهـــة أخرى على : Zucchero violato, Zuccharum violaceum ، الخ (١٢١) ·

وفى الأصل ، كان الأطباء العرب يوصـــون بالسكر لعلاج أمراض الصدر (١٢٢) ، وحذا الغرب حذوهم ، فاستعمل السكر أولا فى الطب فقط · ولم يعرفه الصليبيون بادىء ذى بدء الا كدواء ، ولعدة أجيال كان جزء من السكر الذى يصنعونه هم بأنفسهم يصدر الى مستشفيات الأرض المقدسة ، هبة منهم للمرضى (١٢٣) · ولهذا الغرض نفســه كانت كتب الطب الأولى تدرس السكر ، لا من حيث استعماله فقط . ولكن أيضا من حيث اعداده (١٢٤) · وكان العطارون يتزودون به دائما : والحقيقة أنهم كانوا فى العصـــور الوســـطى يديرون فى الوقت نفســـه حوانيت للبقالة (١٢٥) · وفى العصور القديمة ، كان السكر سلعة غالية الثمن ،

---

(١١٦) Pegol., p. 364.

(١١٧) Lassen, Ind. Alterth., I, 272. ; Chehab-eddin, p. 176, 212 ; Quatremère ; Assis. Jérus., II, 187.

(١١٨) Harff, p. 83 ; Burchard., p. 87 ; Platearius, Circa instans, p. celii.

(١١٩) Mas Latrie, II, 499 et s. ; III, 497 ; Piloti, p. 373, 376 ; warnkoenig, Hist. de Flandre, IV, 348.

(١٢٠) Pegol., p. 298 ; Ménagier de Paris, II, 112, 122, 274.

(١٢١) Pegol., p. 298 ; M. Francisque Michel, l.c. p. 429 Arnoldi App., Basil., 1585, Col. 427-438.

(١٢٢) Ritter, l.c., p. 378.

(١٢٣) Strehlke, Tab. ord teuton. p. 9, 28, 69 ; Roziere, Cartulaire du S. Sépulere, p. 277.

(١٢٤) Platearius, l.c. ; M. Francisque Michel (l.c., p. 783).

(١٢٥) Joh. de Garlandia, Dictionarius, éd. Schéler (Lexicographie lat. du XII et XIII siècle), 1 p. 28 ; Flückiger, Nördlinger Register. p. 15, 19.

فلا يستعمل باسراف فى الأطعمـــة والأشربة العـادية (١٢٦) ، ومن ثم يستبدل به عسل محلى ، لزمن طويل • ومع ذلك ، فمنذ عهد الأباطرة كومنيوس (١٢٧) ، كان اليونانيون يحبون الماء المحلى بالسـكر • ومع انخفاض ثمن السـكر ، عم اســتعمال الفواكه المسـكرة ، وســـائر الحلوى (١٢٨) • ومع ذلك فطالما لم يعرف الناس القهوة والشاى ، لم يكن السكر سلعة استهلاكية يومية لا غنى عنها ، كما أصبحت فى وقتنا الحاضر •

المنسوجات

فى الصفحات التالية ، نعرض دراسة لمنتجات صناعة النسيج من وجهة المبادلات بين الشرق والغرب • ولكن ، قبل أن ندخل فى التفاصيل ، ومع ابداء بعض التحفظات ، من حيث العديد من الاستثناءات ، نستطيع أول كل شيء أن نضع نظرية عامة ، ونفرض كحقيقة لا تقبل الجدل أن تجارة المنسوجات أتاحت مجالا لتيارين متضادين فى الاتجاه ، أحدهما من الشرق الى الغرب لمنسوجات حريرية وقطنية ، والآخر من الغرب الى الشرق لمنسوجات صوفية وكتانية • فلنبحث أولا فى منتجـات الشرق وأهميتها بالنسبة للغرب •

ففى غضون القرون الأولى من العصور الوسطى ، كان عامة الشعب (من غير رجال الدين) عند شعوب الجنسين الرومانى والألمانى لا يبيحون لأنفسهم ، الا فى القليل النادر الاستمتاع بالثياب الحريرية الفاخرة • أما الكنيسة فكانت ، على العكس من ذلك ، تتجلى فى هـذا الخصوص بأبهة وبذخ • وكانت روما بطبيعة الحال هى القدوة فى هذا الشأن ، كان فيها أجمل الأنسجة والنماذج ، وكانت حوانيت المدينة تضع تحت تصرف العالم الغربى نخبة منوعة من الأقمشـة الحريرية ، بل والحلى والثيــاب الكنسية الجـاهزة • ويضـم كتاب Liber pontificalis كل التفاصيل المطلوبة عن طبيعة هذه الحلى والثياب وأصلها • وكانت الرسوم المحيكة فى أقمشة هذه الأثواب والبسط فى ذلك العصر ، من

---

(١٢٦) Rogers, Hist. of agriculture and prices in Englanr, I, 633 et s., 641 ; Leber, p. 78.

(١٢٧) Eusthatius, dans les App., éd. Tafel, p. 209.

(١٢٨) Leber, p. 74, 77, 92, 00 ; Ménagier de Paris, dans les passages déjà cités.

صـور الأسود ، والفيلة ، والطيور ، والطاووس ، والعنقـاء ، والمليكة (حية أسطورية ـ المترجم) لها سمة شرقية واضحة (١٢٩) • ومع ذلك ، لما كان اليونانيون لا يحبون هذا النوع من الزينة والزخرف ، مثلهم في ذلك مثل العرب ، وكانت الرسوم المشار اليها فيها محاكاة الطبيعة سمة مشتركة مع الرمزية المسيحية (١٣٠) ، فان واقعة تصوير الحيوانات في هذه الرسوم لا تكفي وحدها لاثبات أن هذه الأقمشـة صنعت في بلد مسيحي أو في بلد اسلامي • وفي هذا الخصوص ، تعتبر الأسماء أصدق الدلائل ، ومنها أسماء تطلقها المصادر على هذه الأقمشة ، كاسم يكشف بصورة أكيدة عن أصل عربي ولست أقصد هنا النعت « من صـور » de Tyr الذي يستخدمه كتاب Liber pontificalis في وصف بعض الأقمشة : فهذا النعت لا يدل على المصدر ، وانما يعني فقط أنه قماش أرجواني (١٣١) • ولكن هناك نعتا آخر أقل شيوعا ، له معنى مختلف كل الاختلاف ، ذلك هو : « من الاسكندرية » d'Alexandrie ، وذلك لأنه ان لم يكن القماش المذكور بهذا الوصف قد صنع في الاسكندرية نفسها ، فانه على الأقل قد اشترى في هذه المدينة • فضلا عن ذلك فان الأغلبية العظمى من الأقمشة المستعملة في صنع الزخارف الكنسية ترد فعلا من الشرق ولكن من الشرق المسيحي • فالصلبان ، واللوحات الكبيرة التي تصور لمحات من التاريخ ، أو من حكايا القديسين ، والتي نراها مع تصاوير للحيوانات أو زخارف عربية (أرابيسك) هي دلالة قوية على أصلها • فضلا عن ذلك فان كل الأقمشة الحريرية مصنفة بأسماء يونانية : فالأرجوان يسمى في كثير من الأحيان buyzantin Blathin (blatta) (١٣٢) هـذه الأقمشـة الحريرية ، عربية كانت أو يونانية الأصل ، تصل الى القسطنطينية حيث ينقلها التجار الأمالفيون والبنادقة الى روما • وسبق أن رأينا أنه رغم المراسيم التي تحفظ أجود أصنافها للامبراطور ، وتحظر تصديرها ، كان هؤلاء التجار يعرفون كيف يحصلون عليها • ثم انه قبل الانشقاق الشرقي الكبير (الانفصال عن الكنيسة الرومانية) (١٣٣) ، وفيما بعد ، في الفترات التي بدا فيها حدوث تقارب

---

(١٢٩) Liber pontif., éd., Vignoli, II, 241, 265 ; III, 14, 33 et s., 71, 272.

(١٣٠) Back, Liturgische Gewänder, I, 9, 11.

(١٣١) Jacq. de Vitry, p. 1072. Guil. de Tyr, XIII, 1.

(١٣٢) Lib. pontif., II, 258, 308, 329, 334-330, 343, 345 ; III, 20, 28, 53, 57, 58, 272 ; Mabillon, Vetera analecta, p. 370; Schultz, Leben, I, 260 et s.

(١٣٣) Lib. pontif., III, 167.

بين الكنيستين (١٣٤) . تلقى البابوات هدايا من الأباطرة البيزنطيين متمثلة في قطع فاخرة من القماش لتزين بها كنائس روما . ومن جهة أخرى ، في غضون الفترة التي شاعت فيها الحركة المعادية للأيقونات في القسطنطينية هاجر نساجو الحرير من اليونان الى روما بعد أن كادوا يموتون جوعا ، ونقلوا اليها تقاليد عاشت دهرا طويلا ، وصار لدى مصانع البابوات أن يستغلوها في صنع الزخارف ، وأغطية المذابح ، والبسط الحريرية .

واذ جلب اليونانيون الهاربون الى روما فن نسج الحرير ، فان هذا الفن دخل اسبانيا في أعقاب الغزاة العرب ، وبلغ درجة كبيرة من الازدهار حتى لقد أحصى في مدينة المرية Alméria وحدها قرابة ثمانمائة نول (١٣٥) . وبلغت هذه الصناعة أيضا بعض الازدهار في صقلية (١٣٦) . وعلى غرار سائر الملوك العرب ، كان الأمراء في صقلية يتولون في قصورهم رعاية مشاغل الأقمشة الحريرية ، وتوارثها بعدهم الملوك النورمان (١٣٧) ، فتركوا النساجين المسلمين يمارسون حرفتهم في مصانعهم ، ولكنهم نفثوا في هذه الصناعة دما جديدا فاشركوا فيها مساجين أتوا بهم من طيبة وكورنثة . وشيئا فشيئا اختفى المسلمون ، اذ مات منهم من مات ، وهاجر آخرون بحيث حل اسلوب العمل عند القادمين الجدد ، في النهاية محل أسلوب السابقين : فالواقع أن هوجو فالكاندس Hugo Falcandus لا يستخدم في وصفه مصنعا للحرائر سوى مصطلحات يونانية ليست بالتأكيد مشتقة من أصلها الحقيقي (١٣٨) .

ومع الملوك النورمان ندخل في فترة الحروب الصليبية . هذه الحروب الكبرى التي أتاحت لعدد كبير من الغربيين أن يزوروا الشرق ، ومن ثم اتصلوا بالبلاد التي تنتج الحرير وتصنعه . فأحب الفرسان الأوروبيون الأقمشة الفاخرة والأثاثات النفيسة التي عند الشرقيين ، فنافسوهم في الترف ، ولم يلبث أفراد الطبقة البورجوازية أن حذوا

---

(١٣٤) Labarle, Hist. des arts indusrtriels au moyen-âge et à l'époque de la renaissance, IV, Paris 1866, p. 341 et s.

(١٣٥) Edri i, Deser, de l'Afrique et de l'Espagne, éd. Dozy et Goeje, p. 240; Gesta Ricardi I, ér. Stubbs, II, 122 ; Francique Michel, l.c. I, 288; Schultz, Höfisches Leben, I, 249, 253.

(١٣٦) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, II, 448 et s.

(١٣٧) Ibn Giobaïr, éd. Amari, dans l'Archiv. stor. itals, IV, 35, 77 et s., et dans Bibl. arab. sic. trad. I, 148 ; Amari, Storia, III, 798 et ss.

(١٣٨) Dei Re. Cronisti e scrdittori Napol., I. 280, Francisque Miche, Recherches sur le commerce, la fabrication et L'usage des étoffes de soie, d'or et d'argent, ets., I, 172.

حذوهم · وأثرت كاتدرائيات البندقية وجنوا بالزخارف الحريرية المصنوعة في اليونان التي كان استيرادها موضوعا لاشتراطات خاصة مدونة في المعاهدات المبرمة مع بيزنطة · ونمت الرفاهية سريعا حتى لم تعد مصانع اسبانيا وصقلية تفى بالحاجات ، فكان لا مناص من اللجوء الى منتجات الشرق الأدنى · كذلك لم يعد ذوق العصر يتطلب منتجات أخرى : اذ نرى في قصص الفروسية أن الناس لا يقدرون شيئا خلاف الأشياء التي يصنعها الحرفيـون العرب المهرة (١٣٩) · كان « البروكار » (نسيج مقصب بخيوط من الحرير والذهب ـ المترجم) ضروريا للخيـام التي يجتمع بداخلها الأمراء والفرسان في الأعياد ، وللطنافس في الكنائس ، وستائر أسرة غرف نوم الأمراء ، والأعلام والبيارق · وفي المدن . في أيام المواكب والأعياد ، كان الأهالي يعتقدون أنه ليس ثمة شيء أفضل لتزيين الشوارع من أن يبسطوا أمام نوافذهم طنافس عربية · وصارت المنسوجات الحريرية الشرقية التي كانت فيما مضى حكرا للكنائس تزين بها هياكلها وحوائطها ، صارت زينة عادية لقصور الأمراء ، وصروح الفرســـان والنبلاء ، وبيوت الأثـرياء البورجوازيين · وكان الأمراء والفرسان والنبلاء ونساؤهم وبناتهم يظهرون علانية مرتدين ثيـابا من « البروكار » المذهب (الديباج) الذي كان يلبسه فيما مضى القساوسة وحدهم في الحفلات الدينية ·

وحين دونا تاريخ التجارة في الشرق الأدنى ، ذكرنا ضمنا البلاد والمدن التي تستورد منها أوروبا هذه الأقمشة الثمينة ، ذلك أنه لم يفتنا بالمرة كلما سنحت الفرصـــة أن نذكر المراكز الرئيسية لانتاج الحرير وصنعه · وفي كل مرة ، في مناسبة الاشارة الى قماش حريرى نذكر كتب التجارة ، والتعريفات الجمركية ، وكشوف جرد كنوز الأمراء ، وقصص الفروسية (١٤٠) وغيرها مصدر هذا القماش ، فنجد غالبا ، مع استثناءات قليلة اسما من الأسماء التي عرفناها من قبل · والأسماء التي نصادفها أكثر من غيرها هي : من المدن : الاسكندرية ، وطرابلس ، ودمشق ، وانطاكية ، ومن البلاد : سوريا ، وقبرص ، وآسيا الصغرى (تركيا) . واليونان (بلاد الروم) · أما البلاد البعيدة عن الشرق ، فانها لا تظهر الا نادرا ، بالمقارنة بالبلاد المطلة على البحر المتوسط · ومن الثابت أن

---

(١٣٩) Francisque Michel, l.c., II, 64 et ss.

(١٤٠) ليست المعلومات التي يمكن العثور عليها في قصص الفروسية كثيرة أو اكيدة كما قد تخطر على البال · اما أسماء البلاد والنواحي الواردة بها فان البعض منها صادر عن مخيلة الشاعر ؛ وأسماء أخرى مستقاة من التاريخ القديم · ومع ذلك فانا نشكر السيد شولز لما بذله من جهد في جمع هذه الأسماء كلها · انظر :
M. Schultz : Das höfische Leben, I, 251 et ss.

بلاد الفرس ، والهند ، والصين كانت تصنع المنسوجات الحريرية على نطاق أوسع ، غير أنها بعيدة جدا ، بعدا لا يسمح بالتوسع فى استيراد هذه السلع · ومع ذلك ففى الامكان أن يخرج نوع أو آخر من الأقمشة الحريرية من قلب آسيا دون أن يعرف التاجر الذى اشتراه فى موانى الشرق الأدنى مصدره الحقيقى · وسوف نرى بعد قليل أنه بالنسبة لبعض الأنواع كان اسمها وحده يدل على مصدرها البعيد ·

وتجنبا للاسهاب الذى لا فائدة منه ، أحيل القارىء الذى يود أن يعرف بالتفصيل كل نوع من الأقمشة على حدة الى المؤلفات الخاصة بالموضوع ، واكتفى هنا بأن أقول بضع كلمات عن المنسوجات الرئيسية ، وأذكرها حسب الترتيب الأبجدى ، بادئا بالمنسوجات الحريرية ·

Baldekino, Baldacchino (بغدادى) (١٤١) قماش حريرى غالى الثمن ، مزين عادة بصور ، وموشى غالبا بالذهب · وفى أواخر العصور الوسطى ، كان يصنع منه نوع مخلوط بالحرير sericum mixtum ومواد أقل قيمة ، كالقطن ، ولكن كان الحرير وحده فى الأصل هو المسموح به (١٤٢) · وليس ثمة شك فى أصل هذه الكلمة : فهى مشتقة من اسم بغداد (١٤٣) حيث كان القماش يصنع هناك فى البداية · وتتأكد هذه الواقعة بمعلومة تاريخية : فبعد أن غزا هولاكو بغداد ، فرض الغازى على أهل المدينة جزية يدفع جزء منها أقمشة من هذا النوع (١٤٤) · وبعد ذلك صنع هذا النوع أيضا فى اقليم الأهواز ، وفى دمشق وقبرص (١٤٥)، وانتشر حتى فى فرنسا وانجلترا (١٤٦) ·

Camocato (camocan, camocas) : قماش حريرى ، دمقسى ، موشى بالذهب ، كثيرا ان لم يكن دائما (١٤٧) ، يصنع منه ملابس

---

(١٤١) Capmany, Mem., II, app., p. 76, 78.

(١٤٢) Michel., l.c., I, 251 et ss.; Gay, Gloss., I, 133 et ss.

(١٤٣) Dozy et Englemann, Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe ; 2e éd., p. 234; Michel, I, 252, 301 et s.

(١٤٤) Joh. de Plan. Carp., p. 681 ; Cf. ibid. p. 525, 614 et s.

(١٤٥) A boulf., Geogr., II, 2, 88 ; Michel, l.c., I, 254 ; Gay, l.c., p. 136.

(١٤٦) Douet d'Arcq, Comptes de l'argenterie des rois de France. I, 266 ; II, 286; Uzz., p. 126, Michel, I, 252.

(١٤٧) Michel, II, 171 et ss. ; Douet d'Arcq, l. c., I, p. xxvi et s. : Yule, Cathay, II, 486.

للخصلات ، وحليات كهنوتية (١٤٨) ، وطنافس للبيوت ٠ كان يصنع فى الأصل فى الصين حيث ترتديه الشخصيات الكبيرة (١٤٩) ، وينتسب اسمه الى هذا البلد (بروكار كنشا ، أو كمشا (Kincha, Kimcha واقتبس فى فارس باسم « كمخا » Kimkha ، وكان يصنع أيضا فى هراة ، ونيسابور ، وطورس (تبريز) (١٥٠) ، وفيما بعد دخلت « الكمخا » بلاد العرب ، وهناك ما يثبت وجود مصانع خاصة بهذا النوع فى بغداد ، ودمشق ، والاسكندرية (١٥١) ٠ وفى الشرق المسيحى ، اشتغل القبارصة بهذه الصناعة (١٥٢) ، وكذلك اليونانيون على الراجح. وكان هذا النوع متداولا فى التجارة فى فاماجوستا والقسنطينية (١٥٣)٠ وكانت فاماجوستا ، والقسطنطينية ، والاسكندرية تصدر هذا النوع الى الغرب حيث كان مطلوبا بكثرة ، وبخاصة فى بلاط فرنسا (١٥٤) ٠

ـ Damaschino (دمقسى ، قماش دمشق) : قماش مصنوع في مصانع دمشق المزدهرة ، يحمل اسم المدينة التى خرج منها ٠ وهو قماش ثقيل ، به رسوم محيكة فى بدن القماش نفسه (١٥٥) ، ويصنع أيضا فى فارس ، ويزد ، والاسكندرية (١٥٦) ٠

ـ Maramato, Maramanto (بالفرنسية Marramas, maisamas) والكلمة مشتقة من العربية محرمة mahramah) : « بروكار » (١٥٧) ، نقلته الى الغرب سفن البندقية ، وجنوا ، وقطالونيا ، وكانت تذهب فى

---

(١٤٨) Atti della Soc Lig,. XIII, 273.

(١٤٩) Ibn Batouta, II, 311; Clavijo, p. 214 ; Le livre de l'estat du grant Caan, p. 67.

(١٥٠) Ibn Batouta, II, 311; III, 81 ; Clavijo, p. 113, 118 et s. etc. Barbosa, Viaggio in Persia, p. 35 et s.

(١٥١) Ibn Batouta, II, 311 ; Gay, l.c., p. 267 ; Taf. et Thom., inéd. : Documents de 1415 et de 1422.

(١٥٢) Mas Latrie, Hist. de Chpyre, III, 244, 497, 535.

(١٥٣) Pegol., p. 19, 65; Arch, de l'or. lay,, II, 29.

(١٥٤) يتردد اسم Camocas كثيرا فى كل صفحة من قوائم الجرد الفرنسية ٠

(١٥٥) Gay Gloss., II, 536 et s.

(١٥٦) Uzz., p. 198, 163, 172 ; Barbaro, Viaggi in Persia ; p. 34, b.

(١٥٧) Michel, II, 170 et -. ; Labarte, Inventaire du mobilier de Charles V, p. 153, not. 5 ; ibid, p. 371 et s.

طلبه الى أسواق عكا ، وفاماجوستا ، والقسطنطينية (١٥٨) • نجده فى قوائم الجرد الفرنسية ، مستعملا كحليات للكنائس ، أو للأثاث •

— Nacco (nacchetto) : هذا أيضا « بروكار » • ونصادف كثيرا هذا الاسم شبيها باسم قماش آخر nassit (nasith) لا يختلف عنه كثيرا • وكلمة naccio مشتقة من العربية نخ ، أما nassit فانها تأتى من كلمة عربية أخرى « نسيج » (١٥٩) • ويبدو أن أول كاتب غربى استخدم الاسم هو « جويوم دى روبروك » ، فقد تلقى قطعة من هذا القماش هدية من خان التتار الكبير « مانكو » ، باعها ترجمانه فى قبرص بثمانين دينارا بيزنطيا (١٦٠) • وقد رأى ماركو بولو فى الجنوب الغربى من « قرة قوروم » ، مقر مانكو ، بالقرب من حائط الصين ، بلدا يصنع فيه هذان النوعان من الأقمشة (١٦١) • والواقع أن بيجولوتى يذكر أن بعض التجار الغربيين يذهبون الى الصين طلبا لهذه الأقمشة ، ويأتون بها عبر آسيا حتى تانا ، ومنها يركبون السفن عائدين الى أوروبا (١٦٢) • هذه الأقمشة كانت ترد أيضا من الصين الى سمرقند ، الى الغرب (١٦٣) • وكان فى بغداد مصانع تنتج النوعين من القماش • وثمة قطع من منتجات هذه المصانع أرسلت هدايا الى أوكتاى خان Ogotaï-Khan (١٦٤) • وكانت هذه الأقمشة منتشرة كثيرا فى العالم الاسلامى • وأتيحت الفرصة لابن بطوطة لأن يدرس صناعة « النخ » فى نيسابور ، ورآه مستعملا فى بلاط خان القفجاق Kiptchak ، وفى أفسس اهدى اليه قطعة من هذا القماش (١٦٥) : وتدل هذه المعلومة على أن هذا القماش كان يصنع أيضا فى آسيا الصغرى • والواقع أن آسيا الصغرى

---

(١٥٨) Assises de Jérus. III, 179 ; Pegol., p. 19, 65, 136, 219; Uzz., p. 163.

(١٥٩) Galv. Flamma, dans les Misc. dil stor. ital., VII, 450 ; Arch. de l'Or. lat., II, 27, 29 ; Cod. Cuman., p. 106, 107 Defrémery, rans le Journal asiat., 4e série, XVI, 166.

(١٦٠) Guill. de Rubrouk, p. 317.

(١٦١) Marco Polo, p. 220.

(١٦٢) Pegol., p. 4, 136.

(١٦٣) Cheref-eddin, Hist. de Timour-bec, II, 64.

(١٦٤) M. Polo, p. 48 ; Yule, M. Polo, I, 62 ; Bretchneider, Notice of the medieval geography and history of Central and Western Asia, p. 214.

(١٦٥) Ibn Batouta, II, 309, 388, 422 ; III, 91.

كانت هي وقبرص المصدر المشار اليه لجزء من أقمشة « النخ » المدونة في سجلات حسابات بلاط فرنسا (١٦٦) • وكان في خزانة كاتدرائية « براج » حليات كثيرة مصنوعة من هذا القماش ، الا أن قوائم الجرد لا تذكر مصدرها (١٦٧) •

ـ Sciamito (Samit) (سسياميتو ، سساميت) : لا يمكن الكلام عن هذا القماش دون مقارنته بالأنواع التي ذكرها « هوجو فالكاندس » وسماها amita, dimita, trimita (١٦٨) ، والفرق بين هذه الأقمشة المختلفة وبين السياميتو يكمن في الثخانة : فبالنسبة لهذا الأخير . لم يكن النساج يقتصد في المادة الأولية ، حتى يعطى القماش مزيدا من السمك • وعلى ذلك كان السياميتو قماشا حريريا ثقيلا وسميكا (١٦٩) . كما كان غالى الثمن جدا ، وكان ترفا غير متاح الا للكنيسة أو لأعلى الطبقات الاجتماعية ، يقدم كهدية جميلة • وموطنه الحقيقي بلاد اليونان ، وتبين لنا أنه كان يصنع في قديم الزمان في جزيرة أندروس • وقد أرسلت عينات من هذا النسيج هدية من اليونان الى بلاط امبراطور المانيا (١٧٠) • وعندما استولى الصليبيون على القسطنطينية عام ١٢٠٤ وجدوا ضمن الغنائم كمية كبيرة من « الساميز » Samiz (١٧١) • وفي عام ١٢١٠ وعد رئيس أساقفة « باتراس » اللاتيني دير كلوني Cluny أن يهدى الدير كل سنة examitum optimum (١٧٢) • غير أن « ساميس بلاد الروم » (١٧٣) لم تكن معروفة في الغرب وحده : فقد كان الغرب يتلقى هذا النسيج من عكا ، وبيروت ، واللاذقية ، ودمشق ، والاسكندرية ، لأن عرب سوريا ومصر تعلموا من اليونانيين خطوات صناعته (١٧٤) ، وتعلم النساج القبارصة بدورهم هذه الخطوات . فكانت

---

(١٦٦) Douet d'Arcq, l.c., II, 8, 18, 78; Pegol., p. 65.

(١٦٧) Bock, Geschichte der liturgischen Gewänder, II, 45, 283, 312 et ss. ; III, 62, 170, 172, 173; Michel, I, 261.

(١٦٨) Del Re, Cronisti Nap., I, 282.

(١٦٩) Michel, I, 196-198. ; Douet d'Arcq, Comptes de l'argentierie, I, xxiv et s.

(١٧٠) Arnold, Lubec., I dans Pertz, SS., XXI, 120 ; Joffé, Bibl. rer. germ., T, 455, 550.

(١٧١) Geofroy de Ville hardouin dans le Recueil de hist. re la France, XVIII, 462.

(١٧٢) Bibliothèque de l'Ecole des Charles, 2 série, V, 308 et ss.

(١٧٣) Michel, I, 208 ; Pegol., p. 107; Uzz., p. 89.

(١٧٤) Pegol., p. 55, 77, 78; Michel, I, 159 et s.

منسوجات « الساميت » المصدرة من ميناء فاماجوستا سلعة أهلية ، كما كانت صناعة محلية الى أن حل اليوم الذى تركزت فيه صناعة النسيج والصباغة كلها فى نيقوسيا (١٧٥) ٠

ـ Siglaton, Siklat (سيجلاتون ، سيكلات) : اسم مشتق من اليونانية ، شأنه شان كلمة ساميت ، ويطلق على ثوب نسوى ، مستدير الشكل ٠ كان النسيج المعروف بهذا الاسم قماشا حريريا دمقسيا ثقيلا ، وكان فى أواخر القرون الوسطى موشى عادة بالذهب ٠ وكان الشرقيون يصبغونه غالبـــا بلون أزرق داكن ، ويصبغه الغربيـــون بلون أحمر فاقع (١٧٦) ٠ وكانت مراكز صناعته بغداد ، وطورس (تبريز) (١٧٧) ٠ وكان النساجون العرب فى المرية باسبانيا (١٧٨) ينسجون أيضـا هذا القماش ٠ ومع ذلك فالثابت أن فارس كانت تزود الغرب بكميات منه ٠

ـ Taffeta (التفتا) : هذا الاسم يدل بذاته على أصله الفارسى (فهـــو بالفارسية taftah taftèh (١٧٩) ٠ وينبئنـــا كلافيجـــو فى الواقع أنه كان يوجد فى أسواق طورس ، والسلطانية ، وسمرقند أقمشة « تفتا » مصنوعة فى هذه المدن (١٨٠) ٠ وفى أواخر العصور الوسطى انتشر هذا القماش أكثر فأكثر فى الغرب (١٨١) ٠ وربما كانت قبرص تؤدى دون الوسيط فى تصريف هذه السلعة (١٨٢) ٠

ـ Tartaricus pannus (tartaire) (الترتر) : نصـادف هذا الاسم كثيرا فى دفاتر حسابات بلاط فرنســا ، وفى قوائم جرد كنوز كنائس انجلترا وايطاليا (١٨٣) ، ويطلق على قماش جميل مزين فى كثير

---

(١٧٥) Pegol, p. 65 ; Pasi, p. 142, a ; Mass Latrie, Hist. de Chypre, III, 244, 490, 497, 535.

(١٧٦) Karabacek, I, 2-11, Michel, l.c., I, 220 et ss. ; Schultz, Das höfi che Leben, I, 263 et s.

(١٧٧) Michel, I, 233 et s. ; Yaqout, p. 133.

(١٧٨) Michel, I, 233.

(١٧٩) Devic, Dictionnaire des mots français d'orig. orient., p. 214.

(١٨٠) Clavijo, p. 109, 114, 190.

(١٨١) Michel, II, 237 et ss. ; Chiarini, p. xviii.

(١٨٢) "Pannus taffa" ; Actes notariés de Chypre : Arch. de l'Or. lat., II, 2, p. 29.

(١٨٣) Douet d'Arcq, I, p. 328, 405; II, 2, p. 2, 4, 5, 6, 13, etc ; Invent. de Charles V, p. 363 et ss., 389 et s. ; Mon. Hung. List., Acta extra, I, 244, 252,

من الأحوال بخطوط ذهبية ، أو صور حيوانات (١٨٤) · والمعروف أن امبراطورية التتار كانت ممتدة من القرم الى الصين : فمن الصعب تحديد أى أجزاء هذا الاقليم الشاسع الذى يصنع فيه النسيج المشار اليه · وكانت الشخصيات الكبيرة فى الصين ترتدى ثيابا مصنوعة من الترتر أو الكاموكاس أو أقمشة أخرى (١٨٥) ·

_ Zendado زندادو cendal سندال) : نوع من التافتا ، من حرير رقيق بنوع ما · ومن المشكوك فى صحته أصل هذا الاسم (١٨٦) ، والمكان الذى صنع فيه هذا النسيج لأول مرة (١٨٧) · ولقد مر ماركو بولو ، وكلافيجو فى رحلاتهما بمدن عديدة يصنع بها هـذا النسيج ، الأول فى الصين ، والثانى فى فارس (١٨٨) · ويثور السؤال عما اذا كان الغربيون ، قبل أن يعرفوا صناعة هذا النسيج كانوا يستوردونه من تبريز والسلطانية ، ربما عن طريق بحر قزوين وتانا (١٨٩) ، غير أن الأمر مشكوك فيه · اذ تتحدث قصص الفروسية الفرنسية عن هذا النسيج على أنه من منتجات صور وكانديا (١٩٠) · ويقول بيجولوتى انه يوجد فى أسواق القسطنطينية ، وستالية ، وفاماجوستا ، ويباع فى هذه المدينة الأخيرة على أنه سلعة أهليـة (١٩١) · وكان منتشرا بدرجة كبيرة فى الغرب (١٩٢) حيث يصنع منه بنوع خاص أعلام ، وخيام ، وأغطية ·

_ Zetani : ينبئنا ابن بطوطة أنه يخرج من مدينة زيتون Zayt:n المعروفة الأطلس (الساتان) ذو الجودة الفائقة المسمى زيتونية Zeitouniyah (١٩٣) · وكانت هذه السلعة معروفة ومطلوبة فى قسم

---

(١٨٤) Michel, II, 167 et s. ; Douet d'Arcq, II, p. iii.

(١٨٥) Livre du l'estat du grant Caan, p. 78 ; cf. Yule, Marco Polo, I, 259.

(١٨٦) Michel, I, 219 et s. ; Yule, l.c., II, 5 ; Dozy et Englemann, Glossaire, p. 378.

(١٨٧) Gay, Gloss., I, 295 ; Schultz, Das Höfische Leben, I, 266.

(١٨٨) Marco Polo, p. 352, 457, 654 ; Clavijo, p. 114 ; cf. p. 109, 190.

(١٨٩) Michel, I, 209.

(١٩٠) Michel, I, 202, 208.

(١٩١) Pegol., p. 18, 42, 65.

(١٩٢) Ibid, p. 99 114, 212 ; Uzz., p. 6-8; Capmany, II, 8, 17; Douet d'Arcq, I, p. xxji et s., 357 ; II, passim ; Inventaire de Charles V, p. 344; Coll. de doc. inéd., mél. List., III, 338, 350, 582.

(١٩٣) Ibn Batouta, IV, 269.

كبير من الشرق . وشهد ابن بطوطة بنفسه وصول مائة قطعة منه دفعة واحدة مرسلة من الصين هدية الى بلاط دلهى (١٩٤) . وعندما مثل الفارسى عبد الرزاق أمام ملك بيسناجور Bisnagor (فى الهند) كان الملك مرتديا ثوبا من أطلس زيتون ، جالسا على وسادة مغطاة بالقماش نفسه (١٩٥) . كذلك رأى كلافيجو فى سمرقند وتبريز أقمشة حريرية رائعة تسمى « ستونس » setunis تصل الى هاتين المدينتين بطريق التجارة ، كما يصنع منها أيضا فى البلد نفسه ، فى ضواحى المدينتين (١٩٦) . وكلمة زيتونى التى لم تكن أول الأمر سوى نعت مستعمل للدلالة على أطلس (ساتان) زيتون ، أصبح اسم علم يطلق على قماش حريرى من نوع خاص مهما كان مصدره ، وحتى ان كان تقليدا للأطلس الناتج من مصانع زيتون نفسها . فقد أطلق أهالى قشتالة اسم setuni ، والايطاليون اسم زيتانى Zetani على قماش يستوردونه من الاسكندرية (١٩٧) . فهل كان هذا القماش سلعة صينية حقيقية ترد من الاسكندرية عن طريق الهند ، أم أنه تقليد فقط مصنوع فى الاسكندرية نفسها ؟ ليس في وسعنا أن نعرف الحقيقة ، غير أن الثابت أنه هو النسيج نفسه ، آية ذلك النعت raso الذى قرنه أوزانو Uzzano بكلمة زيتانى Zetani فى فقرة من الفقرات التى أوردناها (١٩٨) . فالواقع أن raso مرادف للكلمة العربية أطلس atlas (١٩٩) ، ونسيج زيتون يدخل فى هذه الفئة أى « الساتان » . ومن جهة أخرى يحتمل كثيرا (٢٠٠) أن كلمة ساتان satin الفرنسية مرادفة من الوجهتين النحوية والمادية للكلمات Zeituni, setuni, Zetani . ففى العصور الوسطى لم يكن بيت مهما قلت أهميته لا يوجد فيه قطع من الأطلس مختلف الألوان والظلال . اذ كان هذا النسيج فى كل الأزمان يلقى تقديرا كبيرا بالنظر الى بهائه ، وكونه غالبا موشى بالذهب (٢٠١) .

---

(١٩٤) Ibid, p. 1.

(١٩٥) Elliot, Hist of India, II, 113 120.

(١٩٦) Clavijo, p. 182, 190, 191, 214.

(١٩٧) Uzz., p. 107, 108, 163, 171 ; Cf. Laborde, les rues de Bourgogne, III, 153.

(١٩٨) Uzz. p. 108 : voy. Coll. des roc. inéd., l.c., p. 153.

(١٩٩) Michel, II, 222 et s. ; ûrcmer, Culturgesch des Orients, II, 339.

(٢٠٠) M. Yule : Cathay, II, 486 ; Marco Polo, II, 189 et s.

(٢٠١) Michel, II, 220 et ss.

لقد عددنا مختلف الأقمشة الحريرية الشرقية المصدر التى يستوردها الغرب ، ونستعرض الآن بالمثل بعض المنسوجات الأخرى الأقل قيمة التى كان التجار يستوردونها من البلاد نفسها ، ونتبع فى ذلك الخطة نفسها التى اتبعناها مع المنسوجات الحريرية ، أى حسب الترتيب الأبجدى ٠

ـ Beccasino بوكاسينو ٠ نسيج كتانى بسيط ، غير أن النساجين المصريين كانوا يعرفون كيف يكسبونه رقة وبريقـــا حتى ليخاله المرء حريرا (٢٠٢) ، وكان يصنع أيضا فى قبرص (٢٠٣) ، وفى الغرب يصنع نسيج لا يشترك مع هذا النسيج فى شىء سوى الاسم ، فهو نسيج قطنى من نوع « الشبيكة (٢٠٤) ٠

ـ Bucherame (بوشيرام) : قماش شائع الاستعمال فى الشرق فى صنع الملابس (٢٠٥) : ولا شك أن اسمه مقتبس من اسم تجارى (٢٠٦) ٠ نذكر من أماكن صنعه : ارزنجان Erjinghian بأرمينيا (٢٠٧) وموش Mouch ، ومـاردين Mardin بكردســـتان (٢٠٨) ، وأصـــفهان بفارس (٢٠٩) ، ومقـــاطعة تلينجانا Telingana Moutfili بالهند ، وعلى الساحل الشرقى من الهند وملبار ومدينتا تاناه Tannah وكمباى ، وفى افريقيا ، بلاد الحبش (٢١٠) ، وأخيرا ، جزيرة قبرص (٢١١) ٠ وكانت الموانى التى يخرج منها هـذا القماش الى الغرب ، كما تقول المصادر ، هى القسطنطينية وستالية ، وعكا وفاماجوستا (٢١٢) ٠

---

(٢٠٢) Frescobaldi, p. 45 et s. ; Sigoli, p. 177, 218.

(٢٠٣) Mas Latrie, Hi t. de Chypre, III, 775, 777.

(٢٠٤) Gay, Gloss., I, 181 et s. ; Schultz, Das höfische Leben, I, 268.

(٢٠٥) Joh. de Plan. Carp., p. 614 ; Marco Polo ; éd. Yule, p. 29.

(٢٠٦) Joh. de Plan. Carp. Introd. par l'Avezac, p. 524.

(٢٠٧) Marco Polo, p. 38; Pegol. p. 18, 212 ; Bonaini, Stat. Pis., III, 593.

(٢٠٨) Marco Polo, cf. Yule, I, p. cxxvii, not., 57, 59.

(٢٠٩) Zarncke, Der Priester Johannes, 2e part., p. 58 ; cf. 41 (deuxième charte, de 1221).

(٢١٠) Marco Polo, p. 631, 653, 663, 666, 702.

(٢١١) Pegol., p. 18, 212; Bonaini, l.c. ; Assises de Jérus., II, 361, 362, 365.

(٢١٢) Pegol., p. 18, 29, 43, 49, 65.

ويصعب أن نعرف بالضبط نوع النسيج الذى يباع بهذا الاســــم ، والثابت على أية حال أن هذا الاسم لم يكن فى العصور الوسطى يدل على القماش الخشن المعروف فى العصر الحديث باسم « بوجران» bougran ٠ فالواقع أن ماركو بولو يتحدث فى عدة مناسبات عن رقته : وعندما نصادف هذا الاسم فى قصص الفروسية الفرنسية ، فانه يتعلق دائما بقماش نفيس غالى الثمن ٠ وبخصوص المادة الأولية المستعملة فى صنعه ، وهذى نقطة مهمة ، فان أمرها تحيط به الشكوك ، فالبعض يقول انها الكتان ، والبعض الآخر يقول انها القطن ، وانتهى آخر عالم اهتم بهذه المسائل ، وهو فيكتور جبى Victor Gay الى أنها قماش كتانى رقيق (٢١٣) ٠

— Cambelotto (شملة) : تدل الكلمة العربية (خمل ، خملة) التى اقتبس منها هذا الاسم على أنه قماش ذو وبر طويل ، وهو من نوع القطيفة (٢١٤) ، وهذه هى الصبغة المشتركة لدى كل أنواع الشملات ٠ ثم انه يصنع من مواد مختلفة ، بعضها من شعر الجمال وهذه مادة لا يزال يصنع منها أقمشة فى الوقت الحاضر (٢١٥) ٠ ويتيح شعر الجمال البيض فى شمال غربى الصين مادة أولية ممتازة يستغلها الأهالى فى صنع أقمشة تروج حتى فى بلاد نائية للغاية (٢١٦) ٠ وكان شعر الماعز يستخدم فى صــنع أنواع أخرى من الشــملات (٢١٧) ، لأن فروة الماعز بآســــيا الصغرى تنافس من حيث الرقة أجمل أنواع الحرير (٢١٨) ، وتتمتع فى أواخر العصور الوسطى بشهرة عالية ، وبدأ الناس يقدرون بنوع خاص جـودة شــعر الماعز (٢١٩) ٠ وفى عام ١٤٧١ ، فى بــداية الدمــار الذى أوقعه على ســـواحل آســيا الصــغرى أمير البحر البندقى بييترو موتشينيجو Pietro Mocenigo ، وجد الجنود بعضا من هذه الشملات المصنوعة من شعر الماعز فى حوانيت ميناء باساجيو Passagio (٢٢٠) ٠ الا أن صناعة هذا النوع من الشملات لم تكن مركزة فى آسيا الصغرى وحدهـــا ، فقد كان يصـــنع منهـــا فى حلب ، وكردستان ، وسرت

---

(٢١٣) Franci que Michel, II, 29-34 ; Marco Polo, 46-48; II, 298.

(٢١٤) Amari, Musulmani di Sicilia, III, 892 ; Yule, Marco Pol I, 249.

(٢١٥) M. Yates (Textrinum antiquorum, I, 151).

(٢١٦) Marco Polo, p. 206 et s., 213; Le missionnaire Marignola (p. 100).

(٢١٧) Barbaro, Viaggio in Persia, p. 29, b.

(٢١٨) Chehab-eddin, p. 335.

(٢١٩) Pasi, p. 88, b.

(٢٢٠) Cepio, l.c.

Sert (Sairt) (٢٢١) • وهكذا فبالاجمال كان صانعو الشملات فى آسـيا يستخدمون وبر الجمـال فى الشرق ، وشعر الماعز فى الغرب • وكان هناك شملات حريرية تنسج أيضا فى آسيا ولكن ليس هناك ما يثبت ذلك • ويعتقد السيد جيى M. Gay أن أحدا لم يستعمل هذه المادة الا فى الغرب ، ولم يلجأ أحد الى هذه الطريقة الا بسبب ندرة شعر الماعز وغلو ثمنه فى الشرق • وتذكر المصادر كثيرا مشملات الحرير (٢٢٢) ، ولا يجوز الخلط بينها وبين ال Camelins (٢٢٣) ، فهى بالتأكيد أقمشة صوفية•

ولما كانت هاتان السلعتان من أصـــل غربى ، فليس هنا مجال للاهتمام بأمرها ، ولنعد اذن الى الشرق • ففى آسيا الصـغرى كانت بروسة (بورصة) مركزا لصناعة الشملة (٢٢٤) • وفى اياس Lajazze مارست الجاليـة البندقيـة الفرع نفسه من الصناعة • وفى سـوريا ، ذكرنا حلب التى يصنع بها أيضا أقمشة أخرى ، ولكن طرابلس كانت متخصصة فى صناعة الشملات (٢٢٥) • الا أن جزيرة قبرص كانت هى البلد الذى يستحق أن يوصف دون غيره بأنه مركز صناعة الشملات(٢٢٦)، ففيها فاماجوستا ونيقوسيا اللتان تنتجان أكثر مما تنتجه باقى أنحـاء الجزيرة (٢٢٧) • وتصدر جزيرة قبرص شملات ، حتى الى آسيا الصغرى (ستالية) ، ومصر وسوريا (٢٢٨) • ونعرف من المصادر أسماء موانى الشرق الأدنى التى يمكن الحصول منها على كل نوع من الأنسجة شرقية المصدر ، ويمكن القول بان أيا من هذه الأنواع لم يكن موجودا فى عدد

---

(٢٢١) Ghistele, p. 292 (cf. p. 314) ; Barbaro, l.c.

(٢٢٢) Goy, Gloss., I, 262 ; Michel, II, 42 ; Douet d'Arcq, *Comptes de l'argenterie*, 1ère serié, p. xxviii ; Bourquelot, Foires de Champagne, I, 263 ; Clément, Jacque Coeur, I, 217.

(٢٢٣) Gay. Gloss, p. 261 et s. ; Michel, II, 50 ; Bourquelot, l.c., p. 265 et s. ; Boileau, Livre des métiers, éd. Depping, p. 118, 393; Romanin, II, 373 ; Perzzi, l.c., p. 341 ; Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Angio, II, 8.

(٢٢٤) Harff. p. 203.

(٢٢٥) Pasi. p. 90, b ; Doc. sulle relaz. tosc., p. 260 ; Bonaini, Stat. Pis., III, 104 : Michel, II, 176, 249 461; Burchardus, éd. Laurent, p. 25 : Gay, Gloss, I, 264.

(٢٢٦) Pasi, p. 88, b ; Ghistele, p. 254 ; Tafur, p. 83 ; Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 448, 451 ; III, 497, 535 ; Michel, II, 44 Bibliothéque de l'école des charles, 6 série, I, 348.

(٢٢٧) Mas Latrie, III, 244, 497, 535, 775, 777 ; Gumppenberg, p. 244 ; Machairas (dans la Bibliothéque de Sathas) p. 286.

(٢٢٨) Piloti. p. 358, 376 ; Mas Latrie, III, 75.

من الأسواق بقدر ما كان يوجد بها من شملات : نذكر من هذه الأسواق أربعا في سوريا ، واثنين في آسيا الصغرى ، وواحدا في مصر (الاسكندرية) ، وواحدا في الامبراطورية اليونانية (القسطنطينية) ، بالاضافة الى اثنين آخرين بعيدين عن البحر ، هما طورس ودمشق (٢٢٩) :

كان هناك أيضا أنواع أخرى من الأقمشة لم يذكرها المؤلفون كثيرا ، وما قيل بعاليه بشأن المنسوجات الحريرية ينطبق بالمثل على سائر الأقمشة · فكانت أوروبا تتزود بحاجتها على قدر الامكان من الأسواق الآسيوية القريبة منها في البحر المتوسط ، ولا تلجأ لغيرها الا عند الضرورة · الا أن هذه الأسواق نفسها كانت تتزود أيضا من الصين ، والهند ، وفارس · فالمعروف على سبيل المثال أن الهنود يصنعون في البنغال وكمباى من القطن المحلى أقمشة بالغة الجودة (٢٣٠) ، تجد قبولا كبيرا لدى العرب ، والفرس ، والمصريين ، وتصدر اليهم الهند في السفن شحنات كاملة من هذه الأقمشة ، اما عن طريق عدن ومكة ، أو عن طريق هرمز (٢٣١) · فهل لنا أن نسلم بأنه لا يصل منها شيء الى أوروبا ؟ لم نبحث الى الآن الا عن الأقمشة الخاصة بالملابس ، الا أن البسط أو السجاجيد والطنافس الشرقية لم تكن شهرتها في العصور الوسطى تقل عن شهرتها في الوقت الحاضر · وكلمة tapis (toppeto) شرقية الأصل، فهى اسم حى فى بغداد Attabya (٢٣٢)· والأتابى attabi بالعربية اسم قماش أطلس ، ثقيل ومخطط (٢٣٣) : ولما كان هذا القماش يستعمل كثيرا في تغطية الأرضيات في غرف الاستقبال الفاخرة ، فقد أطلق اسمه على الأثاث نفسه الذى يستعمله ، ومن ثم صار يطلق على كل البسط دون تفرقة ، سواء كانت من صوف أو حرير · وكان اليونانيون والأرمن المقيمون بمدن آسيا الصغرى التركية بارعين في فن نسيج البسط (٢٣٤) ، وتصدير منتجات

---

(٢٢٩) Pegol, p. 8, 28, 42, 44, 49, 59, 77, 78, 79 ; Uzz., p. 113.

(٢٣٠) Marco Polo, p. 45 ; Cf. Yule, Marco Polo, I, 59.

(٢٣١) Varthema, p. 151, 157, a, b, 165, a ; Sommario, p. 328, a; Barbosa, b, 292, a, 294, a, 315, b ; Empoli, p. 80; Massari, p. 28 ; Gubernatis, p. 169.

(٢٣٢) Ibn Djobair, publ par Defrémery, dans le Journ. asiat., 5` série, XVI, 94.

(٢٣٣) Kremer, Culturgeschichte des Orients, I, 337 ; Défrémery, l.c.

(٢٣٤) Marco Polo, p. 37 ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 134, 137; Cepio, De P. Mocénici gestis, p. 9 ; 19 ; Belon, Observations, p. 323.

أنوالهم الى أوروبا ، ولسنا نقدم برهاناً على ذلك سوى الاثنى عشر بساطا من القطيفة «التركية» التي اشتراها في عام ١٣٩٨ الدوق لوى دى أورليانز Louis d'Orleans (٢٣٥) : ولا تذكر قوائم جرد الكنائس (٢٣٦) أو بيوت الأمراء (٢٣٧) أشياء أكثر من البسط الواردة من وراء البحار ، دون ذكر لمصدرها ٠

واستمر التيـار الذى كان يجلب المنسوجات الشرقيـة الى الغرب نشيطا طوال العصور الوسطى كلها ٠ غير أنه كان يوجد تيار واضح كل الوضوح في الاتجاه المضاد ٠ فكان صوف الخراف الوافر الممتاز بنوع خاص في انجلترا يزود أوروبا بالمادة الأولية لصناعة كاملة لا تحتاج لأن تطلبها من الخارج ٠ وكان صانعو الأصواف الأوروبية ينتجون منها أكثر مما يكفى للوفاء بكل حاجات بلادهم ، ويصدر الباقى الى الشرق ٠ وكانت أصـواف انجلترا ، والفلاندر ، وفرنســا ، وايطاليـا ترد بكثرة الى البندقية (٢٣٨) ، ومنها تشحن في السفن التجارية التى تبحر الى موانى الشرق الأدنى ٠ وفى حوالى عام ١٤٢٠ كان الفلورنسيون الذين بلغ عندهم فن تجهيز الصــــوف وصباغته درجة متقدمة جدا من الكمال (٢٣٩) ، يدفعون وحدهم للسفن البندقية ١٦٠٠٠ قطعة من الصوف في السنة : ويتصرف كل هذا في مصر ، وسوريا ، واليونان ، والمورة ، وكانديا ، ورودس ، وقبرص ، الخ (٢٤٠) ٠ وكانت البحـرية التجـارية الجنوية تشتغل أيضا بتصدير أصواف الغرب ، ولو على نطاق أقل : فأصواف شالون ، ودوى ، وبروفانس تصدر عن طريق جنوا ، ومنها ، مع أصواف لمبارديا الى بـلاد الروم ، وبنطس (٢٤١) ٠ ولم يكن نساجـو لانجدوك وقطالونيا في حاجة لأن يرسلوا أصوافهم الى جهات بعيدة ، اذ كانوا يعهدون بها الى بحارة مونبيلييه ، وناربون ، وبرشلونة ٠ وكانت هذه

---

(٢٣٥) Laborde, Les ducs de Bourgogne, III, 165.

(٢٣٦) Arch. stor. rom. 1883, p. 65 ; Bock, Liturg. Gewänder, III, 116.

(٢٣٧) Francisque Michel, l.c., II, 148 ; Inventaire de Charles V, p. 344-346, 358 et s., 362 ; Mon. Hung. hi t., Acta extera, I, 238.

(٢٣٨) تنظيم الجمارك عام ١٢٦٥ ٠ Cantù, Scorsa di un Cambardo negli archivj di Venezia (1856), p. 173 et ss. ; dans Romanin, II, 373, not., Thomas, Capitular des deutschen Hause in Veneriz., p. 284 ; Uzzano, (p. 195).

(٢٣٩) كانت الشخصيات الشرقية الكبيرة تميل ميلا شديدا إلى الأصواف الأرجوانية اللون ٠

(٢٤٠) Romanin, IV, 94 et s. ; Reumont, Lorenzo dé Medici, I, 96 et s.

(٢٤١) Status de G'nes, de 1300 ; Miscell. di stor. ital., XI, 760.

الحركة التجارية نشيطة للغاية حتى ان ثمة أسواقا متوسطة الأهمية ، كأسواق الطولوجو وستالية كانت تتزود بالأصواف الأوروبية (٢٤٢) . وكانت هذه السلعة من باب أولى متوفرة فى الأسواق من الدرجة الأولى ، كأسواق القسطنطينية وبيرا ، وتانا ، والاسكندرية (٢٤٣) ، ومن هناك تنصرف الى وسط آسيا (٢٤٤) ، وفارس (٢٤٥) ، والهند (٢٤٦) . وفى القاهرة كان تجار الأصواف الغربية يشغلون سوقا خاصة . وكان الجنود يلبسون معطفا من الجوخ ، يسمى جوخ البندقية ، لأن البنادقة هم الذين يصدرونه الى مصر (٢٤٧) ، ويبـــدو أنهـم يستوردون الى مصر كتان ريمس الذى كان نساء مصر يحببن ارتداءه (٢٤٨) .

والحقيقة أن المنسوجات الصوفية فى الغرب لم تكن الوحيدة التى لها حظوة فى البلاد الشرقية : فالأقمشة الكتانية ، وبخاصة المصنوعة فى ريمس كانت مطلوبة بها بكثرة . وبعد معركة نيقوبوليس Nicopolis طرح سؤال فى مجالس ملك فرنسا بشأن الهدايا التى يمكن تقديمها لبايزيد ليطلق سراح الأسرى . وثمة فارس بيكارى يدعى جاك دو هيالى ، يعمل فى خدمة الترك لزمن طويل ، نصح بعدم نسيان النسيج الكتانى الأبيض الجميل المصنوع فى ريمس . وبالفعل ضم الى الهدايا قطع كثيرة من هذا النسيج . كذلك قدم جان جالياس فيسكونتى ، دوق ميلانو للسلطان هدية من هذا الصنف (٢٤٩) . ولم يكن لهذا النوع نظير فى الشرق . وانا لنجد بين السلع الموجودة فى أســواق القسطنطينية ، وفاماجوستا أقمشة كتانية من شامبانى ، ليس بها اشارة الى مصدرها ، وأقمشة كتانية من ريمس ، ونوايو ، الخ (٢٥٠) ولكن الغرب ، قبل نهاية العصور الوسطى لم يكن يقنع بالدور السلبى ، دور المستهلك ،

(٢٤٢) Voy. I, 542, 549.

(٢٤٣) Pegol., p. 19 et s., 66, 74 ; Mas Latrie, III, 728, 774 et ss. ; Frescobaldi, p. 18 ; Piloti, p. 358, 373 et ss., Arch. de l'Ir. lat., I, 506.

(٢٤٤) Le Dictionaire cunman, p. 107 et s. ; Missell, ri stor. ital., ital., VII, 449 et s.

(٢٤٥) Piloti, p. 378 ; Ramus., I, 120, n.

(٢٤٦) Pegol., p. 8; ; Ghistele, p. 311.

(٢٤٧) Silv. de Sacy, Christomathie arabe, I, 87 et s. ; II, 52 ; Dozy, Dict. denoms des v'tements chez les Arabe', p. 127 et ss. ; Makrizi, Hist. des sult, maml., I, 1, p. 252 ; II, I, p. 81 ; Ibn al Athir, dans le Rec. des hist. des crois., p. 689.

(٢٤٨) Frescobaldi, p. 45.

(٢٤٩) Froissart, aeuvres éd. Keroyn de Lettenhove, XV, 254, 337 339.

(٢٥٠) Pegol., p. 19 ; Ma Latrie, Hist. de Chypre, III, 774 et ss.

حتى فى صناعة الحرير • فقد رأينا من قبل ، أن عمليات صناعة الحرير فى صقلية قد انتقلت اليها فى فترة مبكرة من المسلمين الى النصارى • فهل تلقى الايطاليون بدورهم فى موطنهم الأصلى نساجين من صقلية ؟ وهل تعلموا هذه الصناعة من النساجين السوريين فى الدويلات التى أسسها الصليبيون ؟ وهل وجـدوا هنـاك عمليات نسى بعضها ، ترجع تقاليدها الى أواخر العصور القديمة ؟ من الصعب الاجابة عن ذلك • على أية حال كانت هذه الصناعة مزدهرة فى القرن الثالث عشر فى ايطاليا ، وبخاصـة فى لوكا (٢٥١) ، فقد كان نسـاجو هـذه المدينة يقلدون كل أقمشـة الشرق التى عددناها فيما سـبق ، ولم يلبثوا أن بلغوا فيها درجة كبيرة من الاتقان ، فلم يكن ثمـة قماش لا يمكن الحصـول عليه من لوكا ، كما يمكن الحصـول عليه من يزد أو دمشق (٢٥٢) • وكانت منسوجات لوكا الحريرية قد عرفت أولا فى ايطاليا ، ثم انتشرت سريعا خارجها ، فى أسواق شامبانى ، وباريس ، ولندن ، وبروج (٢٥٣)• وترجع نشـأة اتحادات نسـاج الحرير فى فلورنسـا ، والبندقية ، وجنوا (٢٥٤) الى حوالى العصر الذى نشأ فيه اتحاد نساجى الحرير فى لوكا ، الا أن صناع الحرير فى هذه المدن الثلاث أمضوا زمنا طويلا لم يبلغوا فيه درجة البراعة التى بلغها زملاؤهم فى لوكا • وقد اكتسبوا التقدم من مدينة لوكا نفسهـا • وفى عام ١٣٠٠ بدأت الاضـطرابات السياسية تحث عمال مصانع الحرير على الهجرة : فقد تنازع السلطة أحزاب راديكالية ، واذ نجح كاستردتشـيو ديلى انتلمينيللى (١٣١٦ ــ ١٣٢٨) فى اقامة نظام عسكرى ، نفى عـددا من الأسر ، وأسر أخرى هاجرت خشية أن يصيبها هذا المصـير ، واستقرت فى فلورنسـا ، والبندقية ، ومدن أخرى (٢٥٥) • ونتيجة لهذه الهجرة انتشر فى ايطاليا

---

(٢٥١) Bini, I Lucchesi in Venezia (Lucca, 1853- 1856 : Tiraga 4 par. atti de l'accadémie de Lucques, XV, XVI), 1ère partie, p. 40 et ss.

(٢٥٢) Bini, I, 68 ; Mass Latrie, Hist. de Chpyre, II, 247 ; Laborde, Le ducs de Bourgogne, I, 180, 274 ; Gay, Gloss., I, 136 : Bini; l.c. ; Dout d'Areq. Comptes de l'orgenterie, I, xxvii ; Gay, l.c., p. 267 ; Bini l.c. ; Francisque Michel, II, 217 et s. ; ibid. I, 264 ; Douet d'Areq, II, 2, 4, 9, 10, 17 et s. ; Bourquelot, Foires de Champagne, p. 328; Michel, I, 211 ; Campany, II, app., p. 75 ; Gay, l.c., p. 295 et s.

(٢٥٣) Bini, I, 116 et ss ; 128 et ss. ; Bourquelot, Foires, I, 260 ; D I, xxix et s.

(٢٥٤) Erancique ulichel, I, 87 et s., Pagnini, Della-decima, II, 106 et ss. Peruzzi, Storia del commercio e dei banchieri di Firenze, p. 26, 86 ; Atti della Soc. Lig., IV, 107, 188 et s.

(٢٥٥) Inventario rel r. archivio di stato in Lucca, II, 245 et s ; Bini, I, 157 et ss,

سر التقليد التام لأقمشة الشرق . وفى أواخر القرون الوسطى ، كانت فلورنسا فى المرتبة الأولى فى صناعة الحرير ، وكذا صناعة الجوخ ؛ ويقول بنيديتو دبى Benedetto Dei الذى لا تفوته فرصة للتفاخر بوطنه أنها هى الوحيدة التى تنتج من المنسوجات الحريرية فى مصانعها الثلاثة والثمانين أكثر مما تنتجه البندقية ، وجنوا ، ولوكا مجتمعة (٢٥٦) .

كذلك قلد النســاجون الفرنسيون بنجاح المنسوجات الشرقية ، وبخاصــة السجاجيد (٢٥٧) ، وفى بداية القـرن الرابع عشر كان فى باريس مصانع البروكار (الديباج) المذهب (٢٥٨) . ومنذ أواخر القرن الثالث عشر بداخل المدينة اتحاد من صناع الاكياس (الصرر) الحريرية المقصبة ، على النمط العربى ، وكان المعتاد حملها على الحزام (٢٥٩) . غير أن لويس الحادى عشر هو الذى أعطى صناعة الحرير فى فرنســا دفعة حاسمة حين دعا الى تور عمالا ايطاليين ويونانيين (١٤٨٠) لينشىء بها مصنعا .

ومنذ أن أصبح الغرب ينتج بنفسه منسوجات حريرية ، كان لابد أن تقل الواردات الشرقية ، ولكن تذوق الأقمشة العربية كان قد تغلغل فى العادات الغربية ، فلم تكف التجارة عن الاشتغال بها وتصريفها . ولسوء الحظ تعوزنا الأرقام التى تعرفنا بحجم الأعمال التى تؤدى فى هذا الفرع . ويهمنا على أية حال أن نعرف أنه حدث فى القرن الخامس عشر ثورة فى تجارة الحرير : فكانت البندقية ترسل الى مصر ستائر حريرية ، ومناديل من الحرير المقصب بالذهب (٢٦٠) ، وتصدر فلورنسا منسوجات حريرية الى دمشق ، والاسكندرية ، وتركيــا (٢٦١) . وكان البرتغاليون ، يجدون فى أسواق قاليقوط أقمشة حريرية مقصبة بالذهب من لوكا (٢٦٢) . وبمرور الزمن تقدمت صناعة الحرير حتى لم يعد الغرب يتردد فى عرض منتجاته للبيع فى أسواق الشرق ، حتى فى الأماكن التى ذاع صيتها فى هذا المجال . ونذكر على سبيل المثال أنه حين أخذ تيمورلنك معه نساجى الحرير فى دمشق ، كانت البندقية هى التى زودت سوق هذه المدينة بمنتجاتها الخاصة (٢٦٣) .

(٢٥٦) Ben Dei, dans Pagnini, II, 240, 275.
(٢٥٧) Douet d'Arc, Comptes de l'argenterie, p. xxx.
(٢٥٨) Viollet le Duc. Dictionnaire du mobilier, I, 270.
(٢٥٩) Boileau, Règlements, éd. Depping, p. lxxii, 193, 382 et s.
(٢٦٠) Biloti, p. p. 353, 374.
(٢٦١) Pasi, p. 172, a, 164, b ; Dei, l.c., p. 275.
(٢٦٢) Sernigi, dans Ramusio, I, 120, a.
(٢٦٣) Gumppenberg, p. 242 ; cf. Clavijo, p. 190.

الزجاج

كانت صناعة الزجاج في الغرب طوال العصور الوسطى قاصرة في كل الأنحاء على الزجاج البسيط ، الأبيض أو الملون • واستثناء من ذلك ، كان هناك في بعض الأنحاء صناعة فنية الطابع كصناعة فسيفساء الزجاج ، أو القنانى من الزجاج المذهب ، أو المفضض ، أو المطلى بالمينا (٢٦٤) • وكان البنادقة متفوقين في هذا المجال ، اذ تعلموا من المدرسة اليونانية صناعة الفسيفساء بنوع خاص ، ومن سكان مصر وسوريا الذين اتصلوا بهم كثيرا في أعقاب الحروب الصليبية (٢٦٥) • وسنحت لنا الفرصة من قبل للكلام عن يهود صور الذين كانوا يزاولون بالوراثة صناعة الزجاج وسط المستوطنة البندقية بهذه المدينة (٢٦٦) ، ويتبعون تقاليد صناعتهم هذه في الشرق ، ولعلهم وصلوا الى البندقية حيث أسهموا في تقدم هذه الصناعة • ومع ذلك كانت منتجات الشرق في الفترة التي ندرسها تتمتع دائما بشهرة لا شك فيها ، ومن هنا وردت المصنوعات الزجاجية البديعة ، ذات الأشكال الكثيرة التنوع التي كان أثرياء الغرب يحبون تزيين بيوتهم بها • وبتصفح قوائم جرد ذلك العصر ، نجد فيها تعدادا للأقداح والقوارير ، والأطباق الزجاجية الملونة ، أو المزخرفة «على النمط الدمشقي» (٢٦٧) • والواقع أن صناعة الزجاج كانت مزدهرة بنوع خاص في هذه المدينة (٢٦٨) • وفي القاهرة هناك أسواق تتزود بانتظام بالمصنوعات الزجاجية الفاخرة (٢٦٩) • ولم يفت تيمورلنك أن يأخذ صناع الزجاج ضمن الصناع الذين أخذهم من دمشق ونقلهم الى مقره في سمرقند (٢٧٠) وهذا الفرع من الصناعة كان يلقى بالمثل عناية في حبرون Hélron ، وينتج بها تشكيلة كبيرة من الأشياء الجميلة (٢٧١) ، ولكنني لم أجد في أي مصدر أثرا لسلع واردة الى الغرب

---

(٢٦٤) Labarte, Histoire des arts industriels au moyen âge, IV (1 et ss.

(٢٦٥) M. Ily, dans la partie historique de l'ouvrage de M. Lobmayer, Glasindu trie (Stuttg. 1874), et dans les Blätter für Kunstgewerbe (I, 1872, p. 29 et ss., 38 et ss).

(٢٦٦) Vol. I, p. 180.

(٢٦٧) Labarte, IV, 540 Inventaire du mobilier de Charles V, p. 240 et ss.

(٢٦٨) Gucci, p. 402ff

(٢٦٩) Simon Siméonis, p. 43.

(٢٧٠) Clavijo, p. 190.

(٢٧١) Frescobaldi, p. 96 ; M. Ilg, dans Teirich, p. 30 ; Nicc. de Poggibonsi, I 247.

من هذه الجهة • وأخيرا ، كان زجاج العراق يحظى فى الشرق بشهرة كبيرة• فكان يصنع نوع خاص فى القادسية ، وهى بلدة قريبة من مدينة سامراء الواقعة على نهر دجلة شمالى بغداد (٢٧٢) ، وكانت منتجات هذا المصنع منتشرة فى بلاد مختلفة فى آسـيا (٢٧٣) • ونجد فى بعض الوثائق الاسبانية ذكرا لأشياء من زجاج أو أوان ، وكئوس ، مقترنة بالنعت irake أو iraga : وفى هذا برهان واضح على أن زجـاج العراق وصل الى اسبانيا (٢٧٤) •

وقد يخطر على البال أن الغرب لم يكن به سلعة من هذا النوع يقدمها الى الشرق : ولكن هذا غير صحيح ، فقد كان لصناع الزجاج البنادقة تخصصا فى هذه الصناعة ، ويجدون لمصنوعاتهم زبائن فى الشرق : تلك هى الدرر الزجاجية الملونة ، والجواهر المقلدة • وقـد أجرى دومينكو بيونى فى البصرة صفقات تجارية رابحة ببيعه هذه الأشياء المقلدة (٢٧٥) • وفى عام ١٣٣٣ حمل اندالو دى سافينونى معه عنـد رحيله الى الصين شحنة من ال Jacalia de cristallo (٢٧٦) •

(٢٧٢) Edrisi II, 146 ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 72.

(٢٧٣) Edrisi II, 146 ; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 72.

(٢٧٤) Ibn Bâtouta, II, 263 ; III, 8, 11.

(٢٧٥) Bozy et Engelmann, Glos., p. 287 et s.

(٢٧٦) Venez, 1903, p. 140, 189.
Marin, V, 261.

الملحق رقم ٢

عملاء تجارة الشرق الأدنى

على مدى دراستنا لتاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، لم نهتم بغير شعوب أوروبا التى أسهمت اسهاما فعالا فى هذه التجارة . ولذا سوف نقول فى الختام بضع كلمات بشأن أولئك الذين أدوا فى هذا المجال دورا سلبيا ، ونقتصر فى ذلك على بضع معلومات عامة ، دون أن نتعمق فى هذا الموضوع : ذلك لأن الاسهاب فيه يعنى الخروج من اطار بحثنا هذا ، وهو كتابة تاريخ عام للتجارة فى العصور الوسطى . فأول كل شىء ، وعلى سبيل الايجاز ، أن ندع جانبا الدراسة الخاصة بايطاليا والجزر التابعة لها . فمن وجهة النظر التى تخصنا ، كانت ايطاليا مكتفية بذاتها ، بل وكانت بعض المدن الداخلية ، مثل فلورنسا ، ولوكا ، وبليزانس تنافس الموانى التجارية الكبرى . وفى وسع مؤلف آخر أن يكتب تاريخ الحركة التجارية الداخلية فى ايطاليا ، فيحيطنا علما بالمراكز التى يتلقى منها باقى أنحاء البلد من مدن وأقاليم منتجات الشرق ، والطرق المتبعة ، ووسائل النقل المستعملة . وعلى اليابسة كانت التجارة كلها فى أيدى الايطاليين أنفسهم . وبخصوص صقلية وسردينيا ، فانهما طالما كانتا تابعتين من الوجهة السياسية لبيت أراجون ، بقيتا من الوجهة التجارية فى فلك برشلونة ، ونزل الجنويون فيهما الى المرتبة الثانية . ومع ذلك كانت مسينا تتمتع بامتياز استثنائى : فبفضل موقعها فى موضع تمر به الحركة التجارية كلها ، أصبحت بمثابة ملتقى لتجارة العالم كله ،

وكان بحارة أقاليم ايطاليا الغربية ، البروفانسيون ، والقطالونيون يلقون مراسيهم بها ، ويتركون ثمة بعضا من التوابل التى يحضرونها فكانت سوقها لذلك مزودة بها بقدر كبير على الدوام (١) ٠

فرنســا

أشرنا فيما سبق الى الدور الفعال الذى أداه فى تجارة الشرق الأدنى فرنسيو الجنوب (البروفانسيون) ، وبخاصة أهالى ناربون ، مونبيلييه ، ومرسيليا ، فليس من المستغرب اذن أن نجد فى القانون الأساسى لمرسيليا لعام ١٢٢٨ ، وكذا مجموعة قوانين مونبيلييه المسماة Petit Thalamus ومواثيق ناربون ، الـخ العديد من الفقرات التى تتحدث عن التوابل ، ومواد الصباغة ، والعطور الشرقية (٢) ٠ وقد أشرنا أيضا الى الزيارات المتواصلة التى يقوم بها التجار الايطاليون ، واغلبهم من بيزا وجنوا الى أسواق جنوب فرنسا ، والمنشئات التى أقاموها فى المدن التجارية بهذا الاقليم ٠ فقد أسهم هؤلاء الأجانب بقدر كبير فى استيراد منتجات الشرق الى مدن جنوبى فرنسا ٠ ففى عام ١٢٤٨ على سبيل المثال اشترك عدد من كبار تجار جنوا فى تجهيز ثلاث سفن كبيرة تحمل الى ابج مورت ، وسان جيل ، ومونبلييه كميات كبيرة من الفلفل ، بالاضافة الى سلع أخرى (٣) ٠ وفى عام ١٣٠١ شحن وكلاء الشركات الكبيرة فى بليزانس من اياس Lajazzo توابل وسلعا أخرى من سـلع الشرق الأدنى ، وصدروها مباشرة الى مرسيليا وايج مورت (٤) ٠ وفى البندقية هناك تجار يشعرون سلعا من كل نوع واردة من الشرق الأدنى ، وبلاد الروم ، واسكلافونيـــا Esclavonie ويعيدون تصديرهـــا الى بروفانس ، ومرسيليا ، ومونبلييه ، وايج مورت ، وجهات أخرى ، ويشترون فى مقابل ذلك أصـــواف الفلاندر ٠ واذ رغب « المجلس الكبير » فى تشجيع تلك

---

(١) Miscellanea di storia ital., x, 34 et ss., 76 et s.

(٢) Méry et Guindon, I, 347 et ss. ; Le Tarif des péages du comte de Provence au milieu du XIII siècle, dans le supplément à a lpréface de Cartulaire de Saint-Victor de Marseille, I, lxxiii et s. ; Petit Thalamus de Montpellier, p. 235, 237, 238, 240, 242, 243 ; Port, Essai sur l'histoire du commerce maritime de Narbonne, p. 69 et s.

(٣) Canale, Nuova storia di Genova, II, 425.

(٤) Doneaud, Comm. e navg. dei Genovesi, p. 137, 143.

التجارة فانه منح هؤلاء التجار تخفيضا فى الرسوم الجمركية (١٣ من ديسمبر ١٢٧٣) (٥) ٠

ومع أن أقاليم وسط فرنسا وشمالها كانت محرومة من الاتصالات المباشرة بالشرق عن طريق البحر ، فانها كانت مع ذلك تتلقى منتجاتها : وذلك بفضل أسواق شامبانى (٦) ، وترجع هذه الأسواق الى عصر قديم ، اذ كانت فيه أسواقا تتنقل بالتناوب بين أربع مدن فى أقاليم ، تروى ، وبروفانس ، ولاينى ـ سور ـ مارن ـ ســور ـ أوب ٠ وكانت الفترة الأكثر ازدهارا لهذه الأسواق توافق القرنين الثانى عشر والثالث عشر ٠ واذا كان البروفانسيون ، والايطاليون ، والاسبان من جهة ، وفرنسيو الشمال ، والانجليز ، والفلندريون من جهة أخرى يتقابلون فى هــذه الأسواق ، ويأتى اليها أيضا أناس من عكا ، كما رأينا من قبل ٠ ومن جهة النظر الخاصة بدراستنا هذه ، يهمنا من الأجانب الذين كانوا يترددون على هذه الأسواق ، أولا الايطاليون ، ثم فرنسيو الجنوب لأنهم هم الذين يجلبون اليها التوابل وسائر منتجات الشرق الأدنى ٠

وفى عام ١٢٠٩ أكد فيليب أغسطس ملك فرنسا رسميا حمايته الايطاليين الذين يأتون الى أسواق شامبانى (٧) ، وكذلك منح كثير من خلفائه الايطاليين مزايا خاصة (٨) ، وذكروا منهم بنوع خاص مواطنى فلورنسا ، ولوكا وميلانو ، وجنوا ، والبندقية (٩) ٠ ولكن لابد ، تكملة لهذه القائمة من أن يضاف الى اسمى فلورنسا (١٠) ولوكا (١١) ، اسما ســينا (١٢) ، وبيســتويا Pistoie ، والى اسم ميلانو أســماء بليزانس (١٣) ، وكريمـونة ، وآسـتى Asti ، ثم رومـا ، وأوربينـو

(٥) Coll. des doc. inéd., Mél. hist II (1880), p. 15 et s.

(٦) M. Bourquelot ; Etudes sur les foires de Champagne.

(٧) Deli le, Catalogue des actes de Philippe Auguste, p. 272.

(٨) Ordonnances des rois de France, I, 326 et s., 584 et ss., 760 et ss. ; II, 200 et ss., 305 et ss. ; VII, 126 et ss.

(٩) Collection des doc. inéd., l.c, p. 16, 18 et ss, 61, not. ; Cor I, 7 et ss., 25 et s. 42 et ss., 112.

(١٠) Documents des années 1279, 1294-1298, 1300, 1303, 1304, Communiqués par M. Berti dans le Giornale storico degli archivi toscani, I, 247 et ss. ; Coll. des doc. inéd., l.c., p. 20.

(١١) Bini, I Lucchesi a Venezia, p. 116 et ss. ; Bongi, Della mercatura dei Lucchesi nei secoli XIIIe XIV., p. 60 et s.

(١٢) la Scelta di curiosità letterarie, disp. 116 (1871).

(١٣) Giorn. degli arch. tosc., I, 247, 251 ; Coll. des doc. inéd., l.c p. 18.

Urbino . ويمكن التأكيد ، دون خشية الوقوع فى خطأ ما بأن هناك باعثين أساسيين جذبا الى أسواق شامبانى كلا من التسكانيين واللومبارديين: أوليهما : أن صفقات عديدة فى تجارة الأصواف كانت تعقد بتلك الأسواق ، وثانيهما : أن الاسهام الكبير للأشخاص القادمين من كل البلاد ، وجمع شملهم فى تلك الأسواق يتيح الفرصة لأداء أعمال مصرفية . ومع ذلك كانت هناك استثناءات ينبغى الاشـارة اليها : فقد تبين أن بعض تجار سيينا يبيعون بها فلفلا وزنجبيلا ، وشمعا من بلاد الروم (١٤) . وبوجه عام كان من بين الايطاليين الذين يترددون على هذه الأسواق ، أفراد من طائفة البقالين (أو العطارين) (١٥) ، وكان أغلبهم على ما يبدو من الجنويين أو البنادقة . أما الجنويون فيبدو أنهم ذكروا ضمن أمثلة أوردها السيد كانالية M. Canale ، وذكـر أنهم يشـتغلون غالبا بأعمـال مصرفية (١٦) .

وللذهاب الى أسواق شامبانى ، كان الايطاليون يضطرون الى عبور البحر أو اجتياز جبال الألب (١٧) . ومع ذلك ، فانهم اذ يهرعون الى الأسواق بأعداد كبيرة ، كان أهالى جنوب فرنسا الذين لم يكن عليهم أن يتغلبوا على هذه الصعوبات يأتون الى هناك فى أعداد أكبر . وكان الدفاع عن مصالحهم معهودا به الى « قبطان » Capitaneus تعينـه مدينة مونبيلييه ، أهـم مدن المنطقة ، ويمثل فى الوقت نفسـه لانجـدوك كلها (١٨) ، ويمارس هؤلاء التجار ، مثلهم مثل سائر الايطاليين حـركة تجارية بحرية مع الشـرق الأدنى ، ومن ثم يحضرون الى السوق السلع نفسها .

وفى بداية العصور الوسطى لم يكن أى من شامبانى أو لانجدوك يتبع مباشرة ملوك فرنسا : اذ كانت مونبيلييه وهى أكبر مدينة تجارية فى جنوب فرنسا يحكمها أمراء اسبان . ومن ثم كان من أمانى ملوك فرنسا أن ينشئوا مركزا تجاريا كبيرا فى ولاياتهم الخاصة ، فهذا أمر طبيعى . فقد اختار فيليب الجسور (١٢٧٨) لهذا الغرض مدينة « نيم

(١٤) Scelta, cit., p. 13 et ss., 44, 56 et s.

(١٥) Ordonn., I, 650 et ss. (Privilège accordi par Philippe V en 1317).

(١٦) Canale, Nuova istoria di Genova, II, 527 et ss., 627-633.

(١٧) Ibid. II, 576 ; III, 320 et ss. ; Pigenneau, Hi toire du commerce de la France. I, 193.

(١٨) Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 201-204, 228 et s., 273, 296, 307-325 ; II, 29, 37, 89 et ss.

Nimes • ولكى يجتذب الايطاليين المقيمين منذ زمن بعيد فى جنوب فرنسا ، وفى مونبيلييه لم يكن ثمة امتيازات لم يتعهد بمنحها اياهم (١٩) • ولبى الجميع دعوته ، وما لبثت « نيم » ان أصبحت آهلة بجاليات تجارية ايطالية : فكان لروما ، وجنوا (٢٠) ، والبندقية ، وبليزانس ، ولوكا ، وبولونى ، وبيستويا ، وآستى ، وآلبى ، وفلورنسا ، وسينيا ، وميلانو قناصلهم فى « نيم » • غير أن الجاليات كلها كانت متجمعة تحت رئاسة رئيس واحـــد يحمل لقب : Capitaneus universitatis Tuscanorum et Lombardorum (٢١) •

وثمة تعريفة جمركية كانت بالضرورة جزءا لا يتجزأ من المزايا الموعود بها • غير أن هذه التعريفة لا تذكر أية سلعة يمكن القول بأنها واردة حتما من الشرق ، مثال ذلك الشملات التى رأينا قبلا أنها تصنع أيضا فى الغرب • ومع ذلك فليس من شـك أنه منذ أن قدم الايطاليون الى « نيم » واستقروا بها أصبحت « نيم » سوقا لمنتجـــات الشرق • فهذه المنتجات كانت عند تفريغهـــا فى ايج مورت تخزن فى مستودعات ، ثم يرسل جزء منها الى أســـواق شامبانى عن طريق نهـــرى الرين والسين (٢٢) ، وجزء آخر يستولى عليه التجار الذين يغذون الملاحة فى نهر اللوار وروافده : وكانت « أورليانز » ، المركز الرئيسى للمنطقة على صلات تجارية « بباريس » (٢٣) •

كانت هذه الطرق كلها تنتهى كما قلت الى قلب فرنسا الذى يتزود هكذا بوفرة من منتجات الشرق • وفى الوثائق التى استقى منها السيد بوركيلو M. Bourquelot مادة كتابه « تاريخ أسواق شامبانى » قائمة طويلة من سلع الشرق الأدنى (٢٤) • وهناك ، بالاضافة الى هذا الدليل ادلة اخرى ، من بينها ، بالنسبة لباريس ، تعريفة عام ١٣٤٩ (٢٥) •

---

(١٩) Aédonn., IV, 669 et ss., Lib. jur., I, 1451 et ss ; M. Germain, I, 120 et ss Pigeonneau, l.c., p. 253 et s.

(٢٠) فيما يختص بالجنوبيين Lib. jur., I, 1505 et ss.

(٢١) Les documents cités ci-dessus et ceux du Giorn degli archivi toscani, I, 167 et ss.

(٢٢) Boutaric, l.c., 1ère partie, p. 319 ; 2e partie, par 307.

(٢٣) Mantellier, Histoire de la communanté des marchands fréquentant la rivière de Loire et fluves descendant en icelle (Mém. de la soc. archéol. de l'Orléanais VII, VII, IX). Orl. 1867-1869 ; I, 242 et s., 476, 478 III, 80

(٢٤) l.c., 1ère part., p. 285 ; cf. Pegol., p. 140.

(٢٥) Ordonnances. II, 319 et s.

وحسابات بلاط فرنسا القديم (٢٦) . وكذلك ال Ménangier de Paris المشهور ، الخ .

وفى غضون القرن الرابع عشر حدث انقلاب عام فى الطريق وفى الأسواق التى تنشط فيها الحركة التجارية فى فرنسا . فأول كل شىء أبعدت الضرائب الفادحة شيئا ما التجار الذين يأتون لزيارة أسواق شامبانى . ومن أخطر أسباب انحطاط هذه الأسواق هو الحرب بين فرنسا والفلاندر ، التى حظر فى أعقابها لويس العاشر (المشاغب) حظرا مطلقا على رعاياه أن يعقدوا أية صلة تجارية مع الفلمنك (أهالى الفلاندر) (١٣١٥ ـ ١٣١٦) . ونرى منذ تلك الآونة أن هؤلاء امتنعوا عن الحضور الى أسواق شامبانى ، وأدى اختفاؤهم الى اختفاء الايطاليين الذين يأتون لعقد صفقات معهم . واعتبارا من منتصف القرن صارت هذه الأسواق مهجورة تقريبا (٢٧) .

وفى ذاك الأوان ، بدأت سفن البندقية تجتاز مضيق جبل طارق فى طريقها الى موانى انجلترا والفلاندر ، فكانت أحيانا تتلقى أمرا بأن ترسو وهى فى طريقها عند « ايج مورت » Aigues-Mortes ، ولكنها كانت بوجه عام تتخذ طريقا مستقيما ، ابتداء من صقلية أو وسط ايطاليا لتصل الى سواحل اسبانيا ، وتتبع الطريق نفسه عند عودتها (٢٨) ، ويحتمل أن ترسو فى الموانى الفرنسية المطلة على المحيط الأطلنطى ، أو بحر المانشى ، ولكن هذا أمر مشكوك فيه . فالواقع أنها اذا توقفت فى ميناء لاروشيل ، مثلا ، فلا يحتمل أن يأتى أى ايطالى ، بطريق البر سبعة عشر يوما من « نيم » ليصل الى سوق لاروشيل ومعه فلفل ، وشمع ، وشب ، وسلع أخرى (٢٩) . ثم ان روشيل كانت مع باريس ، ونيم ، وسانت أومير من المدن التى كان للايطاليين بها بصفة دائمة وكالات تجارية (٣٠) .

---

(٢٦) Comptes de l'argenterie des roi de France au XIVe siècle, publ. p. Douet r'Arcq, I, II.

(٢٧) Bourquelot, l.c., I, 190 et s., 195 et s. ; II, 303, 306 et ss., 310 et s.

(٢٨) Rawdon Brown, l.c., p. 41, 148 et s. ; II ; 364 et s. ; Piloti, p. 374.

(٢٩) Pegol. p. 274.

(٣٠) Ordonn, I, 485 et ss. (ann. 1315).

وحتى ذلك الحين ، كانت المدن التى تزاول التجـارة مع الشرق الأدنى ، مثل مونبيلييه ، وناربون تكفى تقريبا للوفاء بحاجات باقى أنحاء فرنسا ، ولكن مع نهايات العصور الوسطى ، أخذت علاقاتها مع الشرق تتراخى شيئا فشيئا • وهناك أسباب كثيرة أدت الى ذلك : منها تراكم الرمال فى الموانى ، والحروب المتواصلة التى قوضت رخاءها ، والسلطة الملكية التى أضعفت نشاط الحياة البلدية • وشيئا فشيئا خمدت الحركة التجارية فى جنوب فرنسا كله • وقد بعث جاك كور Jacques Coeur نشاطا لبعض الوقت فى هذه الحركة ، وهز ما اعتراها من خمول ، الا أن هذا لم يكن سوى ومضة عابرة ، كوميض الشهب • ونتج من ذلك فراغ ، كان ينبغى ملؤه (٣١) ، فتولى البنادقة هذه المهمة • ومنذ عام ١٤٠٣ أرسل البنادقة كل سنة سفنا الى ايج مورت ، واستمرت هـذه الحركة بانتظام حتى نشوب حرب حلف كمبرى Cambrai (٣٢) •

وفى الداخل ، انتهت أسواق شامبانى ، وحلت محلها أسواق أخرى : أولها ، فى القرن الرابع عشر وهى أسواق بوكير Beaucaire المتالقة ، والتى تشمل فى آن واحـد ايطاليين ، وألمان ، وبلجيكيين ، وأسبان ، وبرتغاليين ، ويونانيين ، وبرابرة ، ومصريين ، ثم اعتبارا من عام ١٤٤٤ أسواق ليون التى شملها لويس الحادى عشر برعايته وتشجيعه حتى تنافس أسواق جنوا (٣٣) • فكان الايطاليون يترددون بانتظام ومثابرة على هذه الأسواق ، ولا يمنعهم من الوصول اليها صعوبة اجتياز جبال الألب(٣٤)• وبفضل نشاطهم هذا فى البر والبحر ، احتكروا تجارة التوابل ، وحصلوا منها على أرباح كبيرة ، الأمر الذى كان يمثل خطرا على الثروة العامة ، وقد أبدى هذه الملحوظة بعض رجال الدولة•كما قدم بيير دوريول Pierre Doriole مع آخرين تحذيرات ما بهذا الخصوص للملك لويس الحادى عشر (فى عام ١٤٦٨) ـ ولابد أن الملك قد اقتنع بذلك ، ومن ثم حظر استيراد التوابل بمعرفة التجار الأجانب : وتكفلت نقابة للتجار الفرنسيين بتوفير حاجات البلد ، ووضـع تحت تصرفهـا أربع سفن فرنسية ، وخصصت موانى

---

(٣١) Mas Latrie dans la Coll. des doc. inéd., Méd. hist. III, 195 not. 1 ; l'Arch. Venet., XIX 92 ; Petit Thalamus, p. 434.

(٣٢) Mas Latrie, l.c., p. 195-204 ; Sathas III, 441 ; Sanut. Diar., II, 481, 502, 517, 539, 673, 691, 725, 733, 744; VII, 97.

(٣٣) Ordonnances des rois de France, XIII 399 ; XV, 644:

(٣٤) Cibrario, Della economia politica del medio evo, 4e éd., p. 468 et s. ; Germain, Hist. du commerce de Montpellier, II, 386 et s. ; Vie et Vaissette, Hist. de Languedoc, éd. du Mège, VIII, 521 et s.

ناربون ، وايج مورت لاستقبال التوابل • ولكن فى عام ١٤٧٨ أبرمت معاهدة جديدة فتحت أبواب فرنسا للبنادقة دون أى تحفظ • وبعد وفاة لويس الحادى عشر ، اجتمع مجلس طبقات الأمة فى مدينة « تور » Tours (عام ١٤٨٤) وأعلن من جديد الحرية التامة للتجارة بالنسبة للأجانب الذين يريدون المجىء الى فرنسا ، برا أو بحرا (٣٥) •

الأراضى المنخفضة (٣٦)

المعروف أن صناعة النسيج قد نهضت فى النصف الأول من العصور الوسطى نهضة كبيرة فى مدن الفلاندر وبرابانت ، واستخدمت على الأخص أصواف انجلترا • وفى البداية كان شراء هذه الأصواف ، وبيع أنواع الجوخ المحلية يشكلان الفرعين الرئيسيين للتجارة فى الأراضى المنخفضة • الا أن التجار الأجانب لم يلبثوا أن جاءوا طلبا للأجواخ المحلية ، ومعهم فى مقابل ذلك سلعهم الخاصة • وهكذا أصبحت الأراضى المنخفضة سوقا لتصريف تجارة العالم المعروف وقتئذ • غير أن ثمة مدينتين ترجع المنافسة بينهما الى ماض بعيد ، اذ كانتا تجذبان اليهما الغالبية العظمى من هذه التجارة • وقد سبق أن ذكرنا اسمى « أنفرس » ، « وبروج » : فكانت المدينة الأخيرة على صلة ما ببحر الشمال عن طريق ميناءى دام Damme وسلايز Sluys • وفى كشف المبيعات التى كانت تجرى فى هذين المكانين ، لم تكن منتجات الشرق تشغل مرتبة متأخرة • وفى وسعنا أن نرجع الى أى مصدر نستوضحه : مثال ذلك فصول كتاب بيجولوتى المخصصة لهاتين المدينتين (٣٧) ، وسجلات جمارك دام ، وبروج (٣٨) ، وقائمة السلع المستوردة فى الفلاندر ، والمدونة فى أواخر القرن الثالث عشر (٣٩) ، حيث نجد فى كل مكان توابل ، وعطورا ، ومواد الصباغة ،

---

(٣٥) Duclos, Hist. re Louis XI, I, 399 ; Pigeonneau, l.c., I, 415 et s., 418, 435 et s.

(٣٦) E. Van Bruys el, Hist. du commerce et de la marine en Belgique, 3 vol., Brux. 1861 et ss ; Marshal ... dans le Bulletin de l'Acad. de Brux., XI, 1ère part. (1844) p. 152 et ss. ; Alex. Prin-chard, Essai sur les relations commerciales des Belges avec le Nord de l'Italie et particuièrement avec les Vénitien depuis le XII-XVI ciècle, dans le Mes ager des sciences hist., 1851, p. 9 et ss.

(٣٧) Pegol., p. 241-258.

(٣٨) Sartorius Lappenberg, Gesch. des Ursprungs der Hansa, II 80 et ss., 84 et ss., 469.

(٣٩) L'Hist. de la Flandre, par Warnkoenig., trad. Gheldolf, II, 512 et ss. : Cf. IV, 346 et ss.

ومنسوجات الشرق : وأسماء البلاد المنتجة تصحب أسماء تلك السلع : كالامبراطورية البيزنطية ، وسوريا ، ومصر ، وأرمينيا ، وبلاد التتار . وربما يقول البعض ان الفلمنك ، وأهالي برابانت عندهم سفن كثيرة . ومن بين الجنود الكثيرين الذين زود الشعبان بهـا الحروب الصليبية ، أولئك الجنود الذين سافروا الى الأرض المقدسة على متن سفن استعاروها منهم . ولكن ألم يذهب التجار كذلك الى الشرق الأدنى طلبـا لمنتجات الشرق ، وليبيعوا هناك أجواخ بلادهم ، فالمعروف أن هذه السلعة منتشرة هناك بدرجة كبيرة ؟ كلا ، وهذا أمر غريب ، فلا يوجد أي أثر لمرور سفن برابانتية ، أو فلمنكية في مياه الشرق الأدنى . اذ كان الايطاليون هم الذين يحملون منتجات الصناعة الفلمنكية ، مثلما يجلبون الى الفلاندر سلع الشرق (٤٠) . ولقد سبق أن رأينا في الفصل السابق أن الايطاليين والفلمنك كانوا يلتقون دائما في أســـواق شـامباني حيث يتبادلون بضائعهم . وكان كثير من الايطاليين ينتهزون هذه الفرصة فيواصلون طريقهم الى بلجيكا . وكثيرا ما كان التجار الايطاليون يسافرون الى الأراضي المنخفضة ، ويمرون بوجه عام بفرنسا (٤١) ، ولكنهم لا يفعلون ذلك مضطرين ، ففي وسعهم اجتياز ألمانيا ، اما عن طريق بال (بازل) ، وكولون ، أو عن طريق نورمبرج . والثابت ، على الأقل بالنسبة للبنادقة ، أنهم كانوا يسلكون غالبا هذه الطرق الأخيرة (٤٢) . ولم يكن ثمة ما يمنع الأمم البحرية من الاستفادة من مضيق جبل طارق . فالواقع أن الحركة التجارية بين ايطاليا والأراضي المنخفضة لم تصل الى درجة حقيقية من الازدهار الا منذ أن قر عزم جمهوريتي جنوا والبندقية على تنظيم خدمة سنوية بحرية بين البلدين (٤٣) : وقد اتخذت الجمهوريتان هذا القرار في وقت واحد تقريبا . وثمة وثيقة جنوية (٤٤) تنبىء بأنه حدث في عام ١٣٠٩ أن هاجم بعض الأعداء سفينة في ميناء جنوا في اللحظة التي كانت تستعد فيها للاقلاع قاصدة الى الفلاندر وبها شحنة ثمينة . هذا الحدث مثار للجدل ، فالمؤلف لا يؤكد أن السفينة التجارية المشار اليها كانت ملكا لأفراد . وقد يكون الأمر كذلك . وهناك ملحوظة مماثلة في شأن سفينة أخرى أقلعت في عام ١٣١٢ من جنوا الى الفلاندر (٤٥) .

(٤٠) Harnkoenig, l.c., II, 514 ; Hakluyt, Navigations, I, 188.

(٤١) RaWron Brown, Calendar of State paper·, Venetian,, I, 2 (Marin. V, 285) ; Zeitschr. für die Gesch. des Oberrheins, V, 20.

(٤٢) Zeitschr. für die Gesch. des Oberrheins, V, 18, 20, 21 et s.

(٤٣) Rawdon Brown, l.c., p. 7, 10, 11, 75 ; Romanin, III, 137.

(٤٤) Canale, Nuova istoria di Genova, III, 284.

(٤٥) Eatti della oc. lig., Y, 520.

ولكن هناك بالنسبة لجنوا دليلين لا يقبلان النقض على وجود خدمة بحرية تنظمها الدولة : أولهما مذكرة فى حسابات مدينة « أنفرس » (أنتورب) بتاريخ ١٢٢٤ ، ذكر فيها ربان سفن جنوية كانت موجودة وقتئذ فى « سلايز » Sluys (بالقرب من بروج) (٤٦) ، وثانيهما مجموعة من الأوامر والتعليمات الصادرة فى عام ١٣٤٠ للسفن التى تبحر الى الفلاندر (٤٧) . وفيما يختص بالبندقية ، ترجع المراسيم الأولى ، والاجراءات الرسمية المتعلقة بارسال السفن الى الفلاندر الى الفترة التى اختفت فيها قرارات مجلس الشيوخ بشأنها . وتدل دراسة الجداول على أن أقدم هذه المراسيم يتضمنها الجزء الرابع من ال Misti Senato فى السنوات ١٣١٣ ـ ١٣١٧ (٤٨) . ففى هذه الفترة اضطلع جبرييل داندولو Gabriele Dandolo بمهمة القائد العام للسفن الفلمنكية ، وبمهمة ما فى انجلترا . ويسلم السيد رودن براون Rawdon Brown بأن تلك المعلومات الواردة فى جداول ال Misti تكفى بحد ذاتها لتحديد عام ١٣١٧ كبداية الخدمة البحرية المنتظمة بين البندقية والفلاندر (٤٩) . وقد أقام بيجولوتى فى الأراضى المنخفضة من ١٣١٥ الى ١٣١٧ ، وجمع فى هذه الفترة المعلومات التى قدمها عن تجارة هذا القطر ، وذكر « الرسم » الذى حددته حكومة البندقية للبضائع التى تشحن على سفن الفلاندر ، فقال ان البنادقة يتمتعون فى « بروج » بتخفيض فى الضريبة المقررة على سماسرة المنسوجات الحريرية طوال هذه المدة التى تمضيها سفنهم فى الميناء (٥٠) . ولم يكن البنادقة فى البداية فى حالة مرضية فى بروج ، اذ كانوا يشكون من الضرائب ، ويجدونها فادحة ، ومن تعسف شرطة السوق (٥١) ، ومن ثم يبحثون عن جهات أخرى تكون أحوالهم فيها أفضل . وفى مايو عام ١٣١٨ ، كما تنبئنا وقائع فان هيست van Heyst التى لم تنشر بعد أن سفينتين من البندقية دخلتا لأول مرة ميناء « انفرس » ، اتبعتهما ثلاث سفن أخرى فى شهر فبراير ١٣١٩ (٥٢) . وحظى القادمون فى هذه السفن باستقبال حافل ، وعقدوا معاهدات مجزية

---

(٤٦) سوف نعود الى هذه النقطة .

(٤٧) Off. Gaz., p. 352-366.

(٤٨) Arch. Venet., IXI, 90 et ss., Romanin, III, 376, 380; Rawon Brown, l.c., p. 10.

(٤٩) Rawdon Brown, l.c., p. lxi, cxxii, cxxii.

(٥٠) Pegol., p. 140, 247.

(٥١) Marin, V, 304 et s.

(٥٢) Mertens en Torfs, Geschiedenis van Antwerpen, II, 90 ; Guicciardini, Descrittione dei Paesi bassi (Anversa, 1567), p. 119.

استغلتها الجمهورية لتمارس ضغطا على سلطات « بروج » (٥٣) • ومن ذلك الحين احتدمت المنافسة بين سلطات بروج وسلطات أنفرس ، بين الحاكمين : روبيرت Robert كونت الفلاندر ، وجان الثالث Jean III دوق برابانت ، لمن يمنح منهما البندقية أكبر الامتيازات ، وأفضل الشروط (٥٤) • وتباطأت الجمهورية في الاختيار ، وطال أمد المفاوضات • وبمقارنة أحداث مماثلة جرت في عامي ١٣٢٠ ، ١٣٢٨ ، نرى الجمهورية في حالتين تعين نهاية لرحلات سفنها ميناء أنفرس ، وفي ثلاث حالات أخرى تترك للقباطنة حق اختيار ميناء الرسو ، فقط توصيهم أن يتفقوا في هذا الخصوص مع مجهزي السفن والتجار (٥٥) • وأخيرا مال الميزان في صالح بروج ، ووجد الأجانب فيها من الموارد أكثر مما في أنفرس • وفي عام ١٣٣٢ صدر مرسوم من مجلس شيوخ البندقية يعين هذا الميناء كنقطة وصول سفن الفلاندر (٥٦) galee di Fiandra وبقيت الأمور على هذا النحو حتى أواخر العصور الوسطى •

كذلك قدم دوق برابانت ، ومدينة أنفرس عروضا للجنويين لا تقل عما قدماه للبنادقة ، اذ نجد برهانا على ذلك في امتياز وقعه الدوق ، وفي الزام منحته المدينة لبيع النبيذ بالقطاعي في فترة اقامة الجنويين في أنفرس ، والوثيقتان محررتان في عام ١٣١٥ (٥٧) • وفي عام ١٣٢٤ دعا حكام أنفرس قبطان السفن الجنوية الراسية في ميناء « سلايز » أن يأتي لزيارة مدينتهم (٥٨) • ومع ذلك فبمرور الزمن تغلبت جاذبية بروج على جاذبية أنفرس • وسارت الأمور على هذا المنوال فيما يختص بالفلورنسيين ، ولو أن بالدوتشي بيجولوتي وكيل بيت باردي التجاري قد حصل لهم في عام ١٣١٥ على امتياز يشمل مصالح خاصة في مدينة أنفرس (٥٩) • وعلى ذلك كانت أكبر البيوت التجارية الايطالية في الفلاندر وأكثرها ازدهارا مجتمعة كلها في « بروج » : فمنها بيوت من سيينا ، ولوكا ، وبليزانس ، الخ • فاذا بحثنا في الوثائق الأصلية عن نوع الأعمال التي تمارسها هذه البيوت ، فاننا نجد أولا عددا كبيرا من

---

(٥٣) Marin, V, 304 et s. ; extraits dans Rawdon Brown, l.c., p. 4, no 12 et dans les Commem. reg., I, 213. no 202.

(٥٤) Commem. reg., I, p. 222, no 241 ; p. 241 nos 321, 322; p. 263, nos 425-427 ; Merten en Torfs, l.c., II, 90, 541 et s.

(٥٥) Archiv. Venet., XIX, 93-100.

(٥٦) Romanin, III, 376 et s.

(٥٧) Lib. jur., II, 461 et ss. ; Atti della, Soc. Lig., V, 375 et ss.

(٥٨) Mertens en Torfs, l.c., II, 542.

(٥٩) P. 256 et s.

البيوت المصرفية ، أما التى تمارس التجارة بالمعنى الصحيح ، فانها كانت تقوم بنوع خاص بشراء الأجواخ وبيع التوابل ٠٠ ويزودنا بيجولوتى ، ووثائق مختلفة فى حوزتنا بمعلومات وافية عن طبيعة شحنات السفن البندقيـة والجنوية التى تقوم برحـلات الى الفلاندر ، فلا يخامرنا شك فى أهمية التوابل فى هذه التجارة (٦٠) ٠ ويمكن تعريف مكانتها بالقول بأن السفن التجارية البندقية والجنوية كانت بمثابة الوسطاء فى تجارة شاسعة بين مصر والفلاندر (٦١) ٠ وفى أواخر القرن الرابع عشر وقعت أحداث خطيرة أعاقت لبعض الوقت هذه التجارة ٠ ذلك أن المسلمين من سكان شمال أفريقيا شرعوا منذ قليل فى مزاولة أعمال القرصنة ٠ وقد تكفل أنطونيو أدورنو Antonio Adorno دوق جنوا بالقاء درس عليهم : وبمساعدة جيش فرنسى تحت قيادة دوق بوربون ، ضرب الحصار قبالة « المهدية » Mehdiya ، ولكنه لسوء الحظ أخفق فى مشروعه ، وضاعف فشله هذا من جرأة القراصنة من البربر ٠ ولم يعد يقنع هؤلاء البربر بالقرصنة فى البحر المتوسط ، فنظموا حصارا على مضيق جبل طارق حتى لم يعد فى وسع السفن التجارية البندقية والجنوية أن تمر بالمضيق دون أن تدفع لهم أتاوة كبيرة ٠ ويقول « فرواســار » Froissart الذى عاصر هذه الأحداث ان سلع دمشق ، والقاهرة ، والاسكندرية ، والبندقية ، ونابولى ، وجنوا أصبحت لفترة ما شديدة الندرة فى أسواق الفلاندر ، وأن بعضها لم يعد له وجود بالمرة ، ولذا حدث ارتفاع كبير فى أسعار التوابل (٦٢) ٠ ومع ذلك لم تكن هـذه الأمور سـوى أزمة عابرة ، فما لبثت الحركة التجارية أن جددت نشاطها ، وظهرت سفن البندقية وجنوا ثانية فى موانى الفلاندر (٦٣) ، وشوهد الى جانبها بعد قليل سفن فلورنسا ٠ فالواقع أنه ما أن استولت جمهورية فلورنسا على ميناء ليفورنو (لجهورن ، Lioovurne حتى بادرت بارســال السفن التى تملكها الى الفلاندر ، وكانت أول رحلة بحرية لها فى عام ١٤٢٥

---

(٦٠) Pegol., p. 140 ; Romanin, III, 379 ; Malipiero, p. 622 ; Rymer, Foedera, VII, 233; Atti della Soc. Lig., V, 375 et ss., 385 ; Calendar of State papers : Venetian, I, 253, Ordonnance de la ville de Bruges concernant le commerce des Lombards. dans les Hause-Recesse, 1ère part. vol. II, p. 235 t ss. ; Gilliodts van Severen, Invent. des archives de la ville de Bruges, 1ère série, vol. VI, p. 5-13.

(٦١) Piloti, p. 374.

(٦٢) Froissart, Oeuvres, éd. Kervyn de Lettenhove, XIV, 278.

(٦٣) فى القرن الخامس عشر كانت سفن بندقية تقلع بانتظام بين ٨ و ٢٥ ابريل ٠ انظر : — Uzz., p. 194. ; Romanin, III, 379.

غالبا (٦٤) • وبعد ذلك ، نظمت خدمة بحرية أخرى صوب الشرق الأدنى ، وجرى التنسيق بين الرحلتين بكيفية من شأنها أن يتم تصريف التوابل والمنسوجات الصوفية والحريرية على أفضل الوجوه (٦٥) •

وبتاريخ ٢٧ مارس ١٤٤٧ أصدر « القناصلة البحريون » Cansules Maris ، مرسوما جعل سبعة خطوط لخدمة السفن الفلورنسية ، ولم يفت المرسوم بالطبع أن يذكر خطوط الفلاندر ، وانجلترا (سلايز وساندوتش ، وسوث هامبتون) ، وكانت هذه فرصة مناسبة لتحديد الموانى التى يتعين على السفن أن ترسو عندها ، وهى فى طريقها (٦٦) •

وفى هذه الأثناء حدثت فى الفلاندر نفسها تغيرات عانت التجارة من آثارها • ففى أواخر القرون الوسطى ، كانت الرمال قد تراكمت فى ميناء « سلايز » فجعلت من العسير على السفن دخول الميناء • ومن ناحية أخرى كانت الفلاندر ، ومدينة بروج بنوع خاص مسرحا لاضطرابات شديدة ، وثورات مسلحة لم يتكهن أحد بنهايتها (٦٧) • فادى اليأس من اعادة استقرار الهدوء الضرورى لرخاء التجارة الى هجرة عدد كبير من الأجانب الى أنفرس • ولما كان قسم كبير من الايطاليين قد شملتهم هذه الحركة (٦٨) ، فان هذه الهجرة كانت دليلا على نمو مطرد للتجارة بين ايطاليا وأنفرس ، ومن ثم توفرت فى هذه الجهة منتجات الشرق الأدنى التى تجلبها سفن جنوا ، والبندقية ، وحتى أنكونا (٦٩) • ومع ذلك لم تنقل التجارة كلها من بروج الى أنفرس (٧٠) الا فى مستهل القرن

---

(٦٤) وعلى أية حال كانت فلورنسا ترسل فى تلك الآونة سفننا الى انجلترا ، الا انها كانت تزور فى طريقها الى هناك موانى البلاد الواطئة وانجلترا • انظر :
— Benedetto Dei, cité dans Pagnini, II, 60.
– اطار شروط البيع فى ليفورن فى Canale, Nuova istoria di Genova, IV, 179

(٦٥) Amrai, Dipl arab. dell' archivio fiorentino, append., p. 48.

(٦٦) Doc. sulle, relaz. to c., j. 292.

(٦٧) Kervyn de Lettenhove, Hist. de la Flandre, VI, 79 et ss.

(٦٨) Rawdon Brown, l.c., p. 307.

(٦٩) Guichardin, dans Descrittione dei paesi bassi, p. 119 et ss., et Mertens en Torfs, III, 211.

(٧٠) Guichardin, l.c., p. 84; Mertens en Torfs, III, 318 et ss.
– وصلت أولى السفن البرتغالية الى أنفرس فى عام ١٥٠٢ ، وتبعتها سفن اخرى كثيرة ، غمرت السوق بما جلبته من توابل ، واذا كان البنادقة مضطرين لبيع سلعهم باسعار مرتفعة فانهم لم يستطيعوا تصريفها هناك • انظر :
Sanut., Diar., VI, 192 209 ; Priuli, p. 161.
Sanut., Diar., IV. 311, V, 641 ; Mertens en Torfs, III, 330 et ss.

السادس عشر ، وكان ذلك نتيجة مباشرة لاكتشاف البرتغاليين الطريق البحرى الى الهند • وقد رأينا أن البرتغاليين اختاروا « أنفرس » كمستودع للتوابل التى يستوردونها من تلك الأصقاع النائية • ومن ذلك الحين أصبحت أنفرس سوقا رئيسية لمنتجات الشرق : الا أن الايطاليين كانوا قد فقدوا احتكار هذه المنتجات ، بعد أن احتكرها البرتغاليون •

اسبانيا والبرتغال

تكلمنا كثيرا عن الأمة القطالونية ، فهى تقيم فى القسم الشرقى من شمال شبه جزيرة أيبريا • ولما كانت على علاقة وثيقة بالشرق الأدنى ، فانها كانت تتزود دائما بكميات وفيرة من التوابل ، تمون بها كل البلاد المجاورة لها (٧١) • وفى هذه الناحية ، لم يكن للايطاليين شىء كثير يؤدونه ، وكان سكان برشلونة أقل تعصبا من مزاحميهم (٧٢) ، ولم تجدد الحروب المتواترة ضروب الكراهية بين القطالونيين والجنويين بنوع خاص • والى الجنوب من قطالونيا كانت سواحل اسبانيا لزمن طويل خاضعة لسلطان العرب ، فكان هؤلاء يتلقون منتجات الشرق اما بواسطة قوافل تسير بحذاء الساحل الشمالى لافريقيا ، واما من سفن مصرية أو ســـورية تتردد على مينـــــاء المرية Almeria • وكان ســـكان المرية ودانيــة Denia ، وملقا Malaga ومدن أخرى يبنون سفنا تصل فى ستة وثلاثين يوما الى سواحل سوريا ، ويذهبون بأنفسهم طلبا لمنتجات صناعة أكثر تقدما من صناعتهم وعلى أرض أكثر جودة من أرضهم (٧٣) • والمعروف أن عرب اسبانيا نهضوا بالزراعة والصناعة فى بلدهم نهضة أتاحت لهم الحصول محليا على الكثير من الحاصلات التى كانوا فيما مضى يضطرون للذهاب لاحضـــارها من الشرق • وكان الجنويون والبيزيون يمارسون حركة تجارية معهم (٧٤) • كما كان كثير من الحجاج والتجار المسلمين يركبون سفنا جنوية فى اسبانيا ، أو فى « سبتة » تنقلهم الى الاسكندرية ، أو الى عكا ، ويعودون بنفس الطريق (٧٥) والمطلوب أن نعرف ما اذا كان الايطاليون يزودون عرب اسبانيا بالتوابل • وفيما بعد ،

(٧١) Capmany, Mem., II, 3 et ss., 15 et ss., 378.

(٧٢) Ibid., II, 38 et s., 131, 195.

(٧٣) Edrisi, Description de l'Afrique et de l'Espagne, éd. Dozy, p. 234, 240, 244, 266.

(٧٤) Monum. hist. patr. Chart., II, 269 et s. ; Lib. jur., I, 152 et s., 1484 et ss.

(٧٥) Ibn Giobair, éd. Amari, dans l'Archiv. stor. ital. append. 4, p. 41-43 ; Amari, Dipl. arab. florent., préface, p. xxii et s. ; Aboul-Feda, éd. Reinaud, introd., p. cxxv.

ومع تقلص سيادة العرب على اسبانيا ، صارت المدن التى تملكها المسيحيون مجردة من العلاقات المباشرة مع الشرق ، ومن ثم كان لابد أن تعانى من هذا الوضع ان لم يكن الايطاليون هناك على استعداد للحلول محل الوسطاء الذين لم يعد لهم وجود. فكانت مهمة تموين هذا الجزء من اسبانيا تقع عادة على عاتق سفن الفلاندر ، أما سفن البندقية فانها كانت ترسو عادة عند جزيرة ميورقة ، ومن هنـــــاك تصـــل الى Alicante ، أو المرية ، أو ملقا ، وفيما وراء مضيق جبل طارق تلقى مراسيها فى ميناء قادش Cadix ، ومنها يسهل عليها أن تذهب الى أشبيلية وترسو أخيرا عند لشبونة (٧٦) ، وثمة معـــاهدات تكفل حسن اســـتقبال البنـــادقة بالميناء (٧٧) • وفى كل الموانى الوسطى تعقد الصفقات ، وتشحن وتفرغ البضائع • ونظمت فلورنسا خدمة خاصة لقطالونيا ومراسى فى برشلونة ، وميورقة ، وبلنسية • وتصل الى الموانى الاسبانية على البحر المتوسط سفن خط الجزائر والمغرب من جهة ، ومن جهة أخرى سفن الفلاندر التى ترسو أيضا فى قادش ولشبونة (٧٨) • وكان الغرض الرئيسى من هذه الرحلات المتواترة هو مبادلة أصواف فلورنسا بمنتجات اسبانيا (٧٩) ، ولكن لا شك فى أن سفن فلورنسا كانت تحمل أيضا الى هناك سلعا من الشرق ، وهى مع ذلك أقل عددا من سفن جنوا والبندقية • وفيما يختص باشبيلية مثلا ، فمن المؤكد أن سوقها كانت مزودة بوفرة من التوابل ، وذلك بفضل الايطاليين وحدهم (٨٠) • ولم يعرف البرتغاليون وسطاء آخرين الى اليوم الذى اكتشف واحد منهم طريق الهند الذى كان حتى تلك الآونة مجهولا من العالم كله •

انجلترا

ان الرغبة فى الاستمتاع بحياة مرفهة ، والحاجة الى منتجات الشرق الثمينة التى كانت من لوازم هذه الحياة ، هذه الرغبة لم تنم عند الشعب الانجليزى الا فى عهد متأخر نسبيا • ومن ثم ، فعلى الرغم من أن انجلترا قدمت نصيبها فى الحروب الصليبية ، فان هذه الحملات الكبيرة لم تثر

(٧٦) Rawdon Brown, l.c., I, lxiii et s., 148 et s., 151 ; II, 364 et s.; Romanin, III, 191, 378 ; Pasi, p. 194.

(٧٧) Romanin, IV, 52; Sanuto, Vite dei dogi, p. 835.

(٧٨) Doc. sulle rela. to c., p. 292 ; Amari, Dipl. arab. florent, p. 50 et ss. ; 60 et ss.

(٧٩) Bend. Dei dans Pagnin, II, 241, 275.

(٨٠) Pegol., p. 274.

اهتمام التجارة الانجليزية . وقد يبدو أن وجود حى انجليزى فى مدينة عكا فى أواسط القرن الثالث عشر يثبت وجود جالية تجارية انجليزية بها . الا ان أولئك الذين كانوا يشكلون فى عهد الامبراطورية اللاتينية قسما صغيرا من سكان القسطنطينية ، كانوا ينتمون غالبا الى الطائفة العسكرية ، ولابد أنهم الباقون على قيد الحياة من الحراس الخصوصيين الذين جندهم الأباطرة البيزنطيون من رجال الشمال . وأخيرا ، ادعى البعض أنهم تعرفوا على اسم انجلترا بين أسماء البلاد التى يقول بنيامين دى توديل Benjamin de Tuddèle انه وجد ممثلين لها فى الحشد الخليط الذى يملأ سوق الاسكندرية . الا ان تماثل الاسمين هو تماثل مصطنع أولا ، كما أن مثل هذا التماثل يتعين فحصه ثانيا ، فهذا الفحص لا يؤدى الى نتيجة ذات شأن ، لأن صحة قائمة هذه الأسماء لم تثبت على وجه اليقين (٨١) . وعلى ذلك ينحصر نصيب انجلترا بين الشعوب التى لعبت دورا ايجابيا فى تجارة الشرق الأدنى فى جالية صغيرة فى عكا . وحتى مع ذلك فاننا لا نعرف على وجه اليقين ما اذا كانت هذه الجالية قد أبقت على صلة ما بوطنها الأصلى .

وفى غير هذا الاستثناء الوحيد فى شأن التجارة ، اقتصرت انجلترا فى تلك الآونة ، ولم تزل مقتصرة زمنا طويلا على دور سلبى بحت ، فكانت الأديرة التى تملك قطعانا هائلة من الماشية تنظر بعين السرور والرضا الى الايطاليين والفلمنك وهم يتنافسون للحصول على أصوافها (٨٢) ، كما كان الملوك مسرورين اذ يجدون فى لمبارديا وتسكانيا مصرفيين مجاملين يقدمون لهم ما يلزمهم من قروض . ولم يقدر الانجليز الفائدة التى تعود على شعبهم من انشاء صناعة وطنية تستغل المواد الأولية المحلية (٨٣) ، أو ثروة قومية تغنيهم عن الساطات المالية فى الخارج . وفى هذه الأحوال اقتصرت البحرية الانجليزية على الملاحة الساحلية ، بينما تركت للسفن الأجنبية مهمة استيراد منتجات البلاد النائية . أما منتجات الشرق ، فكانت انجلترا تتلقاها من ايطاليا ، وكانت فى البداية تستورد معظمها بالطرق البرية ، وبطريق غير مباشر . وبخصوص التوابل ، كان يبدو أن ألمانيا هى التى تقوم بدور الوساطة ، وبخاصة أهالى كولونى الذين كانوا منذ زمن بعيد يرسلون سفنهم الى انجلترا . وانقطعت هذه التجارة تقريبا (٨٤) منذ اللحظة التى اتخذت فيها الدول التجارية الكبرى فى

---

(٨١) لا نلح على هذه النقطة التى سبق أن ناقشناها .

(٨٢) Pagnini, Della decima, II, 92 et ss., 324 et ss. ; Giudici, Storia dei municipj italiani, app., p. 231-240 ; Pegol., p. 263 et ss.

(٨٣) westmonast. Flor. histor., a, 1265.

(٨٤) RaWdon BroWn, p. 75.

ايطاليا اجراءاتها لإرسال سفنها كل عام الى الفلاندر ، والى انجلترا كذلك. وقد سبق لنا أن تكلمنا عن أصول هذه الخدمات البحرية . اذ كانت الموانى في انجلترا هي ساندوتش ، وساوثهامبتون ، ولندن (ورأس سانت كاترين) (٨٥) . وتثبت قوائم تجهيز السفن البندقية وشحنها أن هذه السفن تصدر الى انجلترا بكثرة التوابل ، ونبيذ كانديا وعنب كورنثة ، وسكرا ، وحريرا ، وقطنا (٨٦) ، وتعود منها بصوف ، وجلود ، ومعادن ، وخاصة القصدير (٨٧) . وتقوم السفن الجنوية بهذه الرحلات نفسها ، ذهابا وعودة (٨٨) . وفى قصيدة تاريخية كتبت فى عام ١٤٣٦ بعنوان The libell of english policye تجد معلومات أدق عن هذه السلع التى يستوردها الايطاليون ، وغاية المؤلف أن يقنع الأمة الانجليزية بالتحرر من نير الشعوب التى كانت لها السيادة البحرية ، وحطمت التجارة الانجليزية ، ومنعتها من أن تنمو (٨٩). فيقول ان السفن الجنوية ، مع غيرها من السفن تستورد الحرير ، والقطن ، والذهب ، وأسلاك الذهب (٩٠) ، والفلفل الأسود ، وحجر الشب ، أما السفن البندقية ، والفلورنسية فتستورد كل أنواع التوابل ، والعقاقير الطبية ، مثل الاسقمونيا Scamonée ، والتربد turbith ، والراوند ، والسنا séné ، وأنبذة صافية ، وقرودا ، الخ . ويضيف الشاعر أنه فى الوقت الذى تجلب فيه هذه السفن سلعا كمالية يمكن الاستغناء عنها ، فانها تأخذ منها ، قصديرا ، وصوفا ، وجوخا . ولم يتحقق التحرر الذى نادى به الشاعر فى وقت قصير . ففى مستهل العصور الحديثة انتزع البرتغاليون من الايطاليين تجارة منتجات الشرق ، واستمرت انجلترا تدفع لهم المكوس . ثم جاء دور الهولنديين ، حتى أتى اليوم الذى استحوذت فيه على المكانة الأولى من تجارة الشرق الأدنى .

المانيا

ترى بأية طرق كان الألمان يتلقون منتجات الشرق فى عصر الحروب الصليبية ، حتى أواخر العصور الوسطى ؟ إنها مسألة يتعين علينا هنا البحث عن حل لها ، وهو عمل أصعب مما قد يبدو للخاطر . ولكيلا تشرد

---

(٨٥) Rawron Brown, p. lxiv.

(٨٦) انظر القائمة تامة فى Rawdon Brown, p. cxxxv.

(٨٧) Sanut., Diar., II, 568.

(٨٨) Rymer, Foedera, II, 2, p. 941.

(٨٩) l'érition Hertzberg (Leipz. 1878), p. 36-38.

(٩٠) "Gold of Jene" ou oro filato di Genova, p. 192.

أفكارنا ، فاننا نعتبر أولا أن الأســـواق الكبرى هي ما في البوسفور ، والبحر الأســـود ، وبحـــر أزوف ، والقسطنطينية ، وكافا ، وتانا ، ونستوثق ثانيـا مما اذا كان بينها وبين المانيـــا علاقات ما ، ومدى هذه العلاقات ٠

ان وجود جالية تجارية المانية في القسطنطينية في القرن الثاني عشر حقيقة لا تحتاج الى اثبات ، ولكنا رأينا في حديثنا عن تاريخها أنها لم تبلغ أبدا درجة رفيعة من الرخاء ، وأن وجودها كان وجودا عابرا ٠ وقد تسهل مهمتنا كثيرا ان استطعنا أن نثبت أن هذه الجالية كانت في وقت ما على علاقة وثيقة بالمدن التجارية القائمة على طول نهر الدانوب ، وبخاصة راتسبون ، وهي أهم هذه المدن ٠ غير أن المصادر لا تزودنا بأية معلومة في هذا الخصوص ٠ وفي وسعنا ، والوثائق بين أيدينا ، أن نتتبع تجار راتسبون في رحلاتهم في القـــرن الثاني عشر ، فنراهم يخاطرون بالسفر بعيدا ، فيزورون أسواق نهر « ان » Enns ، ويتوقفون عند مكاتب جمركية بين « ان » وفيينا ، ويقيمون بفيينا لقضاء أعمالهم ، ثم يواصلون السير حتى المجر (٩١) ٠ ونرى أيضا الى جانبهم تجار باسو Passau ، وأولم Ulm ، وســـوابيا Souabe بوجـــه عـــام ، وكولون ، وميتز Metz ، واكس لاشـــــابل Aix-la-Chapelle وماستريخت Maestricht اذ يستعملون طريق المواصلات العظيم الذي يتيحه نهر الدانوب ٠ وفيما وراء المجر لا نجد أثرا لهم ٠ ذلك أنه ابتداء من عام ١١٩٨ أو على أية حال من عام ١٢٢١ كان طريق هذا البلد قد أغلق في وجههم بفعل أهالي فيينا الذين كانوا حريصين على احتكار التجارة مع هذا البلد (٩٢) ٠ ولم يثبت أن أهالي فيينا أنفسهم قد خاطروا بدخول صربيا ، وبلغـاريا ، أو حتى القسطنطينية ، وعلى الأقل لا تكشف لنا المصادر عن شيء من هذا القبيل ٠ يبدو اذن أنه من الثابت أن التجار الألمان الذين كانوا يهبطون نهر الدانوب لم يكونوا يذهبون الى القسطنطينية طلبا لمنتجات الشرق في حوانيت مواطنيهم المقيمين بها ٠ ومن جهة أخرى لم يقم دليل على أن المستوطنين الألمان في القسطنطينية قد نظموا قوافل تنقل هذه المنتجات الى الدانوب ، أو أن التجار الألمان كانوا ينتظرون هذه

---

(٩١) Voy. deux document de 1191 et 1192, publ. par M. Meiller dans l'Archiv. für Kunde oesterr. Geschichtsquellen, X, 92-96.

(٩٢) Geschichtsquellen der Stadt Wien, l.c., p. 13 etc. etc.

القوافل ليعودوا بهـا الى النمســا وبافاريا ، الخ · واخـيرا ، لم يقل أحـد ان البلغاريين أو الهنجريين قد اشتغلوا كوسطاء بين القسطنطينية وحوض الدانوب الأوسـط · وقد يقول البعض انه رغم الغموض الذى يشوب جنسية وكلاء النقل ، فالثابت أنه فى غضون الربع الأخير من القرن الثانى عشر ، مر بجمرك شتاين Stein ، وهى مدينة واقعة على نهر الدانوب بالقرب من فيينا بضائع لا شك أنهـا آسيوية المصدر ، كالفلفل ، وجوز الطيب ، وكبش القرنفل ، والزنجبيل ، والخولنجان (٩٣) · ولست أنكر البتـة هذه الواقعـة ، ولكنى أقول مع الســيد هولمان Hüllmann : « ليس هنـاك ما يثبت أن سلعا من هذا النـوع ، والتى مرت بمدينة شتاين قد صعدت بالفعل مجرى نهر الدانوب · ومنذ عهد بعيد استقر تجار ايطاليون فى راتسبون ، كما كان تجار راتسبون قد بدأوا منذ زمن مبكر يسـافرون الى البندقية · أليس من المعقول اذن الافتراض بأنهم يتلقون التوابل من البندقية ، ويحملونها الى النمسا ، منحدرين فى مجرى نهر الدانوب ؟ من المسلم به ، وبوجه عام أنه حتى مستهل القرن الثالث عشر كانت التوابل تصل من القسطنطينية الى ألمانيا عن طريق نهر الدانوب ، وأن هذه الحركة التجارية لم تبدأ فى المرور بطريق ايطاليا الا اعتبارا من استيلاء اللاتين على القسطنطينية (٩٤) · على أن هذا الفرض لا يقوم على أسس متينة بحيث لا يتسنى مناقشته ، فهو لا يأخذ فى الاعتبار الحالة التى كانت عليها فى القرن الثانى عشر تلك الشعوب غير المضيافة المحبة للقتال فى البلاد الواقعة بين الامبراطورية اليونانية والمجر · اذ كان فى مقدور الجيوش الصليبية أن تشق لهـا طريقا بقوة السلاح ، ونحن نعلم بأى ثمن يتم لها ذلك ، ولكنا لا نتصور بسهولة ثمة حركة تجارية ما تزاولها قوافل منظمة · كلا ، بل ينبغى التسليم بانه قبل حلول القرن الثالث عشر كان الايطاليون هم الوكلاء الرئيسيون الذين يتولون نقل منتجات الشرق الى ألمانيا · وحتى يتسنى لهم الصعود قليلا من القسطنطينية عن طريق البحر ، كان لابد من توافر بعض الظروف الملائمة · وعلى أية حال ، لا جدوى من البحث عن وجود علاقات مباشرة بين القسطنطينية وألمانيا : ففى تلك الآونة يتبين لنا وجود فندق فى البندقية fondaco dei Tedeschi ، فى أوج رخائها ، ونرى الايطاليين يجوبون حوض الدانوب (٩٥) ·

(٩٣) M. Hüllmann, Gesch. des buyzant. Handels, p. 100-105.

(٩٤) Falke, Gesch. des deutchen Handels, I, 65 et s., 78 et ss., 106 et ss.

(٩٥) WienerNeustadt en 1244 (Archiv für ünnde oesten. Geschichtsquellen, X, 130) ; Hormayr, wiens Gesch., I, lxxxvii ; Hüllmann, Studtewefon des Mittelalters, I, 355). et ss.

واذا كان من الفطنة مراعاة التحفظ فيما يختص بعلاقات الألمان بالقسطنطينية ، فالأمر يختلف كل الاختلاف فيما يختص بعلاقاتهم بروسيا: فالأدلة هنا متوفرة • فقبلا ، فى القرن الثانى عشر ، كان تجار راتسبون (٩٦) ، وفى القرن الثالث عشر تجار برسلاو Breslau يزورون سوق كييف (٩٧) • حقا ، كان الغرض الرئيسى من رحلتهم شراء سلع الشمال (الفراء) ، ومع ذلك ، وبلا شك كانوا يستوردون أيضا سلعا من اليونان (حرائر) ، ذلك لأن الأخيرين كان لهم ثمة مندوبون كثيرون • وفيما بعد ، حين أنشأ الايطاليون فى تانا ، وكافا مستودعات لمنتجات الشرق والشمال ، توطدت حركة تجارية ما بين هذين البلدين وبين ألمانيا •

الا أن هذه الحركة لم تكن تمر بوكالة الهانزا التجارية فى نوفجورود كما قد يبدو للبعض ، فلم تكن البضائع المرسلة الى ألمانيا تمر مرورا عابرا (ترانزيت) بهذه المدينة (٩٨) ، بل تتبع الطريق التجارى من تانا (وكافا) الى لمبرج Lemberg ، وهو نفس الطريق الذى يسلكه أحيانا السماسرة ، والعمال الأجراء ، والموظفون الاستعماريون الجنويون للوصول الى كافا ، فى حين أن الطريق البحرى كان قد أغلقه التتار (٩٩) • وفى خصوص لمبرج ، تحتوى الخريطة القطالونية المشهورة، وهى من نتاج القرن الرابع عشر على مفكرة تقول انه ياتى اليها بعض تجار الشرق ، ويواصل هؤلاء رحلتهم صوب الفلاندر عن طريق بحر البلطيق (١٠٠) • وفى هذه الآونة ، كان تجار نورمبرج يتلقون أيضا بضائع تانا عن طريق لمبرج • وفى المفكرة التى دون فيها اولمان شترومر Ulman Stromer أنسابه ومغامراته بين عامى ١٣٦٠ ، ١٤٠٧ نجد مذكرة مهمة فى موضوع التجارة تقول (١٠١) ان وحدة الوزن فى تانا هى القنطار cantar ، ويساوى فى لمبرج ٤½ ستين Stain ، ومن ثم يساوى القنطار فى موازين نورمبرج قنطارا quintal الا ٤½ رطل •

---

(٩٦) Riez'er. Gesch. V. Bryern. I. 778 et -. ; II. 200 et s.

(٩٧) Documents de 1190 et de 1192 dans l'Archiv. für Kunde oesterr. Gesch., X, 92 et ss. ; Cod. trad. S. Emmerani, dans Pez, Thes. anecd., I, 3 part., p. 173; Vita beati Mariani, Acta SS. Boll. 9 févr., p. 369 ; Jean du Plan de Carpin, éd. d'Avezac, p. 772.

(٩٨) Sartorius-Lappenberg, Gesch. des Urspr. der deutschen Han Rie enkampff. Der reutche Hof zu Nowgorod. p. 122 et ss.

(٩٩) Atti della Soc. lig., VII, 720, 723, 728 737.

(١٠٠) Carte catalane, rd. Buchon et Tastu, p. 19.

(١٠١) Chroniken der deutschen Städte : Nürnberg, I (1860). p. 103. ; Doc. de 1417, dan· Lünig's Reichsarchiv, part. spéc., 4e suite, 2 part., p. 315 ; Mon. Hung hist., Acta extra III, 314 et s., 407 et s.

ولعلنا نريد أن نعرف المحطات الوسطى فى هذا الطريق من تانا الى لمبرج ، فالغالب أنه كان طريقا بحريا فى جزء منه • فمن تانا يبحر الانسان الى اكرمان Akerman مباشرة ، ومن هناك يصل الى لمبرج عن طريق زســـــتوا Suczawa (مولدافيا) (١٠٢) • وكان القسم الأكبر من منتجات الشرق التى تدخل ألمانيا يرد أولا الى ايطاليـــا فى الأســـاطيل التجارية الايطالية ، فيأتى أحيانا تجار ألمان ليأخذوها ويعودوا بها بطريق البر ، وأحيانا يعاد تصديرها بحرا ، ومن ثم تدخل ألمانيا من شمالها بعد رحلة بحرية طويلة حول القارة • ولم تكن التجارة البرية مهمة الايطاليين ، فقلما مارسوها ، لا لأن أقدامهم لم تطأ الأرض الألمانية ، بل انهم بالعكس كانوا يجتازون جبال الألب السويسرية والتيرول • وكانت المدن التجارية على بحيرة كونستانس ، وحوض الراين ، وحوض الدانوب تستقبل تجار البندقية ، وجنوا ، وميلانو ، وفلورنسا ، بل ان بعض هؤلاء التجار كانوا يقيمون اقامة دائمة بهذه المدن (١٠٣) • غير أن هؤلاء كانوا بوجه عام زائرين عابرين ، غايتهم الفلاندر • وحين يصلون الى بال (بازل) ، ونورمبرج يهبطون الراين ، ويجتهدون الا يضيعوا من الوقت فى الطريق الا أقله (١٠٤) • ثم راح عددهم يقل شيئا فشيئا منذ أن نظمت خدمات بحرية مستمرة الى الفلاندر • وبالاجمال كان عدد التجار الايطاليين فى ألمانيا أقل من التجار الألمان فى ايطاليا • وكانت تجارة المبادلات بين البلدين تجرى باكبر قدر من النشـــــاط فى فندق Fondaco dei Tedeschi بالبندقية (١٠٥) • فقد وضعت الجمهورية تحت تصرف التجارة الألمانية ووكلائها امكنة فسيحة تضم مساكن ، وحوانيت للبضائع يستفيد منها كثيرا تجار راتسبون ، ونورمبرج ، وأولم ، وكونستانس ، الخ ، حتى تجار النمسا وأقاليم الراين ، فكان هؤلاء يحضرون معهم منتجات الصناعة

---

(١٠٢) Article publ. par M. Steph. Koczynski dans les Jahrb. für National-ökonomie und Statistik, XXXIV (1879), p. 498 et ss.; Tucker, dans le Reyssbuch des hl. Landes (1584), fol. 362, a ; Sebald Rieter, dan Roehricht et Meisner, Deutsche Philgerreisen, p. 112 et s.

(١٠٣) M. Meiller, dans l'Archiv für österr. Gesch., X, 130; Schunk Reitr-zur Mainzer Gesch., I, 73 et ss. ; Schannat, Hist. worm. dipl., p. 117 ; Hübsch, Gesch. res böhm. Handels, p. 197, 191, 221.

(١٠٤) M. Mone, dans la Zeitscher, für die Gesch. des Ob erheins. V, 20 et s., 41.

(١٠٥) Lips, 1858; Done, Der süddeutsche Handel mit Venedig, dans la Zeitschr., l.c., p. 1 et ss. ; Capitular des deutschen Hauses in Venedig, publ. par M. Thomas, Berl. 1974; Heyd, étude sur la Maison des Allemands à Venise, dans la Sybels hi t. Zeitschr., 1874.

والمناجم ، وبضائع من بلادهم ويبيعونها فى البندقية ، لتستهلك محليا ، أو تشحن فى سفن تستأجر لتبحر الى الشرق الأدنى ، وفى مقابل ذلك يشترون منتجات صناعة البندقية ، أو التوابل ، والعطور ، ومواد الصناعة ، والمنسوجات الحريرية المستوردة من الشرق فى السفن البندقية . ومن فناء الفندق المذكور يرحل الى ألمانيا عدد هائل من البالات الملأى بالسلع الشرقية . وكان تجار نورمبرج متخصصين فى تجارة التوابل بالجملة والقطاعى ، يبيعونها للبلد كله (١٠٦) . ومع ذلك لم تكن البندقية هى المكان الوحيد الميسر للزبائن الالمان ، فقد كان لجنوا نصيب طيب فى هذا المجال ، اذ كانت الميناء الذى يتعامل فيه تجار سوابيا مع اسبانيا (١٠٧) ، كما يذهب اليها تجار نورمبرج طلبا للتوابل ، والبخور ، واللآلئ ، الخ (١٠٨) . وفى عام ١٣٩٨ طلب شخص يدعى جان بريتفيلد Breitfeld من جمهورية جنوا الغاء الضرائب الباهظة ، وذلك باسم مجموعة من مدن سوابيا ، وفرانكونيا (فرانكن) ، وبافاريا ، وأقاليم أخرى ... وقد منح بسخاء كل ما طلبه (١٠٩) . وحين تولى سيجسموند Sigismond ملك هنغاريا عرش ألمانيا الأمبراطورية (١٤١٠) وكان قبلا فى نزاع مع البندقية ، فاستغل فرصة ارتقائه العرش لاشباع حقده بمهاجمتها فى مضمار التجارة . وبدأ باقناع مدن ألمانيا الشمالية بأن تلغى تجارتها مع مدينة البحيرات (البندقية) (١١٠) : ولكنه اضطر لان يكرر هذا المسعى (١٤١٥ ، ١٤١٨ ، ١٤٢٠) . ولكى يغير هذا المنفذ ، أوضح لهذه المدن طريق الشرق عبر هنغاريا (١١١) ، كما أوصاها بان تبذل مزيدا من الجهد لتوثيق صلاتها بجنوا (١١٢) . وحتى ينجح فى تحقيق أهدافه ، كلف بورجوازيا فى مدينة كونستانس أن يتفاوض لعقد اتفاق مع جمهورية جنوا ، وبذلك حصل على شروط ملائمة للتجارة الألمانية . أما الجنويون ، فانهم عرضوا على الألمان صورة مغرية لما ينتظرهم عندهم : ففيها أولا سوق مليئة ببضائع تزيد عما فى سوق منافسيهم ،

---

(١٠٦) Roth. Gesch. des Nürnberger Handels, I, 51 et ss., 105 et ss., 118 et ss. ; Baarer, Nürmberg. Handel in Mittelalter, dans le 38.

(١٠٧) Mone, Zeitschr., l.c., IV, 42 et ss. ; Würlt. Vierteljahrshefte, 1880, p. 141-151).

(١٠٨) Ulman Stromer, l.c., p. 100 et s. ; Roth, l.c., I, 111.

(١٠٩) Mone, Zeitschr., IV, 39 et s. ; Baad. l.c., p. 106 et s.

(١١٠) Deutsche Reichstagsacten, VII, 279, 308.

(١١١) Ibid. p. 365 et s.

(١١٢) Ibid. p. 359 et ss., 364, 415 et s.

بسبب أن سفنهم الضخمة تحتوى على بضائع تزيد على ما تحتويه سفن البندقية ، وفيها ثانيا رسوم أكثر اعتدالا ، وأخيرا فيها حرية فى التنقل والعمل تزيد على نظيرتها فى البندقية • كذلك ضمنوا للتجار الألمان أنهم لن يتعرضوا عندهم لاجراءات تعسفية يشكون من مثيلاتها فى البندقية ، كالاجراء الذى يقضى بحبسهم فى الفندق طوال الليل ، واجبارهم على بيع بضائعهم فى مهلة محدودة ، واستخدام ثمن البيع لشراء بضائع أخرى ، كما لا يسمح لهم ، هم ونقودهم وبضائعهم بركوب السفن التى تخرج من البندقية متجهة الى الشرق (١١٣) • كذلك وعد دوق ميلانو التجار الألمان الذين يريدون الذهاب الى جنوا لمزاولة أعمالهم التجارية أن يعاملهم أحسن معاملة من حيث رسوم العبور (الترانزيت) ذهابا وعودة (١١٤) •

أما الأمبراطور سيجمسوند فانه رأى فى هذه الاتفاقيات ضـمانا كافيا لمصالح المدن التى كانت حتى ذلك الحين على علاقات متصلة بالبندقية • ومن ثم فرض حظرا على مدينـة البندقية • ولما كان فى عزمه تنفيذ هذا الاجراء بدقة وصرامة ، فانه أقام منذ عام ١٤١٨ مراكز عسكرية فى الجبال، عند الممرات المؤدية الى البندقية ، وأذن للسكان أن يستولوا على البضائع المرسلة اليها أو العائدة منها ، وأن يقبضوا على التجار أنفسهم (١١٥) •

وفى عـــام ١٤٢٠ دعــا الى أولم « دييت » deete للمدن ، وأكد فى خطــــاب الدعـــوة (٢٠ من يناير) فائدة انقطـــــاع العلاقات مع البندقيـــة انقطـــاعا تاما ، ولم يخـل هذا النداء من نتيجة • اذ كان لمدينـــة نورمبرج تجــــــار فى البندقيـــة ، فاســـتدعتهم للعودة (٤ من مارس ١٤٢٠) (١١٦) • الا أنه بحلول الخريف ، وقد تشجعت المدينة من النتائج السلبية التى انتهى اليها الدييت ، أجرت اتصالات بسيجسموند حتى يلغى الاجراء الذى اعتبرت أنه لا يحتمل (١١٧) • وأبدت ، بين ما أبدته من علل أن الحظر لم يراعه الجميع • وكان فى الوسع الرد على هذه الحجة بأن تجار نورمبرج كانوا أول من أعطى مثلا سيئا فى ذلك ، وأن عددا كبيرا منهم ضبطوا وهم يرتكبون مخالفات ، وحكم عليهم بعقوبات (١١٨) • ويحدث أحيانا أن بعض التجار الذين توقفهم المراكز العسكرية المكلفة بحراسة الطرق ، يستخدمون القوة لمواصلة

---

(١١٣) M. Flegler, dans l'Anz. für Kunde d. d. Vorz., 1867, p. 330.

(١١٤) Les Deutsche Reichstagsacten, VII, 359-361.

(١١٥) Deutsche Reichstagsacten, II, 363 et ss.

(١١٦) Ibid. II, 415-417. ; Jäger, Gesch. Ulms, p. 802.

(١١٧) Deut che Reichstagsacten, II, 418 et s.

(١١٨) Roth, Gesch. des Nürmb. Handels, I, 112 et s.

سيرهم (١١٩) ٠ ومع ذلك تشبث سيجسموند بالحظر الذى فرضه ٠ ورغم أن هذا الحظر كان شديد الوطأة على التجارة الألمانية ، فانه جدده فى عام ١٤٢٦ (١٢٠) ، وشجع ذلك أصحاب القصور الذين راحوا ينهبون سكان المدن القريبين منهم ٠ ووقع حدث من هذا النوع فى هذه السنة ذاتها (١٢١) ، يثبت أن التوابل تشغل المرتبة الأولى بين السلع التى يشتريها تجار نورمبرج فى البندقية ٠ وعند وفاة سيجسموند ، ان لم يكن قبل ذلك ، عادت الطرق مباحة للكافة ، واستعادت البندقية عملاءها الألمان، وارتدت جنوا ثانية الى المرتبة التالية (١٢٢) ٠

وعلى ذلك ، فبالرجوع الى السؤال الذى طرحناه فى البداية ، نرى أن أول ما نفعله ، بخصوص البحث عن الطرق (١٢٣) التى تمر بها منتجات الشرق فيجتاز فريول Frioul ، وكرنثيا Carinthie ، ويتوغل حتى وسط النمسا ٠ غير أن الطريق الذى يسلكه أكبر قدر من الحركة التجارية هو الذى يجتاز أمبزو Ampezzo ، ويستمر بعد ذلك حتى ممر برنر Brenner ٠ وقبل أن يصل الى هذا الممر le Pusterthal يختلط بطريق آخر يسلكه التجار أيضا ، ويمتد عبر la Valsugana ووادى نهر اديجه l'Adige وكان الطريق الذى يمر بفيرونا وروفيردو Roverdo ، وترانتو Trente ـ والذى أصبح اليوم أشهر الطرق (فى ايطاليا) ـ لم يكن معروفا آنئذ ٠ وتتلاقى الطرق فى نقطة واحدة فتغدو طريقا واحدا يجتاز ممر برنر ويصل الى انسبروك Innsbruck، ومنها تتشعب الطرق على شكل مروحة ، فيتجه تجار راتسبون شرقا متتبعين مجرى نهر ان ، أما تجار أوجسبرج Augsbourg ، وربما أيضا نورمبرج فانهم يدخلون ثانية فى الجبال ابتداء من زيرل ، ويعبرون ممر شارنتز Scharnitz ، ويمرون بمتنفالد Mittenwald (١٢٤) وبارتنكيرشن Partenkirchen ، واوبرامرجو Oberammergau وغيرها ٠

---

(١١٩) Voy. le document LV, dans Stettan, Gesch. der Augsburger Geschlechter, p. 400 et s.

(١٢٠) Aschbach, K. Sigmund, II, 409 ; III, 408 et s., Jäger, G p. 702.

(١٢١) Baader, l.c., p. 108 et ss.

(١٢٢) For chungen zur deutschen Geschichte, XXIV, 215 et ss.) ; Le Livre des dépenses r eHans Keller (Tübing. Zeitschr. fur Staatswiss, 1881, p. 831 et ss.) ; Sanut Diar., IV, 28.

(١٢٣) Oehlmann, Die Alpenpässe in Mittelalter dans le Jahrbuch für Schweizergeschichte, 3e et 4 annre ; l'Ausland, 1882, no 24.

(١٢٤) Badded, Chronik des Markts Mittenwald, 1880.

ويصعد تجار أولم ممر فيرن Fern ويصلون الى بلدهم عن طريق فوسن Fussen ، وكمبتن Kempten . وكانت المدن التى ذكرناها ، راتسبون ، واوجسبرج ، ونورمبرج ، وأولم هى العميلات الرئيسيات لمدينة البندقية ، من جنوب المانيا ، ويربطها بعضها ببعض ممر برنر . واذا اتجهنا غربا ، نحو جبال الألب السويسرية ، نجد طرقا كثيرة كانت كلها مستعملة لعبور منتجات الشرق (١٢٥) ، ولكن بدرجة أقل من الطرق السابق ذكرها ، نذكر منها طريق سبتيمر Septimer ، وطريق سيلوجن Spliigen ، وامتدادهما على مدينة كوار Coire ، وبحيرة كونستانس ، وطريق سنت جوتارد S. Gothard الذى يؤدى الى لوسرن Lucerne ، وطرق سمبلون Simplon ومونتمورو Montemoro وسنت برنارد الكبير Grand S. Bernard وتفتح اتصالات بجنيف ، وبيرن ، وبال وما بعدها مع المدن الألمانية فى حوض الراين الأوسط .

الى هنا ، لم تشغلنا سوى الطرق البرية التى استخدمتها ايطاليا لتصب التوابل فى المانيا . ولكن سبق لنا القول بأن منتجات الشرق تدخل المانيا أيضا بطريق بحر الشمال ، فكانت سفن البندقية وجنوا تحملها الى أسواق بروج ، وأنفرس التى يتردد عليها التجار الألمان الآتى معظمهم من المدن الهنزية الكبرى بشمال المانيا . وتنبئنا التعريفات الجمركية ، ورسوم السمسرة التى تطبق عليهم فى بروج ، وسائر مدن الأراضى المنخفضة (١٢٦) أنهم يشترون فيما يشترونه منتجات الشرق التى يستوردها الايطاليون (١٢٧) . وباختصار ، يمكن أن نقسم المانيا من حيث سلع الشرق الأدنى الى منطقتين : منطقة شمالية ، تمونها مدن الهانز ، وأخرى جنوبية ، تمونها المدن التجارية فى بافاريا ، وسوابيا ، وفى انكونيا ، وحوض الراين الأوسط . ولما كانت المنطقتان تتصلان احداهما بالأخرى فى الوسط ، فانه يمكن التأكيد بان كل أنحاء البلد تتلقى نصيبها من سلع الشرق الأدنى . وفى أواخر العصور الوسطى ، شرعت بعض البيوت التجارية الألمانية فى توثيق علاقاتها المباشرة بالهند ، ومن ثم أبدت اهتمامها بالبعثات البرتغالية . ولكن معظمها استمر يستورد الفلفل وسائر التوابل

---

(١٢٥) Archiv. für schWeizerische Geschichte, XVIII, 227; XX, 143, 162 ; Mémoires et documents de la Suisse romande, XXX, 204 et ss. ; cf. 414 et ss.

(١٢٦) Sartoriu Lappenberg, Urkundliche Gesch. des Ursprungs der deutschen Hansa, I, 271 ; II, 80-90, 468-471.

(١٢٧) M. Th. Hirsch, Danzigs Handels — und Gewerbe — Geschichte, p. 124.

عن طريق الأراضى المنخفضة ، مع فارق يتمثل فى أنها لم تكن توجه طلباتها الى الايطاليين ، ولكن توجهها الى البرتغاليين .

اســــكندناوة ، وروســيا

لم يتردد الايطاليون مطلقا على منطقة بحر البلطيق ، فقد تركوها لمدن اتحاد الهانز ، فكان هذا الاتحاد هو الذى يأخذ منتجات الشرق من أسواق الأراضى المنخفضة ويوزعها على اسكندناوة وروسيا ، فكان تنظيم وكالاته فى مدن شمال أوروبا يتيح له كل التسهيلات فى هذا المجال (١٢٨). وكان فى مقدور الروس أن يحصلوا على هذه السلع من طريق آخر ، بتنظيم تجارة مباشرة مع تانا وكافا ، الا أن التتار كانوا يحتلون شريطا طويلا من الأرض بينهم وبين منطقة البحر الأسود . ولما كان الشعبان فى حرب متصلة بينهما ، كانت امبراطورية التتار تشكل حاجزا يتعذر تخطيه. أما بخصوص أهالى اسكندناوة ، فقد سبق أن رأينا أنهم كانوا فى قديم الزمان يجتازون روسيا كلها ليذهبوا الى القسطنطينية ، وكان توسع التتار يحول بينهم وبين المضى فى طريقهم ، مثلما كان الأمر مع الروس . ثم ان ظهور احدى سفنهم التجارية فى مياه بلاد الروم ، أو سوريا ، أو مصر كان دائما حدثا غير عادى . أما المراسيم البابوية التى تحظر العلاقات التجارية مع المسلمين ، والتى نشرت فى بلادهم ، كما نشرت فى سائر أنحاء أوروبا ، فانهـــا لم تراع فى أى مكـــان كما روعيت فى البـــلاد الاسكندناوية .

---

(١٢٨) Sartorius Lappenberg, l.c., I, 190, not. 3, 211. ; Hirsch, l.c., p. 152 et s., 165.

الفهـــــرس

الموضـوع — الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
المصـــطكى	١٣٨
الموميـا	١٣٩
المسـك	١٤١
الاهليـلج	١٤٥
جوزة العفص	١٤٩
جوزة الطيب ، والبسباسة	١٤٩
الـلآلىء	١٥٤
الأحجار الكريمـة	١٥٨
الفلفل (الاسود والابيض)	١٦٩
الفلفل الطويل (الفليفلة ، الفلفل الأحمر)	١٧٢
الراوند	١٧٣
الزعفـران	١٧٦
السـقمونية	١٧٨
الحرير الخام	١٧٩
التوتياء	١٨٤
الجدوار	١٨٥
ثالثا : المنتجـات المصـنوعة ، الخيوط الذهبية والفضية	١٨٧
البورسلين (الخـزف الصينى)	١٨٨
السـكر	١٩١
المنسـوجات	٢٠٤
★ الملحق رقم ٢ عملاء تجارة الشرق الأدنى	٢٢٥
فرنســـا	٢٢٦
الأراضى المنخفضة	٢٣٢
اسبانيا والبرتغـال	٢٣٨
انجلتـــرا	٢٣٩
المانيـا	٢٤١
اسكنـــدناوة ، وروسيا	٢٥٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٠٧٧ / ١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3764 — 2

عمل موسوعى موثق ومؤصل فى تاريخ الحضارة خلال حقبة من تاريخنا، وهى الحقبة التى تخللتها الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلادى.

ويضم الكتاب بحوثا موثقة عن العلاقات الرسمية وغير الرسمية بين دول البحر المتوسط ـ على شاطئيه الإسلامى والمسيحى ـ شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة والسياسة والثقافة والاجتماع.

ويُعد هذا الكتاب أثرا من آثار المعرفة والتحقيق المنهجي الحديث للتراث الثقافى، بجانب قيمته التاريخية والحضارية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٩٠ قرشا